

أَحَادِيثُ

فِي الدِّينِ وَالثَّقَافَةِ وَالاجْتِمَاعِ

جميع حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع



لبنان - بيروت - بصر العبد - قرب مركز التعاون الإسلامي - بناية حطيط
هاتف : 0096 1 3514905 - تليفاكس : 00961 1 5531119

دار الواحة للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - شارع الحمراء - ص ب: ١١٣/٥٢٢٧

حسن موسى الصفار

رَحَادِيثُ

في الدين والثقافة والاجتماع

الجزء الثالث

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ
وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ
عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

سورة النحل، آية ١٢٥

الحمد لله رب العالمين اللهم صل
على محمد خاتم النبيين وتمام
عدة المرسلين وعلى آله الطيبين
الطاهرين، وأصحابه المنتجبين

تقديم

بقلم: السيد إبراهيم بن علي الوزير*

الحمد لله الذي اصطفى من الملائكة رسلاً، ومن البشر آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلقه وخاتم أنبيائه ورسله، سيدنا محمد المصطفى، الذي اختصه الله بالتكريم والتشريف، فجعله خاتماً للرسالات السماوية، وهادياً ورحمة للعالمين، وعلى آله الطاهرين القائل فيهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ وعلى صحابته الراشدين، الذين وصفهم الحق سبحانه وتعالى في محكم كتابه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد:

لقد بلغت الرسائل السماوية كمالها في (الرسالة الخاتمة)،

* مفكر إسلامي بارز وقائد حركة إسلامية في اليمن، له مؤلفات كثيرة في الثقافة الإسلامية والعمل السياسي.

و(الكتاب المهيمن)، يوم بلغت البشرية رشدها، وتقاربت زماناً ومكاناً.. وهذه الشريعة الهادية تضع أمام الاختيار الحر للإنسان معالم المنهج لحياته، وهدى الله له في معيشتة، ومختلف ما تقتضيه حياته من المهد إلى اللحد.

وكمال الأمم في (الذروة) هو أن تجمع في (فقهها) وتطبيقاتها بين السنن الكونية الماضية على الكون، وما فيه ومن فيه، والسنن التشريعية الهادية الموضوعة أمام الاختيار الحر للإنسان، والتي على أساسها تكون الحياة الطيبة المطمئنة، للفرد والجماعة على هذه الأرض، والسعادة الأبدية في الدار الآخرة.

وهذه (كلمات الجمعة) التي يتناول فيها سماحة العلامة الشيخ حسن بن موسى الصفار بعضاً من قضايا الأمة وهمومها، مستخدماً في تناوله ومعالجاته أسلوباً علمياً مستنيراً، يركز على منهج الوحي.. المنهج الإلهي.. الذي جاء به من أرسله الله رحمة للعالمين، متأسيماً به كما أمر المولى عز وجل في كتابه العزيز: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ وبالتابعين له من آل بيته الكرام، وصحابته الذين اقتفوا بأثره.

وتأتي أهمية هذه الكلمات، كونها تطرح معالجات لبعض جوانب ووجوه القصور والانحرافات التي تعاني منها الأمة، على مستوى الفرد والمجتمع.

والأمة وفي الوقت الذي تمر فيه بمنعطف خطير في تاريخها، بعد أن لاقت في القرن الماضي، وبداية القرن الحالي، من صنوف التفتت والفرقة والانقسام، والتخبط في الانحرافات، التي تستر عليها علماء بحسن نية أحياناً (مثال هؤلاء: العلماء المغفلون)، وبسوء نية

أحياناً كثيرة (مثال هؤلاء: العلماء المتعيشون)، بل إن هؤلاء العلماء قد أضفوا ثوب القداسة على هذه الانحرافات وفتنها المظلمة، كذلك الذين أصيبوا بمشكلة الحرفية والسطحية في الفهم، والذين يريدون أن يفرضوا حرفيتهم وضيق آفاقهم على ميادين الفهم عند ذوي الألباب.. هؤلاء إذا بحثوا عن أدواء الأمة فعن الظواهر يبحثون، لا عن الأسباب الباعثة للأمراض المتفشية في المجتمع.. ولم يعوا أن الإسلام: قوة في غير كبر، ورفق في غير ضعف، وبشاشة في وجه أخيك.. لا تماوت ولا تظاهر بالخشوع رياء الناس، ولا تجهم في وجوههم، ولا أمر بمعروف ولا نهى عن منكر إلا بعلم، وإلا في قطعي أو مجمع عليه، لا في مسائل خلافية، ولم يفقهوا قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

ففي غمار جهل الأمة وغفلتها، وإعراضها عن الحقائق القائمة على العقل والعلم، لم تستفق من مهانتها بالاستعمار، وهي تظن أنها مشرفة على الحرية والاستقلال، إلا لتمضي في غباء في الخطوط المرسومة لها من قبل أعدائها.. حتى تكرر مفهوم القطرية، وغاب عنها نهائياً في كل أجزائها الممزقة قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وغاب عنها قول رسول الرحمة محمد ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر».

وها هي الساحة العربية والإسلامية تتعرض لمشروع إبادة وتمزيق للأجزاء، التي مزقها أصلاً غياب الشورى والديموقراطية، وحرية مشيئة الإنسان وحقوقه وكرامته، عندما استولت الدبابة والمصفحة وآلات التعذيب، فاغتصبت معنى كلمة (دولة) في الأجزاء الممزقة، وبذلك جعلت من الاتحاد هدفاً مستحيلاً بين أمة يجمع بينها كل ما يوحدتها،

وهي ترى وتشهد وحدة قارات مختلفة القوميات والأعراق والمعتقدات واللغات.

ونظرة إلى تطورات الأحداث المأساوية الراهنة، التي يتعرض لها أبناء الأمة في فلسطين، الأرض المباركة، ومسرى خاتم الرسل ﷺ، من قبل الصهاينة المعتدين، وردة فعل الأمة تجاه تلك الاعتداءات، التي يقترب فيها أبشع الجرائم، من قتل للأطفال والنساء والشيوخ، وهدم للمنازل على رؤوس ساكنيها، وتجريف للحقول والمزروعات، وتخريب للمدارس والمستشفيات، وكل ما ينبض بالحياة، نجد الأمة تتفرج لا تحرك ساكناً، مصابة بالذل والهوان، متناسية الشرط الإلهي الموضوعي للنصر، الذي أكد عليه المولى سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

هذا الذل والانهيار حدد أسبابه رسول الله ﷺ، منذراً ومنبهاً لتتداركه الأمة في أي وقت تفيق من غيوبتها واستسلامها: «لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، أولها نقضاً للحكم وآخرها نقضاً للصلاة» إن نقض (عروة الحكم) هو افتراق الكتاب والسلطان.. فالكتاب أسس السلطان على الشورى في الأمر، ولكن السلطان أقام سلطته على كسروية وقيصرية. فعلى الشعوب أن تمارس شجاعته وتتنبه إلى نذير رسول الله ﷺ: «كلا والله، كلا والله، لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه إلى الحق أطراً، ولتقصرنه إلى الحق قصراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ويلعنكم كما لعنهم» والأطر: هو الرباط والعقد، والقصر هو: اتخاذ ما يضمن من الوسائل أن يفرط مستبد على الأمة أو يطغى.

ولكي تعود الأمة إلى عزتها وقوتها يجب عليها إقامة:

الشورى في الأمر: فلا يستبد فرد ولا يطغى، وتفقه الأمة أن الشورى مثل للاستجابة لله، ومثل الصلاة علامة على المسلم المؤمن، وشعيرة من شعائر الحياة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾.

العدل في المال: فلا يكون دولة بين الأغنياء: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾.

الخير في الأرض: تجدداً دائماً وتحسناً مستمراً: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

التعاون على البر والتقوى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّوَدُّانِ﴾....

وسماحة العلامة المصلح الشيخ الصفار دائماً خطبه ومواعظه تدعوا إلى الله بالحسنى، وتشرح منهج الوحي، وتعاليم من أرسله الله رحمة للعالمين، لجمهوره ولعامّة المسلمين والإنسانية في كل مكان، هادفة لخروج البشرية من الظلمات إلى النور، مبيّنة لهم الحقيقة الكونية:

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، وأن هذا المنهج قائم على بيان الرحمة المهداة للعالم «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا». فجزاه الله خيراً عن أمته وكل من سمع أو اطلع على كلماته الجمعة المستنيرة في ضوء القرآن وبيانات الرسول ﷺ.

ها أنا أقدمها إلى إخوانه المسلمين في كل مكان وآمل أن تترجم

إلى اللغات الأخرى، وأسأل الله أن يطيل في عمره ويبارك في دعوته إلى الله.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

إبراهيم بن علي الوزير

٥ ربيع الثاني ١٤٢٣ هـ

الموافق ١٥ يونية ٢٠٠٢ م

أول الحديث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله
الطاهرين.

يتوفر الخطاب الإسلامي المعاصر في معظمه على لونين من
الاهتمامات:

الاهتمام التقليدي المتمثل في عرض المعتقدات والأحكام
والأخلاقيات، والاهتمام الجهادي الذي يعبئ باتجاه مقاومة الأعداء
الخارجيين والداخليين، ودفع أبناء الأمة للبراءة منهم ومواجهتهم.
وقد تشكلت لكل من الاتجاهين ثقافة واسعة، مليئة بالاستشهادات
من نصوص الكتاب والسنة، وأقوال السلف، وبالمصطلحات العلمية
والفكرية، وبالشواهد التاريخية، والخبرات والتجارب المستجدة.

ولكل من الاتجاهين قنوات تواصل مع الجمهور عبر الوسائل
المسموعة والمطبوعة، وبلاستفادة من تطورات التكنولوجيا الحديثة
في مجال الإعلام والاتصالات.

بالتأكيد فإن هذين الاتجاهين نابعان من صميم المعرفة والتشريع
الإسلامي، ولا يمكن الاستغناء عنهما ولا تجاهلهما في حياة الأمة.
بيد أن هناك اهتماماً آخر يبدو أنه مغيب أو مهمش في الخطاب الديني

المعاصر، مع شدة الحاجة إليه، وهو الاهتمام بجانب التنمية والبناء. فمجتمعاتنا الإسلامية تواجه تحديات عميقة على صعيد تسيير أمور حياتها، وحفظ مصالحها، وانتظام علاقاتها الداخلية والخارجية، وتحتاج إلى الكثير من المعارف والخطط والبرامج لمواجهة هذه التحديات.

إن توفر العقيدة الصحيحة، وأداء العبادة الشرعية المطلوبة، والبراءة من أعداء الله، كل ذلك وحده لا يحقق مقاصد الشريعة، في إقامة العدل والقسط، الذي نصت عليه الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(١)، وفي بناء الحياة الطيبة التي تحدثت عنها الآية الكريمة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾^(٢)، وفي تقديم النموذج الحضاري الأفضل للمجتمعات البشرية، الذي تشير إليه أكثر من آية في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤).

إن هذه المقاصد والأهداف وأمثالها لا تتحقق إلا عبر برامج ومناهج لتنظيم مختلف شؤون الحياة. وحينما لا تتوفر هذه المناهج في إطار عقيدة الأمة وشريعتها، فإن البديل هو الاستعارة من حضارات الآخرين، والتخلف والجمود.

وهذا هو بالضبط ما تعانیه أكثر مجتمعاتنا الإسلامية، وأول خطوة في تجاوز هذه المعاناة، هي الاجتهاد في بلورة برامج الإسلام ومناهجه، لصياغة حياة المجتمع، وبناء علاقاته الداخلية، وتحفيز قدرات أبنائه

(١) سورة الحديد، آية ٢٥.

(٢) سورة النحل، آية ٩٧.

(٣) سورة آل عمران، آية ١١٠.

(٤) سورة آل عمران، آية ١٣٩.

على الفاعلية والإنتاج، ورسم خطط التنمية في أبعاد الحياة المختلفة. وهذه الأحاديث المتواضعة التي يقدمها هذا الكتاب للقارئ الكريم، هي في معظمها محاولات لإثارة الاهتمام بهذا الجانب، جانب التنمية والبناء، وطرح بعض الأفكار والتصورات المساعدة على النهوض بالمجتمع، ودفع مسيرته نحو التقدم والرقي.

كان منبر الجمعة خلال عام ١٤٢٢هـ، هو إطار عرض هذه الأحاديث، والتي كنت أكتبها بعد الإلقاء، لتتشر عبر موقعي على الإنترنت، وليتم تداولها بين أبناء المجتمع، بفضل جهود الأخوة الأعضاء العاملين معي في مكتبي، جزاهم الله خير الجزاء، وأثابهم على جهودهم الطيبة.

وكما في الجزأين السابقين تمت إضافة بعض المقالات والمقابلات الصحفية، التي نشرت خلال نفس العام.

أسأل الله تعالى أن يتقبل هذا الجهد المتواضع، وأن يتفضل علينا جميعاً بتوفيقه ورحمته ورضاه. والحمد لله رب العالمين.

حسن الصفار

القطف ٢٢ / ١ / ١٤٢٤هـ

٢٥ / ٣ / ٢٠٠٣م

السلام الاجتماعي ضرورة للاستقرار والتنمية

كلمة الجمعة بتاريخ ٣ صفر ١٤٢٢هـ

السلم كلمة واضحة المعنى، تعبر عن ميل فطري في أعماق كل إنسان، وتحكي رغبة جامحة في أوساط كل مجتمع سوي، وتشكل غاية وهدفاً نبيلاً لجميع الأمم والشعوب.

والسلم من السلام وأصله السلامة أي البراءة والعافية والنجاة من العيوب والآفات والأخطار.

ويطلق السلم بلغاته الثلاث السَّلم والسَّلم والسَّلم على ما يقابل حالتها الحرب والصراع.

قال ابن منظور: السَّلم والسَّلم: الصلح. وتسالما: تصالحو، والخيل إذا تسالمت تسائرت لا تهيج بعضها بعضاً.

والتسالمة: التصالح. والمسالمة: المصالحة. وحكي السَّلم السَّلم: الاستسلام، وضد الحرب^(١).

وكمثال على إطلاق السلم كحالة مقابلة للحرب والقتال يمكن الاستشهاد بقول عباس بن مرداس:

السَّلمُ تأخذُ منها ما رَضِيتَ به والحربُ تكفيكَ من أنفاسِها جُزَعُ

وتقول العرب: أسلم أم حرب، أي أنت مسالم أم محارب.

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ٣ ص ١٩١-١٩٢، طبعة دار الجيل ودار لسان العرب ١٩٨٨ م.

قد يكون الحديث عن السلم أو الحرب على صعيد علاقة المجتمع بمجتمعات أخرى. أو يكون على مستوى الوضع الداخلي للمجتمع والعلاقات القائمة بين أجزائه وفئاته.

فهناك مجتمع يعيش حالة احتراب وصراع داخلي، ومجتمع تسوده أجواء الوئام والانسجام والوفاق.

وحدثنا عن السلم الاجتماعي نقصد به حالة السلم والوئام داخل المجتمع نفسه وفي العلاقة بين شرائحه وقواه.

إن من أهم المقاييس الأساسية لتقويم أي مجتمع، هو تشخيص حالة العلاقات الداخلية فيه، فسلامتها علامة على صحة المجتمع وإمكانية نهوضه، بينما اهتراؤها دلالة سوء وتخلف.

يقول الأستاذ مالك بن نبي:

نستطيع أن نقرر أن شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده. ومن أجل ذلك كان أول عمل قام به المجتمع الإسلامي هو الميثاق الذي يربط بين الأنصار والمهاجرين.

ثم يشير ابن نبي إلى أنه كما كانت العلاقات الداخلية السلمية هي نقطة الانطلاق في تاريخ المسلمين، فإن تدهورها كان مؤشر السقوط والانحطاط: «لقد كان المجتمع الإسلامي إبان أفوله غنياً، ولكن شبكة علاقاته الاجتماعية قد تمزقت».

وهكذا ظل الأمر دائماً، فإذا تطور مجتمع ما على أية صورة، فإن هذا التطور مسجل كماً وكيفاً في شبكة علاقاته.. وعندما يرتخي التوتر في خيوط الشبكة، فتصبح عاجزة عن القيام بالنشاط المشترك بصورة فعالة، فذلك أمانة على أن المجتمع مريض، وإنه ماض إلى نهايته.

أما إذا تفككت الشبكة نهائياً، فذلك إيذان بهلاك المجتمع. وحينئذ لا يبقى منه غير ذكرى مدفونة في كتب التاريخ. وقد تحين هذه النهاية والمجتمع مُتخَم بالأشخاص و الأفكار والأشياء. كما كانت حال المجتمع الإسلامي في الشرق، في نهاية العصر العباسي، وفي المغرب في نهاية عصر الموحّدين^(١).

الأمن والتقدم:

إن تحقّق السلم الاجتماعي عامل أساسي لتوفير الأمن والاستقرار في المجتمع، وإذا ما فُقدت حالة السلم والوئام الداخليين أو ضعفت، فإن النتيجة الطبيعية لذلك هي تدهور الأمن وزعزعة الاستقرار، حيث تسود حالة الخصام والاحتراب، فيسعى كل طرف لإيقاع أكبر قدر من الأذى والضرر بالطرف الآخر، وتضيع عندها الحدود، وتُنتهك الحرّمات، وتدمّر المصالح العامة، حينها تشعر كل جهة بأنها مهدّدة في وجودها ومصالحها، فتندفع باتجاه البطش والانتقام وإحراز أكبر مساحة ممكنة من السيطرة والغلبة.

وينطبق على هذه الحالة ما رُوي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: «من بالغ في الخصومة أثم ومن قصّر فيها ظلم، ولا يستطيع أن يتقي الله من خصم»^(٢).

وفي رحاب السلم الاجتماعي يمكن تحقيق التنمية والتقدم، حيث يتجه الناس صوب البناء والإنتاج، وتتركز الاهتمامات نحو المصالح المشتركة، وتتعاقد الجهود والقدرات في خدمة المجتمع والوطن،

(١) بن نبي: مالك، ميلاد مجتمع، ص ٢٥-٣٩ دار الإنشاء- طرابلس، الطبعة الثانية ١٩٧٤ م.
 (٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة- قصار الحكم ٢٩٨، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ- ١٩٦٧ م، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان.

على عكس ما يحصل في حالة الخصام والاحتراب، من انشغال كل طرف بالآخر، وتغليب المصالح الخاصة والفئوية على المصلحة العامة والمشاركة. وفي مثل هذا الوضع لا تستحيل فقط التنمية والتقدم، بل يصعب الحفاظ على القدر الموجود والقائم، فيتداعى بناء المجتمع، وينهار كيان الوطن، وتضيع مصالح الدين والأمة.

وأماننا بعض الأمثلة القريبة المعاصرة كلبنان وأفغانستان والجزائر والصومال.

ففي الجزائر وهي بلد يتمتع بثروة نفطية ولشعبها تاريخ إسلامي نضالي مشرق ضد الاستعمار الفرنسي في العصر الحديث، بلغت حصيلة العنف إلى ما قبل تطورات هذا العام ١٥٠ ألف قتيل حسب ما أثبتته النقيب والمظلي السابق في الجيش الجزائري حبيب سويدية في كتابه الذي صدر أخيراً بعنوان (الحرب القذرة)، عدا عن التدمير العنيف في بنية المجتمع الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية. وقدّرت دراسة رسمية جزائرية في عام ١٩٩٨م الخسائر الناجمة عن أعمال العنف خلال السنوات الماضية بأكثر من ١٦ بليون دولار. وأوضحت الدراسة التي وضعها (الاتحاد العام للعمال الجزائريين) أن أعمال التدمير شملت منشآت اقتصادية ومؤسسات تعليمية ووحدات إنتاج ووسائل نقل ومراكز اتصالات سلكية ولاسلكية، بالإضافة إلى حرق ١٥٠٠ شاحنة و٣٥٠ باصاً و٨٠ باصاً صغيراً و٧٠٠ سيارة، وتحطيم ٥٥٠ آلية أشغال عمومية و٢٢ قطاراً و٢٣١ قاطرة. وعلى صعيد المؤسسات التربوية قدرت الدراسة عدد الفصول التي أحرقت بـ ٩٣٠ في مدارس مختلفة، وثمانية معاهد للبحوث و١٠٢٠ مركزاً إدارياً و١٦ مركزاً للتدريب المهني و٣ مراكز جامعية، بالإضافة إلى آلاف المنازل. وفي القطاع الاقتصادي كشفت الدراسة أن ٦٣٠ منشأة ومؤسسة عمومية

تعرّضت لتدمير كلي أو جزئي بما فيها مباني الخدمات العامة خصوصاً الأسواق التجارية ومكاتب البلديات^(١).

وفي أفغانستان تركت الحرب بين الفصائل المتصارعة نحو نصف مليون قتيل كما أجهزت على ما تبقى من البنية التحتية لأفغانستان.

وفي الصومال أدّت عمليات الاقتتال بين الميليشيات المتحاربة إلى مقتل أكثر من مئة ألف إنسان وإلى إصابة الحياة بالشلل وإلى تهجير الآلاف من المدنيين وتشريدهم، معظمهم من النساء والأطفال.

لقد تحولت الصومال إلى محرقة للبشر، وجرى تدمير المدن ومظاهر الحياة المدنية بصورة منتظمة، ويقدر أن أكثر من نصف مليون شخص قد ماتوا نتيجة الجوع أو انهيار الخدمات الصحية، وبعد أن كان نصيب الفرد من الناتج القومي في الصومال يصل إلى ٢٩٠ دولاراً في النصف الثاني من الثمانينيات، انحدر في سنوات الحرب إلى ٣٦ دولاراً فقط، حسب تقدير منظمات دولية.

وفي لبنان أودت الحرب الأهلية التي استعرا أوارها سنة ١٩٧٦م واستمرت أكثر من ١٣ سنة إلى مقتل ٣٥٠ ألف إنسان وإلى تشريد ٧٥٠ ألفاً، وإصابة ١٢٠ ألفاً بإعاقات مختلفة، وتسببت بفقد نحو ٣٠ ألفاً.

ونلاحظ اختلاف الأوضاع والظروف في البلدان التي ابتليت بفقدان السلم الاجتماعي والوقوع في فخ الاحتراب والتناحر. فهناك بلد فقير وآخر غني، وبلد آسيوي وآخر أفريقي، وبلد تنوع فيه الأعراق، وآخر ينتمي مواطنوه إلى عرق واحد وقومية واحدة، وبلد تتعدد فيه الأديان والمذاهب وآخر يسوده دين واحد ومذهب واحد... وهكذا، مما يعني أن الخطر قد يدهم أي مجتمع لا يمتلك المناعة الكافية، ولا يتسلح بقوة

(١) الحياة، جريدة يومية، العدد ١٢٧٣٥ بتاريخ ١٣ يناير ١٩٩٨ - ١٥ رمضان ١٤١٨هـ.

السلم الاجتماعي المتين.

الرؤية الإسلامية :

جاء الإسلام دعوة للسلم والسلام على مستوى العالم أجمع
والبشرية جمعاء ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾^(١).

وقد تكرر الحديث عن السلم والسلام في أكثر من خمسين آية
في القرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ
السَّلَامِ﴾^(٢).

ويقرر القرآن الكريم أن المبدأ الأساس في العلاقات بين البشر
هو مبدأ السلم والتعاون. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ
مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ
أَتْقَاكُمْ﴾^(٣).

كما يوجّه الإسلام الأمة المسلمة إلى إنشاء العلاقات السلمية
القائمة على البر والقسط والإحسان مع الأمم الأخرى.

أما المواجهة فهي محصورة في حدود من يمارس العدوان ضد
الإسلام والمسلمين، أو يمنع حركة الدعوة إلى الله تعالى، يقول تعالى:
﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُعْتَدِينَ﴾^(٤).

ويقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ
وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

(١) سورة يونس الآية ٢٥.

(٢) سورة المائدة الآية ١٦.

(٣) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٠.

الْمُقْسِطِينَ ﴿١﴾.

وحتى لو نشبت الحرب والمعركة مع المعادين المعتدين، فإن الإسلام يشجع على اغتنام أي فرصة لإيقاف الحرب والقتال إذا ما أظهر الطرف الآخر إرادته في التراجع عن عدوانه والرغبة في إقامة علاقات سلمية. يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ (٢).

ويقول تعالى: ﴿فَإِنْ اعْتَزَلُواكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلْمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (٣).

ويقول الإمام علي عليه السلام في عهده لمالك الأشر: «ولا تدفعن صلحاً دعاك إليه عدوك ولله فيه رضا، فإن في الصلح دعةً لجنودك، وراحةً من همومك، وأمناً لبلادك» (٤).

السلم الداخلي:

إذا كانت هذه دعوة الإسلام على المستوى العالمي وفي العلاقة بين الأمة وسواها، فمن الطبيعي أن تكون أكثر تأكيداً وإلحاحاً على الصعيد الداخلي.

لذلك تناولت العديد من آيات القرآن الكريم وتشريعات الإسلام قضية الوحدة والوئام والسلم ضمن الكيان الإسلامي.

(١) سورة الممتحنة الآية ٨.

(٢) سورة الأنفال الآية ٦١.

(٣) سورة النساء الآية ٩٠.

(٤) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كتاب ٥٣، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(١).
 ويقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(٢).

وفي إشارة واضحة إلى الآثار التدميرية للنزاع الداخلي يقول
 تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣).

فنتيجة النزاع الفشل وانهيار القوة.

أما الآية الكريمة رقم ٢٠٨ من (سورة البقرة)، فهي أمر واضح
 ودعوة صريحة للالتزام بالسلم الاجتماعي، وتقرير له كشعار للمجتمع،
 وتحذير من الانزلاق عن مساره. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ
 مُبِينٌ﴾^(٤).

ورغم أن أكثر المفسرين قالوا بأن المقصود من السلم في الآية
 الكريمة هو الإسلام والطاعة لله، إلا أن بعض المفسرين رجَّح أن يكون
 المقصود هو السلم بمعناه اللغوي أي الصلح والمسالمة وترك النزاع
 والاحتراب داخل المجتمع. وهو الرأي الراجح بالفعل.

ونقتطف من كلام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسير التحرير
 والتنوير، حول هذه الآية الكريمة الفقرات التالية:

(١) سورة الأنبياء الآية ٩٢.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٠٣.

(٣) سورة الأنفال الآية ٤٦.

(٤) سورة البقرة الآية ٢٠٨.

حقيقة السلم الصلح وترك الحرب.

وقالوا يُطَلَقُ السِّلْمُ بِلِغَاتِهِ الثَّلَاثِ (السَّلْمُ، السَّلْمُ، السَّلْمُ) عَلَى دِينِ
الإِسْلَامِ، وَنُسِبَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ وَمَجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَأَنْشَدُوا قَوْلَ امْرِئِ
الْقَيْسِ بْنِ عَبَّاسِ الْكَنْدِيِّ فِي قَضِيَّةِ رَدِّ قَوْمِهِ:

دَعَوْتُ عَشِيرَتِي لِلسَّلْمِ لَمَّا رَأَيْتَهُمْ تَوَلَّوْا مَدْبِرِينَ
فَلَسْتُ مَبْدَلًا بِاللَّهِ رَبًّا وَلَا مَسْتَبَدَلًا بِالسَّلْمِ دِينًا

وهذا الإِطْلَاقُ انْفِرَدَ بِذِكْرِهِ أَصْحَابُ التَّفْسِيرِ وَلَمْ يَذْكُرْهُ الرَّاعِبُ
فِي مَفْرَدَاتِ الْقُرْآنِ وَلَا الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْأَسَاسِ وَصَاحِبُ لِسَانِ الْعَرَبِ.
وَذَكَرَهُ الْقَامُوسُ تَبَعًا لِلْمَفْسَرِينَ، وَذَكَرَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي الْكَشَافِ حِكَايَةً
قَوْلَ فِي تَفْسِيرِ السَّلْمِ هُنَا فَهُوَ إِطْلَاقٌ غَيْرُ مَوْثُوقٍ بِثَوْتِهِ، وَبَيْتُ الْكَنْدِيِّ
يَحْتَمِلُ مَعْنَى الْمَسَالِمَةِ أَيْ الْمَسَالِمَةِ لِلْمُسْلِمِينَ وَيَكُونُ قَوْلُهُ (دِينًا) بِمَعْنَى
الْعَادَةِ الْمُلَازِمَةِ كَمَا قَالَ الْمُثَقَّبُ الْعَبْدِيُّ يَذْكُرُ نَاقَتَهُ:

تَقُولُ إِذَا دَرَأَتْ لَهَا وَضِيئِي أَهَذَا دِينَهُ أَبَدًا وَدِينِي

وَالْوَضِيئُ: بَطَانٌ مَنْسُوجٌ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ يُشَدُّ بِهِ الرَّحْلُ عَلَى
الْبَعِيرِ، أَرَادَ أَنَّهُ سَرِيعُ الْحَرَكَةِ.

فَكُونُ السَّلْمِ مِنْ أَسْمَاءِ الصَّلْحِ لَا خِلَافَ فِيهِ بَيْنَ أُمَّةِ اللُّغَةِ فَهُوَ
مَرَادٌ مِنَ الْآيَةِ لَا مُحَالَةً. وَكَوْنُهُ يُطَلَقُ عَلَى الْإِسْلَامِ إِذَا صَحَّ ذَلِكَ جَازٌ أَنْ
يَكُونَ مَرَادًا أَيْضًا وَيَكُونُ مِنْ اسْتِعْمَالِ الْمَشْتَرِكِ فِي مَعْنِيهِ.

وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَادُ مِنَ السَّلْمِ هُنَا الْمَعْنَى الْحَقِيقِي وَيُرَادُ السَّلْمُ
بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، يَأْمُرُهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَنْ اتَّصَفُوا بِالْإِيمَانِ بِأَلَّا يَكُونُوا
بَعْضُهُمْ حَرْبًا لِبَعْضٍ كَمَا كَانُوا عَلَيْهِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ^(١).

(١) ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير ج ٢ ص ٢٧٥-٢٧٦، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م
مؤسسة التاريخ - بيروت..

وممن رجع هذا الرأي الشيخ محمد جواد مغنّية من علماء الإمامية.

قال في التفسير الكاشف: قيل المراد بالسلم هنا الإسلام، وقيل: معنى السلم الصلح، والمعنى اذْخُلُوا فِي الصلح جميعاً. والذي نراه أن الله سبحانه وتعالى أمر من يؤمن به إيماناً صحيحاً أن يدخل فيما فيه سلامته في الدنيا والآخرة. وطريق السلامة معلوم لدى الجميع، وهو التعاون والتآلف، وترك الحروب والخصام. ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ بعد قوله بلا فاصل: ﴿اَدْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً﴾، حيث اعتبر الله سبحانه خطوات الشيطان الطريق المضاد للسلم. ووضع الإنسان أمام أمرين لا ثالث لهما: إما الدخول في السلم، وإما إتباع خطوات الشيطان التي هي عين الشقاق والنزاع والشر والفساد^(١).

وأخيراً، فإن صفاء أجواء المجتمع من العداوات والصراعات، يجعله مهياً للتعاون والانطلاق، ويحفظ قوته من الهدر والضياع، لذلك كان من الطبيعي أن تسعى القوى المناوئة لأي مجتمع من أجل تمزيق وحدته وإثارة العداوات بين فئاته، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾^(٢).

(١) مغنّية: محمد جواد، الكاشف ج ١ ص ٣١١.

(٢) سورة المائدة الآية ٩١.

مقومات السلام الاجتماعي

كلمة الجمعة بتاريخ ١٠ صفر ١٤٢٢هـ

لا يناقش أحد في أهمية السلم الاجتماعي وضرورته. ولو أُجْرِيَ استبيان أو استفتاء عام في أي مجتمع بشري، لما صوّت أحد لصالح الاحتراب والنزاع الداخلي.

لكن السلم الاجتماعي له مقومات وأركان لا يتحقق إلا بتوفرها، وللفتن والصراعات أسباب وعوامل لا تُدرأ إلا بتجنّبها.

فالمسألة ليست في حدود الرغبة والشعار، أو في وجود القناعة النظرية، بل ترتبط بواقع حياة المجتمع، وشكل العلاقات الحاكمة بين قواه وفئاته.

ولعل من أهم مقومات السلم الاجتماعي الأمور التالية:

■ السلطة والنظام.

■ العدل والمساواة.

■ ضمان الحقوق والمصالح المشروعة لفئات المجتمع.

وسوف نشرح فيما يلي، كلاً من هذه المقومات، ودوره وحدوده.

السلطة والنظام:

لا يستغني أي مجتمع بشري عن سلطة حاكمة ونظام سائد، يتحمل إدارة شؤون المجتمع، وتعمل القوى المختلفة تحت سقف هيئته. وإلا

لكان البديل هو الفوضى، وتصارع القوى والإرادات.

جاء في لسان العرب: قوم فَوْضَى: مختلطون، وقيل: هم الذين لا أمير لهم ولا من يجمعهم.

قال الأُفُوهُ الأودي:

لا يَصْلُحُ النَّاسُ فَوْضَى لا سَرَاةً لَهُمْ ولا سَرَاةً إِذَا جُهِلَهُمْ سَادُوا^(١)

وأورد الأُمدي التميمي في غرر الحكم ودرر الكلم عن الإمام علي عليه السلام قوله: «والِ ظُلُومٍ غَشُومٍ خَيْرٌ مِنْ فِتْنَةٍ تَدُومٍ»^(٢).

أي إذا كان أمام المجتمع خياران: حاكم ظالم أو تمزق وحرب أهلية، بالطبع كلاهما خيار سيئ لكن الأول أقل ضرراً من الثاني.

ولما سمع الإمام علي عليه السلام قول الخوارج «لا حكم إلا لله» قال: كلمة حق يُراد بها باطل! نعم إنه لا حُكْمَ إلا لله، ولكن هؤلاء يقولون: لا إمرة إلا لله، وإنه لا بد للناس من أميرٍ برٍّ أو فاجرٍ يعمل في إمرته المؤمن، ويستمتع فيها الكافر، ويُبَلِّغُ الله فيها الأجل، ويُجَمَعُ به الفيءُ، ويقَاتِلُ به العدو، وتَأْمَنُ به السبل، ويؤْخَذُ به للضعيف من القوي، حتى يستريح برٌّ، ويستراح من فاجر^(٣).

ونقل هذا النص عن الإمام علي، المتقي الهندي في كنز العمال ص ٧٥١ من الجزء ٥ حديث رقم ١٤٢٨٦ مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، وأورده الحافظ أبو بكر بن أبي شيبه في الكتاب المصنف ص ٣١٥ ج ١٥ حديث رقم ١٩٧٥٣.

(١) ابن منظور: لسان العرب، ج ٤، ص ١١٤٤، طبعة دار الجيل ودار لسان العرب ١٩٨٨م
 (٢) التميمي: عبد الواحد الأمدي، غرر الحكم، حرف الواو ٥٠، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ -
 ١٩٨٧م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.
 (٣) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كلام رقم ٤٠، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م،
 دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان.

لقد كان من سمات حياة العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام، غياب السلطة المركزية، حيث كانوا يعيشون وضعاً قليلاً تسوده النزاعات، وتكثر فيه الحروب، ولا يخضع لنظام أو قانون، بل لبعض التقاليد والأعراف التي لا تصمد أمام نوازع الشر، وغرور القوة.

وبسبب ذلك لم يكن لهم كيان ولا شأن بين الأمم. وحينما جاء الإسلام استوعب تلك القبائل المتناحرة، ووحدتها تحت لوائه، وصنع منها أمة متماسكة لم تلبث أن أخذت بأزمة قيادة العالم.

يقول تعالى مذكراً بهذا الإنجاز الإيماني العظيم: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾^(١).

ولمواجهة آثار حياة الجاهلية السابقة للإسلام ورواسبها، أكدت تعاليم الدين وتشريعاته على أهمية النظام والقيادة في المجتمع، وعلى ألا يعيش الإنسان خارج هذا الإطار. جاء في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»^(٢).

وورد مثله في أصول الكافي عن الفضيل بن يسار قال: ابتدأنا أبو عبد الله جعفر الصادق ﷺ يوماً وقال: قال رسول الله ﷺ: من مات وليس عليه إمام فميتته ميتة جاهلية. قلت: قال ذلك رسول الله ﷺ؟ فقال: إي والله قد قال. قلت: فكل من مات وليس له إمام فميتته ميتة جاهلية؟ قال: نعم^(٣).

(١) سورة آل عمران الآية ١٠٣.

(٢) القشيري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الإمارة، حديث ٥٨.

(٣) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي ج ١ ص ٣٧٦، دار الأضواء، بيروت.

ولعل في الحديث إشارة إلى أن عدم وجود نظام حكم وسلطة مركزية، هو سمة من سمات المجتمع الجاهلي قبل الإسلام، فمن تبنى هذا التوجه فهو يشكل امتداداً للوضع الجاهلي.

من هنا اتفق علماء المسلمين إلا من شذ منهم على أن الإمامة في الأمة أمر واجب، وهو مذهب السنة جميعاً، ومذهب الشيعة جميعاً، ومذهب المرجئة جميعاً، ومذهب الكثرة الغالبة من الخوارج، والكثرة الغالبة من المعتزلة.. وإن اختلفوا في مصدر الوجوب هل هو العقل أو الشرع؟

قال الماوردي (توفي ٤٥٠هـ) في الأحكام السلطانية:

واختلف في وجوبها هل وجبت بالعقل أو بالشرع؟ فقالت طائفة: وجبت بالعقل لما في طباع العقلاء من التسليم لزعيم يمنعهم من التظالم، ويفصل بينهم في التنازع والتخاصم، ولولا الولاية لكانوا فوضى مهملين، وهمجاً مضاعين... وقالت طائفة أخرى: بل وجبت بالشرع دون العقل، لأن الإمام يقوم بأمر شرعية..^(١)

والمشهور عند أهل السنة أن وجوب الإمامة بالشرع دون العقل، بينما يرى الشيعة وجوبها بحكم العقل.

كما يربّي الإسلام أبناءه على النظام حتى في تجمعاتهم الصغيرة فقد جاء في سنن أبي داود عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمّروا أحدهم» ومثله عن أبي هريرة^(٢).

وعلى الصعيد العائلي، جعل الإسلام قيادة العائلة بيد الزوج تأكيداً لمنهجيته في النظام والقيادة.

(١) الماوردي: علي بن محمد بن حبيب، الأحكام السلطانية ص ٥.

(٢) السجستاني: الحافظ أبو داود، سنن أبي داود، حديث رقم ٢٦٠٨.

ومن واقع التجربة رأينا كيف عانت الشعوب التي افتقدت سلطة الدولة، وأصبحت نهياً لمطامع الميليشيات والأحزاب المتصارعة على السلطة والحكم، كما حدث في لبنان والصومال وأفغانستان. فلا يمكن الحديث عن سلم اجتماعي في حال غياب الدولة، بل سوف تعم حينها الفتنة والاضطراب والدمار.

العدل والمساواة:

المجتمع الذي يتساوى الناس فيه أمام القانون، وينال كل ذي حق حقه، من دون تمييز فيه لفئة على أخرى، هذا المجتمع تقل فيه دوافع العدوان، وأسباب الخصومة والنزاع. أما إذا ضعف سلطان العدالة، وحدثت ممارسات الظلم والجور، وعانى البعض الحرمان والتمييز، وأتيحت الفرصة لاستقواء طرف على آخر بغير حق، فهنا لا يمكن توفر السلم الاجتماعي. حتى ولو بدت أمور المجتمع هادئة مستقرة، فإنه استقرار كاذب، وهدوء زائف، لا يلبث أن ينكشف عن فتن واضطرابات مدمرة. من هنا، جاء تأكيد الإسلام على ضرورة العدل وأهميته في حياة البشر، واعتبره هدفاً أساسياً لبعثة الأنبياء وإنزال الشرائع الإلهية. يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾^(١)، والقسط هو العدل. ويقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(٢).

ويصور لنا الحديث الذي أورده البخاري في صحيحه تحت رقم ٢٥٨٧ مدى اهتمام الرسول ﷺ بتربية أصحابه على التزام العدل

(١) سورة الحديد الآية ٢٥.

(٢) سورة النحل الآية ٩٠.

والمساواة بين أولادهم، حتى لا يكون التمييز بين الأبناء سبباً للعداوة والضغائن فيما بينهم.

يقول الحديث الذي رواه حصين عن عامر قال:

سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنه وهو على المنبر يقول: أعطاني أبي عطية، فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تُشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك يا رسول الله. قال صلى الله عليه وسلم: «أعطيت سائر ولدك مثل هذا» قال: لا. قال صلى الله عليه وسلم: «فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم» قال فرجع وردَّ عطيته. وجاء في طرف آخر من الحديث نفسه تحت رقم ٢٦٥٠ في صحيح البخاري أنه صلى الله عليه وسلم قال: «لا تُشهدني على جور». ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل له ابنان فقبل أحدهما وترك الآخر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: فهلاًّ واسيتَ بينهما^(١).

فالمجتمع عائلة كبيرة، وعدم المساواة بين أبنائه، وتمييز بعضهم على البعض الآخر، جور يزرع الضغائن والأحقاد، ويُضعف حالة المودة والإخاء. فالطرف الذي يحظى بالامتيازات يشعر بالحصانة والعلوّ تجاه سائر الأطراف، مما قد يدفعه للطغيان والعدوان، كما أن الطرف الذي يقع عليه التمييز يشعر بالغبن والاضطهاد، فيضعف ولاؤه لمجتمعه ووطنه، ويتحسّن الفرصة للانتقام وإعادة الاعتبار، وقد يفتش عن جهات داخلية أو خارجية يستقوي بها، مما يخلق ثغرة في أمن المجتمع والوطن، تنفذ منها مؤامرات الأعداء ودسائسهم.

يقول الإمام علي عليه السلام مخاطباً أحد ولاته: «استعمل العدل وأحذر

(١) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، ج ٢١ ص ٤٨٧، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، حديث رقم ٢٧٦٦، مؤسسة آل البيت، بيروت.

العسف والحييف، فإن العسف يعود بالجلاء، والحييف يدعو إلى السيف»^(١).

وهكذا فإن العدل يقي المجتمع أخطار التمزق والفتن، وجميل جداً ما رواه المجلسي في بحار الأنوار في الجزء ٧٤ والصفحة ١٦٥ منسوباً إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «العدل جنة واقية وجنة باقية» فالعدل في الدنيا وقاية من الأخطار، وفي الآخرة نعيم وثواب في جنان الخلد.

ضمان الحقوق والمصالح المشروعة لفئات المجتمع:

إذا كان المجتمع يعيش نوعاً من التنوع والتعدد، في انتماءاته العرقية أو الدينية أو المذهبية، أو ما شاكل ذلك من التصنيفات، فيجب أن يشعر الجميع، وخاصة الأقليات، بضمان حقوقه ومصالحه المشروعة، في ظل النظام والقانون، ومن خلال التعامل الاجتماعي.

وهذا، وإن كان متفرعاً من موضوع العدالة والمساواة، لكن أهميته تقتضي التركيز عليه. فعلماء الاجتماع يصنّفون المجتمعات من حيث درجة تنوعها وانسجامها إلى ثلاثة أصناف:

١ / المجتمع المتجانس:

لا يوجد في العالم مجتمع واحد متجانس كلياً، وبشكل مطلق. وإنما يقصدون بالتجانس في المجتمعات، التجانس النسبي وليس المطلق، وهذا يعني المجتمع الذي يتكوّن من جماعة واحدة منصهرة اجتماعياً وثقافياً، فتتوحد الهوية الخاصة والعامة في هوية واحدة جامعة، وتسود في هذا المجتمع عملية الانصهار.

(١) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، قصار الحكم ٤٧٦، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان.

٢ / المجتمع الفسيضائي:

هو المجتمع الذي يتألف من عدة جماعات تغلب هويتها الخاصة على الهوية العامة، وتتصف العلاقات فيما بينها بالتراوح بين عمليتي التعايش والنزاع وعدم الاتفاق على الأسس.

٣ / المجتمع التعددي:

وهو الذي يتشكل من عدة جماعات تحتفظ بهويتها الخاصة، إلا أنها تمكّنت من إيجاد صيغة تؤالف بين الهوية الخاصة والهوية العامة، لكنها قد تتعرض لهزات بسبب تدخل خارجي أو تسلط لجهة داخلية على حساب أخرى.

فمع وجود التنوع والتعدد في المجتمع، لا بد من ضمان الحقوق والمصالح المشروعة للجميع، ليعيش الجميع في إطار المصلحة المشتركة، وفي بوتقة الوطن الواحد.

ومبادئ الإسلام وشرائعه العظيمة تقدم النموذج الأرقى للتعايش بين الناس على اختلاف هوياتهم وانتماءاتهم، على أساس العدل والمساواة، وضمان الحقوق والمصالح المشروعة للجميع.

ففي السّنة الأولى لتأسيس المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة، وضع الرسول ﷺ ما عُرف بصحيفة المدينة والتي ذكرتها كتب السيرة النبوية الشريفة وأشار إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مختصر سيرة الرسول، ص ١٠٠، من طبعة (مؤسسة دار الكتاب السعودي) في الرياض.

وقد تضمّنت هذه الصحيفة الاعتراف بمواطنة غير المسلمين وعضويتهم في تكوين المجتمع الجديد، وحددت الواجبات التي عليهم

والحقوق التي لهم، شأنهم في ذلك شأن المواطنين المسلمين.

تقول إحدى فقرات تلك الصحيفة التي أملاها الرسول ﷺ وأمضاها:

«أن يهود بني عوف أمة من المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم.....»، وفي فقرة أخرى: «وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وإنه لم يَأْثَمْ امرؤ بحليفه، وإن النصر للمظلوم، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين، وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة» ويمكن مراجعة ما ورد في (السيرة النبوية) لابن هشام.

وشبه لها ما كتبه الرسول ﷺ لنصارى نجران: «أن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير، من بيعهم وصلواتهم، ورهبانيتهم، وجوار الله ورسوله، لا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، ولا كاهن من كهانته، ولا يُغَيَّرُ حق من حقوقهم ولا سلطانهم، ولا شيء مما كانوا عليه. على ذلك جوار الله ورسوله أبدا ما نصحوا واصطلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم ولا ظالم»، ويكفي ما روي عن الرسول ﷺ أنه قال: «من آذى ذمياً فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله» (رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن).

وفي حديث آخر: «من ظلم مُعَاهِداً، أو انتقصه حقاً، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجُه يوم القيامة» (رواه أبو داؤود والبيهقي).

هكذا يرعى الإسلام حقوق و مصالح من ينتمي إلى دين آخر، و يعيش في كنف المجتمع الإسلامي.

أما عن التعامل مع فئة من المسلمين لها مذهب أو مسلك مخالف، ففي سيرة الإمام علي (عليه السلام) مثل إنساني حضاري رائع، حيث كان حريصاً على حماية حقوق مناوئيه من الخوارج ومصالحهم، مع ما أظهره من معتقدات مخالفة لما عليه جمهور الأمة، كاعتبارهم مرتكبي كبائر الذنوب كفاراً، مخلدين في نار جهنم، وكتكفيرهم بعض الصحابة كعثمان وعلي وطلحة والزبير، وأصحاب الجمل، والحكمين ومن رضي بحكهما، وكاستحلالهم دماء المسلمين وأموالهم، إلا من خرج معهم، ومع ما ورد من أحاديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في ذمهم وأنهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية. لكن الإمام علياً، وهو الخليفة الحاكم، نهى أصحابه أن يسطوا على الخوارج حتى يحدثوا حدثاً. كما في مصنف ابن أبي شيبة، صفحة ٣٠٨، ج ١٥، حديث رقم (١٩٧٣٩).

وجاء تحت رقم (١٩٧٦٢) عن عبد الله بن الحارث عن رجل من بني نضر بن معاوية قال: كنا عند علي فذكروا أهل النهر فسبهم رجل فقال علي: «لا تسبُّوهم، ولكن إن خرجوا على إمام عادل فقاتلوهم وإن خرجوا على إمام جائر فلا تقاتلوهم فإن لهم بذلك مقالاً».

وجاء تحت رقم (١٩٧٧٦) عن كثير بن نمر قال: بينا أنا في الجمعة وعلي بن أبي طالب على المنبر إذ جاء رجل فقال: لا حكم إلا لله، ثم قام آخر فقال: لا حكم إلا لله، ثم قاموا من نواحي المسجد يحكمون الله فأشار عليهم بيده: أجلسوا، نعم لا حكم إلا لله، كلمة حق يُتغنى بها باطل، حكم الله ينتظر فيكم، إلا إن لكم عندي ثلاث خلال ما كنتم معنا، لن نمنعكم مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، ولا نمنعكم فيئاً ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلوا. ثم أخذ في خطبته.

وجاء تحت رقم (١٩٧٨٨) عن طارق بن شهاب قال: كنت عند

علي، فسئل عن أهل النهر أهم مشركون؟ قال: من الشُّرك فروا. قيل فمناقفون هم؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل له: فما هم؟ قال: قوم بغوا علينا.

وينقل الإمام الشيرازي أنه:

لما ظهر الخوارج وأخذوا ينتقصون الإمام ويكفرونه ويقولون: لا حكم إلا لله، لم يتعرض لهم الإمام بسوء، بل كان (كما في رواية) يُجري عليهم عطياتهم من بيت المال. وقد أراد أصحاب الإمام قتال هؤلاء بادئ الأمر، ولكن الإمام أبى عليهم ذلك، وأنكره وقال: إن سكتوا تركناهم، وإن تكلموا حاجبناهم، وإن أفسدوا قاتلناهم.

فقوله: إن تكلموا حاجبناهم، يعني أن الأمر بحاجة إلى المحاجة، فما دام لا عدوان على نحو الإجماع منهم فهم وشأنهم^(١).

هكذا، يضمن الإمام علي، وهو الحاكم الشرعي، لفئة مخالفة فكرياً، ومناوئة سياسياً، حقوقهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فالفرصة متاحة أمامهم لعرض آرائهم، والمساجد مفتوحة لهم كسائر المسلمين، وحصتهم من عطاء بيت المال مضمونة.

وسياسة علي عليه السلام هذه تكشف عن هُدي الإسلام، وإنسانية تعاليمه، وعدالة تشريعاته، ولا شك في حجّية سيرة الإمام علي فهو عند الشيعة إمام معصوم، وعند أهل السنة رابع الخلفاء الراشدين.

كما تكشف هذه المواقف عن عظمة نفس الإمام علي عليه السلام، وسيطرته الكاملة على عواطفه وانفعالاته، وإلا فأَي حاكم في مكانه غالباً ما يندفع

(١) الشيرازي: السيد محمد الحسيني، السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص ٣٤٩، الطبعة السابعة ١٩٩٤م، مؤسسة الفكر الإسلامي، بيروت.

لانتقام من المناوئين الصلفين، وخاصة في مثل انحراف الخوارج
وطيشهم.

بهذه المقومات، يتجذّر السُّلم في المجتمع، وتُوصد أبواب الفتن
والنزاع، وإذا حصلت بادرة من بوادر الشر أمكن تطويقها ومحاصرتها،
وهبّ الجميع لمقاومتها.

الإمام الرضا واستثمار الانفتاح

كلمة الجمعة بتاريخ ١٧ صفر ١٤٢٢ هـ

مبايعة الإمام علي الرضا (١٤٨هـ-٢٠٣هـ) ولياً للعهد سنة (٢٠١هـ) من قبل الخليفة المأمون العباسي يعتبر حدثاً يتيماً وفريداً من نوعه في تاريخ العلاقة بين أئمة أهل البيت عليهم السلام والسلطات الحاكمة في عصورهم، تلك العلاقة التي كانت قائمة على الإقصاء والتعتيم والقمع من قبل الحكومات الأموية والعباسية تجاه أهل البيت عليهم السلام.

وفجأة تفتق ذهن عبد الله المأمون بن هارون الرشيد (١٧٠هـ-٢١٨هـ) عن هذا القرار، وقاده دهاؤه السياسي لاتخاذهِ وتنفيذه، وكان المأمون آنذاك مقيماً في (مرو) شرق خراسان (مرو الآن جزء من تركمانستان) لأن أباه هارون الرشيد قد ولّاه أمر فارس، وجعلها منطقة نفوذه وامتيازهِ، فبدأ مراسلة الإمام الرضا عليه السلام في المدينة، يطلب منه الشخوص إليه، ولم يكن الإمام راغباً في مفارقة المدينة، ولا الاقتراب من المأمون، ثم بعث المأمون وفداً رسمياً لتنفيذ أمر انتقال الإمام، برئاسة رجاء بن أبي الضحّاك، وهو قرابة وزير المأمون الفضل والحسن ابني سهل، كما أنه من قادة جيش المأمون وكان والياً على خراسان لفترة، فهو شخصية سياسية عسكرية، وتكليفه بتنفيذ هذه المهمة إشارة إلى عزم المأمون واهتمامه بإنجاز ذلك وتحقيقه.

وغادر الإمام الرضا عليه السلام المدينة منتصف سنة ٢٠١هـ تقريباً، وبعد وصوله إلى (مرو) عرض عليه المأمون أن يتنازل له عن الخلافة والحكم،

كما تشير بعض الروايات، لكن ذلك كان مجرد مقدمة وتمهيد للمطلب الرئيسي، وهو أن يقبل بتعيينه ولياً للعهد، فاعتذر الإمام الرضا عن ذلك، واستمرت المحاولات لإقناعه بالقبول، لمدة شهرين أو أكثر^(١)، من قبل المأمون شخصياً، ومشاركة وزيره الفضل والحسن ابني سهل، ولمّا لم تجد محاولات الإقناع، استخدموا مع الإمام أسلوب التهديد والإلزام.

يروى أبو الفرج الأصفهاني (٢٨٤هـ-٣٥٦هـ) في مقاتل الطالبين: أن المأمون بعث الفضل والحسن ابني سهل إلى علي بن موسى الرضا، فعرضاً ذلك عليه - ولاية العهد - فأبى، فلم يزالا به وهو أبى ذلك ويمتنع منه، إلى أن قال له أحدهما: إن فعلت وإلا فعلنا بك وصنعنا، وتهده، ثم قال له أحدهما: والله أمرني - أي المأمون - بضرب عنقك إذا خالفت ما يريد. ثم دعا به المأمون فخاطبه في ذلك فامتنع، فقال له قولاً شبيهاً بالتهديد، ثم قال له: إنَّ عمر - بن الخطاب - جعل الشورى في ستة أحدهم جدك، وقال: من خالف فاضربوا عنقه، ولا بد من قبول ذلك^(٢). فوجد الإمام الرضا نفسه بين خيار الاستجابة أو الاصطدام مع المأمون، ورأى أن الخيار الأول أفضل وأصلح، فقبل ولاية العهد، بشرط أن لا يتحمل شيئاً من المسؤوليات التنفيذية والسياسية «أن لا يولي أحداً، ولا يعزل أحداً، ولا ينقض رسماً، ولا يغير شيئاً مما هو قائم، ويكون في الأمر مشيراً من بعيد»^(٣) وبذلك أخلى نفسه من أي مسؤولية تجاه نظام الحكم وسياساته وممارساته، وموقعه شكلي ليس إلا.

لقد أحاط المأمون تعيين الإمام الرضا ولياً للعهد بإجراءات وأجواء احتفائية وإعلامية كبيرة، مما يوحي بأن له غرضاً في استثمار

(١) مرتضى: السيد جعفر، الحياة السياسية للإمام الرضا، ص ٢٨٠، دار الأضواء، بيروت ١٩٨٦م.

(٢) الأصفهاني: أبو الفرج، مقاتل الطالبين ص ٥٦٣ دار المعرفة، بيروت.

(٣) مرتضى: السيد جعفر، الحياة السياسية للإمام الرضا، ص ٣٤٧.

هذا القرار على الصعيد السياسي والشعبي. فعقد مهرجناً رسمياً وشعبياً عاماً لمبايعة الرضا، في اليوم الثاني أو الخامس أو السابع (على اختلاف الروايات) من شهر رمضان سنة ٢٠١هـ. حضره الوزراء وكبار رجال الدولة، وقادة القوات المسلحة، وأعيان العباسيين والعلويين، وشجع الشعراء بالجوائز والمكافآت على التفاعل مع هذا الحدث بالإشادة به، ومدح الإمام الرضا، وبهذه المناسبة أمر بإعطاء الجنود رواتبهم سنة كاملة، وأثبت اسم الإمام الرضا في الدراهم والدنانير المسكوكة، ووجّه ولاته وعمّاله في جميع الأقطار والأقاليم الإسلامية، بأخذ البيعة من جميع المواطنين بولاية العهد، وبالدعاء للإمام الرضا في خطب الجمعة.

الدافع السياسي:

ترى ما الذي دفع المأمون لاتخاذ هذا القرار الغريب الخطير؟ وكيف انعطف بالعلاقة مع أهل البيت من حال المناوئة والمواجهة، التي سار عليها أسلافه، إلى هذا المنحى من إشراكهم في الحكم، والاعتراف بمكانتهم وفضلهم على المستوى الرسمي والشعبي؟

يذهب قلة من الكتّاب والباحثين إلى القول بإخلاق المأمون وانطلاقه من دافع مبدئي، فهو يكن الولاء الصادق لأهل البيت، ويتشيع لهم، ويتحدث عن بعض المواقف التي أوجبت اقتناعه بأئمة أهل البيت، كمشاهدته لتعامل أبيه الرشيد مع الإمام موسى الكاظم (عليه السلام)، والذي أثار تساؤل المأمون، فأجابه أبوه الرشيد بتأكيد المكانة الشرعية، والأولوية القيادية للأئمة، وهناك مؤشرات عديدة قد يستدل بها على تشييعه كرده فدك للعلويين، وإعلانه لتفضيل الإمام علي بن أبي طالب وأحقّيته في مجلس عقده في قصره للمناظرة مع أربعين عالماً من علماء الحديث

والكلام في بغداد انتخبهم يحيى بن أكثم، فناقشهم المأمون بدقة علمية واستدلال قوي لإثبات ذلك وأفحمهم. وكذلك قوله بخلق القرآن وجواز المتعة، وما شابه من القضايا التي يتبناها خط أهل البيت. وفي هذا السياق يأتي عرضه للخلافة وولاية العهد على الإمام الرضا.

أو هو قد نذر لله تعالى إن انتصر على أخيه الأمين ليجعلن الأمر في الأصلح والأفضل، ولا ينطبق ذلك إلا على الإمام الرضا. وينقل عنه قوله: «إني عاهدت الله أن أخرجها إلى أفضل آل أبي طالب إن ظفرت بالمخلوع، وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل»^(١).

وممن يتبنى هذا الرأي صديقنا الدكتور السيد محمد علي البار في شرحه وتقديمه لرسالة الإمام الرضا في الطب (الرسالة الذهبية) يقول: «ولله در المأمون إذ فضل الإمام علي الرضا على بنيه وآل بيته أجمعين مبتغياً في ذلك رضا الله تعالى... والواقع أن المأمون بفعله هذا أثار البيت العباسي، وكادت الخلافة تخرج من يده عندما ولّى بنو العباس عمه إبراهيم بن المهدي الخلافة، وقد نقم عليه بنو العباس ذلك الفعل، ونصححه وزيره الحسن بن سهل ألا يقدم على هذا العمل، الذي فيه إغضاب البيت العباسي بأكمله، مع أنصارهم وهم كثر. ولكن المأمون أثار الله والدار الآخرة، ونصح للأمة جهده فوّلّى علي الرضا العهد من بعده، بل أراد أن يتنازل له عن الخلافة ولكن الرضا أبى ذلك..»^(٢).

لكن من يقرأ شخصية المأمون، ويدرس مواقفه وممارساته السياسية، بدءاً من حربه لأخيه الأمين وقتله، ثم صلب رأسه في صحن داره، ليلعنه كل من يقبض عطاءه، وبعد ذلك تطويف رأس الأمين في

(١) الأصفهاني: أبو الفرج، مقاتل الطالبين، ص ٥٦٣.

(٢) البار: الدكتور محمد علي، الإمام علي الرضا ورسالته في الطب، ص ٧٧، الطبعة الثالثة ١٩٩٢م، دار المنهل، بيروت.

أنحاء خراسان، ومروراً بما فعله بوزيره الفضل بن سهل، حيث دبر لاغتياله، بعد أن استهلك دوره، وكذلك تصفيته لقائد جيشه الكبير هرثمة بن أعين، ومؤامراته للتخلص من طاهر بن الحسين وأبنائه..^(١) والأهم من كل ذلك ما تشير إليه الروايات التاريخية من أنه كان وراء قتل الإمام الرضا بدس السم إليه.. هذه الأمور تجعل احتمال المبدئية والصدق في توليته العهد للإمام الرضا، بعيداً كل البعد عن التحليل الصحيح، والتفسير الصائب. بل يجب التفتيش عن الدافع السياسي، والذي لا يحتاج الباحث في إدراكه إلى الكثير من الدراسة والتأمل.

اهتزاز حكم المأمون:

كان هارون الرشيد قد نصب ولده محمد الأمين ولياً لعهدده، وولده عبد الله المأمون، ولياً لعهد أخيه الأمين، ومع أن المأمون أكبر سنّاً ولو بشهور، وأقوى شخصية وفطنة، لكنه ابن جارية أعجمية طباحة، بينما أم محمد الأمين زبيدة حفيدة المنصور، وصاحبة الأمر والنهي والنفوذ في حكم هارون الرشيد، وكان العباسيون يدعمون الأمين، وكذلك البرامكة النافذون، والوسط العربي بشكل عام.. كل ذلك شجع الأمين بعد أن تولى الخلافة على خلع أخيه المأمون عن ولاية عهدده، وأخذ البيعة لولده موسى وهو طفل صغير في المهد، مما أثار حفيظة المأمون، فبادر لخلع أخيه الأمين، وأعلن نفسه خليفة على الأمة، وجّهز جيشاً لمواجهة جيش أخيه وحصلت المواجهة في (الري) والتحم الجيشان في معركة رهيبة، جرت فيها أنهار الدماء، وانهزم جيش الأمين، وواصل جيش المأمون زحفه حتى حاصر العاصمة بغداد، وقُتل الأمين وبُعث برأسه إلى أخيه المأمون.

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ١٠ ص ٢٥٧-٢٧٦، الطبعة الأولى ٢٠٠١، دار الكتب العلمية، بيروت.

لقد انتصر المأمون على أخيه، لكنه لم يكسب تعاطف العباسيين والعرب، وقد اختار العباسيون فيما بعد إبراهيم بن المهدي عم المأمون ليبايعونه بالخلافة، رغم أنه كان مغنياً ليس له اهتمام سياسي.

من جانب آخر فإن ثورات العلويين المتلاحقة، وفي بقاع مختلفة، كانت تترك الحكم وتزيد في اهتزازة، فقد فجر أبو السرايا ثورته في الكوفة، وخرج زيد النار بن موسى بن جعفر في البصرة، وسمي زيد النار لأنه حرق دور العباسيين في البصرة بالنار، وثار محمد بن جعفر في مكة، وقاد التمرد في اليمن إبراهيم بن موسى بن جعفر، وأشعل الثورة في المدينة محمد بن سليمان بن داود بن الحسن، وتحرك في واسط جعفر بن محمد بن زيد والحسين بن إبراهيم بن الحسن، وفي المدائن محمد بن إسماعيل بن محمد.. بل إنك قد لا تجد قطراً إلا وفيه علوي يمّني نفسه، أو يمني الناس بالثورة ضد العباسيين، حسبما نص عليه بعض المؤرخين^(١).

هذا عدا عن ثورات غير العلويين، وهي كثيرة، كثورة الحسن الهرش سنة ١٩٨ هـ وتغلب حاتم بن هرثمة على أرمينية، ونصر بن شيبث على كيسوم، وسميساط وما جاورها، وهناك حركات الزط، وثورة بابك، وثورة المصريين بين القيسية المناصرة للأمين واليمانية المناصرة للمأمون.. وغيرها.

ولاية العهد لتعزيز الحكم:

تجاه هذه التحديات الكبيرة التي واجهها المأمون، والتي جعلت حكمه في موقع الضعف والاهتزاز، كان لابد له من مبادرة ذكية شجاعة تغير المعادلة، وتقلبها رأساً على عقب، وتحوّل الموقف لصالح

(١) مرتضى: السيد جعفر، الحياة السياسية للإمام الرضا، ص ١٨٣-١٨٤.

المأمون .

وكان المأمون مهياً لاتخاذ مبادرة بهذا الحجم، لما يتصف به من دهاء وذكاء ومعرفة، حتى قال بعضهم: «لم يكن في بني العباس أعلم من المأمون» وقال الأستاذ محمد فريد وجدي: «لم يل الخلافة بعد الخلفاء الراشدين أكفأ منه»^(١) بل روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال - وهو يصف خلفاء بني العباس - : «سابعهم أعلمهم»^(٢).

فتفتق رأيه عن هذا القرار الذكي، أن يجلب الإمام علي الرضا عليه السلام إلى جانبه ليعزز بشخصيته موقع الحكم والسلطة، وذلك لما للإمام الرضا من شخصية محترمة مقبولة في أوساط الأمة، فهو ثامن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وتدين له كل القواعد الشيعية بالولاء والطاعة، وكما قال عنه المأمون نفسه: «هذا خير أهل الأرض وأعلمهم وأعبدهم» وهو موضع تقدير وثقة الجميع، وإنما أطلق عليه (الرضا) «لأنه رضي به المخالفون من أعدائه، كما رضي به الموافقون من أوليائه» على حد تعبير ولده الإمام محمد الجواد عليه السلام^(٣).

ويكفي للتدليل على هذه المكانة المرموقة، والموقعية المميزة، التي تبوأها الإمام الرضا أن نذكر الحادثتين التاليتين:

لما كتب المأمون إلى عبد الجبار بن سعد المساحقي عامله على المدينة، أن اخطب الناس وادعهم إلى بيعة علي بن موسى، فقام خطيباً فقال: «أيها الناس هذا الأمر الذي كنتم فيه ترغبون، والعدل الذي كنتم تنتظرون، والخير الذي كنتم ترجون، هذا علي بن موسى بن جعفر بن

(١) وجدي: محمد فريد، دائرة المعارف الإسلامية، ج ١ ص ٦٢٠ الطبعة الثالثة ١٩٧١م، دار المعرفة، بيروت.

(٢) القمي: الشيخ عباس، سفينة البحار، ج ٢ ص ٣٣٢، مادة غيب.

(٣) القرشي: باقر شريف، حياة الإمام علي بن موسى الرضا، ج ١ ص ٢٣.

محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، ستة آباء هم ما هم، من خير من يشرب صوب الغمام»^(١).

وحسب كلام هذا الوالي فالإمام الرضا عند الحجازيين هو العدل المنتظر، والخير المرجو، والأمر المرغوب.

والحادثة الثانية تظهر مكانة الإمام الرضا في شرق البلاد الإسلامية، وهي ما ذكره المؤرخون عن دخول الرضا إلى نيسابور، في طريقه إلى (مرو) ونقل عنها ما أورده ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة قال: «ولما دخل نيسابور، كما في تاريخها، وشق سوقها، وعليه مظلة لا يرى من ورائها، تعرض له الحافظان أبو زرعة الرازي، ومحمد بن أسلم الطوسي، ومعهما من طلبة العلم والحديث ما لا يحصى، فتضرعوا إليه أن يريهم وجهه، ويروي لهم حديثاً عن آباءه، فاستوقف البغلة وأمر غلمانه بكف المظلة، وأقر عيون تلك الخلائق برؤية طلعه المباركة، فكانت له ذؤابتان متدلّيتان على عاتقه، والناس بين صارخ وباك، ومتمرغ في التراب، ومقبلٌ لحافر بغلته، فصاحت العلماء: معاشر الناس، أنصتوا، فأنصتوا، واستملى منه الحافظان المذكوران، فقال: حدثني أبي موسى الكاظم، عن أبيه جعفر الصادق، عن أبيه محمد الباقر، عن أبيه زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: حدثني حبيبي وقرّة عيني رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «حدثني جبريل، قال: سمعت رب العزة يقول: لا إله إلا الله حصني، فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي». ثم أرخى الستر وسار، فعُدّ أهل المحابر والدوى الذين كانوا يكتبون، فأنافوا على عشرين ألفاً»^(٢).

(١) الأندلسي: بن عبدربه، العقد الفريد، ج ٥ ص ٣٥٩، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) الهيثمي: ابن حجر، الصواعق المحرقة، ج ٢ ص ٥٩٤، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

توضح هاتان الحادثتان عظيم مكانة الإمام الرضا في نفوس أبناء الأمة من الغرب إلى الشرق، وفي أوساط العرب والعجم، وهذا ما دفع المأمون إلى الإصرار عليه ليقبل بالدخول معه في الحكم كولي للعهد، لتعزيز سلطته، وتثبيت شرعية حكمه، ولوضع حد للثورات العلوية، وكسب ثقة جماهير الأمة.

برنامج الإمام الرضا:

وأوضح دليل لدينا على عدم صدق نوايا المأمون، وأن له استهدافات سياسية مصلحية، هو تمنع الإمام الرضا عن قبول عرضه الخلافة وولاية العهد، ثم موافقته من باب الاضطرار، واشترطه أن لا يتحمل أي مسؤولية أو يقوم بأي دور ضمن السلطة، وتحينه الفرص للتعبير عن ضيقه وانزعاجه من الوضع الذي أصبح فيه. فقد أخبر أحد مواليه منذ الساعة الأولى لمبايعته بولاية العهد، وهو في مهرجان البيعة والاحتفاء قال له: «لا تشغل قلبك بشيء مما ترى من هذا الأمر، ولا تستبشر فإنه لا يتم»^(١) ويصف ياسر الخادم حال الإمام في تلك الفترة بقوله: «إنه لم يزل مغموماً مكروباً حتى قبض صلوات الله عليه.

فلو كان الإمام واثقاً من نوايا المأمون وتوجهاته لما تعامل مع الموضوع بهذه الطريقة.

لكن الإمام ومع تحفظه على الحكم بدلالة رفضه للمشاركة العملية فيه، حاول الاستفادة بأقصى حد ممكن من فرصة الانفتاح السياسي، من أجل خدمة أهدافه الرسالية العظيمة، المتمثلة في تبين معالم الدين، وتجلية مفاهيمه الحققة وخاصة مع ملاحظة الأمور التالية:

١. التحديات الفكرية والثقافية: حيث شهد عصر الإمام الرضا ﷺ

(١) القرشي: باقر شريف، حياة الإمام علي الرضا، ج ٢ ص ٣٠٤.

انفتاحاً واسعاً على الثقافات الأجنبية وخاصة اليونانية، فقد اهتم المأمون بجلب الكتب العلمية والفلسفية من الخارج، وكلف موظفاً خاصاً في مكتبة بيت الحكمة وهي أضخم مكتبة في بغداد، للاهتمام بالكتب الأجنبية التي نقلت من (قبرص) ومن خزائن كتب اليونان، كما أنشأ المأمون ديواناً للترجمة برئاسة حين بن إسحاق، لتعريب الكتب الأجنبية.. هذا الانفتاح الثقافي ينبغي أن تواكبه نهضة فكرية وثقافية داخل الأمة، للاستفادة من مكاسب وتجارب الآخرين، دون الانبهار بها أو التأثر بالانحرافات التي فيها.

٢. الحصار القائم حول خط أهل البيت: والذي سبب وجود بعض الانحرافات الفكرية داخل الأوساط الشيعية، من قبل الفئات المغالية والمصلحية كالواقفة، وكذلك فإن شرائح من الأمة لم يتح لها الاطلاع على معالم خط أهل البيت الفكري والسياسي، بل كانت ضحية للإعلام المناوئ، والذي كان يثير الشبهات والتساؤلات والافتراءات حول مدرسة أهل البيت، ومواقفهم الفكرية والسياسية.

٣. الصراعات السياسية التي عاشتها الأمة بين الأمويين والعباسيين ثم داخل الحكم العباسي كحرب الأمين والمأمون، الاضطرابات السياسية، وفساد أجهزة الحكم، كل ذلك أوجد في أوساط الأمة ردات فعل، وثورات وإشكاليات، انعكست على ثقة بعض الناس بدينهم، وأضعفت التوجهات المبدئية لصالح الاهتمامات المادية

والأنانية...

مما يعني حاجة الأمة إلى زخم من التوجيه الديني، وحركة في كشف حقائق الإسلام ومفاهيمه الصحيحة، بعيداً عن التحريف والتزييف.

وإذا كانت ظروف الحصار والقمع التي عاشها أكثر أئمة أهل البيت عليهم السلام، تجعل فرصتهم في هذا الميدان محدودة، مع أنهم كانوا يصارعون تلك الظروف، ويسعون لتبليغ رسالات الله بكل وسيلة ممكنة، فإن الفضاء السياسي المفتوح نسبياً للإمام الرضا عليه السلام، أعطاه فرصة واسعة، وخاصة مع محاولات المأمون للتظاهر بالإخلاص للإمام الرضا وأهل البيت عليهم السلام، كما فسح ذلك المجال لكي تصل آراء أهل البيت وأفكارهم للنخب والشرائح المتقدمة في أجهزة الحكم، وأجواء السلطة والقدرة.

وكنموذج لهذا الدور الذي قام به الإمام عليه السلام، نشير إلى المناظرات والحوارات العلمية التي حصلت بينه وبين العديد من الزعامات الدينية والعلمية، تلك المناظرات التي حصلت في قصر المأمون العباسي وبدعوة منه، إماماً للتظاهر بتأييد أهل البيت، أو أملاً منه في إحراج الإمام الرضا، بما يطرح عليه من مسائل عويصة، وإشكاليات حادة، فقد أوعز المأمون إلى ولاته في أنحاء العالم الإسلامي، بإيفاد كبار العلماء من المتمرسين في مختلف أنواع العلوم إلى خراسان، وطلب منهم أن يفتشوا عن أعقد المسائل وأكثرها صعوبة وعمقاً، ليطرحوها على الإمام الرضا عليه السلام، وكان الإمام يجيب على تلك التساؤلات ويعالج تلك الإشكالات، بصدر رحب، وبيان واضح وحجة بالغة، وقد جمع بعض تلامذة الإمام تلك المناظرات والحوارات فزادت على عشرين ألف مسألة في ميادين العلم والفكر المختلفة، ومن المؤسف أننا لا نمتلك

الآن منها إلا جزءاً يسيراً، وهو ذو فائدة وقيمة كبيرة، لكن مجموع تلك المناظرات «لم نعثر عليها، ولعلها من جملة المخطوطات التي خسرها العالم العربي والإسلامي»^(١).

ومن تلك المناظرات حوار الإمام مع عمران الصابئ وكان زعيم طائفة الصابئة، ومن كبار فلاسفة ذلك العصر، وقد جرت المناظرة بحضور المأمون وكبار العلماء والقادة، واستمرت لأكثر من مجلس، وأثبت الشيخ الصدوق في كتابه (عيون أخبار الرضا) أغلب ما دار فيها.. وكانت نيتها إعلان عمران الصابئ إسلامه وانضمامه إلى مدرسة أهل البيت ﷺ، حيث كثر ترده على الإمام وانتهاله من نمير علمه.

ومنها مناظرته لسليمان المروزي، المعروف بتضلعه في الفلسفة، وتمرسه في البحوث الكلامية، وكان يعد في طليعة علماء خراسان، واشتملت على حوار علمي عميق حول توحيد الله تعالى وتزيهه، وتبيين حقيقة صفاته وأسمائه.

ومناظرته مع أبي قررة والذي كان يثير الكثير من الشبه والإشكالات، على العقائد والمفاهيم الدينية.. وكذلك مناظرته مع الجاثليق رئيس أساقفة النصارى، ومع رأس الجالوت كبير علماء اليهود، والهرذ الأكبر زعيم الهنود، وأتباع زرادشت، ونسطاس الرومي الطيب العالم ومع علي بن الجهم حول عصمة الأنبياء وغيرهم.

لقد وفرت مجالس المناظرات والحوار للإمام فرصة جيدة، لتبيين مفاهيم الدين، وتوضيح معالم الشريعة، وكانت أصداؤها وآثارها تنعكس على علماء الأمة والجماهير، مزيداً من الثقة في الدين، والمعرفة بالحقائق.

(١) المصدر السابق، ج ١ ص ١٣.

إضافة إلى الجهود التي بذلها الإمام في تعليم وتربية من التفّ حوله من التلامذة والموالين، وقد بلغ عدد الرواة عنه والمنتهلين من علومه ومعارفه، حسب إحصاء أحد العلماء الباحثين إلى ثلاثمائة وسبعة وستين شخصاً^(١).

الدرس والعبرة:

من هنا كانت فترة الإمام الرضا عليه السلام، من أثرى وأخصب الفترات التي استفادت فيها الأمة من علوم أهل البيت عليهم السلام، فقد استثمرت فرصة الانفتاح السياسي في تبليغ مبادئ الدين، والدفاع عن مناهج الرسالة، وفي رفع معنويات وثقة أبناء الأمة في دينهم، وتوضيح ما التبس عليهم، بسبب الجهل أو التحريف الداخلي، ولتحصينهم من تأثير الثقافات والأفكار المخالفة للإسلام.

وبذلك يبعث الإمام الرضا رسالة إلى الفقهاء والعلماء في كافة أجيال الأمة وعصورها، بأن لا تستهويهم المناصب والمواقع لذاتها، بل يجب أن يسخرّوها إذا ما وصلوا إليها أو تورطوا بها، من أجل نشر الدين، وخدمة الأمة.

فالأمة وخاصة في هذا العصر تواجه تحديات حضارية خطيرة، على المستوى الفكري والمعرفي، لتطور وسائل الاتصال، وتكنولوجيا انتقال المعلومات وتداولها، وللانفتاح الإعلامي الهائل، مع سيطرة الآخرين على مصادر ومنابع الحركة الإعلامية والمعلوماتية على الصعيد العالمي، مما يضاعف مسؤوليات الدعاة إلى الله، ويتطلب منهم أكبر جهد في العمل والنشاط والانطلاق، دون الاكتفاء بمواقع وحدود ضيقة.

(١) المصدر السابق، ج ٢ ص ١٨٠.

ثقافة السلم الاجتماعي وأخلاقه

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٤ صفر ١٤٢٢هـ

لماذا تنعم بعض الشعوب بالاستقرار والسلم الاجتماعي، وتتجه لبناء أوطانها وصنع تقدمها، بينما تعاني شعوب أخرى من أهوال الاحتراب الداخلي، ومرارة الفتن والصراعات، لتكرس بذلك ضعفها وتخلفها، وسوء واقعها المعاش؟

هل يحصل ذلك اعتباطاً؟ وبمحض الصدفة والاتفاق؟ أم أن هناك أسباباً وعوامل تلعب دورها في توجيه حركة أي مجتمع نحو السلم والتعاون أو النزاع والشقاق؟

بالطبع، لا مجال للصدفة والعبث في هذا الكون القائم على النظام والدقة، من قبل الخالق الحكيم، سواء على صعيد التكوين والخلق حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾^(١) أو على مستوى الحركة الإنسانية الاجتماعية، إذ يقول تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَكِنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٢).

أنموذجان متقابلان :

لو درسنا تجربة أي مجتمع مستقر منسجم في داخله، وأي مجتمع مضطرب متمزق، لوجدنا أن هناك صفات وسمات متقابلة بين هذين

(١) سورة القمر الآية ٤٩ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٦٢ .

النوعين من المجتمعات. ففي النوع الأول تتوفر مقومات السلم والوئام، من سلطة مركزية، وعدالة حكمة، واحترام لحقوق القوى والفئات المختلفة ومصالحها، إضافة إلى العوامل المساعدة على حماية وضع السلم والاستقرار، والمضادة لأي محاولات لنسفهما أو تخريبهما. بينما في النوع الثاني من المجتمعات تنعدم أو تضعف تلك المقومات، ولا تتوفر الحصانة والمناعة ضد أخطار الفتن والصراعات، مما يعطي الفرصة لأي جرثومة أو ميكروب وبائي للتمكن من جسم المجتمع وإنهاكه.

ولنتأمل الآن تجربتين حاضرتين في واقعنا المعاصر، تمثلان أنموذجين متقابلين:

سنغافورة:

تتعدد في دولة سنغافورة الأعراق، حيث تتكون من أربع مجموعات عرقية: صينيين ٧٥٪، ماليزيين ١٥٪، هنود-باكستانيين ٧٪، أوروبيين ٢٪. كما تتعدد فيها الديانات إلى ست ديانات هي: البوذية والطاوية والكونفوشية ٥٤٪، الإسلام ١٨٪، المسيحية ١٣٪، الهندوسية ٤٪. وتتعدد فيها أيضاً الأحزاب السياسية حيث تصل إلى عشرين حزباً مسجلاً رسمياً.

ومع هذه التعددية، تعيش سنغافورة استقراراً داخلياً، ووثاماً وانسجاماً بين هذه الأعراق والديانات، وينشط الجميع في صنع تجربتهم الوطنية المتقدمة، وبناء واقعهم الاقتصادي المتطور. حيث يصل معدل دخل الفرد من إجمالي الناتج الوطني إلى أكثر من ١٧,٥٩٨ دولار وهو من أعلى المعدلات في آسيا، كما يتمتع شعبها بمستوى عال في مجال الخدمات الصحية والتعليمية والإسكان والمواصلات، وبمستوى

مرتفع من المعيشة والرعاية الاجتماعية، ويقدر متوسط العمر التقريبي للمواطنين بـ ٧٥ سنة.

ويتميز اقتصاد سنغافورة بدرجة عالية من التطور والتنوع، فهي مركز مالي تجاري مهم، إضافة إلى استقطابها السياحي وإنتاجها الصناعي مع قلة مواردها الطبيعية. وبرغم محدودية أراضيها المخصصة للزراعة، والتي تساوي ٢٪ فقط من مساحتها، إلا أن كثيراً من الفلاحين يستخدمون الطرق التقنية المتقدمة، مثل الزراعة المائية، وهي زراعة النباتات في محاليل كيميائية من دون تربة، وذلك لزيادة الإنتاج الغذائي، ويُعد ميناء سنغافورة الأكثر ازدحاماً في العالم من حيث الحمولة الطنّية.

إن تعددية الأعراق واللغات والديانات والأحزاب، لم تسبب في حدوث اضطرابات ولا نزاعات، ولم تعرقل نمو البلد وتقدمه، بل على العكس من ذلك كان مصدر إثراء ومبعث اعتزاز لدى الحكومة والشعب على السواء، حيث تعترف الحكومة بأربع لغات رسمية هي لغات تلك المجموعات العرقية التي يتشكل منها الشعب: الصينية والإنجليزية والماليزية والتاميلية. وتصدر الصحف اليومية باللغات الأربع، وتُبث برامج الإذاعة والتلفاز بأربع لغات أيضاً.

ومن الناحية الدينية، فالفرصة متاحة للتعبير الحر، عن المعتقدات والعبادات للديانات الست، وقد حظي الإسلام بمجلس خاص مفوض بقانون برلماني هو المجلس الإسلامي السنغافوري، ويتولى الإشراف على شؤون المسلمين الدينية، وهناك حوالي ثمانون مسجداً في مختلف أنحاء سنغافورة. وللمسيحيين كنائسهم، ولسائر الديانات معابدها ومؤسساتها. والمشاركة السياسية مؤمنة للجميع على اختلاف أعراقهم ولغاتهم وأديانهم وأحزابهم، فرئيس الجمهورية وأعضاء

البرلمان يُنتخبون من قبل الشعب مباشرة^(١)، وهكذا يتساوى الجميع من أبناء الأثرية والأقلية في حقوقهم وواجباتهم، مما يعمق عندهم الشعور بالانتماء الوطني، ويدفعهم إلى التلاحم في ما بينهم، لانعدام مبررات الاستعلاء أو الشعور بالغبن والاضطهاد.

رواندا:

وعلى الطرف النقيض من تجربة سنغافورة، تأتي حالة رواندا؛ هذا القطر الأفريقي الذي تبلغ مساحته أربعة أضعاف مساحة سنغافورة حيث تقدّر بـ ٣٣٨, ٢٦ كلم ٢ بينما لا تزيد مساحة سنغافورة على ٦٣٣ كلم ٢. كما أن عدد سكان رواندا سبعة ملايين نسمة، وهو أكثر من ضعف عدد سكان سنغافورة، الذي يقل عن ثلاثة ملايين نسمة.

و خلافاً لسنغافورة، فإن رواندا تتمتع بثروات طبيعية من المعادن، والبتروول والغاز الطبيعي والذهب الخام والفحم، وفيها غابات ضخمة توفر الخشب المنشور وأخشاب الصناعة وحطب الوقود، و ثروة حيوانية كبيرة. كما تتنوع فيها المعالم الطبيعية، فهناك المرتفعات ذات الفوهات البركانية، والأودية المتعرجة، والبحيرات ذات المناظر الخلابة، فضلاً عن السهول الممتدة التي تغطيها الحشائش، ويطلق عليها بلد العشرة آلاف هضبة.

وفيها مجموعتان عرقيتان: الهوتو ٩٠٪، والتوتسي ٩٪، ينتميان إلى أصل واحد لخضوعهما تاريخياً لملك واحد هو موامي. ويدين معظم أبناء القبيلتين بدين ومذهب واحد حيث يتبعون الكنيسة الكاثوليكية.

لكن هذا البلد يعيش وضعاً مأساوياً نكداً، بسبب افتقاده الاستقرار

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج ١٣ ص ١٤٢ - ١٥٣، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، مكتب الآفاق المتحدة: المعلومات، ١٩٩٧م - ١٩٩٨م، ص ٤٢٩ - ٤٣٢، الطبعة الثانية ١٩٩٨م، الرياض.

والسُّلم الاجتماعي. فمنذ مئات السنين تسيطر قبائل التوتسي - الأقلية - على قبائل الهوتو التي تشكل الأكثرية. ونتيجة لشعور الأكثرية الهوتو بالإجحاف والغبن، تفجّر صراع دموي عام ١٩٥٩م ذهب ضحيته ١٥٠ ألف قتيل، وتشرّد ١٥٠ ألفاً آخرون. وسيطر الهوتو في أعقاب ذلك على السلطة والحكم، ثم تفجّر الصراع مرة أخرى سنة ١٩٩٤م بشكل أعنف، فأدى إلى سقوط نصف مليون قتيل، ونزوح أكثر من مليوني مواطن، لجأوا إلى الدول المجاورة، ولقي عشرات الآلاف من هؤلاء اللاجئين حتفهم بسبب الكوليرا وسائر الأمراض.

ونتيجة لهذا الاحتراب الداخلي، تعيش رواندا تخلفاً شاملاً، فهي دولة فقيرة اقتصادياً، رغم إمكاناتها الكبيرة. فقطاع الصناعة فيها ما زال محدوداً للغاية، والحياة المعيشية صعبة مما يضطر الكثيرين من مواطنيها للهجرة، طلباً للرزق في البلاد المجاورة، وتعاني عجزاً في الخدمات التعليمية والصحية، فنسبة الأمية ٥٠٪، ومتوسط العمر التقريبي ٤٠ سنة فقط. وفي مجال المواصلات فإن معظم طرقها برّية ترابية، وتفتقر لخطوط السكك الحديدية، وتحتاج دائماً للمساعدات الخارجية^(١).

وبالتأمل في هذين النموذجين المتقابلين، يبدو واضحاً أن الاستقرار والسلم الاجتماعي في تجربة سنغافورة، هما ثمرة طبيعية ناتجة عن حالة المساواة والاحترام المتبادل بين الأطراف التي يتشكل منها الشعب هناك، بينما الصراع والنزاع في رواندا هما نتيجة حتمية لسياسة الإقصاء والتمييز والاضطهاد.

(١) الموسوعة العربية العالمية، ج ١١ ص ٣٠٠-٣٠٤، مكتب الآفاق المتحدة: المعلومات ١٩٩٧م - ١٩٩٨م، ص ٣٣٨-٣٤١.

الحصانة والوقاية

من الطبيعي أن تتأثر العلاقات الداخلية في أي مجتمع بمختلف العوامل السلبية والإيجابية، فهناك عوامل مساعدة على نمو تلك العلاقات وتوثيق أواصرها وترشيد مسارها، وهناك عوامل أخرى من داخل المجتمع أو خارجه، تلعب دوراً سلبياً في الإضرار بالسلم الاجتماعي، وإثارة الفتن والخلافات والنزاعات المدمرة.

من هنا تحتاج المجتمعات المهتمة باستقرارها ووحدتها الدينية والوطنية إلى اليقظة والوعي، وإلى تفعيل المبادرات والبرامج الوقائية والعلاجية المساعدة على حماية سلمها من التصدُّع، وتعزيز وحدتها وتضامنها.

ونشير هنا إلى بعض تلك البرامج الهامة في هذا المجال:

نشر ثقافة السلم:

تثير ثقافة السلم في الناس فطرتهم النقية، ووجدانهم الإنساني، وتبعث عقولهم على التفكير بموضوعية وعمق في خدمة واقعهم ومستقبلهم الاجتماعي والوطني. كذلك تلفت تلك الثقافة أنظارهم إلى التحديات الكبرى والأخطار الرئيسية المحدقة بهم كأمة ووطن، وتدفعهم إلى التنافس الإيجابي في الإنتاج والعطاء والإبداع.

﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾^(١)، ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾^(٢).

وكمسلمين، فإن تراثنا وتعاليم ديننا الحنيف، فيها ثروة عظيمة، وزخم هائل من التوجيهات والإرشادات، التي تجعل الوحدة والسلم في طليعة الفرائض والواجبات. وكما قال أحد علماء المسلمين: «قام

(١) سورة البقرة الآية ١٤٨.

(٢) سورة المطففين الآية ٢٦.

الإسلام على شيئين كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة». ففي القرآن الحكيم عشرات من الآيات التي تدعو إلى حُسن التعامل مع الناس بشكل عام، ورعاية حقوقهم المادية والمعنوية. ففي سياق الحديث عن الكفار يحذر الله تعالى من الاعتداء عليهم إن لم يبدأوا هم بالعدوان ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(١).

وعند الأمر بالدعوة إلى الله يؤكد الخالق جلّ وعلا، على رعاية مشاعر المدعويين واحترام أحاسيسهم. يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢).

وينهى المسلمين أن يتناقشوا مع المخالفين لهم في الدين إلا بأفضل أسلوب وأحسن طريقة ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٣).

وبشكل عام، يؤكد القرآن على التخاطب الأفضل مع الناس لأن أي إساءة لفظية قد تكون مدخلاً للعداوة والبغضاء:

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾^(٤).

ويدعو القرآن الكريم إلى التعامل الأفضل حتى مع الأعداء، بغرض تجاوز حالة العداء ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾^(٥).

هكذا، يعتبر القرآن السيطرة على الانفعالات، والقدرة على التعامل

(١) سورة البقرة الآية ١٩٠.

(٢) النحل الآية ١٢٥.

(٣) سورة العنكبوت الآية ٤٦.

(٤) سورة الإسراء الآية ٥٣.

(٥) سورة فصلت الآية ٣٥.

مع المخالفين والأعداء بحكمة وروية، درجة سامية، لا يرقى إليها إلا ذو القسط الوافر من الوعي والتقوى.

هذه التعاليم العظيمة نموذج من منظومة مفاهيمية ثقافية متكاملة، تشكل رؤية الإسلام وبرنامجه، لتوطيد السلم الاجتماعي، وتنميته وحمايته.

وفي المقابل هناك ثقافة سلبية تقوم بنشر الكراهية والحقد بين الناس، وتضخيم نقاط الاختلاف المحدودة، والتعقيم على مساحات الاتفاق الواسعة، وتشتغل بالتعبئة والتحريض، تحت عناوين مختلفة: عرقية أو مذهبية أو قبلية.

إن مثل هذه التوجهات تخالف منهج الإسلام، وتجبر المجتمع إلى الفتن والويلات. وكما قيل: فإن الحرب أولها كلام.

ولو استقرأنا الفتن والحروب الأهلية في المجتمعات الماضية والمعاصرة، لوجدنا بذورها قد نمت في أرضية مثل هذه الثقافة التحريضية البغيضة.

لذلك حينما يأمر الله عباده المؤمنين بالدخول جميعاً إلى رحاب السلم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً﴾^(١)، يحذّرهم بعد ذلك مباشرة من الاستجابة للإثارات الشيطانية ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾^(٢). فالشيطان لا ينقل المجتمع بقفزة صاروخية مفاجئة نحو الصراع والاحتراب، بل يستدرجه عبر سياسة الخطوة خطوة، التي قد تبدأ بنشر ثقافة الكراهية والحقد.

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٨.

(٢) سورة الأنعام الآية ١٤٢.

التربية الأخلاقية:

تكون أجواء الأسرة، ومناهج التعليم، وسيرة القادة في المجتمع، ملتزمةً بالتربية والتنشئة على أساس الاحترام المتبادل بين أطراف المجتمع.

إننا نجد الآن العديد من المجتمعات الغربية، بعد أن تكوّنت فيها جاليات من أعراق وثقافات وهويات مختلفة، تهتم بوضع مناهج وبرامج للتعريف والتعارف، ولتحقيق قدر من الاندماج الوطني يستوعب هذه الجاليات.

وفي هذا الصدد، نشرت الصحف صوراً لشرطيات بريطانيات مسلمات متحجبات، كما استتنت الشرطة البريطانية قبل فترة، السيخ من أصول هندية من قانون لبس القبعة الخاصة الواقية عند قيادة الدراجة النارية، مراعاةً لالتزامهم بلبس عمائمهم الخاصة بهم.

بالطبع، في المجتمعات الغربية نزعات وتوجهات عنصرية معادية للآخرين، لكنّ هناك جهوداً تبذلها جهات عديدة، رسمية وشعبية، لمواجهة هذه النزعات، ولاستيعاب هذه الجاليات المختلفة.

و في المقابل، تعاني بعض مجتمعاتنا الإسلامية من أزمات اجتماعية، بسبب ضيقهم من تحمّل بعضهم بعضاً، حينما تختلف جماعاتها في شيء من الخصوصيات والتفاصيل الجانبية، بينما تنتمي جميعها، إلى دين واحد، ووطن واحد.

إصلاح ذات البين:

أكد الإسلام على الدعوة إلى الإصلاح ومعالجة حالات الاختلاف والصراع داخل المجتمع بين الأفراد أو الفئات. يقول الله تعالى:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾^(١).

ويقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢).

إن الخلاف والصراع أمران محتملا الوقوع بين المؤمنين باعتبارهم بشراً لهم مصالح وأهواء. وقد يتصاعد هذا الاختلاف إلى حد الاقتتال. لكن المجتمع عليه أن يتدخل لوضع حد لهذا الصراع ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(٣).

وعن أبي الدرداء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين»^(٤).

وعن الإمام جعفر الصادق عن آبائه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما عمل امرؤ عملاً بعد إقامة الفرائض خيراً من إصلاح بين الناس، يقول خيراً وينمي خيراً»^(٥).

إن مجتمعاتنا الإسلامية بحاجة ماسة إلى وجود هيئات ومؤسسات تعمل على تنمية السلم الاجتماعي وحمائته، وتواجه محاولات الفتن والتصدع الداخلي، بالسعي للتقريب بين القوميات والمذاهب

(١) سورة الأنفال الآية ١.

(٢) سورة الحجرات الآية ١٠.

(٣) سورة الحجرات الآية ٩.

(٤) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٥٤٨٠، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ، مؤسسة الرسالة.

(٥) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٣ ص ٤٣، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

والتوجهات والفئات الاجتماعية المختلفة. وإذا أخذنا المشكلة الكردية الملتهبة في العراق وتركيا على الخصوص كمثال، فإننا نسأل: ألا يجب أن ينبري العلماء والمفكرون لمواجهة مفاعيلها السياسية والاجتماعية والثقافية؟ وكذلك الأمر بالنسبة إلى المشكلة الطائفية الحادة في باكستان، ألا ينبغي أن تحظى، هي الأخرى، باهتمام الواعين المخلصين. وما يجوز على المسألة الكردية أو المسألة الطائفية الباكستانية، يجوز بدوره على الخلافات الحزبية في أفغانستان، وبدور وأجواء الفتن المذهبية في مناطق مختلفة من بلاد المسلمين.

إنها مسؤولية عظمى، وقضية هامة، لا يصح أن نمر عليها مرور الكرام. وهذا هو دور العلماء الواعين، والمفكرين المخلصين.

ولا يصح أبداً أن تُترك الساحة للجهات الساذجة أو المغرضة لتذكي أوار الفتن والخلافات، وتسمم الأجواء بالكرهية والحقد. كما لا يجوز أن يكتفي المخلصون الواعون بمشاعر التأثر واجترار آهات التأم، بل ينبغي تضافر الجهود المهمة بمصلحة الدين والوطن في أرجاء عالمنا الإسلامي المترامي الأطراف، لأخذ مبادرات الإصلاح والدعوة إلى الوحدة والتقارب.

وتلوح في الأفق بشائر طيبة، نأمل أن تشق طريقها إلى الأمام، بهدف جمع شمل الأمة، وتوحيد صفوفها، وتوجيه جهودها وطاقاتها نحو مقاومة العدوان الصهيوني الغاشم، الذي يحتل مقدساتنا ويمارس أبشع الجرائم والانتهاكات بحق إخواننا في فلسطين.

المرأة والمعرفة الدينية

كلمة الجمعة بتاريخ ٢ ربيع الأول ١٤٢٢هـ

هل المؤسسة الدينية العلمية مؤسسة ذكورية لا مكان فيها للمرأة؟
وهل أن حركة الاجتهاد والفقاهة محصورة في الرجال محظورة
على النساء؟

ولماذا لا نجد للمرأة المسلمة المعاصرة دوراً في الحوزات العلمية
والمؤسسات الدينية وساحة النشاط الفكري الإسلامي؟
تفرض هذه الأسئلة نفسها من عدة منطلقات:

أولاً: إن المرأة مخاطبة بالدين كالرجل تماماً، فالدين يخاطب
الإنسان بقسميه الذكر والأنثى على حد سواء، وهو ليس للذكر أولاً
وللأنثى ثانياً، ولا أن المرأة مخاطبة عبر الرجل وبالتبع له، بل هي مكلفة
مباشرة من قبل الله تعالى ومحاسبة أمامه يوم القيامة كما هو الرجل.
وحينما يأتي في القرآن نداء للناس، أو لبني آدم، أو للعباد، أو
للإنسان، فإنه موجه بالطبع للذكور والإناث، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا
النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ
أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿يَا عِبَادِي

(١) سورة الحج الآية ١ .

(٢) سورة يس الآية ٦٠ .

الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ﴿١﴾ وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٢﴾.

إن هذه الآيات وأمثالها نداءات من قبل الله تعالى للرجل والمرأة، وكذلك فالتكاليف والأحكام الشرعية موجهة لهما معاً.

وباعتبارها مخاطبةً ومكلفةً فهي معنية بتلقي الخطاب وفهمه، وبمعرفة التكليف وتبينه. ومن الطريف هنا أن نقل الحديث المروي عن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر: «يا أيها الناس! وكانت الجارية تمشطها، فقالت للجارية: استأخري عني - أي أمهليني حتى أسمع - فقالت الجارية: إنما دعا الرجال ولم يدع النساء، فأجابتها أم سلمة: «إني من الناس»^(٣).

إضافة كمية ونوعية :

ثانياً: مشاركة المرأة في الحركة العلمية، والنشاط الفكري والشرعي الإسلامي، يعني مضاعفة الجهود التي تبذل في هذا الميدان، فالمرأة نصف المجتمع، وتمتلك الطاقة والكفاءة، فإذا ما وجهت قدراتها وإمكانياتها الذهنية والفكرية، في خدمة البحث العلمي الديني، أضافت إليه رصيذاً كبيراً، وإثراءً عظيماً.

بينما انكفاؤها عن هذا الميدان يعني خسارة ونقصاً.

وقد تكون عدم مشاركة المرأة في ميدان العلوم الدينية خسارة نوعية في بعض الأحيان، لأن مشاركتها لا تضيف رصيذاً كمياً في الجهود العلمية المبذولة فقط، بل قد تقوم المرأة بدور مميز، وخاصة في تنقيح

(١) سورة الزمر الآية ٥٣.

(٢) سورة الانشقاق الآية ٦.

(٣) القشيري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، كتاب الفضائل ٢٩، حديث رقم ٢٢٩٥.

الأحكام والموضوعات المرتبطة بشؤون المرأة، والقضايا المختصة بها، فالفقيه في ممارسته لاستنباط الحكم الشرعي ليس جهاز حاسوب آلي، ينجز مهامه بعيداً عن أي تأثير، بل هو بشر تنعكس الأجواء المحيطة به، والمشاعر والتصورات التي يحملها على رأيه ورؤيته، بشكل أو بآخر، وخاصة في مجال تنقيح الموضوعات الخارجية. فإذا امتلكت المرأة قدرة الاجتهاد والاستنباط، وتصدت لبحث القضايا والأحكام المرتبطة بها، ضمن الضوابط المقررة، فقد يكون تشخيصها أعمق وأدق في تلك الموضوعات..

صراع بين الحضارات:

ثالثاً: في هذا العصر وحيث أصبح موضوع المرأة معركة صراع بين الحضارات والتوجهات، ووظفت الحضارة المادية وسائل الإعلام والمعلومات المتطورة، للتبشير برؤيتها وثقافتها، ولترويج أنماط السلوك الاجتماعية المنبثقة عنها، فإن من الضروري جداً أن تسلح المرأة المسلمة برؤية الإسلام، وأن تتحصن بمفاهيمه ومناهجه، حتى لا تقع فريسة لتأثيرات الأفكار والبرامج الوافدة، خاصة وأنها تستهدف المرأة بدرجة أساسية، وأيضاً لتكون المرأة المسلمة هي خط الدفاع عن تعاليم الإسلام، والمبشرة بمفاهيمه وقيمه الأخلاقية الاجتماعية، على مستوى العالم.

إن مؤتمرات كبرى عالمية تعقد حول موضوع المرأة، كمؤتمر (نيروبي) عام ١٩٧٥م، ومؤتمر (بكين) عام ١٩٩٥م، ضمن سياق إبراز النموذج الغربي للمرأة، وتعميمه لكل المجتمعات البشرية، وهناك سيل لا ينقطع من البرامج الإعلامية والثقافية، عبر الأفلام والمجلات، والمؤسسات الاجتماعية الضخمة، التي تدفع بهذا الاتجاه.

فإذا ما كانت المرأة محدودة المعرفة والوعي الديني، أو لم تكن مفاهيم الإسلام واضحة وراسخة في ذهنها وفكرها، فإنها لن تصمد أمام هذه الثقافة الغريبة الزاحفة.

إن نفقه المرأة في الدين، وإلمامها بمعارفه، وتعمقها في فهم أحكامه ومناهجه، هو الذي يؤهلها للقيام بدور الدعوة إلى الإسلام، والتبشير بنموذجه للمرأة على الصعيد العالمي.

المرأة والتنافس العلمي:

بالعلم تميّز الإنسان على غيره من المخلوقات، ونال الجدارة من الله سبحانه بأن يكون خليفته في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) ولما تساءلت الملائكة عن مدى صلاحية الإنسان للقيام بهذا الدور، وهو ينطوي على غرائز وشهوات قد تقوده إلى الإفساد في الأرض؟ أجابهم الخالق القدير بإظهار ما منحه تعالى للإنسان من قدرة على التعلم، وكفاءة في كسب المعرفة، يقول تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٢).

هكذا أصبح العلم ميزة للإنسان، وصفة نال بها الجدارة للخلافة في الأرض، وكلما زاد علمه زاد تميّزه، واتسعت قدراته لتسخير قوى الطبيعة، واستثمار طاقات الكون والحياة.

وكما تميّز الإنسان على غيره بالعلم، فإن أفراد الإنسان يتمايزون

(١) البقرة الآية ٣٠.

(٢) البقرة الآية ٣١-٣٣.

فِيمَا بَيْنَهُمْ وَيَتَفَاضِلُونَ بِالْعِلْمِ أَيْضًا: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(١)، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢).

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكثر الناس قيمة أكثرهم علماً، وأقل الناس قيمة أقلهم علماً»^(٣).

فباب العلم مفتوح للراغبين فيه، وساحته ميدان سباق للمتنافسين على مقاماته. وكل إنسان مؤهل للولوج إلى هذا الميدان، بما منحه الله تعالى من نعمة إدراك وتعقل، دونما فرق بين شقيه الذكر والأنثى.

فالمرأة كالرجل، توازيه في إنسانيته، وتشاركه في القيام بدور الخلافة، وتحمل مسؤولية عمارة الأرض، وقد منحها الله تعالى كالرجل نعمة العقل، وقدرة الإدراك والمعرفة، ولا تختلف عنه في كونها تملك استعداداً وقابلية تامة لإدراك الحقائق والمفاهيم، وتملك القدرة على العلم والتعلم، والسير في هذا الطريق إلى أقصى غاياته.

بل إن دماغ النساء يحتوي على خلايا الدماغ المسماة العصبونات، بنسبة تزيد بحوالي ١٠٪ عن دماغ الرجال، بالرغم من أن الرجال بصفة عامة أكبر حجماً من النساء، وأدمغتهم كذلك أكبر حجماً^(٤).

والتفاوت في حجم الدماغ لا يؤثر في مستوى فعاليته، وإلا فدماع الفيل يزن حوالي ٦ كيلوغرامات بينما دماغ الإنسان لا يزن أكثر من

(١) المجادلة الآية ١١.

(٢) الزمر الآية ٩.

(٣) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، الجزء الأول ص ١٦٤، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٤) الموسوعة العربية العالمية، ج ١٠ ص ٣٦٦، الطبعة الثانية ١٩٩٩ م، الرياض - السعودية.

١٣٠٠ غرام^(١).

وقد نشرت الدكتورة (كيمورا) الباحثة في الأسس العصبية والهرمونية للوظائف الفكرية -الذهنية- لدى الإنسان، وهي أستاذة في علم النفس في جامعة غربي أونتاريو، نشرت بحثاً علمياً حول الفوارق في الدماغ بين الجنسين، أكدت فيه وجود تفاوت متبادل في بعض الجوانب والمهارات، حيث يقابل تفوق كل طرف في جانب، تفوق الطرف الآخر في جانب آخر، وخلصت إلى «إن الفوارق الجوهرية بين الجنسين، تكمن في الطُّرز المختلفة للمهارات الفكرية التي يتمتع بها كل منهما، أكثر مما هو راجع إلى المستوى العام للذكاء (حاصل الذكاء)، فمن المعروف أن هناك تفاوتاً بين الناس في قدراتهم الذهنية: فمنهم من يبرع في الجوانب اللغوية، ومنهم من يجيد الأعمال اليدوية، وهكذا يمكن لشخصين أن يتمتعا بمستوى واحد من الذكاء، مع اختلاف في نمط المهارات التي يجيدها كل منهما»^(٢).

العلم فريضة على المرأة:

من هنا فإن دعوة الإسلام الإنسان إلى طلب العلم، وحثه البليغ على كسبه، موجهة إلى المرأة، كما هي موجهة إلى الرجل، وليس هناك نص واحد من آيات القرآن الكريم، أو أحاديث السنة الشريفة في هذا السياق مقتصر على الرجل وحده. ولزيادة التأكيد على هذه الحقيقة فإن الحديث الشريف المروي عن رسول الله ﷺ والذي يعتبر طلب العلم فريضة واجبة وليس أمراً ثانوياً كمالياً حيث يقول ﷺ: «طلب

(١) عاقل:الدكتور فاخر، علم النفس، ص٦٢، الطبعة العاشرة ١٩٨٧م، دار العلم للملايين، بيروت.

(٢) مجلة العلوم: الترجمة العربية لمجلة العلوم الأمريكية، الدكتورة كيمورا، الفوارق في الدماغ بين الجنسين، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، المجلد ١٠ العدد ٥، ص٧٦، مايو ١٩٩٤م.

العلم فريضة على كل مسلم» هذا الحديث ورد في إحدى صيغته إضافة و(مسلمة) مع أن (كل مسلم) موضوعه الشخص فيشمل الذكر والأنثى، على حد تعبير أبي الحسن الحنفي السّندي في شرحه لسنن ابن ماجه القزويني^(١) إلا أن ورود لفظة (ومسلمة) هو لمزيد التأكيد على شمول الأمر للرجال والنساء.

وقد وردت هذه الإضافة (ومسلمة) في الحديث، ضمن مصدرين حديثين هما (غوالي اللثالي العزيزية) لأبي جمهور الأحسائي، و(مصباح الشريعة) المنسوب للإمام جعفر الصادق عليه السلام كما نقل عنهما الشيخ المجلسي في (بحار الأنوار)^(٢) أما المصادر الأساسية الأخرى كسنن ابن ماجه والأصول من الكافي للشيخ الكليني فلم ترد فيها هذه الإضافة.

بقي أن نشير إلى أن العلم الذي يكون طلبه مفروضاً شرعاً هو ما تتوقف عليه حياة الإنسان الدنيوية ومصيره الأخروي.

المرأة والعلوم الدينية :

كانت المرأة سبّاقة إلى التعرف على الرسالة، وإلى الاطلاع على الآيات القرآنية الأولى التي نزل بها الوحي على رسول الله ﷺ، حيث كانت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد أول من اطلع على خبر البعثة النبوية، إذ حينما نزل الوحي للمرة الأولى في غار حراء، وعاد الرسول ﷺ بعدها إلى بيته، فإنه حدّث زوجته خديجة بما رأى وسمع، فقالت: أبشري بن عم وأثبت فوالذي نفس خديجة بيده إنني لأرجو أن تكون

(١) السندي: أبو الحسن الحنفي، شرح سنن ابن ماجه القزويني، ج ١ ص ٩٩، دار الجليل، بيروت.

(٢) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١ ص ١٧٧ - ج ٢ ص ٣٢، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م، دار إحياء التراث العربي، بيروت..

نبي هذه الأمة^(١).

وكما كان علي بن أبي طالب أول ذكر آمن برسول الله صلى معه^(٢)، فإن خديجة بنت خويلد أول امرأة آمنت به، وصدقت بما جاءه من الله تعالى، فكان علي وخديجة هما السابقان إلى الإسلام، ثم توالى بعدهما إسلام بقية الأصحاب كأبي بكر وزيد بن حارثة.

واهتمت المرأة المسلمة بكسب المعارف الإسلامية، عبر تواجدها في المسجد، واستماعها للخطب النبوية الشريفة، وحضورها في مختلف المناسبات العسكرية والسياسية والاجتماعية، ومشاركتها في معظم الأحداث والقضايا التي واكبت بناء المجتمع الإسلامي الأول، ومسيرة الأمة.

وكمصداق لرغبة المرأة المسلمة في تحصيل علوم الشريعة، فقد تقدمت مجموعة من النساء تطلب من رسول الله ﷺ درساً خاصاً بهنّ، كما ورد عن أبي سعيد الخدري أنه قال: قالت النساء للنبي ﷺ: غلبنا عليك الرجال فاجعل لنا يوماً من نفسك فوعدهن يوماً لقيهنّ فيه فوعظهن وأمرهن^(٣).

وكان رسول الله ﷺ يهتم بإيصال حديثه وتوجيهه للنساء، حتى أنه ربما كرر خطبته للنساء بعد أن يخطب الرجال، إذا ظن أنهن لم يسمعن صوته، كما حدّث ابن جرّيج قال: أخبرني عطاء، عن جابر بن عبد الله قال: سمعته يقول: قام النبي ﷺ يوم الفطر فصلى، فبدأ بالصلاة، ثم

(١) ابن هشام: عبد الملك، السيرة النبوية، ج ١ ص ٢٧٤، إعداد مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٢.

(٣) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ج ١ ص ٦٠، كتاب العلم، حديث رقم ٤٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

خطب، فلما فرغ نزل فأتى النساء، فذكرهن، وهو يتوكأ على يد بلال، وبلال باسط ثوبه، يلقي فيه النساء الصدقة. قلت لعطاء: أترى حقاً على الإمام ذلك ويذكرهن؟ قال: إنه لحق عليهم، وما لهم لا يفعلونه؟^(١)

فتربّت المرأة المسلمة على الاهتمام بدينها، والحرص على معرفته، والتفقه فيه، وما كانت تتردد في الذهاب إلى الرسول ﷺ وسؤاله عما تحتاجه من الأحكام الشرعية، حتى في المسائل الخاصة بها، والمرتبطة بالقضايا الجنسية، حتى قالت أم المؤمنين عائشة: «نعم النساء نساء الأنصار! لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين»^(٢).

مصدر للسنة النبوية :

وبذلك أصبحت المرأة مصدراً للأحاديث النبوية الشريفة، ومرجعاً لنشر رواياتها ونصوصها، تماماً كالرجال من الصحابة الراوين لأحاديث السنة الشريفة، وكتب الحديث مليئة بالأحاديث الواردة عن طريق زوجات رسول الله ﷺ، وابنته فاطمة الزهراء ﷺ، وسائر الصحابيات الراويات.

فهي كالرجل طريق لسنة رسول الله ﷺ، ومصدر لمعرفة أحكام التشريع، لذا أجمع علماء المسلمين على الأخذ بروايات النساء، حينما تتوفر في تلك الروايات شروط القبول والصحة. يقول الشيخ المامقاني: «تقبل رواية الأنثى والخثى إذا جمعت الشروط المذكورة (الإيمان، البلوغ، العقل، العدالة، الضبط) حرة كانت أو مملوكة. كما صرح بذلك كله الفاضلان وغيرهما، بل نفى العلامة في النهاية الخلاف فيه، وادعى

(١) المصدر السابق، حديث رقم ٩٨ ورقم ٩٧٨.

(٢) القشيري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم كتاب الحيض، حديث رقم ٦١.

في البداية: إطباق السلف والخلف على الرواية عن المرأة»^(١).

وقال الشوكاني: «لم ينقل عن أحد من العلماء بأنه رد خبر امرأة لكونها امرأة، فكم من سنة تليقها الأمة بالقبول من امرأة واحدة من الصحابة، وهذا لا ينكره من له أدنى نصيب من علم السنة»^(٢).

وقد أثبت الإمام الخوئي في موسوعته (معجم رجال الحديث) (باب النساء) أسماء ١٣٤ راوية روين الأحاديث عن رسول الله ﷺ وعن الأئمة من آله^(٣).

وقد صدر مؤخراً كتاب بعنوان (عناية النساء بالحديث النبوي) لمؤلفه مشهور بن حسن آل سلمان، ترجم فيه لنحو ٣٥٤ امرأة كان لهن دور في هذا الإطار.

ففي حدود القرن الأول الهجري وجد عدد كبير من الراويات للأحاديث النبوية - لاسيما في طبقة الصحابييات - فقد بلغ عدد من لهن رواية من الصحابييات في الكتب الستة لأهل السنة ١٣٢ امرأة. ويقول أحد الباحثين: وكان للنساء الراويات - في القرون السابقة - منقبة ومفخرة انفردن بها عن الرواة، هي أنه لم يكن منهن امرأة اتهمت بالكذب، أو الوضع، أو ترك حديثها. بينما وصف المئات من الرجال بهذه الأوصاف. قال الذهبي في أواخر كتابه ميزان الاعتدال: «وما علمت في النساء من اتهمت ولا من تركوها». وعقد ابن عرّاق الكناني

(١) المامقاني: الشيخ عبد الله، مقباس الهداية في علم الدراية، ج ٢ ص ٥٠، تحقيق الشيخ محمد رضا المامقاني، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، الطبعة الأولى ١٩٩١ م، بيروت.

(٢) أبو شقة: عبد الحليم، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج ١ ص ١١٨، الطبعة الأولى ١٩٩٠ م، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت.

(٣) الخوئي: السيد أبو القاسم، معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، ج ٢٣ ص ١٧٠، الطبعة الرابعة ١٤١٠ هـ، قم - إيران.

فصلاً سرد فيه أسماء الوضّاعين والكذّابين، فبلغوا المئات، لم توجد فيهم امرأة واحدة. فحسب النساء بذلك فخراً.^(١)

وقد بلغ عدد المحدثات اللاتي اهتممن برواية الحديث النبوي، وعرفن بذلك، في القرن الثامن الهجري فقط ٢٣٢ امرأة، هذا ما نقلته كتب التراجم ولعلهن أكثر من هذا العدد.

هذا ولم يقف مستوى المرأة في العلوم الدينية عند مستوى حفظ الحديث ونقل الرواية، بل نافست الرجل في الوصول إلى مستوى الفقاهة والاجتهاد، وإبداء الرأي والنظر باستنباط الحكم الشرعي من مصادره المقررة.

(١) معتوق: الدكتور صالح يوسف، جهود المرأة في رواية الحديث القرن الثامن الهجري، ص ٨٥، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، دار البشائر الإسلامية، بيروت.

المرأة والدور القيادي

كلمة الجمعة بتاريخ ٩ ربيع الأول ١٤٢٢ هـ

هل يمكن للمرأة أن تكون صاحبة رأي في مجال الفكر والتشريع الإسلامي؟ وهل يحق لها المشاركة في حركة الاجتهاد واستنباط الحكم الشرعي؟

أم أن أوثقها تقصر بها عن بلوغ هذا المقام وتبقيها ضمن حدود الإتياع والتقليد للرجل؟

من المعلوم أن مفاهيم الدين وأحكامه تؤخذ من الكتاب والسنة، وهما خطاب مفتوح لكل ذي عقل، وموجهان لكل إنسان، ووعيهما والتدبر فيهما مطلوب من كل مكلف، ذكراً كان أو أنثى، فحينما يقول تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾^(١) ويقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(٢) ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(٣) وحينما يقول النبي ﷺ: «نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها»^(٤) فهذه الخطابات والأوامر لا تختص بالرجال دون النساء. فكما يتفهّم الرجل آيات الكتاب العزيز، وأحاديث الرسول الكريم

(١) سورة آل عمران الآية ١٣٨.

(٢) سورة النساء الآية ٨٢.

(٣) سورة القمر الآية ١٧.

(٤) ابن حنبل: أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم ١٦٨٥٩، الطبعة الاولى ١٩٩٨م، عالم الكتب، بيروت..

ﷺ، ويعرف منهما واجبه وتكليفه، فكذلك الحال بالنسبة للمرأة، وهذا ما كان معمولاً به في عصر النبوة والإمامة.

وإذا كانت المسافة الزمنية التي تفصلنا عن عصر التشريع، قد جعلت عملية فهم النص الشرعي، ومعرفة الوظيفة من خلاله، تحتاج إلى درجة من الخبرة في بعض العلوم كأرضية ومقدمات لتحصيل القدرة على استنباط الحكم الشرعي من مصادره المقررة، كاللغة العربية، وتفسير القرآن، وعلم الدراية، وعلم الأصول.

فإن التوفّر على هذه الخبرة العلمية، إنما يستلزم حركة وقدرة ذهنية تمتلكها المرأة، كما يمتلكها الرجل. وبالتالي فيمكن المرأة أن تصل إلى مستوى الفقهارة والاجتهاد، فتعامل مع النص الشرعي مباشرة، وتستنبط المفاهيم والأحكام، وحينئذ ليست المسألة أنه يصح لها العمل بما يؤدي إليه رأيها واجتهادها، بل إنه يجب عليها ذلك.

لأن المجتهد - رجلاً كان أو امرأة - إذا استنبط الحكم بالفعل، فلا يجوز له أن يترك ما اتضح له أنه حكم الشرع، ويعمل برأي آخر. فالمرأة يمكن أن تكون فقيهة مجتهدة، وأن تعمل برأيها وحسب اجتهادها.

المرأة والمرجعية :

ناقش الفقهاء مسألة أهلية المرأة للتصدي للمرجعية والتقليد، بحيث يعتمد الآخرون على فتاواها، وتصبح مرجعية دينية تؤخذ منها الأحكام الشرعية.

والرأي السائد لدى الفقهاء والذي يذكرونه في رسائلهم العملية، هو عدم جواز تقليد المرأة، وإن اجتمعت فيها كل الشروط والمواصفات،

على أساس أن الذكورة شرط في المرجعية.

لكن الملفت للنظر، أن أغلب أولئك الفقهاء حينما يناقشون المسألة علمياً وعلى صعيد الاستدلال والبحث، يعترفون بعدم وجود دليل مقنع للمنع من تقليد المرأة، ولسلبها أهلية المرجعية والإفتاء.

يقول السيد الحكيم في المستمسك: «وأما اعتبار الرجولة في شرائط المجتهد المقلد فهو أيضاً كسابقه عند العقلاء (غير ظاهر عند العقلاء) وليس عليه دليل ظاهر غير دعوى انصراف اطلاقات الأدلة إلى الرجل، واختصاص بعضها به. ولكن لو سلم فليس بحيث يصلح رادعاً عن بناء العقلاء. وكأنه لذلك أفتى بعض المحققين بجواز تقليد الأنثى والخشى»^(١).

وقد بحث هذه المسألة الفقيه الشيخ محمد مهدي شمس الدين، وناقش أدلة المانعين، وخلص إلى: «أنه لا دليل على اشتراط الذكورة في مرجع التقليد، كما أن جميع ما ذكر لا يصلح للردع عن بناء العقلاء وسيرتهم على عدم الفرق، في رجوع الجاهل إلى العالم، بين كون العالم رجلاً أو امرأة، فيصح تقليد المرأة المجتهدة الفقيهة إذا كانت واجدة لبقية الشرائط المعتبرة في مرجع التقليد».

وعلى هذا اتفق الفقهاء وعلماء الحديث في باب الرواية.

والعمدة في المسألة بناء العقلاء، هذا مضافاً إلى أن أدلة حجية الرواية هي أدلة حجية الفتوى ومشروعية التقليد، ولا يمكن تجزئة دلالة الأدلة إلا بدليل مقيد أو مخصص، وقد تبين عدم وجود دليل من هذا القبيل. قال المحقق الأصفهاني: «فأما الذكورة فلا دليل عليها

(١) الحكيم: السيد محسن الطباطبائي، مستمسك العروة الوثقى، ج ١ ص ٤٣، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

بالخصوص، وما ورد في باب القضاء من عدم تصدي المرأة له، وكذلك في الإمامة للرجال فالحكمة فيهما ظاهرة.

وهل حال الفتوى إلا كحال الرواية، ولذا يستدل بأدلة حجية الخبر على حجية الفتوى، من دون اختصاص لحجية الرواية بالرجال. مع أنه لا ينبغي الريب في جواز العمل لها برأيها أيضاً^(١).

أما عند فقهاء السنة فيبدو أنهم متفقون على أن الذكورة ليست من شروط الإفتاء والمفتي، وبالتالي فهم يقبلون مرجعية المرأة في الأحكام الشرعية. جاء في الموسوعة الفقهية: «لا يشترط في المفتي الحرية والذكورية والنطق اتفاقاً، فتصح فتيا العبد والمرأة والأخرس»^(٢).

المرأة والاصطفاء الإلهي:

تحدث القرآن الكريم في موارد عديدة عن مفهوم الاصطفاء، وأن الله تعالى قد اصطفى أفراداً من خلقه وعباده، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣). وقوله تعالى: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى الَّذِينَ اصْطَفَى﴾^(٤)، وقوله تعالى عن نبيه إبراهيم ﷺ: ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾^(٥)، وعن نبيه موسى ﷺ: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾^(٦) وآيات أخرى عديدة.

(١) شمس الدين: محمد مهدي، الاجتهاد والتقليد، ص ٢٨٣ الطبعة الأولى ١٩٩٨م، المؤسسة الدولية.

(٢) الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ج ٣٢ ص ٢٦، الكويت.

(٣) سورة آل عمران الآية ٣٣.

(٤) سورة النحل الآية ٥٩.

(٥) سورة البقرة الآية ١٣٠.

(٦) سورة الأعراف الآية ١٤٤.

والاصطفاء في اللغة العربية من مادة الصفو والصفاء. جاء في لسان العرب: صَفْوَةٌ كل شيء خالصة. والصِفْوَةُ - بالكسر - خيار الشيء وخلاصته وما صفا منه. والصَفِيُّ من الغنيمة: ما اختاره الرئيس من المغنم واصطفاه لنفسه قبل القسمة من فرس أو سيف أو غيره. واستصفت الشيء إذا استخلصته. والاصطفاء الاختيار، افتعال من الصفو. ومنه: النبي ﷺ صَفْوَةُ اللَّهِ من خلقه ومصطفاه^(١).

ويتبين من معنى الاصطفاء لغة، ومن سياق ورود هذا المفهوم قرآنياً، أن اصطفاء الله تعالى لأحد يعني شيئين:

١. صفاء وخلوص ذلك المصطفى من الشوائب والثغرات، بأن يكون في قمة النزاهة والكمال ذهنياً وسلوكياً.
٢. اختياره وتمييزه عن الآخرين وتقديمه لهم كرمز وقدوة، ليكون نموذجاً يقتفى ويهتدي به في طريق الخير والصلاح.

ولإرادة هذين المعنيين كرّر الله تعالى ذكر الاصطفاء في خطابه للسيدة مريم ابنة عمران ﷺ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

يقول ابن عاشور: وتكرر فعل اصطفاك لأن الاصطفاء الأول اصطفاء ذاتي، وهو جعلها منزهة زكية، والثاني بمعنى التفضيل على الغير، فذلك لم يُعدَّ الأول إلى متعلق، وعُدِّي الثاني^(٣).

هذا الاصطفاء الإلهي الذي يعني وجود أفراد من البشر يجسدون

(١) ابن منظور، لسان العرب، ج ٣ ص ٤٥٤، طبعة دار الجيل ودار لسان العرب ١٩٨٨ م.

(٢) سورة آل عمران الآية ٤٢.

(٣) ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج ٣ ص ٩٥، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ م، مؤسسة التاريخ، بيروت.

المبادئ والقيم في حياتهم، ويبلغون مستوى الطهارة والكمال، ويكونون قدوات وهداة، لبني الإنسان على امتداد التاريخ، لم يجعله الله تعالى رتبة خاصة بالرجال دون النساء، بل اصطفى عينات من النساء كما اصطفى من الرجال، مما يدل على قابلية المرأة وأهليتها لأعلى درجات الكمال، وأن تكون في موقع الريادة والإقتداء، وفي مستوى التفوق والامتياز على سائر بني البشر نساءً ورجالاً.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(١).

وآل إبراهيم وآل عمران فيهم الرجال والنساء. ومن النساء اللاتي نعرفهن: سارة وهاجر زوجته إبراهيم عليه السلام ومن آل عمران: مريم وأمها. كما نص القرآن الكريم على اصطفاء مريم عليها السلام.

وحيثما نزل الوحي بآية التطهير لأهل بيت رسول الله وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٢) فإنها شملت فاطمة الزهراء إلى جانب علي والحسين عليهم السلام. يقول الشيخ ابن تيمية حول هذه الآية الكريمة: «وقد روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أم سلمة: أن هذه الآية لما نزلت أدار النبي صلى الله عليه وسلم كساءه على علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، وسنته تفسر كتاب الله وتبينه، وتدلل عليه، وتعبر عنه. فلما قال: «هؤلاء أهل بيتي» مع أن سياق القرآن يدل على أن الخطاب مع أزواجه، علمنا أن أزواجه وإن كن من أهل بيته كما دل عليه القرآن، فهؤلاء أحق بأن يكونوا أهل بيته، لأن

(١) سورة آل عمران الآية ٣٣.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٣٣.

صلة النسب أقوى من صلة الصهر»^(١).

وبكل وضوح يقدم القرآن الكريم المرأة المصطفاة كمثّل ونموذج لجميع المؤمنين ذكوراً وإناثاً على مر العصور بقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِتْقَانُ الْإِسْلَامِ وَذِكْرٌ لِمَنْ أَرَادَ لِمِثْلِهَا سَبِيلًا صِدْقًا﴾^(٢).

نبوة المرأة:

الرؤية الإسلامية المتميزة للمرأة، والتي تقوّم المرأة من خلال إنسانيتها وقدراتها وإنجازاتها، ولا تعتبر أنوشتها معوقاً، ولا نقطة ضعف تقعد بها عن بلوغ أي مستوى من التقدم والكمال.. هذه الرؤية دفعت بعض العلماء للنقاش حول موضوع نبوة المرأة، وأنه لا مانع من أن يمنح الله تعالى رتبة النبوة لبعض النساء، فمن الناحية العقلية حين يبحث علماء الكلام الصفات التي يجب أن تتوفر في النبي، فإنهم لا يعتبرون الذكورة شرطاً، حيث لا يمتنع عقلاً أن تكون المرأة نبية، وإذا كانت هناك آيات في القرآن تفيد أنه من الناحية الفعلية كان الرسل رجالاً كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾^(٣).

فإن العديد من العلماء والمفسرين قد أشاروا إلى أن المقصود بالرجولة هنا هو البشرية، في مقابل توقع البعض أن يكون الأنبياء فوق مستوى البشر كأن يكونوا ملائكة، يقول تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) ابن تيمية: تقيي الدين أحمد، حقوق آل البيت، ص ٢٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) سورة التحريم الآية ١١-١٢.

(٣) سورة يوسف الآية ١٠٩.

مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ﴿١﴾.

قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾، «والرجال: اسم جنس جامد لا مفهوم له. وأطلق هنا مراداً به أناساً كقوله ﷺ: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»، أي إنسان أو شخص فليس المراد الاحتراز عن المرأة»^(٢).

ويؤيد ذلك ما ورد في القرآن الكريم من استخدام كلمة (رجل) بمعنى إنسان كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلِيلٍ فِي جَوْفِهِ﴾^(٣) وقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾^(٥) وغيرها، فإن المقصود هنا بالرجل والرجال ليس الذكور في مقابل الإناث كما هو واضح.

وأيضاً فإن هناك من يفرق بين الرسول والنبى، على أساس أن كل رسول مطلوب منه التبليغ والدعوة، بينما لا يلازم النبوة ذلك، وبناءً عليه فإن الآيات إنما تنفي عن النساء الرسالة، ولكنها لا تنفي النبوة، كما يذهب إلى ذلك بعض علماء أهل السنة.

يقول ابن حجر العسقلاني في فتح الباري شرح صحيح البخاري، عند شرحه لحديث رقم ٣٤١١ عنه ﷺ: «كامل من الرجال كثير ولم

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٤.

(٢) ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج ٢ ص ١٢٧، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ، بيروت.

(٣) سورة الأحزاب الآية ٤.

(٤) سورة النور الآية ٣٧.

(٥) سورة التوبة الآية ١٠٨.

يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران...» قال ما يلي :

«استدل بهذا الحصر على أنهما نبيتان لأن أكمل النوع الإنساني الأنبياء ثم الأولياء والصديقون والشهداء، فلو كانتا غير نبيتين للزم ألا يكون في النساء ولية ولا صديقة ولا شهيدة، والواقع أن هذه الصفات في كثير منهن موجودة فكأنه قال ولم ينبأ من النساء إلا فلانة وفلانة... وقد نقل عن الأشعري أن من النساء من نبىء وهن ست: حواء وسارة وأم موسى وهاجر وآسية ومريم، والضابط عنده أن من جاءه الملك عن الله بحكم من أمر أو نهى أو بإعلام مما سيأتي فهو نبي، وقد ثبت مجيء الملك لهؤلاء بأمور شتى من ذلك من عند الله عز وجل، ووقع التصريح بالإيحاء لبعضهن في القرآن.

وقال ابن حزم: وحجة المانعين قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾^(١) وهذا لا حجة فيه فإن أحداً لم يدع فيهن الرسالة، وإنما الكلام في النبوة فقط»^(٢).

ونقل الألووسي البغدادي في تفسيره روح المعاني أنه: «ذهب إلى صحة نبوة النساء جماعة وصحح ذلك ابن السيد»^(٣).

فاطمة الزهراء عليها السلام وأمّهات المؤمنين:

النصوص الواردة حول مقام فاطمة الزهراء عليها السلام تدل على أنها في موقع الريادة والحجة الشرعية على الناس رجالاً ونساءً.

إذ أن القرآن الكريم يحكم بطهارتها وانتفاء أي رجس عنها ضمن

(١) سورة النحل الآية ٤٣.

(٢) ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي، فتح الباري، ج ٦ ص ٤٤٣.

(٣) الألووسي: السيد محمود، روح المعاني، ج ١٤ ص ١٤٧.

أهل البيت بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(١).

كما أن قول رسول الله ﷺ في حقها: «فاطمة بضعة مني فمن
أغضبها فقد أغضبني»^(٢) والذي رواه البخاري عن المسور ابن مخرمة.
وقوله ﷺ: «إن الله عز وجل ليغضب لغضب فاطمة، ويرضى لرضاها»
والذي رواه الطبراني في المعجم الكبير والحاكم في المستدرک والذهبي
في الميزان وغيرهم^(٣).

وأحاديث عديدة أخرى، تقدم السيدة الزهراء كرمز وقدوة
للأمة الإسلامية جمعاء، وبالطبع فإن معنى ارتباط رضا الله برضاها،
وغضب الله بغضبها، يدل على عصمتها ونزاهتها وكمالها، وأن سلوكها
وممارساتها، بل وحتى مشاعرها وعواطفها منسجمة مع القيم الإلهية،
لا تحيد عنها قيد شعرة، وإلا فكيف يرتبط رضا الله تعالى وغضبه بمن
يصح عليه الرضا والغضب النابع من الهوى والانفعال؟

وبناء على ذلك فإن ما يصدر عن السيدة الزهراء من قول أو فعل
أو موقف فإنه يكون كاشفاً عن الأمر والتشريع الإلهي. فهي حجة
شرعية على جميع الناس، وهي - عليها الصلاة والسلام - حجة على
كل أولادها الأئمة الطاهرين ﷺ ولذا قال الإمام الحسن العسكري ﷺ:
«وهي حجة علينا»، وقال الإمام الحجة ﷺ: «وفي ابنة رسول الله لي
أسوة حسنة»، وقد قال الإمام الحسين ﷺ: «أمي خير مني»^(٤).

(١) سورة الأحزاب الآية ٣٣.

(٢) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٣٧٦٧، دار الكتب العلمية،
بيروت.

(٣) السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، مسند فاطمة الزهراء، حديث رقم ١١٩،
الطبعة الأولى ١٩٩٤م، دار ابن حزم، بيروت.

(٤) الشيرازي: السيد محمد الحسيني، فقه الزهراء، ج ١ ص ١١.

هكذا يقدم الإسلام المرأة في مقام ريادي، وموقع قيادي، ليؤكد قابليتها واستعدادها للكمال والتفوق، تماماً كما هو الحال بالنسبة للرجل.

كذلك كان لزوجات رسول الله ﷺ أمهات المؤمنين موقعية خاصة لدى الصحابة والتابعين في نقل أحاديث الرسول ﷺ والإخبار عن سنته وسيرته، لقربهن من حياته الخاصة.

وبمراجعة سريعة لصحيح البخاري ومسلم مثلاً، وهما المصدران المعتمدان عند أهل السنة والجماعة، نجد عدداً وفيراً من الروايات عن أمهات المؤمنين، وخاصة أم المؤمنين عائشة بل نجد فيهما أن بعض الصحابة كانوا يرجعون إلى أمهات المؤمنين في بعض ما استشكل عليهم من المسائل الدينية.

وأكثر من ذلك فإن في الصحيحين روايات تشير إلى استدراك بعض أمهات المؤمنين على آراء وفتاوى بعض الصحابة جاء في صحيح مسلم عن عبيد الله بن عمير قال: بلغ عائشة أن عبد الله بن عمرو يأمر النساء إذا اغتسلن، أن ينقضن رؤوسهن.

فقالت: يا عجباً لابن عمرو هذا! يأمر النساء إذا اغتسلن، أن ينقضن رؤوسهن، أفلا يأمرهن أن يحلقن رؤوسهن! لقد كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء واحد، ولا أزيد على أن أفرغ على رأسي ثلاثة أفرغات^(١).

وقد ألف بدر الدين الزركشي كتاباً بعنوان (الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة) أحصى فيه استدراعاتها على تسعة وخمسين مسألة، عارضت فيها ثلاثة وعشرين من أعلام الصحابة.

(١) القشيري النيسابوري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم ٣٣١.

وقال في مقدمة كتابه: «هذا كتاب أجمع فيه ما تفردت به عائشة رضي الله عنها، أو خالفت فيه سواها، برأي منها، أو كان عندها فيه سنة بينة، أو زيادة علم متقنة، أو أنكرت فيه على علماء زمانها، أو رجع فيه إليها أجلة من أعيان أو أنها، أو حررتهم الفتوى، أو اجتهدت فيه من رأي رآته أقوى»^(١).

(١) أبو شقة: عبد الحلیم، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج ١ ص ٢١٠، الطبعة الأولى ١٩٩٠م، دار القلم، الكويت.

معاناة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة

كلمة الجمعة بتاريخ ١٦ ربيع الأول ١٤٢٢هـ

بيدي كثير من الباحثين الأجانب غربيين وشرقيين دهشتهم لضخامة الإنجاز الذي حققه الرسول محمد ﷺ، في مدة قياسية، ومساحة زمنية محدودة، فما كاد يمر على بدء الدعوة عقد ونصف من الزمن، حتى تمكن رسول الله ﷺ من بناء مجتمع إيماني متماسك، وإقامة كيان رسالي متحضر، على أنقاض حياة جاهلية قبلية متخلفة. لينطلق بعد ذلك ماردا الحضارة الإسلامية المشرقة.

وفي الحقيقة فإن النشاط الجاد المكثف، والجهد الدعوي الكبير، الذي بذله رسول الله ﷺ، هو الذي اختصر أمام الرسالة مسافة الزمن، وضاعف من سرعة خطوات حركتها المباركة. وذلك بتوفيق الله تعالى ورعايته.

فبعد نزول الوحي عليه ﷺ أصبح في حركة دائبة، وسعي متواصل، لم يعرف للراحة طعماً، ولم يجد التعب والكلل إليه سبيلاً. وتقلص حتى نومه في الليل، استجابة لأمر ربه تعالى الذي حمّله المسؤولية الخطيرة الثقيلة وخاطبه بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ. قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا. نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا. إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(١).

وقد روي عن السيدة خديجة أم المؤمنين ﷺ: أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه الوحي، ترك كل راحة، وكان يدأب ليل نهار في العبادة والعمل، فقلت له: يا رسول الله ألا تستريح ألا تنام؟ فقال: لقد مضى عهد النوم يا خديجة^(١).

وكانت قضية الرسالة تأخذ من نفسه ﷺ مأخذاً كبيراً، حتى دعاه الله تعالى إلى الرأفة بنفسه، والشفقة عليها، وخاطبه تعالى بقوله: ﴿طه. مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى﴾^(٢).

الراحة والرخاء قبل البعثة:

كان ﷺ قبل البعثة يعيش حياة راحة ودعة، فهو ينتمي إلى أفضل أسرة في قريش، ويحظى بحب شيوخ أسرته واحترامهم، فهو قد ولد يتيماً، حيث مات أبوه عبد الله في ريعان شبابه، وبعد ذلك فقد أمه آمنة بنت وهب، مما جعله محل عطف وشفقة زعيم الأسرة جده عبد المطلب ﷺ، ثم موضع تقدير خلفه في الزعامة أبي طالب ﷺ، إضافة إلى أن حسن سلوكه ومكارم أخلاقه، قد أكسبته الاحترام العام في المجتمع، حيث لم يلاحظ عليه أحد أي ميل أو نزوع لنزق الشباب آنذاك وطيشهم، ولم تجتذبه أي ممارسة من العادات والتقاليد الوثنية الجاهلية، وما سُجِّل عليه خلل في قول، ولا خطل في فعل، فأصبح يعرف وسط مجتمعه بالصادق الأمين.

وزواجه من خديجة بنت خويلد ﷺ، أخرى وأعز امرأة في قريش، والتي كان الرجال يتاجرون في أموالها، وكان الزعماء يطمحون للاقتران

(١) الشيرازي: السيد محمد، السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص ١٤٧، الطبعة الثانية ١٩٨٦م، مؤسسة البلاغ، بيروت.

(٢) سورة طه الآية ١-٢.

بها، هذا الزواج والذي جاء برغبة منها، وفر للنبي ﷺ أجواءً هائلة، وعيشة مستقرة وادعة.

حيث أغدقت عليه خديجة حبها وحنانها، ووضعت تحت تصرفه كل ثروتها وإمكاناتها.

هكذا كانت حياته قبل البعثة، استقراراً نفسياً، وسعادة عائلية، ورخاءً اقتصادياً، واحتراماً وسمعة اجتماعية.

معاناة التبليغ:

وما أن صدع محمد ﷺ برسالة ربه، وأعلن ثورته الإلهية على واقع الوثنية والشرك، حتى انقلبت أوضاع حياته رأساً على عقب، حيث لم يكن من السهل على أولئك الناس الذين ألفوا عبادة الأصنام، ونشأوا على الوثنية والفساد، أن يتخلوا عن عاداتهم وممارساتهم المتجذرة في حياتهم، كما أن الزعامات ومراكز القوى كانت تريد الحفاظ على نفوذها ومكائنها، وترى في الرسالة الجديدة نسفاً لمواقعها، وتهديداً لمصالحها.

من هنا فقد انتفض الجميع في مكة رفضاً لرسالة محمد، ومعارضة لدعوته، وعداءً ومناوئة لشخصه ووجوده. وشنّوا عليه حرباً ضارية شاملة، فقد اتهموه بالكذب والجنون والسحر، بعد أن كانوا يسمّونه الصادق الأمين، وصاروا يواجهونه بالسخرية والإهانة والتحقير، بعد أن كان معززاً محترماً في أوساطهم، وتجرأ عليه حتى جهالهم وسفهاؤهم يؤذونه حينما يمشي في الطريق.

ثم تطوّر عدوانهم إلى حالة فرض الحصار الاقتصادي، والمقاطعة الاجتماعية، عليه وعلى أسرته بني هاشم، فاتفقت قبائل قريش وتعاهدت على ذلك، وكتبوا صحيفة علقوها في جوف الكعبة، بأن لا يُنكحوا أحداً

من بني هاشم، ولا يَنكحوا منهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، ولا يقبلوا منهم صلحاً، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يُسلموا رسول الله ﷺ للقتل .

ولجأ محمد ﷺ وأسرته إلى شعب من شعاب الجبل بظاهر مكة، يعانون الحرمان والحصار الاقتصادي والاجتماعي، ولا يجدون في بعض الأحيان وسيلة إلى الطعام يدفعون بها جوعهم .

روى البلاذري عن ابن عباس قال: حُصِرنا في الشعب ثلاث سنين، وقطعوا عنا الميرة حتى إن الرجل ليخرج بالنفقة فما يبيع حتى يرجع، حتى هلك من هلك .

قال ابن إسحاق وغيره: فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا، ولا يصل إليهم شيء إلا سراً مستخفياً به من أراد صلتهم من قريش^(١). حتى أكلوا ورق الشجر اليابس ليدرأوا به غوائل الجوع، وسمع أصوات صبيانهم من وراء الشعب يتضاغون من الجوع^(٢).

صور من المعاناة :

من أصعب ألوان المعاناة على الإنسان، إذا كان محترماً عزيزاً وصاحب سمعة في مجتمعه، أن تتعرض صورته للتشويه، وأن تتحطم سمعته ومكانته عند من حوله، وهذا ما واجهه رسول الله ﷺ من المشركين، فقد صبوا عليه صنوف الأذى والإهانة، فتحملها في سبيل الله صابراً محتسباً، حتى قال ﷺ - ما روى عنه أنس بن مالك - : «ما

(١) الصالحي الشامي: محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، ج ٢ ص ٣٧٨، الطبعة الأولى ١٩٩٣ م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) مهرا ن. د. محمد بيومي، السيرة النبوية الشريفة، ج ١ ص ٢٣٠، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٩٠ م.

أوذي أحد مثل ما أوذيتُ في الله»^(١).

ولننقل بعض صور المعاناة التي تحملها رسول الله ﷺ.

التضور جوعاً:

كان رسول الله ﷺ غنياً يتصرف في أموال زوجته خديجة كما يشاء، لكنه أنفقها في سبيل الله، كما عاش حالة الحصار والمقاطعة من قبل المشركين، لذلك كانت تمر عليه فترات من الزمن وهو يتضور من الجوع، ولم يكن يتوفر له في اليوم من الطعام إلا مقدار بسيط يمكن إخفاؤه تحت الإبط، كما روي عنه ﷺ أنه قال: «لقد أتت علي ثلاثون من يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال»^(٢).

أذى عمه أبي لهب:

كم هو صعب على الإنسان إيذاء الأقربين له؟ وكم هو مؤلم أن يشهّر به ويعيبه أرحامه؟ هكذا كانت حال رسول الله ﷺ مع عمه أبي لهب.

عن طارق المحاربي قال: رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي المجاز فمرّ وعليه جبة له حمراء، وهو ينادي بأعلى صوته: يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه بالحجارة، وقد أدمى كعبيه وعرقوبيه، وهو يقول: يا أيها الناس! لا تطيعوه فإنه كذاب، قلت: من هذا؟ قالوا: غلام من بني عبد المطلب، قلت: فمن هذا يتبعه يرميه؟ قالوا: هذا عمه

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٥٨١٨، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.

(٢) المصدر السابق، حديث رقم ١٦٦٧٨.

عبد العزى وهو أبو لهب^(١).

إهانة وأذى:

عن منيب بن مدرك بن منيب عن أبيه عن جده قال: رأيت رسول الله ﷺ في الجاهلية وهو يقول: يا أيها الناس! قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، فمنهم من تفل في وجهه، ومنهم من حثا عليه التراب، ومنهم من سبه، فأقبلت جارية بعس من ماء فغسل وجهه ويديه وقال: يا بنية! اصبري ولا تحزني على أبيك غلبةً ولا ذلاً^(٢).

محاولة لخنقه من رقبتة:

روى البخاري وابن المنذر وأبو يعلى والطبراني عن عروة قال: سألت عمرو بن العاصي فقلت: أخبرني بأشد شيء صنعته المشركون برسول الله ﷺ. قال: بينما النبي ﷺ يصلي في حجر الكعبة إذ أقبل عليه عقبه بن أبي مُعيط، فوضع ثوبه على عنقه، فخنقه خنقاً شديداً^(٣).

ضربوه حتى أغمي عليه:

روى البزار وأبو يعلى برجال الصحيح عن أنس ﷺ: لقد ضربوا رسول الله حتى غشي عليه. فقام أبو بكر ينادي: ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، فقالوا: من هذا؟ فقالوا: أبو بكر المجنون^(٤).

سخرية وتحقير:

روى الشيخان والبزار والطبراني عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال:

(١) المصدر السابق، حديث رقم ٣٥٥٣٨.

(٢) المصدر السابق، حديث رقم ٣٥٥٤١.

(٣) الصالحى الشامي: محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد، ج ٢ ص ٤٣٦.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٣٦.

ما رأيت رسول الله ﷺ دعا على قريش غير يوم واحد، فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس، وسلا جزور (كرش ناقة مذبوحة) نحرت بالأمس قريباً، فقالوا: من يأخذ سلا هذا الجزور فيضعه على كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقاهم عقبة بن أبي معيط، فجاء به فكدفه على ظهره، فضحكوا وجعل بعضهم يميل إلى بعض، والنبى ﷺ ما يرفع رأسه، وجاءت فاطمة ؓ، فطرحته عن ظهره، ودعت على من صنع ذلك.

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، رفع رأسه فحمد الله تعالى وأثنى عليه ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل سأل ثلاثاً، ثم قال: «اللهم عليك بالملأ من قريش»^(١).

يوم الطائف:

ولعل من أشد الأيام وأصعبها على رسول الله ﷺ هو يوم الطائف، حيث سافر إليها من مكة، بعد أن تصاعدت عليه الضغوط، وأحكم حوله المشركون الحصار والمناوئة، واستفردوا به حينما مات ناصره والمحامي عنه عمه أبو طالب ؓ، وكذلك ماتت زوجته الحنون خديجة، فأصبح مكشوفاً أمام أعدائه، يحيط به الأذى من كل جانب، لذلك سافر إلى الطائف عله يفتح ثغرة في جدار الحصار، أو يسجل اختراقاً يعزز وضعه وسط قريش.

وقصد هناك زعماء ثقيف أهم قبيلة في الطائف، وكانوا ثلاثة أخوة: عبد ياليل ومسعود وحبيب، فعرض عليهم الإسلام، فرفضوا دعوته بجفاء وغلظة، وقال له أحدهم: هو يمرط (أي يمزق) ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك!

(١) المصدر السابق، ص ٤٣٧.

وقال الآخر: أما وجد الله أحداً يرسله غيرك؟

وقال الثالث: والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك!

فلما يئس من قبولهم الإسلام، طلب إليهم أن يجيروه ويحموه لكي يدعوا الناس وهو آمن، فرفضوا طلبه أيضاً.

فقال لهم أخيراً: إذا فعلتم فاكموا علي. لأنه كره أن تعلم قريش بما حصل فتشمت به وتزداد جرأة عليه.. فلم يجيئوه حتى لهذا الطلب البسيط، بل أغروا سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس.

قال ابن عقبة: وقفوا له صفيين على طريقه، فلما مر رسول الله ﷺ بين الصفيين جعل لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه.

زاد سليمان التيمي: أنه ﷺ كان إذا اذلقته الحجارة يقعد إلى الأرض فيأخذون بعضديه وقيمونه فإذا مشى رجموه بالحجارة وهم يضحكون.

قال ابن عقبة: فخلص منهم ورجلاه تسيلان دماً، فعمد إلى حائط من حوائطهم (أي بستان) وأتى ظل شجرة فصلى ركعتين ثم قال: «اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبال، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو تحل عليّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا

قوة إلابك»^(١)، هذه بعض الصور من معاناة رسول الله ﷺ في تبليغ الرسالة.

الأسوة والتقدوة:

تلك كانت يوم كان في مجتمع قريش بمكة، وبالهجرة إلى المدينة دخل الرسول ﷺ مرحلة جديدة ذات ألوان أخرى من المعاناة، حيث شنت عليه الحملات العسكرية، وخاض المعارك والحروب، وواجه فتن المنافقين، ومؤامرات اليهود، وغلظة الأعراب وجفاف أخلاقهم، ولا يتسع المجال الآن للحديث عن العهد المدني.

لكن ما يجب التأكيد عليه، ونحن نعيش في رحاب ذكرى رسول الله ﷺ حيث أيام المولد النبوي الشريف، أن تتأسى برسول الله ﷺ ونقتدي به، في تحمل مسؤولية الدعوة إلى الله تعالى.

إن مجتمعاتنا تواجه الآن أخطاراً بالغة تتمثل في تسلل أفكار الانحراف، وثقافة الفساد، وأنماط السلوك الإجرامي، لقد أصبحنا نسمع عن تورط العديد من أبنائنا وبناتنا في مشكلة تعاطي المخدرات والإدمان عليها، حتى اضطرت الجهات الرسمية إلى إقامة مستشفيات ومؤسسات خاصة لإنقاذ المبتلين بهذا المرض الخطير الفتاك، وتعلن الجهات الحكومية المعنية بين فترة وأخرى عن ضبط كميات من هذه الأدوية الخبيثة، فقد أعلن المدير العام لحرس الحدود السعودي أن قوات حرس الحدود تمكنت خلال العام الهجري الماضي ١٤٢١ هـ من مصادرة نحو طنين من الحشيشة وآلاف الجيوب المخدرة، إضافة إلى ٢٢٨٠٠ زجاجة خمر^(٢) وبالتأكيد فإن ما يكتشف ويصادر هو

(١) المصدر السابق، ص ٤٣٨.

(٢) الحياة: جريدة يومية، لندن، ١٧ صفر ١٤٢٢ هـ.

الجزء البسيط، ذلك لأن منطقتنا الآن مستهدفة من قبل تجار المخدرات وعصابات الإجرام، لما في أيدي أبنائها من سيولة نقدية يجعلها سوقاً استهلاكية مغرية، ولما يطمح إليه الأعداء من تميع شعوب هذه المنطقة، لتسهيل هيمنتهم، وتسخيرها لخدمة مصالحهم السياسية والاقتصادية.

وهذا ما أكده أحد المسؤولين في منظمة (إنتربول) قبل فترة، وهو الشخصية البارزة في المنظمة واسمه (آر. سندرا. لينغام) حيث ألقى حديثاً في مؤتمر لمكافحة المخدرات عقد على هامش معرض (ميليول قطر ٩٦) ودق ناقوس الخطر، وأعطى أرقاماً دلت على أن منطقة الخليج العربي، باتت مستهدفة بشكل مركز من قبل تجار المخدرات، وأن عصابات الإجرام تتطلع إلى هذه المنطقة بصفتها سوقاً جديدة مهمة^(١).

وهناك تأثيرات هذا الانفتاح الإعلامي الكبير، حيث تضخ القنوات الفضائية، إلى أذهان ونفوس المشاهدين في هذه المناطق، سيلاً هائلاً من المعلومات والانطباعات والاندفاعات التي تنتج أنماطاً منحرفة من السلوك والممارسات على المستوى الأخلاقي والاجتماعي.

بحيث أصبحنا نشاهد تصرفات شائنة من قبل بعض الفتيان والفتيات في مجتمعاتنا، تجعل الإنسان يتساءل بحيرة: هل هؤلاء من أبناء هذا المجتمع؟

إننا جميعاً مطالبون بواجب الدعوة إلى الله، والقيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يصح أبداً أن نراهن على الردع والإجراءات الرسمية فقط، فالمسألة بحاجة إلى الكثير من التخطيط والجهد المكثف للعمل في أوساط هذا الجيل الناشئ، لمساعدته على استيعاب تأثيرات هذا الانفتاح، والتحصن ضد آثارها السلوكية

(١) الحياة: جريدة يومية، لندن، ١ رجب ١٤١٧هـ.

والأخلاقية.

إن المساجد والمؤسسات الدينية والاجتماعية يجب أن تنشط دورها، وتكثف فاعليتها، وخصوصاً في فترة العطلة الصيفية، وإن علماء الدين والواعين من أبناء المجتمع عليهم أن يعلنوا حالة الطوارئ التربوية الثقافية لمواجهة هذه الأخطار الجارفة، ورجال المال والثروة لا بد أن يبذلوا أموالهم في سبيل الدعوة إلى الله.

وإذا كان رسول الله ﷺ قد أعطى كل وجوده وحياته، وتحمل ضروب الأذى والمشاق في سبيل الدعوة إلى الله، فهل نبخل نحن بأنفسنا وأموالنا وأوقاتنا وسمعتنا وجاهنا؟

إن البعض يتلصق عن تحمل أبسط المسؤوليات، والقيام بأقل المهام، حفاظاً على راحته، وحرصاً على جاهه وسمعته، فكيف إذا نال ثواب الله إذا لم نضح ونحمل الأذى في سبيله؟ ثم كيف ندعي الانتماء إلى رسول الله ولا نحاول التأسى به؟

وماذا سيكون مستقبل أبنائنا ومجتمعنا ووطننا إذا لم نتصدّ لما يحيط بنا من الأخطار والمكاره؟

المرأة حين تفوق الرجال

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٣ ربيع الأول ١٤٢٢هـ

لا تزال بعض الأوساط تنظر إلى المرأة وكأنها أقل قيمة من الرجل، وأنها دونه رتبة وفضلاً، لذلك يجب أن يكون الرجل دائماً في المقدمة والأمام، وصاحب الرأي والأمر، وأن تبقى المرأة تابعة خاضعة، لمجرد أنها خلقت أنثى، وكان الرجل ذكراً.

ومن قديم الزمان كانت هناك تصورات وآراء خاطئة، تميّز بين الرجل والمرأة في القيمة الإنسانية، بل وتشكك في إنسانيتها، وفي هدفية وجودها، إن كان لذاتها أو من أجل الرجل؟

لكن انبثاق نور الإسلام شكّل منعطفاً، ونقله تاريخية، في مسألة النظر إلى المرأة، وتحديد موقعيتها ومكانتها في المجتمع الإنساني.

حيث أكد الإسلام على وحدة النوع الإنساني، وتساوي شقيه الذكور والإناث في القيمة الإنسانية، وفي مصدر الخلق وأصل التكوين. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾^(١) ويقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾^(٢). والخطاب للإنسان ذكراً وأنثى بأن الله تعالى قد خلق له من نفس جنسه ونوعه زوجاً تتكامل به حياته. فالرجل زوج المرأة ومن ذات جنسها، والمرأة زوج الرجل ومن نفس نوعه.

(١) سورة النساء الآية ١.

(٢) سورة النحل الآية ٧٣.

وخالقهما واحد وهو الله تعالى، وقد أنشأهما من مصدر واحد وعبر نظام وطريقة واحدة يقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى. أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى. فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾^(١).

والمرأة كالرجل أوجدها الله تعالى لذاتها، ومن أجل أن تحقق العبودية والخضوع لله تعالى في حياتها، تماماً كما هو هدف وجود الرجل. يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٢). وورد عنه ﷺ أنه قال: «إنما النساء شقائق الرجال»^(٣).

التمايز والتفاضل:

وبناءً على أصل المساواة والمشاركة في القيمة الإنسانية بين الرجل والمرأة، لا تكون الذكورة ميزة للتفوق والتميز، فالرجل باعتباره رجلاً، ليس أفضل من المرأة لكونها امرأة.

ذلك أن الإسلام أقر معايير وقيماً للتفاضل والتمايز بين أبناء البشر، ذكوراً وإناثاً، فمن كان منهم أقرب إلى تلك المعايير، وأكثر التزاماً بتلك القيم، فهو الأفضل، رجلاً كان أو امرأة.

ومعايير التفاضل والتمايز في الإسلام ثلاثة:

١. التقوى: وهي تعني الالتزام بمنهج الله تعالى وأمره، فالأوفر حظاً منها، هو الأقرب إلى الله، والأعلى شأناً عنده، من أي عرق كان، وإلى أي قبيلة انتسب، ذكراً كان أو أنثى، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

(١) سورة القيامة الآية ٣٦-٣٩.

(٢) سورة الذاريات الآية ٥٦.

(٣) ابن حنبل: أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم ٢٦٧٢٥، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، عالم الكتب، بيروت..

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾.

وورد عنه ﷺ أنه قال: «إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ونيبكم واحد، ولا فضل لعربي على عجمي ولا عجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى» (٢).

٢. العلم: والذي هو ميزة الإنسان عن سواه من المخلوقات، وبه يعرف ربه، ويدرك ذاته، ويفهم ما حوله، وكل من كان أكثر نصيباً من العلم، أصبح أكثر أهلية وجدارة. يقول تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (٣). ويقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤).

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أكثر الناس قيمة أكثرهم علماً وأقل الناس قيمة أقلهم علماً» (٥).

وورد عن الإمام علي (عليه السلام) قوله: «قيمة كل امرء ما يحسنه» (٦).

٣. العمل: فحركة الإنسان في الاتجاه الصحيح، وإنجازته وفاعليته في طريق الخير، هي التي تحدد موقعيته في الدنيا، ومكانته في

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٢) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٥٦٥٥، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.

(٣) سورة المجادلة الآية ١١.

(٤) سورة الزمر الآية ٩.

(٥) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ١ ص ١٦٤، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت..

(٦) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، قصار الحكم ٨١، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان.

الآخرة، يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ
عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(١). ويقول تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾^(٢).

وواضح للمتأمل أن هذه المعايير التي أقرها الإسلام للتمايز
والتفاضل، تعبّر عن قيم حقيقية واقعية، فالتقوى والعلم والعمل، كل
واحدة منها تفرز نتائج ومعطيات مؤثرة لصالح حياة الفرد والمجتمع.
بينما قد تسود في بعض المجتمعات معايير ومقاييس لا واقعية لها،
أو تدفع باتجاه مؤثرات سلبية، كالتفاضل على أساس العرق أو اللغة أو
اللون، أو مسابقات اختيار ملكات الجمال، أو لمجرد تسجيل رقم قياسي
في موسوعة غينيس للأرقام القياسية، كتربية أطول شارب، وصنع أكبر
فطيرة، أو كعكة، وإنجاز أطول قبة..

من ناحية أخرى فإن مقاييس التفاضل في الإسلام كلها اختيارية
كسبية، يمكن لأي إنسان أن يحصل منها بمقدار سعيه وجهده، وهي
ليست كاللون أو العرق أو الشكل، الذي لا دخل للإنسان فيه، وليس هو
الذي يختاره، ولو كانت الذكورة من معايير التفاضل عند الله تعالى،
كان ذلك خلاف العدل والإنصاف، لأن الإنسان لا يختار ذكوره أو
أنوثته، وإنما هي قدر إلهي، فكيف يكون مقياساً لتحصيل الفضل أو
الحرمان منه؟

فرص التقدم أمام المرأة:

وانطلاقاً من هذه المعايير والقيم الإسلامية فإن الحياة ساحة

(١) سورة الأنعام الآية ١٣٢.

(٢) سورة الملك الآية ٢.

مفتوحة للسباق والتنافس على الخير، والطريق مشرع أمام الجميع، وبإمكان المرأة كالرجل، أن تشمّر عن ساعد جدها، وتستنهض قدراتها وإمكانياتها، لتحرز أكبر قدر من التفوق، وتحقق أعلى درجة من التقدم، في آفاق العلم والعمل، والالتزام بتقوى الله تعالى.

وليست هناك مساحة في أشواط السباق خاصة بالرجال، محظورة على النساء، لذلك تحدث القرآن الكريم في آيات عديدة عن إتاحة فرص التقدم أمام المرأة كالرجل في مختلف المجالات.

يقول تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُنْشِيَ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(١).

فكل جهد تبذله المرأة، وكل عطاء تقدمه، يكون موضع الاحترام والتقدير، وعلى أساسه تتحدد موقعيتها ومكانتها.

ويقول تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْشِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢).

فالعمل الصالح المنبثق من الإيمان والتقوى، هو الذي يمنح درجة التقدم للإنسان في الدنيا والآخرة، ولا تؤثر الذكورة والأنوثة في تقييم مستوى العمل.

ولتأكيد هذه الحقيقة تستعرض الآية الكريمة رقم ٣٥ من سورة الأحزاب، العديد من مجالات الخير، وآفاق التقدم والسمو، مع ذكر

(١) سورة آل عمران الآية ١٩٥.

(٢) سورة النحل الآية ٩٧.

المرأة المتصفة بذلك جنباً إلى جنب الرجل، لإثبات حضورها وأهليتها لاقتحام كل الميادين، وإنجاز مختلف المهام، وأنها لا تقصر عن الرجل في استعداداتها وقابلياتها. يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١).

الأنوثة لا تمنع التفوق؛

التسابق في ميدان القيم الفاضلة يعتمد على أمرين: الإرادة وقابلية المعرفة، فبالإرادة تتوفر ملكة التقوى، وتحقق الإنجازات والمكتسبات، وبالعقل يُنال العلم والمعرفة، والإرادة والعقل منحطان إلهيتان للإنسان لا تختص بالرجال دون النساء، ولا تتفاوت درجتهما بين الصنفين، وإنما يتفاوت أفراد البشر ذكوراً وإناثاً في مدى استفادتهم واستثمارهم لهاتين النعمتين العظمتين. وعلى هذا الأساس تتحدد رتبة كل فرد ودرجة تقدمه وتفوقه.

وبإمكان المرأة أن تقطع شوطاً أبعد، وتنال درجة أكبر من الرجل، إذا ما تفوقت عليه في السعي نحو العلم، وبذل الجهد في العمل، وفي الالتزام بتقوى الله تعالى.

فأنوثتها لا تمنعها من التفوق، ولا تعوق حركة تقدمها، ولا تفرض عليها أن تكون في رتبة تالية، أو في موقع التبعية والانقياد.

وقد يستشهد البعض بنصوص دينية، مفادها أفضلية الرجل ذاتاً على المرأة، وأنها دونه رتبة كقوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ

بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴿١﴾.

والآية الكريمة إنما تتحدث عن العلاقة الزوجية، وأن الرجل قوام بحقوق زوجته عليه، ومسؤول عن رعايتها وحمايتها والإنفاق عليها، وأن له عليها حق الطاعة في حياتهما الزوجية، وفق الضوابط الشرعية، ولا يستفاد من الآية أن كل رجل قوام على كل النساء، ولم يقل أحد من الفقهاء والعلماء بسلطة أي رجل على أي امرأة خارج إطار العلاقة الزوجية، إلا فيما يرتبط بولاية الأب على أبنائه وبناته ضمن تفصيل في مسأله وأحكامه.

وحتى في الحياة الزوجية فقوامة الرجل على امرأته ضمن حدود علاقتهما، ولا شأن له بأرائها وأفكارها، ولا بتصرفاتها المالية، أو مواقفها الاجتماعية وما شابه.

يقول الشيخ محمد مهدي شمس الدين رحمته الله: «والظاهر من الآية الكريمة أن المراد فيها قوامية الرجال على النساء في الأسرة فقط، وباعتبار علاقة الزوجية فقط، بحيث لا منافاة بين كون الزوج قيماً على المرأة باعتباره زوجاً، وتكون قيمة عليه باعتبار آخر ككونها رئيسة لجمعية خيرية أو سياسية أو نقابية هو عضو فيها.. اللهم إلا أن يُنفى أهليتها لتولي أي مسؤولية على جماعة فيها رجل، فلا تصلح لرئاسة جمعية، بل ينبغي على هذا ألا يصح منها أن تستأجر رجلاً أو رجلاً للقيام بعمل يقتضي أن تأمرهم وتنههم بشأنه وهذا ما لا يمكن الالتزام به قطعاً ولا نظن أن فقيهاً يلتزم به»^(٢).

كذلك فإن الروايات التي تتحدث عن نقص عقل المرأة قياساً

(١) سورة النساء الآية ٣٤.

(٢) شمس الدين: محمد مهدي، أهلية المرأة لتولي السلطة، ص ٦٨.

إلى الرجل، فإن هناك نقاشاً في سندها، وإن بعضها جاءت مرسلة أو بسند ضعيف، وحتى لو كان سندها صحيحاً فلا يمكن قبولها بظاهرها، لمنافاتها ومخالفتها لسائر النصوص والمبادئ، ولإمكانية تأويلها وفهمها بطريقة أخرى، لا تستوجب الحط من قدر المرأة ومكانتها.

نماذج رائدة في التفوق:

تقدم المرأة في ميدان العلم والفضيلة، وتفوقها على الرجال في ساحة المجد والعظمة، ليس أمراً نظرياً يبحث ضمن دائرة الإمكان والاحتمال، وإنما هو أمر حاصل ومتكرر على مستوى الواقع التاريخي في أكثر من مجتمع، وعلى أكثر من صعيد.

حيث يسجل لنا تاريخ البشرية بإكبار وإعظام، مواقف رائعة لشخصيات نسائية، برزت في مجتمعاتها، وتفوقت بمواصفاتها النبيلة، والتزامها الإيماني، وعطائها العلمي والعملي، على معاصريها من الرجال.

امرأة فرعون:

كان فرعون طاغية مستبداً، بل هو رمز وعنوان للطغيان والاستبداد، ادعى الألوهية، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾^(١). وخضع له آلاف أو ملايين الرجال والنساء، رهبة من بطشه، أو رغبة في عطائه، لكن امرأة واحدة تحدت ذلك الطغيان، وتمردت على ذلك الجبروت، إنها زوجته آسيا بنت مزاحم، والتي كانت تعيش تحت هيمنته، لكنها استجابت لدعوة الحق، وآمنت بالله تعالى رباً، وصدقت بموسى نبياً، وقاومت كل ضغوط فرعون وإغراءاته، تخلت عن موقعها كملكة لمصر، وعن كل

مظاهر السلطة والترف والرخاء، بل تحملت التعذيب والتنكيل، التزاماً منها بالهدى، وصموداً على الحق، حتى فارقت الحياة شهيدة محتسبة.

إنها امرأة ولكنها أفضل من كل الرجال الخاضعين والخانعين للظلم والاستبداد الفرعوني.. لذلك يقدمها الله تعالى نموذجاً للأجيال المؤمنة رجالاً ونساءً على مر العصور، يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١).

بلقيس ملكة سبا :

ويقدم القرآن الكريم ملكة سبا (بلقيس) نموذجاً للموقف الحكيم، والتصرف الواعي، في إدارة السلطة والحكم، فحينما تلقت كتاب نبي الله سليمان ﷺ يدعوها وقومها إلى الله، لم تتساهل في الأمر، ولم تستبد في اتخاذ القرار، بل استدعت أعيان الشعب، ورجالات الدولة، لتستشيرهم في الموقف المناسب ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ. إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِاسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ. قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِي﴾^(٢).

وحينما أظهر أكثر رجالات حكمها ميلهم إلى إظهار القوة والرفض تجاه دعوة نبي الله سليمان، على أساس امتلاك القدرة العسكرية الكافية، ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسْ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾^(٣).

(١) سورة التحريم الآية ١١.

(٢) سورة النمل الآية ٢٩-٣٢.

(٣) سورة النمل الآية ٣٣.

أبدت بلقيس موقفاً أكثر حكمة وتعقلاً، بضرورة التعرف أولاً على حقيقة دعوة سليمان، هل أنها مجرد غطاء لأطماع توسعية، ومطامح مادية، أم أن لها مغزى آخر، وعلى أساس تشخيص الواقع يتم اتخاذ القرار المناسب، فاقترحت إرسال هدايا ضخمة إلى سليمان لمعرفة ردود فعله ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ. وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾^(١).

وكانت النتيجة أن اكتشفت صدق الدعوة الإلهية، فقادت بلادها وقومها إلى حظيرة الإيمان والحق: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

ولا بأس أن نشير هنا إلى أن القرآن لم يورد في سياق قصة ملكة سبأ أي اعتراض أو تنديد، بتبوءها لموقع الحكم والسلطة، وما ذم قومها لخضوعهم لحكم امرأة.

كما أن نتيجة موقفها هو فلاح وصلاح قومها بدخولهم في دين الله، مما يوجب النقاش في معنى الحديث المروي عن رسول الله ﷺ أنه ﷺ لما بلغه أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»^(٣).

وقد ورد هذا الحديث في بعض المصادر الشيعية ككتاب الخلاف للشيخ الطوسي وتحف العقول للحرّاني، ولكن برواية مرسلّة، وبالتالي لا يمكن اعتماده عندهم. أما عند أهل السنة فقد أورده البخاري في

(١) سورة النمل الآية ٣٤-٣٥.

(٢) سورة النمل الآية ٤٤.

(٣) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٤٤٢٥، دار الكتب العلمية، بيروت.

صحيحه والنسائي والترمذي وقال عنه الترمذي: (هذا حديث صحيح) كما رواه ابن حنبل في مسنده.

لكن يمكن المناقشة في معنى الحديث ومدلوله، بأنه بقصد الإخبار عن مستقبل الانهيار لمملكة الفرس كما حصل ذلك بالفعل على أيدي المسلمين. ولا يفيد حكماً مطلقاً ونهياً شرعياً.

وللشيخ محمد الغزالي تعليق جميل حول الموضوع نقتطف منه ما يلي:

وقد تأملت في الحديث المروي في الموضوع «خاب قوم ولو أمرهم امرأة» مع أنه صحيح سنداً ومتناً، ولكن ما معناه؟

عندما كانت فارس تتهاوى تحت مطارق الفتح الإسلامي كانت تحكمها ملكية مستبدة مشئومة، الدين وثني، والأسرة المالكة لا تعرف شورى، وكان في الإمكان وقد انهزمت الجيوش الفارسية، وأخذت مساحة الدولة تتقلص، أن يتولى الأمر قائد عسكري يوقف سيل الهزائم، لكن الوثنية السياسية جعلت الأمة والدولة ميراثاً لفتاة لا تدري شيئاً، فكان ذلك إيذاناً بأن الدولة كلها إلى ذهاب، في التعليق على هذا كله قال النبي الحكيم كلمته الصادقة، فكانت وصفاً للأوضاع كلها.

إن النبي ﷺ قرأ على الناس في مكة سورة النمل، وقص عليهم في هذه السورة قصة ملكة سبأ، التي قادت قومها إلى الإيمان والفلاح بحكمتها وذكائها، ويستحيل أن يرسل حكماً في حديث يناقض ما نزل عليه من وحي!

إن إنجلترا بلغت عصرها الذهبي أيام الملكة (فكتوريا) وهي الآن بقيادة ملكة، ورئيسة وزراء (تاتشر) وتعد في قمة الازدهار الاقتصادي

والاستقرار السياسي، فأين الخيبة المتوقعة لمن اختار هؤلاء النسوة؟^(١)

محدثات وفقهيات يعلمن الرجال

بالجد والاجتهاد والعلم والمعرفة فرضت المرأة المسلمة شخصيتها في عصور التاريخ، وكان المجتمع الإسلامي يعترف للمرأة الكفوءة بكفاءتها، وما كان الرجال يتوقفون أو يترددون في الرجوع إلى ذات الكفاءة والعلم، بل كانوا يحترمون المرأة العاملة، ويأخذون عنها الحديث والفقه والأدب، وتحتفظ لنا كتب التاريخ والتراجم بسير العديد من العالمات العارفات اللاتي كن يمثلن دوراً مرجعياً في مجتمعاتهن، وكن يعلمن الرجال، ويفضن عليهم من علومهن ومعارفهن.

فقد جاء في ترجمة السيدة نفيسة بنت الحسن الأنور بن زيد الأبلج بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام صاحبة المقام المشهور الذي يزار في القاهرة، والمولودة بمكة سنة ١٤٥ هـ ونشأت بالمدينة المنورة، ثم دخلت مصر مع زوجها إسحاق بن جعفر الصادق حتى توفيت هناك سنة ٢٠٨ هـ. يقول الأستاذ عبد اللطيف فايد: كانت دارها مزار كبار العلماء في عصرها، يجلسون إليها، ويستمعون منها، ويناقشون مسائل العلم معها.. ومن العلماء الذين لم ينقطعوا عن زيارتها للتزود من علمها إسماعيل بن يحيى المزني، وهو فقيه عالي المعرفة بالدين كثير التلاميذ. ومن العلماء الذين داوموا على التعلم في مجلسها ثوبان بن إبراهيم، المعروف بذي النون المصري، وعثمان بن سعيد المصري، وعبد الله بن عبد الحكم الذي انتهى إليه مجلس الإمام مالك، وكذلك عبد السلام بن سعيد الفقيه المالكي الذي غلب عليه اسم سحنون. ومنهم يوسف بن يحيى البويطي الذي أسند إليه الإمام الشافعي رئاسة

(١) أبو شقة: عبد الحلیم، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج ٢ ص ٣٧٠.

حلقتة في التدريس.

ويعتبر الإمام الشافعي أكثر العلماء جلوساً إليها وأخذاً عنها في الوقت الذي بلغ فيه من الإمامة في الفقه مكاناً عظيماً، فقد كان يعتبر مجلسه في دارها مجلس تعلم عنها، ومجلسه في مسجد الفسطاط مجلس تعليم للناس. وللإمام أحمد بن حنبل نصيب في الأخذ عن نفيسة رضي الله عنها وبهذا تكون نفيسة ذات أثر علمي في فقه عالمين كبيرين من أئمة المسلمين وهما الشافعي وأحمد بن حنبل ^(١).

وجاء في ترجمة فاطمة بنت محمد بن أحمد السمرقندية، بنت صاحب تحفة الفقهاء، وزوجة علاء الدين الكاساني صاحب بدائع الصنائع، أنها تفقّهت بأبيها، وأن الفتوى كانت تخرج من البيت وعليها خطها وخط أبيها، ولما تزوجت بالكاساني صارت الفتوى تخرج من بيتها، وعليها خطها، وخط أبيها، وخط زوجها، وأن زوجها ربما كان يهيم في الفتوى فترده إلى الصواب، وتعرّفه الخطأ، فيرجع إلى قولها ^(٢).

ومن أشهر محدّثات المئة الثانية حفصة بنت سيرين، أخت محمد بن سيرين، كانت من سيدات التابعيات، اشتهرت بالعبادة والفقه والحديث وقراءة القرآن. كان أخوها إذا أشكل عليه شيء من القرآن قال: (اذهبوا فاسألوا حفصة كيف تقرأ). روت عن جماعة من الصحابة وكبار التابعين، وروى عنها أخوها محمد، وقتادة، وعاصم الأحول وغيرهم. أثنى عليها إياس بن معاوية فقال: «ما أدركت أحداً أفّضله على حفصة» ^(٣).

(١) المسلمون: جريدة يومية، لندن، عدد ٦٠٩، بتاريخ ٢٢ / ٥ / ١٤١٧ هـ.

(٢) المعتوق: الدكتور صالح يوسف، جهود المرأة في رواية الحديث، ص ١٠.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٠.

ومن المحدثات البارزات في القرن الخامس كريمة بنت أحمد بن محمد المروزية، قدمت مكة المكرمة وجاورت بها، وكانت عالمة سالحة، قرأ عليها الأئمة كالسمعاني، والخطيب البغدادي، وسمع منها خلق كثير توفيت بمكة سنة ٤٦٣هـ^(١).

وجاء في ترجمة ست الوزراء بنت عمر بن أسعد المنحأ (٦٢٤هـ- ٧١٦هـ) وأنها كانت تُسمع الناس الحديث بدمشق ثم استقدمت إلى مصر وأخذ عنها جمع من محدثي مصر، وصارت الرحلة إليها من سائر الأقطار للسمع عليها، وبلغ عدد الذين أخذوا عنها وتلمذوا على يدها أكثر من تسعين عالماً ومحدثاً^(٢).

رقم قياسي في التأليف:

وفي عصرنا الحاضر فإن امرأة قد ضربت الرقم القياسي في عدد الروايات المنشورة، وهي الكاتبة الجنوب إفريقية (كاثلين ليندساي ١٩٠٣م-١٩٧٣م) والتي نشرت ٩٠٤ روايات خلال حياتها التي لم تتجاوز السبعين عاماً^(٣).

كما تعتبر الآن الروائية الكاتبة (باربرا كارتلاند) سيدة القصة العاطفية في العالم، حيث تجاوزت قراؤها ٧٠٠ مليون شخص، وهي تكتب يومياً سبعة آلاف كلمة أي فصل كامل وأكثر أحياناً.

عمرها ٩٧ سنة، تصدر قصة جديدة كل أسبوعين، ووصل مجموع قصصها ٦٨٧ قصة، ادرج اسمها لسنوات في كتاب (غينيس) كأكثر كتاب القصة غزارة في الإنتاج. ترجمت قصصها إلى أربعين لغة من

(١) المصدر السابق، ص ٨٢.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٠١-٢١٨.

(٣) الفيصل: مجلة ثقافية شهرية، عدد ٢٢٢ ص ١٣٤، مايو ١٩٩٥م.

بينها العربية واليابانية والروسية والأردو^(١).

هكذا كانت المرأة سبّاقة في ميادين المعرفة والفضل، وهكذا تثبت المرأة عملياً إمكانية تقدمها وتفوقها على الرجال.

(١) الفيصل: مجلة ثقافية شهرية، عدد ٢٢٢ ص ١٣٤، مايو ١٩٩٥ م.
(١) المجلة ٢: اسبوعية، لندن، عدد ٩٦٢ ص ١٤، ٥٢، يوليو ١٩٩٨ م.

الزواج بين التعاليم والتقاليد

كلمة الجمعة بتاريخ ١ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ

إذا كان الزواج ضرورة وحاجة ملحة للإنسان في كل عصر، فإنه في هذا الزمن أكثر ضرورة، وأشد إلحاحاً. وذلك لما يتعرض له إنسان اليوم من وسائل تحريض للشهوة، وعوامل إثارة للغريزة، تجعله يعيش حالة من الهياج والاندفاع الجنسي العنيف. فوسائل الإعلام وأجهزة الاتصالات تتفنن في إذكاء الغرائز والشهوات، إضافة إلى انتشار أجواء الخلاعة والابتذال. ولم تعد هناك حدود أو مراعاة لشيء من الحياء والاحتشام، الذي كان يميّز الإنسان في ممارساته لغرائزه عن بقية الحيوانات.

كما تحيط بالإنسان المعاصر الكثير من دواعي القلق، وأسباب الاضطراب النفسي، للتعقيدات التي يواجهها في توفير متطلبات الحياة، وللأخطار والتحديات المختلفة التي تنتصب أمامه على الصعيد الشخصي والاجتماعي.

وبذلك تزداد حاجة الإنسان إلى مأوى يلجأ إليه ليمنحه الطمأنينة والاستقرار، وإلى قناة سليمة، وإطار مشروع، يمارس من خلاله غريزته الجنسية الطبيعية.

والزواج هو ذلك الحصن الحصين والكهف المنيع، الذي يوفر للإنسان أجواء الراحة النفسية، واللذة الغريزية، ففيه سكون واطمئنان نفسي، حيث يشعر كل من الزوجين بوجود من يشاركه هموم الحياة،

ويعينه على مشاكلها، ويمكنه الانفتاح عليه، وبثه آلامه وآماله، لذلك يصف الله تعالى الزوج بأنه سكن للإنسان، فالرجل سكن لامرأته، وهي سكن له، أي يتوفر بكل واحد للآخر سكن النفس واطمئنانها. يقول تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾^(١) والخطاب موجه للرجال والنساء.

وبالزواج يصبح الإنسان أكثر حصانة ومناعة تجاه الانحرافات السلوكية، و المفسد الأخلاقية، بل وتجاه مختلف الجرائم. وهذا ما تدل عليه الإحصاءات والأرقام. فالمتزوج أمامه طريق سالك لإشباع رغباته وشهوته، وهو غالباً ما يفكر أكثر في تصرفاته وممارساته، لما يشعر به من مسؤولية عائلية وأسرية.

أخرج البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم شباباً لا نجد شيئاً فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة - أي النفقة - فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج»^(٢). وإشارة إلى دور الزواج في التحصين عن الانحراف قال صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه: «أيماشاب تزوج في حداثة سنه عجّ شيطانه: يا ويله! عصم مني دينه»^(٣).

كما يشير حديث آخر إلى أن عدم الزواج يعني نسبة أكثر من احتمالات الشر والانحراف يقول صلى الله عليه وسلم فيما روي عنه: «شراركم

(١) سورة الروم الآية ٢١.

(٢) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٥٠٦٦، كتاب النكاح، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٤٤٤٤١، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ، مؤسسة الرسالة.

عزابكم»^(١).

بين مسؤولية الفرد والمجتمع:

أصبح تأخير الزواج للشباب والشابات هو الحالة السائدة في مجتمعاتنا، حيث تستغرق الدراسة حوالي ثمانية عشر عاماً، إضافة إلى الست السنوات الأولى قبل سن الدراسة، وبعد التخرج يحتاج إلى بضع سنوات حتى يجد له عملاً، وحتى يكون نفسه ليكون قادراً على توفير مستلزمات الزواج.

وهذا يعني أن يقضي الشباب والشابات أهم الفترات حراجه وحساسية في حياتهم العاطفية والنفسية، وهم في حالة العزوبة، مما يعرضهم للكثير من مخاطر الانزلاقات والانحرافات، ويعرض أمن المجتمع الأخلاقي للاهتزاز والاضطراب.

إن المجتمع الذي يفكر في تحصين أمنه واستقراره، ويهتم بصلاح وإصلاح أبنائه، يجب أن يسهل ويسر أمور الزواج، ويساعد الشباب على الإسراع في بناء حياتهم العائلية.

وإذا ما تأملنا النصوص والتعاليم الدينية نراها تحمّل المجتمع مسؤولية زواج أبنائه، يقول تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

﴿وَأَنْكِحُوا﴾ أي زوّجوا، وهو خطاب للمجتمع بأن يزوجوا العزاب، حيث لم يخاطب العزاب هنا بأن يتزوجوا، وإنما خاطب الناس أن يزوّجهم. ذلك لأن الزواج غالباً ليس قضية فردية يقوم بها الطرفان

(١) المصدر السابق، حديث رقم ٤٤٤٤٨.

(٢) سورة النور الآية ٣٢.

المعنيان فقط، وبمعزل عن الارتباطات والتأثيرات الاجتماعية، كسائر الأمور من بيع وشراء وإجارة.. بل هو مسألة لها أبعادها وارتباطاتها المؤثرة بأكثر من جانب اجتماعي. كما أن من يريد تأسيس حياته العائلية وخاصة لأول مرة، قد يحتاج إلى دعم وعون مادي ومعنوي، لمساعدته على إنجاز هذه المهمة وإنجاحها. من هنا يتوجه الخطاب إلى المجتمع ﴿وَأَنْكِحُوا﴾.

﴿الْأَيَّامَى﴾ جمع (أَيِّم) على وزن (قَيِّم) وتعني الإنسان الذي لا زوج له رجلاً كان أو امرأة، وإن كان قد كثر استعمال هذه الكلمة في الرجل إذا ماتت امرأته، وفي المرأة إذا مات زوجها، ولكنه كما نص عليه اللغويون: تشمل كل ذكر لا أنثى معه، وكل أنثى لا ذكر معها بكرةً أو ثيباً.

وإذا كان بعض الأشخاص، يعانون من الضعف الاقتصادي، فإن زواجهم قد يكون دافعاً لهم للمزيد من العمل والإنتاج، كما أن الله تعالى سيبارك لهم ويوسع عليهم، بتحملهم لمسؤولياتهم العائلية والاجتماعية.

الإعفاف:

الإعفاف لغة: فعل ما يحقق العفاف للنفس أو للغير. واصطلاحاً يقصد به الفقهاء: تزويج المحتاج للزواج لتجنيبه الوقوع في الحرام. وقد ناقش الفقهاء المسلمون من مختلف المذاهب الإسلامية هذه المسألة على الوجه التالي: هل يجب على الإنسان، إذا كان قادراً متمكناً أن يوفر تكاليف الزواج لمن يحتاج إلى الزواج ممن تجب نفقته عليه كوالديه وأولاده؟ أم أن ذلك مستحب ومندوب إليه فقط دون أن يرقى إلى مستوى الوجوب؟

المشهور عند فقهاء الشيعة أنه لا يجب إعفاف من تجب النفقة له ولداً كان أو والدًا بتزويج أو إعطاء مهر أو تملك أمة أو نحو ذلك مما يناسب حالة الإعفاف، وإنما هو أمر مندوب مستحب^(١).

ونقل عن بعض فقهاءهم القول بالوجوب للأب وإن علا، لأن ذلك من أهم المصاحبة بالمعروف المأمور بها في الآية: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾^(٢) ولأنه من وجوه حاجاته المهمة فيجب على الابن القيام به كالنفقة والكسوة^(٣).

وهو رأي فقهاء أهل السنة «يلزم الولد إعفاف الأب والأجداد على المشهور»^(٤) لكن الراجح عند الحنفية أنه لا يلزمه سواء وجبت نفقته أو لم تجب^(٥).

دور الحقوق الشرعية :

والمساعدة على الزواج للمحتاجين من أفضل موارد صرف الحقوق الشرعية، لأنها تحقق غرضين أساسيين في وقت واحد، هما قضاء الحاجة، وحماية الأخلاق والقيم، لذلك أفتى الفقهاء بأنه يصح أن يصرف من أموال الزكاة لتزويج المؤمنين المحتاجين للزواج، مع ضعف وضعهم الاقتصادي، وحتى غير المؤمن الملتزم يصح مساعدته من الزكاة للزواج من سهم المؤلفة قلوبهم في سبيل الله. ولا يجب إعلام الفقير المحتاج إلى الزواج أن المدفوع إليه زكاة،

(١) النجفي: الشيخ محمد حسن، جواهر الكلام، نفقة الأقارب، ج ١١ ص ٢٤٢.

(٢) سورة لقمان الآية ١٥.

(٣) البحراني: الشيخ يوسف، الحدائق الناضرة، ج ٢٥ ص ١٢١.

(٤) الخطيب: الشيخ محمد الشربيني، مغني المحتاج، ج ٣ ص ٢١١، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٥) وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، الموسوعة الفقهية، ج ٥ ص ٢٥٨.

بل لو كان ممن يترفع ويدخله الحياء منها، وهو مستحق، يستحب دفعها إليه على وجه الصلة ظاهراً والزكاة واقعاً^(١).

ويجوز للوالد أن يدفع زكاته إلى ولده للصرف في مؤنة التزويج وكذا يجوز للولد أن يصرف زكاته في تزويج والده.^(٢)

وكذلك فإن الخمس ينقسم في مصرفه إلى نصفين: نصف للسادة الهاشميين، والنصف الآخر للإمام المعصوم عليه السلام فمن مصارف النصف الأول تزويج السادة المحتاجين للزواج، مع ضعفهم الاقتصادي. كما أنه يجوز الصرف من النصف الآخر الراجع للإمام عليه السلام من أجل تزويج المحتاجين للزواج من المؤمنين، بعد الاستئذان من المرجع الديني مباشرة أو من وكيله.

كما أن مساعدة المحتاجين للزواج تعتبر من أفضل موارد البذل والصدقة، لأنها تعالج حاجة ماسة حقيقية، وتسهم في تعزيز أمن المجتمع وسد ثغرات الفساد والانحراف، كما أنها استجابة للحث الإلهي والديني على الإنكاح والتزويج، وأن ذلك من أحب الأمور إلى الله تعالى، فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «ما بني بناء في الإسلام أحب إلى الله عز وجل من التزويج».^(٣)

الصندوق الخيري للزواج:

إنشاء صندوق خيري لمساعدة المحتاجين للزواج، هو أفضل أسلوب لتحقيق وإنجاز هذا المطلب الديني الاجتماعي الهام، فبغير الصندوق تنتظم أمور هذا السعي المبارك، وتدرس حالات الأفراد،

(١) اليزدي: السيد محمد كاظم، العروة الوثقى، الزكاة، أصناف المستحقين، مسألة رقم ١٢.

(٢) المصدر السابق، أصناف المستحقين، مسألة رقم ١٧ بناء على عدم وجوب الإعفاف كما سبق.

(٣) الحر العاملي: محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة، ج ٢٠ ص ١٤، حديث رقم ٢٤٩٠.

وتقدر لهم احتياجاتهم، والعمل الجمعي أنفع وأبرك من الأعمال الفردية. فينبغي للإخوة المؤمنين أن يبادروا إلى إنشاء هذا المشروع الهام في كل مدينة وقرية، وأن يدعم الناس الصناديق القائمة مادياً ومعنوياً لتؤدي وظيفتها المقدسة على أفضل وجه.

ولا بد أن نشيد هنا بالدور الرائد الذي يقوم به صندوق الزواج الخيري في مدينة صفوى، والذي تأسس عام ١٩٩٣م وصرف حتى عام ٢٠٠٠م مبلغاً قدره ٥٨٣, ٦٦٨, ٣ لمساعدة ٣٥٧ شاباً على الزواج عبر برنامج القروض والإعانات.

وصندوق الزواج الخيري في سيهات والذي تأسس عام ١٩٩٢م والذي صرف حتى عام ٢٠٠٠م ٩٥٢, ٧٧٧, ١ قروضاً ومساعدات، استفاد منها ٢٢٥ شخصاً للزواج.

والصندوق الخيري للزواج في القطيف ١٩٩٩م والذي صرف خلال سنتين من تأسيسه مبلغاً قدره ٩٤٩, ٤٠٥ ريال لمساعدة ٦٤ شاباً على الزواج بين قرض وإعانة.

إنها تجارب رائدة جزى الله القائمين عليها والمتعاونين معها خيراً وينبغي أن تنال حقها من الإشادة والتشجيع وأن يحتذى بها في بقية المناطق والمدن.

أحاديث عن التزويج:

- عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أدرك له ولد، وعنده ما يزوجه فلم يزوجه، فأحدث فالإثم بينهما»^(١).
- وفي رواية عن ابن عباس عنه ﷺ: «من بلغ ولده النكاح وعنده

(١) الطبرسي: الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج ٧ ص ٢٤٥.

- ما ينكحه فلم ينكحه ثم أحدث حدثاً فالإثم عليه»^(١).
- وعنه عليه السلام: «حق الولد على والده أن يحسن اسمه، ويزوجه إذا أدرك، ويعلمه الكتابة»^(٢).
- عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «من زوج أعزباً كان ممن ينظر الله عز وجل إليه يوم القيامة»^(٣).
- عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «ثلاثة يستظلون بظل عرش الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله، رجل زوج أخاه المسلم، أو أخدمه، أو كتم له سرّاً»^(٤).

مراسيم الزواج:

لأن الزواج حدث هام في حياة الإنسان، بل لعله أهم حدث يترك تفاعلاته العميقة في وجدان الإنسان ومشاعره، ويؤثر في مجريات حياته. كما أن له انعكاساته الاجتماعية على المحيطين بالمتزوج، لذلك من الطبيعي أن ترافقه مراسيم احتفاء، وبرامج إعلام وإظهار، تتيح الفرصة للتعبير عن مشاعر الفرح والسرور، عند المتزوجين والمحيطين بهما، وتكشف عن مدى تعاطف الآخرين وتقديرهم بالمشاركة والتفاعل.

ومراسيم الزواج هي إعلان عن ولادة كيان اجتماعي جديد، وتأسيس علاقة محترمة في شرع المجتمع وأعرافه، وأيضاً فإنها توثق لروابط المحبة والود والتآلف بين أبناء المجتمع.

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٤٥٣٣٧، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.

(٢) المصدر السابق، حديث رقم ٤٥١٩١.

(٣) الكليني: محمد بن يعقوب، فروع الكافي، ج ٥ ص ٣٣١، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الأضواء، بيروت.

(٤) الحر العاملي: محمد بن الحسن، تفصيل وسائل الشيعة، حديث رقم ٢٤٩٩٤.

من هنا شجع الإسلام على الاحتفاء بالزواج، وإقامة مراسم مناسبة له، كصنع الوليمة والإطعام، وزفاف العريس.

بالطبع يمكن لمراسيم الزواج أن تتطور أساليبها وبرامجها، مع اختلاف العصور والمجتمعات والظروف لكن ما ينبغي التنبيه إليه أمران:

أولاً: أن تبقى في إطار مراعاة الأحكام الشرعية، فلا يجوز شرعاً أن يحصل تجاوز لأحكام الستر والحجاب بين النساء والرجال الأجانب عليهن، وإذا كان بعض الفقهاء قد أجازوا الغناء للنساء في مناسبة الزواج دون استخدام آلات اللهو كما هو رأي السيد الخوئي والسيد الشيرازي والشيخ التبريزي^(١) لكن ذلك مشروط بأن لا يصل صوت غنائهن للرجال الأجانب.

ومن المخالفات الشرعية تداول تصوير حفلات الزواج النسائية، وتسربها إلى الرجال الأجانب. وقد نشرت جريدة الوطن السعودية اليوم الجمعة ١٤٢٢/٤/١ هـ ص ٣٣ تحقيقاً من الدمام حول الموضوع تحت عنوان (تسرب أشرطة حفلات الزواج بالسعودية يثير مشكلات أسرية بعضها ينتهي بالطلاق).

ثانياً: الحد من المبالغة المتصاعدة في هذه المراسيم والتي تثقل كاهل المتزوجين وأهاليهم، حيث تستنزف مبالغ طائلة، وجهوداً مضنية، تجعل تكاليف الزواج باهظة معقدة، مع ما نعيشه من صعوبة في الظروف الاقتصادية.

والملاحظ استمرار الزيادات والموضات الجديدة، في ما يرتبط

(١) الشيرازي: السيد محمد، نشرة أجوبة المسائل الشرعية، ج ٢ ص ١٠١. الخوئي: السيد أبو القاسم. التبريزي: الشيخ جواد، صراط النجاة، ج ١ ص ٣٧٤.

بحفلات الزواج والتنافس على عقدها في أضخم الصالات، حيث تصل التكلفة في بعضها إلى ٧٠ ألف ريال، وتقديم الولايم بطريقة فيها الكثير من الإسراف والتبذير، ثم التفاخر بأعلى الفساتين ليلية الزفاف، وأحدث موديلات السيارات للزفة، وإلى قائمة من العادات والتقاليد المرهقة الباهظة.

إن المجتمع بحاجة إلى ثقافة واعية لتغيير هذه العادات والتقاليد، وإلى مبادرات شجاعة من قبل فتيان وفتيات يتمردون على هذه الموضات والموديلات في مراسيم الزواج، ويعودون بها إلى حالة البساطة واليسر، كما تؤكد تعاليم الإسلام يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(١).

المشاكل بين الآهات والمعالجات

كلمة الجمعة بتاريخ ٨ ربيع الآخر ١٤٢٢ هـ

يودّ الإنسان أن يعيش حياته دون مشاكل أو صعوبات، وأن لا تعترض طريقه عوائق وعقبات، بيد أن القسم الأكبر من المشاكل التي يواجهها إنما تنبع من ذاته، وتحصل بسبب نواقصه وأخطائه، وبإمكانه تجاوزها بمزيد من المعرفة والاستقامة والاجتهاد.

وهذا ما تشير إليه آيات عديدة في القرآن الكريم، تحمّل الإنسان فرداً ومجتمعاً، مسؤولية ما يقع عليه من نكسات وآلام، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾^(١) أخرج ابن المنذر وجماعة عن الحسن قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ﴾ قال ﷺ: «والذي نفسي بيده ما من خدش عود، ولا اختلاج عرق، ولا نكبة حجر، ولا عثرة قدم، إلا بذنب، وما يعفو الله عز وجل عنه أكثر»^(٢). والذنب يشمل كل مخالفة لأحكام الشريعة أو قوانين الطبيعة.

وهناك قسم من المشاكل تقتضيها حكمة الحياة، فإن الإنسان ينطوي على مخزون من القدرات والطاقات، ويحتاج إلى دوافع وحوافز تستثير إمكاناته، وتستنهض قواه، وغالباً ما تلعب المشاكل والتحديات هذا الدور في حياة الإنسان، فالحاجة أم الاختراع، والمشكلة تدفع

(١) سورة الشورى الآية ٣٠.

(٢) الألويسي: السيد محمود، تفسير روح المعاني، ج ٢٥ ص ٤١.

إلى التفكير والحركة، وما الاختراعات العلمية، والإنجازات الصناعية، في مختلف المجالات، إلا استجابة من الإنسان للتحديات التي شعر بمواجهتها، وعاش تحت وطأة ضغوطها.

لقد هياً الله تعالى للإنسان في هذه الحياة كل أسباب السعادة والكمال، حتى لا يعاني حاجة أو نقصاً، لكن ذلك مشروط بحركة الإنسان وسعيه، وبالسعي والحركة تتفجر طاقاته، وتنقل شخصيته، وتتسع مداركه وآفاقه، إلى جانب توفير متطلباته وتحقيق طموحاته.

وبالتالي فإن لكل مشكلة حلاً، ولكل داء دواءً، وما على الإنسان إلا الاجتهاد في التفكير، والجد في الحركة والعمل، ليصل إلى ما يريد، فبعض المشكلات تحتاج معالجاتها إلى مستوى أعلى من النشاط، وبعض التحديات تستوجب بذل درجة أكبر من الجهد.

وكمثال على ذلك فإن أمراضاً كانت تفتك بالإنسان وتودي بحياته، لكن كفاح العلماء المتواصل مكّن الإنسانية من التغلب على خطرهما، عبر التلقيح وأدوية العلاج كالجدري والحصبة والملاريا وأمثالها. وهكذا في مجال مقاومة الحر والبرد حيث صنع الإنسان وسائل التكييف والتدفئة، وفي مجال المواصلات والاتصالات وغيرها. فإن كل الاختراعات والاكتشافات، كانت من وحي الحاجة ومواجهة المشكلة.

ولتأكيد هذه الحقيقة ورد عن رسول الله ﷺ قوله فيما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، عنه رضي الله عنه: «إن الله تعالى لم ينزل داءً إلا أنزل له دواءً علمه من علمه، وجهله من جهله إلا السّام وهو الموت»^(١) وقال الإمام

(١) الهندي: علي الممتقي، كنز العمال، حديث رقم ٢٨٠٧٩، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ، مؤسسة الرسالة.

علي ﷺ: «لكل علة دواء»^(١).

هكذا يكون وجود المشاكل طريقاً لتفعيل قدرات الإنسان، وتنمية طاقاته. وحتى بالنسبة للأنبياء والأولياء المعصومين ﷺ فإن المشاكل التي تواجههم والآلام التي تحلّ بهم، هي التي تبرز كفاءتهم، وتظهر مقامهم المتميز، إضافة إلى ما ينالون بتحملها من الأجر والثواب عند الله سبحانه.

المشكلة ليست قدراً:

على ضوء هذا الفهم لطبيعة مشاكل الحياة، فإن على الإنسان أن لا يستسلم ولا ينهزم أمام أية مشكلة أو عقبة، بل عليه أن يعود لذاته، وأن يفتش عن الخلل والخطأ الذي حصل منه، وأنتج المشكل، هل هو نقص في المعرفة والوعي؟ أم هو تقصير في الحركة والسعي؟ أم هو انحراف في الممارسة والسلوك؟ وعبر إصلاح ذاته، وتغيير نفسه إلى الأفضل، سيتمكن من تجاوز المشكل والتغلب عليه. كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(٢) وكم من فرد كان يعيش وضعاً متردياً، ثم تجاوزه إلى حالة متقدمة، بعد أن غير ذاته، وأصلح الخلل في شخصيته؟ وكم من شعب كان يعاني التخلف والاضطهاد، ثم نال حريته وحقق تقدمه، حينما أنجز مهمة الثورة والكفاح، وقاوم عوامل الضعف والخنوع؟

وإذا كان المشكل قد أنتجته ظروف وأوضاع خارجية، فإن الإنسان إذا ما استثار فكره، واستنهض إرادته، واستجمع قواه، فسيجد له من

(١) الأمدي التميمي: عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم، ج ٢ ص ١١٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

(٢) سورة الرعد الآية ١١.

أمره فرجاً ومخرجاً.

ذلك أن المشكل ليس قدرأ مفروضاً، ولا حتمية أبدية، بل هو كأي وضع أو حدث قابل للتغيير والزوال، ضمن إطار سنن الكون والحياة. إذاً فلا داعي للانهيأر أمام المشكل، ولا الاستسلام والانهمأم أمام التحديات، بل يجب شحذ الهمة، وحشد الجهد والطاقة، بالتوكل على الله تعالى والثقة برحمته.

وبهذه الحقيقة نطقت آيات الذكر الحكيم لتشيع في نفوس البشر الأمل والتفائل، وتعزز في قلوبهم الثقة والإرادة، وتدفعهم للبحث عن وسائل التغيير والتطوير. يقول تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا. إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(١)، ويقول تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾^(٢)، وما أروع هذه الآية الكريمة التي تعبّر عن مفهوم عظيم، وتنبيء عن حقيقة هامة: إن كل عسر يبشّر بيسر، وإن كل مشكل يكون باباً وطريقاً إلى مكاسب وإنجازات، إذا ما استجاب الإنسان للتحدي، وتعاطى مع المشكل بإيجابية ووعي.

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾^(٣) والتقوى هنا بمفهومها الواسع الشامل والتي تعني مراعاة القوانين والسنن الطبيعية والشرعية، والمتقي بهذا المعنى لا يجد نفسه أمام طريق مسدود، بل يبتكر الحلول، ويجدد المحاولات، للخروج من أي مشكل أو مأزق.

كما أن مفاهيم الإسلام التي تحرّم اليأس والقنوط إنما تريد أن

(١) سورة الشرح الآية ٥-٦.

(٢) سورة الشرح الآية ٥-٦.

(٣) سورة الطلاق الآية ٢.

تخلق في نفس الإنسان روح الأمل، وقوة الإرادة، حتى لا يستسلم ولا ينهزم أمام المشكلات.

فالقنوط تكريس للخطأ والسوء، ومن يتصف به يضل عن طريق التقدم والصلاح ﴿وَمَنْ يَفْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾^(١) وإذا ما سيطر الاستسلام واليأس على نفس الإنسان، فإنه يفوت عليه فرص التغيير والخلاص، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «في القنوط التفريط»^(٢).

التأوه والتألم:

ألف كثير من الناس كأفراد ومجتمعات أن يجتروا الآهات، ويتباروا في إظهار التألم من وقع المشكل وتأثيراته، فأدباؤهم ينظمون أشعار الحزن والأسى، وكتابهم يتفننون في توصيف النكبات والآلام، ومجالسهم تبدأ ولا تنتهي في التباكي على المصائب، وإبراز التبرم من مشاكل الواقع، ويبقون يراوحوون مكانهم، ويستمرون في دوامة التأوه والتألم.

ولكن هل البكاء مجد في تغيير الواقع السيئ؟ وهل تكرار الحسرات واجترار الآهات يعالج المشاكل ويحلها؟ أم أنه مجرد تنفيس لإراحة النفس بشكل زائف، ولتصريف الحماس والانفعال بطريقة خاطئة؟

إن البكاء سلاح العاجز، والتظلم وسيلة الضعيف، وهي طريقة متخلفة في التعامل مع تحديات الحياة. والموقف الصحيح يجب أن يبدأ من التفكير في طرق الحل، واستعراض وسائل المعالجة، ومن ثم اتخاذ قرار المبادرة للتصدي لمواجهة المشكل.

(١) سورة الحجر الآية ٥٦.

(٢) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٤ ص ٢١١، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

فمثلاً يتحدث بعض المتدينين في جلساتهم ومجالسهم عن انتشار المفسد والانحرافات، وخاصة في أوساط الشباب والفتيات، ويزيدون على بعضهم البعض في ذكر القصص والأحداث السيئة في هذا المجال، وينعون حالة التدين، وانهيار الأخلاق في المجتمع، ويختمون جلساتهم بالتأوه والتألم كما بدأوها، دون أن يتجاوزوا توصيف المشكلة إلى تلمس طرق الحلول والمعالجات، ودون أن يطالبوا أنفسهم بمبادرة ما، لصالح نشر القيم الدينية، وبث الوعي السليم، أو استيعاب أبناء المجتمع في برامج ومشاريع نافعة مفيدة.

وفي مجال آخر تجد من يتحدث عن مشاكل التعليم، وخاصة مع انتهاء السنة الدراسية، ووجود عدد كبير من المتخرجين من المرحلة الثانوية، والباحثين عن فرص الالتحاق بالجامعات وخاصة في بعض التخصصات الهامة كالطب، فهناك كلام في الجرائد والمجالس عن هذه المشكلة والمعاناة سنوياً، لكن ما هو دور الأهالي ورجالات المجتمع في المساعدة على حل هذه المشكلة؟

وكيف يمكن خدمة أبنائنا وبناتنا وخاصة المتفوقين والمتفوقات من ذوي المعدلات العالية في تحقيق طموحهم الدراسي؟ لماذا لا يستفاد من التوجه للتعليم الأهلي الجامعي؟ ولماذا لا نساعد أبناءنا وبناتنا على الابتعاد ونهيئ لهم الأجواء الصالحة المساعدة؟

إن أي مجتمع لا يخلو من المشاكل والنواقص حتى في أكثر البلدان تطوراً وتقدماً، لكن المجتمع الواعي هو الذي يفكر في حل مشاكله، ويسعى إلى معالجة قضاياها، ولا يكتفي بتكرار الحسرات والآهات.

قصة معبرة:

ينقل أن أحد الأثرياء الواعين كان يأخذ على أهل قريته انعدام

المبادرة لديهم في حلّ مشكلات حياتهم، وأراد أن يقدم لهم نموذجاً عملياً، فقام مبكراً ذات يوم وحمل حجراً كبيراً ووضعته في الطريق الرئيسي الذي يسلكه أهل القرية إلى مزارعهم، ووضع تحت الحجر مبلغاً كبيراً من المال، ثم اختبأ خلف شجرة يراقب..

فمر فلاح يجرّ وراءه بقرة سميثة، فوجد الحجر في الطريق فأخذ يسخط ويلوم، وبالكاد مر ببقرته، تاركاً الحجر مكانه.. ثم جاء رجل آخر يحمل حزمة من الحطب على كتفه، ويسير في الطريق، فاصطدم بالحجر دون أن يراه، وتعثر ووقع الحطب، وقام الرجل ساخطاً يسبّ ويتألم، ثم جمع حطبه وحمله وسار في طريقه متبرماً والحجر لا يزال مكانه .

وهكذا مرّ العديد من الرجال، ولم يزد أحد منهم على إبداء السخط والاستياء من وجود هذا الحجر في وسط الطريق، وسب وشتم من وضعه، وربما تحادث بعضهم مع بعض لتبادل الآهات والتعبير عن السخط والانزعاج.

وفي آخر النهار مر شاب تبدو على وجهه علامات التعب الشديد من كثرة العمل في الحقل طوال النهار، لكنه لما رأى الحجر منتصباً وسط الطريق، شمّر عن ساعديه، وحاول بكل جهده وقوته أن يزيحه، وبعد جهد وعناء تمكن من ذلك وأبعد الحجر، فوجد تحته مبلغاً كبيراً من المال، فظن أنه سقط من أحد من أهالي القرية، فرفع صوته منادياً على السائرين في الطريق إن كان أحد منهم قد فقد شيئاً من ماله..

وهنا ظهر ذلك الرجل الواعي الذي وضع الحجر وأخفى المال تحته، ليعانق الشاب ويهديه المبلغ ويشكره على مبادرته الطيبة وروحته الإيجابية، ثم قدمه لأهالي القرية كنموذج لما ينبغي أن يكونوا عليه من

التصدي لحل المشكل وإزالة العقبات، وعدم الاكتفاء بإظهار التبرم والسخط والتألم.

الفاعلية واجترار الغبن؛

بعض الأفراد والمجتمعات حينما تمر عليهم ظروف غير مريحة، يتعرضون فيها لضيم أو عدوان، فإنهم ينكفئون على أنفسهم، ويدمنون حالة اجترار الغبن، وتسود أجواءهم حالة التشكي والتذمر، وبذلك يتضاءل مستوى الفاعلية والنشاط لديهم، وتضعف القدرات، وتضيع الفرص.

أما المجتمعات الواعية فإنها تحاول استيعاب الصدمات، والخروج من آثارها النفسية بأسرع وقت ممكن، للانطلاق من إمكاناتها الحاضرة، واستثمارها في بناء الذات، وتقوية الوجود، والالتفاف بالتالي على واقع الضعف والانكسار.

وقد ضرب اليابانيون أروع مثل على هذا الصعيد، فاليابان بعد الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥م خرجت من المعركة محطمة منهكة، حيث ضربت بالقنبلة الذرية في هيروشيما وناكازاكي، وبلغت خسائرها البشرية مليونين وثمانين ألف شخص، وخسائرها الاقتصادية قدرت بخمسمائة واثنين وستين مليار دولار، وفرضت عليها الهزيمة والاستسلام بشروط مذلة، منها القبول بوجود قواعد عسكرية أمريكية على أراضيها، وتحديد قدراتها العسكرية جيشاً وتصنيعاً بحدود حاجتها الداخلية..

ورغم الصدمة العنيفة التي أصابت اليابانيين بقرار الاستسلام الذي اتخذته الإمبراطور والحكومة، وانتحر على أثره آلاف الضباط.. إلا أنهم سرعان ما استوعبوا الصدمة، وتجاوزوها بخطط تربوية وتعليمية

صارمة، وبرامج اقتصادية وتكنولوجية طموحة، وعادت اليابان قوة اقتصادية عملاقة، تنافس أقوى الدول اقتصادياً وتكنولوجياً. ولو انشغل اليابانيون بمآتم الحزن والبكاء، وسيطرت على نفوسهم حالة التشكي واجترار الغبن، لما حققوا شيئاً من هذا التقدم الكبير.

المبادرة للعمل:

قبل ستين سنة تقريباً نشرت بعض المجلات في مصر ومناطق أخرى مقالات تتهجم على أتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام)، وتعتبرهم خارجين عن دائرة الإسلام، وتصفهم بالجهل والخضوع للخرافات والأساطير، وأنهم لا يمتلكون تراثاً ولا شخصيات تستحق الاحترام، وعلى أثر هذه المقالات سادت حالة من الاستياء والسخط في أوساط الحوزة العلمية في النجف الأشرف - العراق، وهي المركز العلمي والمذهبي للشيعة، وعطلت الدروس احتجاجاً على هذه الإساءات، وتحديث الخطباء في المجالس منددين بذلك، لكن ثلاثة من العلماء ما كانوا يرون في مظاهر التنديد وإعلان السخط والاستياء أمراً كافياً في مواجهة هذا العدوان.

بل قرر كل واحد منهم أن ينجز مشروعاً علمياً معرفياً يخدم به المذهب، ويقدم الطائفة للآخرين من خلال تاريخها وثقافتها ورجالاتها.

أحدهم كان السيد محسن الأمين العاملي كتب موسوعة (أعيان الشيعة) والثاني هو السيد حسن الصدر كتب بحثاً هاماً طبع في مجلد كبير تحت عنوان (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام) والثالث هو الشيخ آغا بزرك الطهراني ألف موسوعة ضخمة بعنوان (الذريعة إلى تصانيف الشيعة).

هذه الموسوعات الثلاث أصبحت مراجع ومصادر أساسية ونالت

مكانة مرموقة عند الباحثين وكانت أفضل رد وجواب على المتجاهلين والمغرضين. وهكذا يجب أن يكون التعاطي مع المشاكل بالمبادرة إلى العمل وتحقيق الإنجازات، وليس الاكتفاء بالتذمر والتشكي واجترار الغبن.

طريق المعالجة :

التعامل الإيجابي الصحيح مع أي مشكل ينبغي أن يكون عبر الخطوات التالية:

١. الدراسة الموضوعية: لمعرفة حقيقة المشكل وحجمه، وأسبابه وخلفياته، ومدى الآثار والانعكاسات التي ينتجها، وذلك بعيداً عن التهويل والتضخيم، والاستهانة والتبسيط، بل دراسة الأمور بواقعية وموضوعية. فقد تختلط الأشياء على الإنسان، ويتوهم ما لا واقع له، وقد يعتمد الإنسان في تصوراتهِ على الظنون والتخيلات.

٢. التفكير في الحلول: انطلاقاً من أن لكل مشكلة حلاً، ومن الإيمان بطاقات الإنسان الخلاقة، وقدراته العقلية الثابتة، فإنه إذا ما وجه عقله نحو نقطة معينة، واستعرض مختلف الخيارات والاحتمالات، واجتهد في إبداع الحلول، وابتكار الأساليب والوسائل، فإنه يهتدي إلى طريق الحل والعلاج، ولو قرأنا تجارب المخترعين والمكتشفين والعظماء والمصلحين، لرأينا كيف تمكنوا من تجاوز العوائق والعقبات، وتوصلوا إلى تحقيق الطموحات والإنجازات، بعد جهد فكري عميق، وعمل ذهني

شاق. يقول الإمام علي: «من أسهَرَ عين فكرته بلغ كنه همته»^(١)،
ويقول ﷺ: «بالفكر تنجلي غياهب الأمور»^(٢).

إن ما يعاني منه الكثيرون تجاه المشاكل والصعوبات، هو وقوعهم تحت تأثير العواطف والانفعالات النفسية، على حساب إعمال العقل، وتركيز الفكر.

٣. تحمّل المسؤولية: فالبعض ينتظرون أن تحلّ مشاكلهم عن طريق الغيب، ويتوقعون المعجزة من المجهول، ويتربّون التغيير والإصلاح عن طريق الدعاء، أو حدوث تطورات ما في هذه الحياة، وفي بعض الأحيان يعلقون الآمال على هذه الجهة أو تلك لتحقيق ما يرغبون.

وهذه كلها تصورات مخالفة لمنطق الحياة، وللقوانين والسنن، فإن الله تعالى لا يريد تربية عباده على العجز والكسل، ولذلك يحملهم المسؤولية عن أوضاعهم، ويحثهم عبر رسالاته وأنبياؤه على العمل والجد والاجتهاد، فواقع الإنسان نتاج عمله وكسبه ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(٣)، ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾^(٤).

فلا بد من تحمّل المسؤولية تجاه أي مشكل، والاستعداد للبدل والتضحية من أجل تجاوزه، وأن لا يعيش الإنسان على الآمال والتوقعات، فمشاكلنا تعيننا، ونحن المطالبون بالتصدي لمعالجتها،

(١) الأمدي التميمي: عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم، ج ٢ ص ٢١٣، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

(٢) المصدر السابق.

(٣) سورة النجم الآية ٣٩.

(٤) سورة الأنعام الآية ١٣٢.

وعلينا أن نبذل الجهد، ونعطي من أنفسنا لتحقيق ذلك.

٤. **التشاور والتعاون:** فتبادل الرأي واستعراض وجهات النظر بين

المهتمين بالشأن الاجتماعي، يساعدهم على الوصول إلى أفضل

الآراء وأصوبها، كما أن تضافر الجهود، واجتماع القوى والارادات

يمكن من تذليل الصعاب، وإنجاز المهام الكبيرة.

وبدل أن يتبارى الناس في إعلان الآهات والحسرات، عليهم أن

يتنافسوا في طرح المعالجات، ويتعاونوا في تقديم المشاريع العملية

لتجاوز ما يواجهونه من المشكلات.

يقول الإمام الحسن عليه السلام: «ما تشاور قوم إلا هدوا إلى رشدهم»^(١)

ويقول الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(٢).

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٧٥ ص ١٠٥، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) سورة المائدة الآية ٢.

كيف تقهر الوسواس

كلمة الجمعة بتاريخ ١٥ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ

يطلق علماء النفس على مرض الوسواس مصطلح: (العصاب القهري) أو (الاضطراب الوسواسي الجبري) وقد وضع فرويد أول وصف متكامل للعصاب القهري في كتابه (مقدمة عامة للتحليل النفسي) عام ١٩١٧م، بقوله: «ينشغل عقل المريض بأفكار غير سارة، ويشعر باندفاعات تبدو غريبة بالنسبة إليه، وأنه مدفوع ليؤدي أعمالاً لا تسره، وليس لديه القدرة على الامتناع عنها، وقد لا يكون للأفكار والوسواس معنى في ذاتها، لكنها مع ذلك، أفكار مثابرة ومسيطرة على عقل المريض دائماً»^(١).

وقدم العالم النفسي (وولمان) سنة ١٩٧٣م وصفاً لهذا المرض قال فيه: «يتميز هذا المرض باقتحام مثابر لتفكير غير مرغوب، أو اندفاعات، أو أفعال، لا يستطيع المريض إيقافها. والتفكير قد ينصب على كلمة مفردة أو فكرة، أو سلسلة من الأفكار يدرك المريض أنها عمل أحرق. وتتراوح الأفكار بين حركات بسيطة، وطقوس معقدة، مثل: تكرار غسل اليدين، وغالباً ما يظهر القلق والضيق إذا ما امتنع المريض عن إكمال طقوسه القهرية، أو إذا اهتم بكونه غير قادر على التحكم فيها»^(٢).

(١) الطيّب: الدكتور محمد عبد الظاهر، الوسواس القهري تشخيصه وعلاجه، ص ٢١، الطبعة الثالثة ١٩٩١م، دار المعرفة الجامعية، مصر.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧.

ويتمظهر هذا المرض بأشكال وألوان مختلفة عند المصابين به، فبعضهم يعاني من إلحاح هواجس وأفكار غريبة على ذهنه، كشعوره بأنه قد يرتكب جرماً معيناً، أو يصاب بحادث معين، والبعض يصاب بحالة من الوسواس في أمور النظافة والوقاية الصحية، كتكرار غسل الجسم أو اليدين أو الأواني التي يستخدمها، لتجنب القذارة والجراثيم، وهناك من يتلى بالتشكيك وإساءة الظن في تصرفات المحيطين به، فيفسر أي كلمة أو حركة من الآخرين بشكل سلبي خاطئ، وكأنها ضده أو تستهدفه.

وتقدر نسبة المصابين بمرض الاضطراب الوسواسي الجبري في المجتمعات البشرية بحدود ٢٪، قياساً على إحصائيات المجتمع الأمريكي، وهذه النسبة معناها على المستوى الرقمي في الولايات المتحدة الأمريكية (٤٩٠) ألف مريض يعانون العصاب الوسواسي تقريباً^(١).

طبيعة الوسواس:

هناك أفكار يقتنع بها الإنسان ويقبلها بوعيه وعقله، وهناك رغبات تنطلق من شهوات الإنسان وعواطفه، أما الوسواس فهو خواطر شاذة يدرك المصاب بها أنها خاطئة لا تستند إلى أساس، كما يشعر بثقل وطأتها عليه، فهو لا يرغبها ولا يحبها، ويؤدي التدمير والتضجر من معاناته منها.

فالوسواسي يدرك أن لا معنى لأفعاله، وأن سلوكياته لا عقلانية ولا منطقية، إلا أنه يشعر بالعجز عن منع نفسه من الانخراط في هذه

(١) حجار: الدكتور محمد، العلاج النفسي الحديث للاضطراب الوسواسي الجبري، ص ١١، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار طلاس، دمشق.

السلوكيات نظراً لنزوعاته غير الخاضعة لسيطرته.

ويرى بعض علماء النفس: أن عدداً قليلاً جداً من المرضى الذين لا ينظرون إلى سلوكياتهم كأمر لا معنى لها أو غير منطقية، بل يعتقدون أن لديهم السبب الكافي لما يبدو أنه من اهتمام في سلوكياتهم، كما وأن طقوسهم الجبرية ستمنع من تعريضهم لتتائج كارثية حسب معتقدتهم^(١).

ويؤكد حديث ورد عن الإمام جعفر الصادق، ما يذكره علماء النفس من إدراك الوسواسي غالباً لعبثية وسوسته، يقول عبد الله بن سنان: ذكرت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام رجلاً مبتلى بالوضوء والصلاة - أي بالوسواس في نيتها أو أفعالها أو شرائطها - وقلت: هو رجل عاقل. فقال أبو عبد الله عليه السلام: «وأي عقل له وهو يطيع الشيطان؟»، فقلت له: وكيف يطيع الشيطان؟ فقال عليه السلام: «سله هذا الذي يأتيه من أي شيء هو؟ فإنه يقول لك من عمل الشيطان»^(٢).

فالوسواس لا يعتمد على أساس فكري منطقي، ولا ينبثق من رغبة نفسية، وإنما هو حالة مرضية تبدأ بخاطر يقتحم شاشة نفس الإنسان، فإذا ضعفت إرادة الإنسان عن طرده منذ البداية، وعدم الاستجابة له والتفاعل معه، فإنه ينمو ويتراعى، ويتمكن تدريجياً من السيطرة على مشاعر الإنسان وتوجيه سلوكياته.

ونتيجة لإدراك الوسواسي لشذوذ وضعه وحالته، فإنه لا يجبذ إطلاع الآخرين عليه، وقد يتخفى في ممارساته وطقوسه الوسواسية، ولا يعترف بها بسهولة، حتى للقريبين منه.

(١) المصدر السابق ص ٥٩.

(٢) الكليني: محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، ج ١ ص ١٢، الطبعة ١٤٠٥ هـ، دار الأضواء، بيروت.

الوسواس في المجال الديني:

تظهر جرثومة الوسواس وتتكاثر غالباً في مناطق اهتمامات الإنسان، والأمور التي يحرص عليها، ولأن الإنسان المتدين يهمله الالتزام بالأحكام والقضايا الشرعية، ويحرص على أداء وظائفه وواجباته الدينية، فإنه قد يصاب بهذا الفيروس في هذه المنطقة.

ونجد بالفعل أن بعض المتدينين يصاب بالوسواس في المجال الديني، ولعله من أخطر مجالات الإصابة بهذا المرض.

فالقلق الذي يعاني منه الوسواسي في أمور الدين أشد مما يكابده في المجالات الأخرى، لعمق المشاعر الدينية، وارتباط قضايا الالتزام الديني بالمستقبل الأخرى، وما يترتب على الإخلال بها من حساب وعقاب عند الله تعالى مما يجعله أكثر قلقاً واضطراباً. وقد يؤدي الوسواس الديني إلى رد فعل عند صاحبه تجاه الدين، كما تنقل قصص عن أشخاص تركوا الصلاة والتدين، بعد فترة من معاناة الوسوسة فيها.

من ناحية أخرى فإن الوسوسة في الأمور الدينية، تنفّر المحيطين بالوسواسي والمطلعين على أوضاعه من الدين، بسبب النموذج المشوّه الذي يقدمه لهم، ولخوفهم من تكرار تجربته في حياتهم.

لذا نجد النصوص والتعاليم الدينية تولي اهتماماً لمكافحة هذا المرض الخبيث، وتحذّر من الإصابة به، وتضخ المفاهيم والنصائح الوقائية منه.

الوسواس الفكري:

أهم ما يحرص عليه المتدين سلامة عقيدته وحسن إيمانه، لأن ذلك هو أصل الدين وأساسه. ويحصل في بعض الحالات أن تمر على

ذهنه بعض التساؤلات والتشكيكات في قضايا العقيدة والإيمان، وهي إذا كانت على شكل استفهام يبحث عن إجابة، فهذا ليس سيئاً لأن ذلك سيدفعه للتفكير والبحث، مما يوصله للمعرفة وثبات العقيدة. لكن المشكلة هي اقتحام هذه التشكيكات للنفس، دون تجاوب عقلي معها، لأنها لا تنطلق من حاجة معرفية، ولا نقص معلوماتي، لإيمان الإنسان عقلياً وفطرياً بمعتقداته.

وهنا تكون معاناة هذا الإنسان، فهو يؤمن بعقيدة ثابتة، ويحرص على التمسك بها، لكن خواطر مناقضة تهجم على نفسه وذهنه، فيرعبه ويقلقه حدوثها عنده، ويخشى من آثار ونتائج تلك الخواطر التشكيكية على إيمانه وارتباطه بدينه وربّه.

ويعالج الإسلام هذه الحالة المرضية بتطمين المصاب بها، أنها لا تؤثر على دينه، وأن عليه أن لا يهتم ولا يبالى بها، وبذلك تتلاشى تدريجياً حتى ينعدم وجودها.

روت أم المؤمنين عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أحدكم يأتيه الشيطان فيقول: من خلقك؟ فيقول: الله. فيقول: من خلق الله؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل آمنت بالله ورسوله، فإن ذلك يذهب عنه»^(١).

وعن ابن مسعود قال: سألنا رسول الله ﷺ عن الرجل يجد الشيء لو خراً من السماء فتخطفه الطير كان أحب إليه من أن يتكلم به؟ قال ﷺ: «ذاك محض الإيمان، أو صريح الإيمان»^(٢).

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: «إن رجلاً أتى رسول الله ﷺ

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ١٢٣٠، ج ١، ص ١٢٣٠، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.

(٢) المصدر السابق، حديث رقم ١٧٠٩، ج ١، ص ٣٩٨.

فقال: يا رسول الله إنني نافقت، فقال ﷺ: والله ما نافقت ولو نافقت ما أتيتني، تعلمني ما الذي رابك؟ أظن العدو خاطر أتاك فقال لك: من خلقك؟ فقلت: الله خلقتني. فقال لك: من خلق الله؟ قال: إي والذي بعثك بالحق لكان كذا. فقال ﷺ: إن الشيطان أتاكم من قبل الأعمال فلم يقو عليكم، فأتاكم من هذا الوجه لكي يستزلكم، فإذا كان كذلك فليذكر أحدكم الله وحده»^(١).

وعن محمد بن حمران قال: سألت أبا عبد الله الصادق ﷺ عن الوسوسة وإن كثرت، فقال: «لا شيء فيها، تقول: لا إله إلا الله»^(٢).

وعن جميل بن درّاج قال: قلت للإمام الصادق ﷺ إنه يقع في قلبي أمر عظيم، فقال: «قل: لا إله إلا الله. قال جميل: فكلما وقع في قلبي شيء قلت: لا إله إلا الله فيذهب عني»^(٣).

الوسواس في الطهارة:

يبد أن أكثر المصابين بالوسواس الديني يعانون منه في مجال الالتزام بأحكام الطهارة ومسائل العبادات.

فمثلاً أوجب الإسلام طهارة البدن والثياب من النجاسات كشرط لصحة الصلاة، فالمطلوب هو اجتناب ما علم نجاسته، أما الظن والشك والاحتمال فلا يؤخذ به، لأن الأصل هو الطهارة فيحكم بطهارة كل شيء ما لم تثبت نجاسته وتلك قاعدة فقهية وردت بها نصوص عديدة، كموثقة عمار عن الإمام الصادق ﷺ قال: «كل شيء نظيف حتى تعلم

(١) الكليني: محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، ج ٢ ص ٤٢٥، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ، دار الأضواء، بيروت.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٢٤.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٢٤.

أنه قذر، فإذا علمت فقد قذر، وما لم تعلم فليس عليك»^(١).

وورد عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «ما أبالي أبول أصابني أو ماء، إذا لم أعلم»^(٢).

هذا هو الحكم الشرعي، لكن المبتلى بمرض الوسواس في هذا المجال يضع لنفسه قاعدة معاكسة، ويعمل بشكل مناقض لحكم الشرع، فالأصل عنده نجاسة الأشياء، وطهارتها تحتاج إلى إثبات، إنه يشك في نجاسة كل شيء وعلى أساس الافتراضات البعيدة، والاحتمالات غير المنطقية، كما ينقل السيد الخوئي رحمته الله عن بعض المتقديسين أنه كان يعتقد نجاسة جميع المساجد الكائنة في النجف، من جهة انفعال الماء القليل بملاقاة الآلات والأدوات المستعملة في البناء!!^(٣).

ونقل أحد العلماء أنه رأى شخصاً في النجف كان يؤدي كل صلواته - طيلة عمره - مع التيمم اعتقاداً منه أن المياه كلها نجسة!^(٤).

ونقل أيضاً: أن الشيخ الأنصاري رحمته الله رأى في الحمام - للسباحة - وسواسياً يدخل الحمام ثم يخرج منه، ويكرر ذلك مراراً، سأله الشيخ عن سبب ذلك، فأجاب: إن هواء الحمام متصل بالمراحيض، لذا فهو نجس، فإذا لاقى الهواء بدني وما عليه من الرطوبة تنجس!^(٥).

وأوجب الإسلام الطهارة من الحدث لأداء الصلاة بالوضوء

(١) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، حديث رقم ٤١٩٥، ج ٣، ص ٤٦٧، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت.

(٢) المصدر السابق، حديث رقم ٤١٩٦، ج ٣، ص ٤٦٧.

(٣) الخوئي: السيد أبو القاسم، التنقيح في شرح العروة الوثقى، ج ٢ ص ١٧٤، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ، مؤسسة انصاريان للطباعة والنشر، إيران.

(٤) الحجازي: السيد مهدي، الوسواس وعلاجه، ص ١٠١، الطبعة الثانية ١٩٨٨م، الدار الإسلامية، بيروت.

(٥) المصدر السابق، ص ١٠٣.

أو الغسل أو التيمم وأحكامها واضحة اليسر والسهولة، لكن مرض الوسواس يحولها إلى عملية معقدة، حيث يقضي بعض المصابين بهذا المرض وقتاً طويلاً، لإنجاز وظيفة الوضوء أو الغسل، ويهدرون كمية كبيرة من الماء، والأسوأ من ذلك ما يرهقون به أنفسهم من مشقة وعناء..

وقد ورد في أحاديث عديدة أن رسول الله كان يغتسل بصاع من الماء وأنه قال: «الوضوء مدّ والغسل صاع، وسيأتي أقوام بعدي يستقلّون ذلك فأولئك على خلاف سنتي، والثابت على سنتي معي في حظيرة القدس»^(١). والصاع ٣ لتر تقريباً.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «إنما الوضوء حد من حدود الله، ليعلم الله من يطيعه ومن يعصيه، وإن المؤمن لا ينجّسه شيء، إنما يكفيه مثل الدهن»^(٢).

وعنه أيضاً عليه السلام: «إذا مسّ جلدك الماء فحسبك»^(٣).

وروى أن علياً عليه السلام كان يقول: الغسل من الجنابة والوضوء يجزي منه ما أجزأ من الدهن الذي يبيلّ الجسد»^(٤).

هكذا يأمر الإسلام، وهكذا كان يفعل المعصومون، ومن تبعهم من العلماء والفقهاء، حيث لا يصرفون في الوضوء أكثر من دقيقة أو دقيقتين، وبمقدار يسير من الماء، فلماذا يتصرّف الوسواسيون في وضوئهم وغسلهم بهذه الطريقة الجنونية؟ حتى حكي عن بعض المبطلين

(١) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، حديث رقم ١٢٨٠، ج ١، ص ٤٨٣، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، بيروت.

(٢) المصدر السابق، حديث رقم ١٢٨٢، ج ١، ص ٤٨٤.

(٣) المصدر السابق، حديث رقم ١٢٨٤، ج ١، ص ٤٨٥.

(٤) المصدر السابق، حديث رقم ١٢٨٦، ج ١، ص ٤٨٥.

بالوسواس كما ينقل السيد الخوئي: أنه أتى نهراً عظيماً للاغتسال، قبل أن تطلع الشمس بساعة، وفرغ من اغتساله والشمس قد غربت!!^(١).

الوسوسة في الصلاة:

الصلاة فرصة لقاء روعي، وسمو معنوي، يحلّق خلالها المؤمن في آفاق التقرب إلى الله تعالى، ولذلك يقبل عليها بشوق واندفاع، لأنه في الصلاة يكون بين يدي الله تعالى، وكان رسول الله ﷺ يعتبرها منبعاً للاطمئنان والاستقرار والراحة النفسية، حيث ورد في الحديث أنه كان يقول لبلال: «يا بلال: أقم الصلاة أرحنا بها» وفي حديث آخر «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة»^(٢). ويصفها في أحاديث أخرى بقوله: «جعل الله جلّ ثناؤه قرّة عيني في الصلاة» إنما يستفيد المؤمن من ثمار صلاته المعنوية الروحية، بإقباله وخشوعه، لكن المصابين بالوسوسة في الصلاة تفقد الصلاة معناها عندهم، ولذتها في نفوسهم، وتتحول إلى موعد للعذاب، وحالة من العناء والاضطراب النفسي، والتوتر العصبي. وأي غاية للشيطان أفضل من هذه الغاية؟ وأي انتقام يناله من المؤمن المصلي أشد من هذا الانتقام؟

إن بعضهم يتردد كثيراً ويشك كثيراً في تحقق نيته للصلاة، فيمكث فترة طويلة قبل تكبيرة الإحرام، وقد يعيد تكبيرة الإحرام أكثر من مرة، لعدم تأكده من تحقق النيّة، وهذا عرض من أعراض مرض الوسواس، والنيّة المطلوبة للصلاة هي مجرد الانبعاث والاندفاع لأداء الصلاة باعتبارها واجباً شرعياً، ولا تختلف عن أي انبعاث للإنسان باتجاه أي

(١) الخوئي: السيد أبو القاسم، التنقيح في شرح العروة الوثقى، ج ٢ ص ١٧٣، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ، مؤسسة انصاريان للطباعة والنشر، إيران.

(٢) السجستاني: أبو داود، سنن أبي داود، حديث رقم ٤٩٨٥ ورقم ٤٩٨٦، ج ٢، ص ٧١٥، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، دار الجنان، بيروت.

حركة أو عمل، فهو إذا خرج للسوق قاصداً شراء حاجيات المنزل، فذلك القصد هو النية، وكذلك إذا قام واستقبل القبلة يريد الصلاة، فإن قيامه واستقباله يكشف عن الباعث في نفسه، وهو المقدار الكافي من النية.

يقول السيد اليزدي في العروة الوثقى: «ويكفي فيها الداعي القلبي، ولا يعتبر فيها الأخطار بالبال، ولا التلفُّظ، فحال الصلاة وسائر العبادات حال سائر الأعمال والأفعال الاختيارية، كالأكل والشرب والقيام والقعود ونحوها من حيث النية، نعم تزيد عليها باعتبار القرينة فيها بأن يكون الداعي والمحرِّك هو الامتثال والقرينة»^(١).

ويندد الشيخ محمد حسن النجفي صاحب الجواهر بتكلف الوسواسيين في النية قائلاً: «فسببه تحصل بعض أحوال لهم تشبه أحوال المجانين، ولت شعري أليست النية في الوضوء والصلاة وغيرها من العبادات كغيرها من سائر أفعال المكلفين من قيامهم وقعودهم وأكلهم وشربهم؟ فإن كل عاقل غير غافل ولا ذاهل، لا يصدر عنه فعل من هذه الأفعال، إلا مع قصد ونية سابقة عليه، ناشئة من تصور ما يترتب عليه من الأغراض الباعثة، والأسباب الحاملة على ذلك الفعل، بل هو أمر طبيعي وخلق جبلي، ومع هذا لا ترى المكلف في حال إرادة فعل من هذه الأفعال، يعتريه شيء من الوسوسة وذلك الإشكال، بل هو بالنسبة إلى العبادات الأخرى، من الزيارات، والصدقات، وعيادة المرضى، وقضاء الحوائج، والأدعية والأذكار، وقراءة القرآن، ونحو ذلك، لا يعتريه شيء من تلك الأحوال، بل هو فيها على حسب سائر أفعال العقلاء، فما

(١) اليزدي: السيد محمد كاظم، العروة الوثقى، فصل في النية، ج ١، ص ٤٣٦، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

أعرف ماذا يعتريه في مثل الوضوء؟»^(١).

نقل أحد العلماء: أن رجلاً يدعى محمد صالح، وكان يذهب بابنه إلى الحمام، ويضعه عند خزّان الماء هناك، وحين يعزم على الاغتسال، يومئ إلى الطفل، وهو ينوي الغسل ويقول: اللهم إني محمد صالح، هاأنذا أغتسل بنفسي غسل الجنابة، تلك الجنابة التي حصلت لي من أم هذا الولد الحاضر هنا، قرابة إلى الله تعالى، ثم يغطس في الماء، وما إن ينتهي حتى يحتمل أنه لم ينطق ببعض مخارج الحروف كما يجب، فيعود، ويجدد النية كما فعل أولاً، ويرتمس، وهكذا!!^(٢)

أليست هذه حالة مرضية؟ بل جنونية؟ هذا ما يفعله الوسواس بالخاضعين له.

وحاشا الله تعالى أن يأمرهم بذلك، وهؤلاء فقهاء الإسلام يستنكرون مثل هذه الممارسات، فقد كان على عهد المرحوم الميرزا القمي رحمه الله شخص وسواسي، قام ليصلي صلاة المغرب، فلم يتمكن من النية، حاول كثيراً إلى أن مضت من الليل ثلاث ساعات، دون أن يستطيع ذلك، فلما تعب قصد الميرزا في داره وقال له: أنا من مقلديكم، وقد عزمت على الصلاة لكنني لم أتمكن من تحصيل النية، فما العمل؟ قال له الميرزا: اذهب وصل بدون نية، وصلاتك صحيحة. رجع المسكين إلى داره وحاول أن يصلي بدون نية فلم يستطع. فعاد إلى الميرزا ثانية، وشكا إليه حاله، وأن في نفسه حينما أراد الصلاة شيئاً من النية لكن ليس بالقدر الكافي، فلا يستطيع تحقيق النية كاملة، ولا يتمكن من إلغائها كاملة، فماذا يصنع؟ فأجابه الميرزا: هذا المقدار من النية لا بأس به،

(١) النجفي: الشيخ محمد حسن، جواهر الكلام، ج ١ ص ٣٠٢، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار المؤرخ العربي، بيروت.

(٢) الحجازي: السيد مهدي، الوسواس وعلاجه، ص ١٠٤.

اذهب وصل ولا إشكال^(١).

كثرة الشك والسهو:

قد تحصل للمصلي حالات من الشك والسهو في أفعال الصلاة أو أذكارها، وذلك أمر طبيعي ضمن الحدود المتعارفة، ولهذه الحالات أحكام يذكرها الفقهاء، لكن كثرة الشك، والسهو، تعتبر عرضاً من أعراض مرض الوسواس، لذلك يستثنيها الفقهاء من انطباق أحكام الشكوك، ويتعاملون معها كحالة مرضية ينبغي معالجتها بعدم الاستجابة لها، لذلك أفتى الفقهاء بأن «الوسواسي إذا شك في الإتيان بالصلاة وعدمه فإنه يبني على أنه قد أتى بالصلاة وإن كان شكه أثناء وقت الصلاة»^(٢).

وأفتوا بأن لا قيمة لـ «شك كثير الشك وإن لم يصل إلى حد الوسواس، سواء كان في الركعات والأفعال، أو الشرائط، فيبني على وقوع ما شك فيه، وإن كان في محله، وإذا شك في حصول ما يفسد الصلاة يبني على عدم وقوعه، فلو شك بين الثلاث والأربع يبني على الأربع، ولو شك بين الأربع والخمس يبني على الأربع أيضاً، وإن شك أنه ركع أم لا؟ يبني على أنه ركع، وإن شك أنه ركع ركوعين أم واحداً يبني على عدم الزيادة، ولو شك أنه صلى ركعة أو ركعتين يبني على الركعتين، ولو شك في الصبح أنه صلى ركعتين أو ثلاثاً يبني على أنه صلى ركعتين، وهكذا»^(٣) وحينما يشك في صحة كلمة أو لفظة في القراءة أو الأذكار يبني على الصحة.

(١) المصدر السابق ص ١٠٣.

(٢) اليزدي: السيد محمد كاظم، العروة الوثقى، فصل في الشك، مسألة ٨، ج ٢، ص ١٢، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.

(٣) المصدر السابق، فصل في الشكوك التي لا اعتبار بها، ج ٢، ص ٣٥.

واعتبر كثير من الفقهاء أن من يعتريه الشك في صلاة واحدة ثلاث مرات، أو في كل ثلاث صلوات مرة واحدة، دون مبرر استثنائي كما لو كان في حالة خوف أو غضب أو همّ، فإنه حينئذٍ ينطبق عليه أنه كثير الشك ولا يبالي بشكه بل يبني على الصحة. وبعض الفقهاء أرجع تحديد الحالة إلى العرف، فمن اعتبره العرف كثير الشك كان له حكمه^(١).

بل قال الفقهاء أنه: «لا يجوز لكثير الشك الاعتناء بشكه، فلو شك في أنه ركع أو لا؟ لا يجوز له أن يركع، وإلا بطلت الصلاة»^(٢).

برنامج منع الاستجابة :

من أبرز أساليب العلاج المعتمدة حالياً في المراكز الرائدة في العلاج النفسي السلوكي في الولايات المتحدة، لمرض الاضطراب الوسواسي الجبري، هو برنامج منع الاستجابة، والذي يعني منع المريض من ممارسة تصرفاته الوسواسية، لفترة معينة تحت رقابة وإشراف، داخل مستشفى العلاج، أو في بيته بواسطة المرافقين له. مع توفير أجواء مساعدة.

وقد لوحظ نجاح هذا البرنامج مع كثير من المرضى الراغبين في العلاج، لكنه قد يتطلب وقتاً طويلاً يتفاوت من مريض إلى آخر، ويستلزم صبراً وأناةً من الجهة المشرفة على العلاج^(٣).

وإذا ما تأملنا التعاليم الإسلامية حول أحكام المصابين بالوسواس، وكثرة الشك في قضايا الطهارة والعبادات، فإنها تلزم المصاب باعتماد

(١) المصدر السابق، مسألة رقم ١، ج ٢، ص ٣٦.

(٢) المصدر السابق، مسألة رقم ٤، ج ٢، ص ٣٧.

(٣) حجار: الدكتور محمد، العلاج النفسي الحديث للاضطراب الوسواسي الجبري، ص ١٢٢ - ١٣١، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار طلاس، دمشق.

برنامج منع الاستجابة، وأن يباشر ذاتياً مع نفسه هذا البرنامج، فلا يعتني بحالة الشك والوسوسة، ولا يستجيب لها، وذلك هو تكليفه الشرعي، وهو الطريق الوحيد لتخلصه من هذا المرض.

عن زرارة وأبي بصير عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «لا تعودوا الخبيث من أنفسكم بنقض الصلاة فتطمعوه، فإن الشيطان خبيث يعتاد لما عود، فليمض أحدكم في الوهم، ولا يكثرن نقض الصلاة، فإنه إذا فعل ذلك مرات لم يعد إليه الشك. قال زرارة: ثم قال عليه السلام: «إنما يريد الخبيث أن يطاع، فإذا عصي لم يعد إلى أحدكم»^(١).

ويتبين من الحديث أن الوسواس حينما يبدأ عند الإنسان فعليه أن ينتبه لنفسه، ويتغلب عليه مبكراً، بمنع الاستجابة، والاستمرار في صلاته، وإن كان غير متأكد وواثق من صحتها: «فليمض أحدكم في الوهم»، وإن الاستمرار في برنامج منع الاستجابة كفيل بتجاوز هذه الحالة المرضية: «فإنه إذا فعل ذلك مرات لم يعد إليه الشك».

وضمن هذا السياق وردت أحاديث عديدة كرواية محمد بن مسلم عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «إذا كثر عليك السهو فامض في صلاتك فإنه يوشك أن يدعك إنما هو من الشيطان»^(٢).

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: «إذا كثر عليك السهو فامض في صلاتك»^(٣).

وعنه عليه السلام: «إذا كان الرجل ممن يسهو في كل ثلاث فهو ممن كثر

(١) الكليني: محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، ج ٣ ص ٣٥٨، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ، دار الأضواء، بيروت.

(٢) المصدر السابق ص ٣٥٩.

(٣) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، حديث رقم ١٠٤٩٧، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث، بيروت.

عليه السهو»^(١).

العلاج المعرفي:

منذ وقت قريب ظهرت فكرة العلاج المعرفي للاضطراب الوسواسي سنة ١٩٧٦م، وقام كل من (كابلان) و (روبرتسون) سنة ١٩٨٣م بتطبيق هذا الأسلوب من العلاج على عدة حالات وكان نتاج العلاج ناجحاً.

ويستهدف هذا البرنامج إعادة تركيب البنية المعرفية للمريض في مجال إصابته، على أساس تصور ينظر إلى أن موضوع الوسواس كالصلاة أو الوضوء مثلاً هو بمثابة منبه معرفي، يستدعي ويشير الاستجابات الانفعالية، والتي هي الخوف من الخلل والخطأ في الأداء، تترتب عليها استجابة معرفية هي الاعتقاد بالمسؤولية الذاتية تجاه الخلل، والشعور بالإثم والذنب.

فالعملية طبق هذا التصور تمر بثلاث مراحل:

المنبه المعرفي: الصلاة أو الوضوء.

الاستجابة الانفعالية: الخوف من الخلل والخطأ.

الاستجابة المعرفية: الاعتقاد بالمسؤولية والشعور بالإثم.

والعلاج المعرفي يعني إعادة بناء تفكير المريض وتصحيحه، لتبديل ما يسمى بالأفكار الآلية المعززة، التي أخذت صفة الاستمرارية بعيدة عن السيطرة والاستبصار الذاتي، ورغم أن أكثر الوسواسيين يعترفون بلا منطقية أعمالهم وممارساتهم، لكن تضخم بعض التصورات في نفوسهم، والمبالغة والتطرف في بعض الأفكار، هو ما يشكل أرضية

(١) المصدر السابق، حديث رقم ١٠٥٠١، ج٨، ص٢٢٩.

لحالتهم المرضية.

فلا بد من هز تلك التصورات الخاطئة، ونسف حالة الغلو والمبالغة في الأفكار المعززة لهذا الاضطراب.

ويمكن التركيز على النقاط التالية:

إن الله تعالى هو الذي يقرر موارد الإثم، والأمور التي تستوجب الحساب والعقاب، ولا يصح للإنسان أن يتبرع من نفسه فيقرر أن هذا ذنباً، وأن هذا العمل يستوجب إثماً، فذلك افتراء على الله. وما دام الشرع يعلن بوضوح: أن لا مسؤولية عليك في موارد شكك وسهوك، واحتمالك للخلل والخطأ، ويقول لك: إن عملك صحيح، فكيف يجوز لك أن تتوقف عن قبول حكم الله وترفضه؟

فإذا كنت تكرر عملك في الوضوء والصلاة فراراً من الإثم والذنب، فإنك بهذا التصرف توقع نفسك في أعظم إثم وأسوأ ذنب.

عرض وتبيين مفاهيم اليسر والسماحة في الدين، فقد أنزل الله شريعته رحمة للناس ولإسعاد حياتهم، يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾^(١) ويقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٢) كما تقرر مبادئ الشريعة أصالة الطهارة، وأصالة الإباحة، ورفع المسؤولية عن الجاهل والناسي، وأن كل عمل فرغت منه أو تجاوزته ثم شككت فيه فلا قيمة ولا أثر لذلك الشك.

الحديث عن عفو الله ورحمته وأنه تعالى خلق الناس ليرحمهم، وأن عفوهم واسع، وكرمه عظيم، وبالتالي لا داعي لهذا التشدد والتكلف.

ذكر نماذج وصور من أداء الأنبياء والأئمة والأولياء والعلماء

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥ .

(٢) سورة الحج الآية ٧٨ .

لعباداتهم وأعمالهم الدينية على أساس السهولة واليسر ومن دون أي تعقيد أو تهويل.

إن إحاطة المبتلى بالوسواس بهذا الجو المعرفي، وتكرار هذه الأفكار والطروحات عليه، إضافة إلى تشجيعه على برنامج منع الاستجابة، يساعد كثيراً على تفكيك تصوراته الخاطئة، وإعادة بناء أفكاره، وتصحيح ممارساته بشكل تدريجي، قد يستغرق وقتاً، لكنه يؤدي إلى نتيجة مفيدة.

ثقافة الوقاية :

كأي مرض من الأمراض فإن للوسواس بيئة تساعد على نموه وتكاثره، وفي المجال الديني فإن الطروحات المتشددة والمتزمتة للمسائل الدينية، قد تكون أرضية مناسبة لبذرة الوسوسة، وقبل أيام اطلعت على قضية امرأة كانت تعيش وضعاً عادياً في حياتها وأعمالها الدينية، فسافرت للحج، وكان المرشد الديني في الحملة التي التحقت بها، يدقق كثيراً على طريقة أداء الوضوء وأعمال الصلاة، ومن خلال بحثه وتوجيهه وأسئلتها له، أكد لها أن وضوئها وصلواتها في السنين السابقة مليئة بالأخطاء وأنها باطلة، وأن عليها أن تعيد وتقضي كل عباداتها للفترة الماضية، وهنا تسللت جرثومة المرض إلى نفسها، وما انتهت من رحلة الحج وعادت إلى بلادها، إلا وهي مصابة بحالة من الوسواس، أخذت تنمو عندها وتزداد حتى تحولت حياتها الشخصية والعائلية إلى جحيم، إنها تصرف ساعات لأداء كل فريضة من الفرائض. وبالطبع هناك تهيوؤ في بعض النفوس أكثر من بعض لاستقبال عدوى المرض، لتفاوت درجة المناعة والحصانة. لكن التوجيه الديني يجب أن يأخذ هذا الأمر بعين الاعتبار.

فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الدين يسر»^(١) وعنه ﷺ: «خير دينكم أيسره»^(٢) وعنه ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تكثرهوا عبادة الله إلى عباد الله، فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفراً قطع، ولا ظهراً أبقى»^(٣).

وفي بعض الأحيان يكون الحرص على الاحتياط في أمور العبادات مدخلاً إلى مرض الوسواس، والاحتياط وإن كان محبباً لما ورد في الحديث عن علي رضي الله عنه: «أخوك دينك فاحتط لدينك بما شئت»^(٤) لكن المبالغة فيه، واحتمال الضرر بالوسواس منه، يجعله في معرض الكراهة أو الحرمة الشرعية، كما ذكر الفقهاء في موضوع الطهارة والنجاسة، يقول السيد اليزدي: «الدهن واللبن والجبن المأخوذ من أهل البوادي محكوم بالطهارة، وإن حصل الظن بنجاستها، بل قد يقال بعدم رجحان الاحتياط بالاجتناب عنها، بل قد يكره، أو يحرم إذا كان في معرض الوسواس»^(٥).

الحل بيد المريض:

قهر مرض الوسواس له طريقة واحدة، هو قرار المريض نفسه وإرادته، بالطبع يحتاج إلى شجاعة كبيرة، وجرأة عظيمة، لكي يقرر عدم الاستجابة للانفعالات الوسواسية داخل نفسه، ورغم صعوبة ذلك لكنه

(١) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٣٩، ج ١، ص ١٦، ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) العسقلاني: ابن حجر، فتح الباري ج ١ ص ١٢٧، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، دار السلام، الرياض.

(٣) الهندي: علي المتقي، كنز العمال حديث رقم ٥٣٧٧، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت. المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار ج ٦٨ ص ٢١٢، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٤) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار ج ٢ ص ٢٥٨، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٥) اليزدي: السيد محمد كاظم، العروة الوثقى، فصل طريق ثبوت النجاسة، ج ١، ص ٥٧، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، مؤسسة الأعلمي، بيروت.

أمر ممكن، وهناك الكثيرون ممن تعافوا من هذا المرض وتجاوزوه، بعد فترة من معاناة التزام العلاج، وما يسببه لهم من توتر نفسي وضغط عصبي، لكنهم بعد ذلك شعروا بحياة جديدة، وسعادة غامرة.

وعلى المحيطين بالمريض والقرييين منه أن يساعده في مقاومة هذا المرض الخبيث، ليس بالسخرية منه والتنكيت عليه، وإنما بتشجيعه على برنامج منع الاستجابة، وتذكيره بالمفاهيم المعرفية المساعدة، وأخذ دور المراقبة والإشراف على انضباطه في العلاج. إنه مريض يثير الشفقة وفي مساعدته وإنقاذه أجر وثواب كبير.

الوقاية من الوسواس

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٢ ربيع الثاني ١٤٢٢هـ

بمقدار ما يُسرّ الإنسان من رؤية شاب متدين ملتزم بالشرع، مقبل على العبادة، بذات القدر وأكثر يتألم إذا شاهد شاباً في مقبل العمر مبتلى بداء الوسوسة في أعماله الدينية، ذلك أن مرحلة الشباب هي أفضل فترات الاستمتاع بالحياة، والتعاطي معها بحيوية وارتياح، ويفترض في الدين أن يجعل الإنسان أكثر سعادة واطمئناناً، فإذا أصيب الشاب بالوسوسة في أمور دينه، يتكدّر صفو حياته، ويفقد استقراره النفسي، ويصبح الدين عبئاً عليه بدل أن يكون دافعاً ومحفزاً له.

وقد أظهرت البحوث العلمية في بعض مراكز التحقيق أن ٥٠-٦٠٪ من حالات الوسواس تظهر في عمر ١٥-٢٠ سنة، وتزداد تدريجياً، وتصل إلى ذروتها في الأعوام ٢٠-٢٥ سنة. ثم تبدأ نسبة احتمال الإصابة في الانخفاض حتى سن ٣٥ عاماً، وكلما تقدم العمر بالإنسان كانت احتمالات الإصابة بالوسواس أقل^(١).

ذلك أن مرحلة الشباب تصاحبها في الظروف الطبيعية حالة الاهتمام بالمعايير الأخلاقية، والقيم المعنوية، وقد تحصل بعض الشوائب والأخطاء في الأجواء الدينية التي يعيشها الشاب، مما يزرع في نفسه بذور القلق والهواجس، التي تدفعه للمبالغة في التأكد من أداء الواجبات

(١) القائي: الدكتور علي، الوسواس والهواجس النفسية، ص ٦١ الطبعة الأولى ١٩٩٦م، دار النبلاء، بيروت.

الدينية، والتشدد في الالتزام بالأحكام الشرعية بدقة وتزمت. وقد تكون تلك هي بداية الابتلاء والإصابة بمرض الوسواس.

وفي بعض الأحيان ينتقل الوسواس إلى الإنسان بالعدوى، لمعايشته شخصاً متمزماً أو وسواسياً.

وهل تلعب الوراثة دوراً في الإصابة؟ يرى ذلك عدد من العلماء النفسيين، مثل (براين) الذي يرى أن العصاب القهري مظهر لجبلة سيكولوجية ترجع في الغالب إلى الوراثة، وأن صعوبة علاج العصابين ربما تكون بسبب العوامل الجبلة لديهم. ويذكر (سادلر) أن سجلات عيادته لفترة أكثر من ٣٥ عاماً كشفت عن أن الوراثة تظهر كعامل رئيسي في ٩٠٪ من الحالات.

ولكن ذلك كله ليس بدليل قاطع على أن الأعراض القهرية يتم توارثها، فقد يرجع الأمر إلى تعلم الأبناء من آبائهم هذه المسالك القهرية، خلال طفولتهم المبكرة، مما يعرف في التحليل النفسي بالتوحد مع الآباء، فمسألة الوراثة لا يمكن حسمها إلا بدراسة للمورثات (الجينات) وهذا هو ما قام به (براون ومنجر) حيث أدت ملاحظاتهم الإكلينيكية وتجاربهم إلى رفض النظريات التي تقول بأن العصاب القهري يتم توارثه عن طريق الجينات^(١).

حكم الاستجابة للوسواس:

يفترض في الإنسان المتدين أن ينطلق في أعماله وتصرفاته من أحكام الشرع، كما يفترض أن يكون الدافع إلى ممارسة العملية الوسواسية في الأمور الدينية، هو حرص الوسواسي على أداء الواجب

(١) الطيب: دكتور محمد عبد الظاهر، الوسواس القهري تشخيصه وعلاجه، ص ٦١-٦٢، الطبعة الثالثة ١٩٩١م، دار المعرفة الجامعية.

الديني بدقة وبشكل صحيح، فلو كان لا أبايلاً لما اهتم بإتقان وضوئه وصلاته.

وهنا تكمن المفارقة العجيبة، ويتناقض الوسواسي مع نفسه في استجابته للوسواس، وانخراطه في العملية الوسواسية، فهو يريد التأكد من القيام بوظيفته الشرعية في مجال الطهارة والصلاة مثلاً، بتكرار العمل أكثر من مرة، ليطمئن من خلو ذمته، وإنجاز واجبه، لكنه يجهل أو يتجاهل أنه بهذه الممارسة قد أدخل بوظيفة أهم، وبواجب شرعي أكبر، وأنه تورط في مخالفة أمر الشرع والعقل.

فقد ناقش الفقهاء مسألة عمل الوسواسي على طبق وسوسته، بأن يعيد ويكرر في وضوئه وصلاته مثلاً، حيث يرى أغلبهم: أن هذه الممارسة الوسواسية حرام شرعاً، وأن المقدمات التي تؤدي إلى الوسواس كالمبالغة في الاحتياطات، محرمة أيضاً، ومستثناة من عنوان الاحتياط الراجح والمحجب.

يقول السيد الحكيم رحمته الله: «لا إشكال في رجحان الاحتياط عقلاً، لأنه انقياد إلى المولى سبحانه. نعم قد يزاحم الاحتياط من جهة الاحتياط من جهة أخرى، مساو له، فلا يكون الاحتياط راجحاً عقلاً، أو أهم، فيكون الأول مرجوحاً عقلاً. وقد ينطبق عليه عنوان مكروه أو يؤدي الاحتياط إليه، فيكون مكروهاً شرعاً. أو ينطبق عليه عنوان محرم، أو يؤدي إليه، فيكون حراماً شرعاً. ومنه أن يؤدي إلى الوسواس المؤدي إلى العمل على طبقه، فإن الظاهر أنه لا إشكال في حرمة العمل على طبق الوسواس، فيحرم الوسواس نفسه إذا كان يؤدي إلى العمل على طبقه، كما هو القاعدة في كل فعل يعلم بترتب الحرام عليه ولو بالاختيار.

مثل ما إذا علم أنه إذا دخل مجلس الشراب يختار شرب المسكر، فإنه يحرم الدخول إلى المجلس حيثئذٍ. وكذلك في المقام إذا علم أنه إذا حصل له الوسواس عمل على طبقه، فيحرم عليه حصول الوسواس، فيحرم ما يؤدي إليه»^(١).

ويقول السيد الشيرازي رحمته الله: «إن اتباع الوسوسة حرام، كما دل عليه النص والإجماع، ومقدمة الحرام حرام إذا كانت الحرمة مهمة في نظر الشرع، وكأنه لا شبهة في أهمية هذا الحرام، لأنه ضرر بالغ على النفس والجسد، كما يراه الإنسان بالنسبة إلى الوسواسي. هذا بالإضافة إلى أن الوسواس ضرر بالغ والخوف من مثل هذا الضرر يوجب رفع الحكم، بل ظاهرهم التسالم على حرمة ما يحتمل ترتب الضرر عليه احتمالاً عقلياً... نعم لا شبهة في حرمة الاحتياط الذي هو وسواس لأنه من إطاعة الشيطان، بل قد يقال أن مقدمة الوسواس أيضاً وسواس، لأن العمل إما عادي، وإما وسوسة، ولا فاصل بينهما، وليس أحدهما مقدمة للآخر»^(٢).

لكن بعض الفقهاء لا يرى حرمة الممارسة الوسواسية ذاتاً، وإنما تحرم بعنوان ثانوي حينما تستوجب ارتكاب محرم آخر، وهو ما يذهب إليه السيد الخوئي رحمته الله: «أما الجري على طبق الوسوسة فالظاهر عدم حرمة بعنوان الوسوسة، وإن التزم بعضهم بحرمة. نعم قد يتصف بالحرمة بعنوان آخر ككونه سبباً لنقض الصلاة - وهو محرم على المشهور - أو لاستلزامه تأخير الصلاة عن وقتها، أو لتفويت واجب

(١) الحكيم: السيد محسن، مستمسك العروة الوثقى، ج ١ ص ٤٤٨-٤٤٩، الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) الشيرازي: السيد محمد، الفقه، ج ٤ ص ٣٩٥-٣٩٦، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ، دار العلوم، بيروت.

آخر، كالإنفاق على من يجب عليه إنفاقه، أو لاستنزاه اختلال النظام أو الهلاكة أو نحوهما»^(١).

إن ما يجب أن يعرفه الوسواسي، وأن ينبّه عليه، ويذكر به، دائماً وأبداً، هو أن طريقته في أداء واجباته الدينية، غير مقبولة شرعاً، وتتضمن مخالفة لأمر الشرع، فهو عمل محرم على كل حال إما لحرمة الذاتية وبعنوانه الأولي، أو بعنوان ثانوي لما يؤدي إليه من ارتكاب محرمات أخرى وخاصة في المراحل الأولى من الإصابة بحالة الوسوسة، وقبل أن تتمكن منه، فإن لهذا العلاج المعرفي والتنبيه والتذكير، أثراً هاماً في تقوية المناعة والحصانة ضد المرض.

الوسواس ومقاصد الشريعة :

إسعاد حياة الإنسان مقصد أساس للدين، فإن الله تعالى خلق الناس لينعم عليهم في هذه الحياة، وليفيض عليهم رحمته: ﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾^(٢)، والشريعة جاءت لخير الناس وصلاحهم ورحمتهم: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

والإنسان المتدين يفترض أن يعيش سعيداً بتدينه، وأن يعمر قلبه الرضا والاطمئنان ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٤).

لذلك يعد الله تعالى المؤمن الصالح بأن تكون حياته طيبة في هذه الدنيا، ثم ينقلب في الآخرة إلى نعيم الله ورضوانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا

(١) الخوئي: السيد أبو القاسم، التنقيح في شرح العروة الوثقى، ج ٢ ص ١٧١-١٧٢، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ، مؤسسة انصاريان للطباعة والنشر، إيران.

(٢) سورة هود الآية ١١٩.

(٣) سورة الأعراف الآية ٢٠٣.

(٤) سورة الرعد الآية ٢٨.

مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١﴾.

فأين تقع حياة الإنسان الوسواسي من هذا المقصد الديني العظيم؟ وكيف يمكن قياس حالته بهذه المعايير الشرعية؟

إنه يحوّل الدين من منهج سعادة إلى مصدر قلق وعذاب، ويصبح ذكر الله عنده المتمثل في الصلاة وسيلة ومثيراً لحالة من الاضطراب والعناء، بدل أن يضيفي على قلبه السكينة والاطمئنان.

وأساساً فإن الوسواس يحرم صاحبه من التمتع بلذة العبادة، والاستلها من ينوعها المتدفق بالمعنويات والقيم، فهو مشغول مهموم بضبطها، ومستغرق في الحذر والحيطه من وقوع خلل أو خطأ فيها.

كما يدفع الوسواس صاحبه لارتكاب بعض المحرمات، والتعود على ذلك، كتأخير الصلاة عن وقتها، وكقطع الصلاة -بناءً على القول بتحريمه حسب رأي جماعة من الفقهاء- وكالإسراف في الماء، وهدر الوقت، وتضييع حقوق الآخرين، وإيذائهم.

ومن أهم مقاصد الشريعة تحقيق العبودية لله في حياة الإنسان، بأن يسيطر على غرائزه وميوله، ويتحكم في نزعاته وتوجهاته، بحيث تكون في الاتجاه الصحيح، الموافق لما يريده الله سبحانه. لكن الوسواسي يفرط بالسيطرة على نزعاته وتصرفاته، ويجعل للشيطان على نفسه سبيلاً، فيصبح أسيراً لوساوسه، مستجيباً لإملاءاته، مخالفاً لأمر ربه ولتوجيه عقله.

لذلك يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن شخص وسواسي: «أي

عقل له وهو يطيع الشيطان»^(١).

ويأمرنا الله تعالى أن نستعيد به من شر الوسواس والوسوسة: ﴿قُلْ
أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . مَلِكِ النَّاسِ . إِلَهِ النَّاسِ . مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ .
الَّذِي يُوسِّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ . مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝﴾^(٢).

لماذا الوسوسة في العبادات فقط؟

ومما يلفت النظر أن الوسواس في المجال الديني ينحصر في أمور
الطهارة والعبادات غالباً، ولا ترى أثراً للوسوسة في المجال المالي
مثلاً، بحيث يشك المتدين في فراغ ذمته من الخمس والزكاة، فيؤديها
أكثر من مرة، أو يحتاط في موارد الصرف، فيدفع الحق الشرعي مكرراً
في موارد مختلفة، أو يضاعف المبلغ المطلوب منه.

بل قد تجد أن من يصرف الوقت والجهد لضبط وضوئه وصلاته،
غير مهتم بدفع الحقوق الشرعية، أو يسعى لتقليص ما عليه إلى أقل
قدر ممكن، أو يسوّف ويتساهل في الأداء، فلماذا لا تحدث وسوسة في
الجانب المالي من الدين؟

وكذلك الأمر في جانب حقوق الناس، فإنك لا تجد حالة وسوسة
في هذا المجال غالباً، بحيث يبالغ في احترام حقوق الآخرين، المالية
والمعنوية، ويحتاط في حفظها ورعايتها، بل على العكس من ذلك تجد
الكثير من المتدينين، وحتى الدقيقين منهم في مسائل الطهارة والصلاة،
أنهم قد يتساهلون في مثل موضوع الغيبة والنميمة، وسوء الظن، وما
أشبه مما يرتبط بسمعة الآخرين وحفظ كرامتهم.

فأين الاحتياط والوسوسة عن هذا المجال؟

(١) الكليني: محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، ج ١ ص ١٢، ١٤٠٥ هـ، دار الأضواء، بيروت.

(٢) سورة الناس الآية ١-٦.

أليس في ذلك دلالة على شيطانية الوسوسة؟

فالوسوسة في الطهارة والعبادات تضر ولا تنفع، ولذلك يخلقها الشيطان، ويسوّل بها للإنسان. أما الوسوسة في المجال المالي ولمراعاة حقوق الناس، فإن فيها جانباً من الفائدة والنفع، لذا لا يمكن أن يوحى بها الشيطان، أو يغري بها الإنسان.

أليس كذلك؟

التكلف والتزمت أرضية الوسوسة :

منهجية الدين قائمة على اليسر والسماحة، يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾^(١). واليسر هو السهولة واللين. والعسر هو الضيق والشدة والصعوبة. ويقرر الله تعالى أنه وضع تشريعاته وأحكامه على أساس اليسر والسهولة للناس، وليس فيها ما يدعو إلى العسر والشدة والمشقة.

وتتجلى هذه المنهجية في كل تشريعات الإسلام حيث ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾^(٢) وأي حكم شرعي يسبب للإنسان حرجاً ومشقة لا تحتمل عادة، فإنه مرفوع عنه ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٣).

وكان رسول الله ﷺ يربي الأمة على استيعاب هذه المنهجية، ورفض منحى التكلف والتزمت، حيث أمره الله تعالى أن يبرز هذه الصفة في نفسه ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾^(٤). والتكلف: اسم لما يفعل

(١) سورة البقرة الآية ١٨٥.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨٦.

(٣) سورة الحج الآية ٧٨.

(٤) سورة ص الآية ٨٦.

بمشقة أو تصنع - على حد تعبير الراغب -.

وحينما كان ﷺ يرى بعض أصحابه يباليغ في العبادة، كان ينصحه بالاعتدال، فقد قال لعبد الله بن عمرو: «يا عبد الله بن عمرو، ألم أُخبر أنك تكلف قيام الليل وصيام النهار؟» قال: «إني لأفعل، فقال ﷺ: «إن حسبك، ولا أقول افعل، أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام، الحسنه عشر أمثالها، فكأنك قد صمت الدهر كله»^(١).

وعن أم المؤمنين عائشة: أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة قال: «من هذه؟» قالت: فلانة، تذكر من صلاتها، قال ﷺ: «مه عليكم بما تطيقون، فوالله لا يملّ الله حتى تملُّوا»^(٢).

وحدث مرة أن قام أعرابي فبال في المسجد، فتناوله الناس، فقال لهم النبي ﷺ: «دعوه، وهريقوا على بوله سجلاً من ماء، أو ذنوباً من ماء، فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين»^(٣).

وعنه ﷺ أنه قال: «يسرّوا ولا تعسّروا، وسكّنوا ولا تنفروا»^(٤).

ورأى رسول الله ﷺ رجلاً يصلي في المسجد ويسجد ويركع، ويسجد ويركع، فقال ﷺ: «إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره، إن خير دينكم أيسره»^(٥).

وعنه ﷺ: «إياكم والتعمق في الدين فإن الله قد جعله سهلاً، فخذوا

(١) ابن حنبل: أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم ٦٨٧٨، ج ٢، ص ٦٧٤، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٤٣، ج ١، ص ١٨، ١٤٢٠هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) المصدر السابق، حديث رقم ٢٢٠، ج ١، ص ٦٢.

(٤) المصدر السابق، حديث رقم ٦١٢٥، ج ٤، ص ١١٥.

(٥) ابن حنبل: أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم ٢٠٦١٧، ج ٦، ص ٨٠٧، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت.

منه ما تطيقون»^(١).

وعلى هدي رسول الله ﷺ سار الأئمة من أهل بيته ﷺ يقول الإمام جعفر الصادق ﷺ: «اجتهدت في العبادة وأنا شاب، فقال لي أبي: يا بني دون ما أراك تصنع، فإن الله عز وجل إذا أحب عبداً رضي منه باليسير»^(٢).

وكانوا يربّون أصحابهم وأتباعهم على منهجية اليسر، وعدم التزمت في الدين، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: سألت الإمام جعفر الصادق ﷺ عن الرجل يأتي السوق فيشتري جبة فراء، لا يدري أذكية هي أم غير ذكية «أي من جلد حيوان مذكّي أم لا» أيصلي فيها؟ فقال: نعم ليس عليكم المسألة، إن أبا جعفر ﷺ كان يقول: إن الخوارج ضيقوا على أنفسهم بجهالتهم، إن الدين أوسع من ذلك^(٣).

وعن حماد بن عيسى قال: سمعت أبا عبد الله الصادق ﷺ يقول: كان أبي يبعث بالدرهم إلى السوق فيشتري بها جنناً فيسمي ويأكل ولا يسأل عنه^(٤).

هكذا الإسلام في أحكامه، وفي سيرة قاداته، يسر وسماحة، لا تكلف فيه ولا تعقيد، لكن أجواء بعض المتدينين تغذي حالة التشدد والتزمت، وخاصة عند الشباب اليافعين المقبلين على الدين، مما يوفّر عند بعضهم الاستعداد والأرضية لنمو بذور الوسوسة والتكلف في

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٥٣٤٨، ج ٣، ص ٣٥، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ، مؤسسة الرسالة.

(٢) الكليني: محمد بن يعقوب، الأصول من الكافي، ج ٢، ص ٨٧، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ، دار الأضواء، بيروت.

(٣) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، حديث رقم ٤٢٦٢، ج ٣، ص ٤٩١، الطبعة الأولى ١٤١٣ هـ، مؤسسة آل البيت ﷺ لإحياء التراث، بيروت.

(٤) المصدر السابق، حديث رقم ٤٢٦٧، ج ٣، ص ٤٩٢.

المسائل الشرعية.

الإرادة تقهر الوسواس:

تتمكن حالة الوسواس من الإنسان بشكل تدريجي، فإذا حصل الانتباه والوعي لها في وقت مبكر، كان العلاج والتغلب عليها أمراً سهلاً ميسوراً، لكن السكوت والإغضاء على الحالة لفترة طويلة، يزيد من صعوبة معالجتها.

وعلى كل حال فمهما كانت درجة الصعوبة إلا أن الخلاص والعلاج ليس مستحيلاً، فقد منح الله تعالى الإنسان إرادة قوية قاهرة، إذا قرر استخدامها فسيقهر بها كل عادة أو سلوك، مهما كانت درجة تجذره في نفسه وحياته.

لكن المشكلة تكمن في ضعف الإرادة، حيث يرفض المصاب التجاوب مع العلاج، أو يتراجع عن الاستمرار فيه، ويخضع لضغوط الوسوسة، وقد أظهرت البحوث أن نسبة ٣٠-٤٠٪ من مرضى الوسواس يقبلون على العلاج، وأن ٤٠-٥٠٪ منهم يحققون درجة متقدمة من الشفاء، لتجاوبهم مع العلاج وتوفير الرعاية اللازمة لهم^(١).

(١) القائي: الدكتور علي، الوسواس والهواجس النفسية، ص ١٠٥، الطبعة الثالثة ١٩٩١م، دار المعرفة الجامعية.

المجتمع و علماء الدين

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٩ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ

يقاس تقدم المجتمع في أي مجال من المجالات بمقدار عدد المتخصصين فيه، والمتصددين له، فكلما كثر عدد الأطباء، كان ذلك مؤشراً على تقدم المستوى الطبي والصحي في المجتمع، وكذلك فإن كثرة الأدباء تنبئ عن ارتفاع المستوى الأدبي، وهكذا في سائر المجالات.

لأن هناك علاقة جدلية بين الأمرين، فلولا وجود اهتمام بذلك المجال، لما توجه إليه عدد كبير من أبناء المجتمع، كما أن كثرة المتوجهين لأي حقل من الحقول تكرس الاهتمام به وتوسع رقعته. وعلى هذا الأساس يمكننا أن نعتبر نسبة عدد علماء الدين في البلاد واحداً من أهم مقاييس الحالة الدينية في المجتمع، لأنه يكشف عن مدى اهتمام الناس بالدين، ومدى عمق الحالة الدينية وتجذرها. وكانت بلادنا (المنطقة الشرقية) قبل حوالي ثلاثة عقود من الزمن تعاني من قلة وجود علماء الدين، وضعف الإقبال على دراسة العلوم الدينية، فأكثر المدن والقرى لم يكن فيها عالم دين واحد، بل كان علماء الدين يعدّون على الأصابع في المنطقة، وأتذكر أن بعض العلماء في الهفوف أو المبرز كان يخصص ليلة في الأسبوع لهذه القرية أو تلك القرية، وفي بعض الأحيان ليلة من كل أسبوعين.

وفي القطيف كان بعض العلماء كالشيخ فرج العمران والشيخ عبد الحميد الخطي رحمهما الله تعالى، يقوم بجولة سنوية على بعض القرى، ويمكث في كل قرية بضعة أيام، لملء شيء من الفراغ في التوجيه الديني، الذي تعاني منه تلك القرى.

لكن ومع الصحوة الدينية المباركة التي هب نسيمها على عالمنا الإسلامي، وشملت المنطقة بركاتها، أقبل عدد وفير من أبناء المنطقة وشبابها على دراسة العلوم الدينية، في بلادهم، وبالهجرة إلى أماكن الحوزات العلمية.

وبحمد الله تعالى فقد أصبحت بلادنا زاخرة بعدد طيب من العلماء، وطلاب العلوم الدينية، ففي كل مدينة أو قرية هناك مجموعة منهم .

الدور المتوقع:

إن مجتمعاتنا اليوم في حاجة ماسة لتفعيل دور العلماء وطلاب العلوم الدينية، حيث تواجه طوفاناً من الإعلام والمعلومات، والثقافة الموجهة من قبل الحضارة الغربية المادية، بما تحمل من مفاهيم مغايرة، وما تبشر به من قيم وأنماط سلوك مخالفة لقيمنا الإسلامية، وتعاليمنا الدينية. مما يستلزم نشاطاً معرفياً مكثفاً، وجهداً ثقافياً كبيراً، لحفظ الهوية، وحماية القيم.

إن التطورات المتلاحقة في العلم والتكنولوجيا، تثير أمام شبابنا العديد من التساؤلات العقدية والثقافية والأخلاقية، فلا بد من تصدي العلماء العارفين بالدين، والواعين بمشاكل الحياة، للإجابة على هذه التساؤلات والتحديات.

وهذا النشء الجديد من الفتيان والفتيات، والذي قد لا يتوفر

له التوجيه الديني المطلوب ضمن العائلة والأسرة، نظراً لانشغالات الوالدين، وتعدد اهتماماتهما غالباً، أو لمحدودية مستواههما، فإنه بحاجة إلى الاستيعاب والتوعية بقيم الدين وأحكامه، وإلا كان عرضة للضياع والفساد، كما يحدث ذلك بالفعل لقطاع كبير من هذا الجيل.

وفي المجتمع مشاكل وقضايا تحتاج إلى التصدي والمعالجة، والجهة الدينية بما يفترض لديها من وعي وإخلاص ونفوذ، هي الأقدر على تحمل هذه المسؤوليات، والأكثر تفرغاً لها.

فالدور المتوقع من الوسط العلمي الديني هو بث معارف الإسلام، وتوفير التوجيه والتربية لجيل الناشئين، والتصدي لمشاكل المجتمع وقضاياها.

واجب المجتمع:

يتساءل البعض من الناس وهم يلحظون وجود عدد من المنخرطين في سلك العلوم الدينية، بزيّهم الخاص، ولباسهم المتميز، عن مدى الدور الذي يقوم به هؤلاء العلماء والطلاب؟ وبيالغون في تحميلهم المسؤوليات، وفي التوقعات المنتظرة منهم.

ومع الإقرار بما تتحمل هذه الفئة الدينية من مهام ومسؤوليات، وما يقع على عاتقها من وظائف وأدوار، لكن ما يغيب الحديث عنه هو التذكير بواجب المجتمع تجاه العلماء والطلاب.

فطالب العلم الديني إنسان متطوع لخدمة العلم والدين، يغامر بمستقبل حياته، حيث لا وظيفة مضمونة، ولا دخل مالي ثابت يعتمد عليه، ولا مؤسسة رسمية ينتمي إليها، وهو يتحمل الغربة والهجرة في طلب العلم، ويتحمل مواجهة التحديات المختلفة، وهو مسؤول عن وضع عائلته وأسرته، مما يجعله في أمس الحاجة إلى الدعم والعون،

من أجل تلبية متطلبات الحياة، ليعيش كسائر أبناء مجتمعه من متوسطي الحال، وعلى صعيد أدائه لمهامه الدينية والاجتماعية، فإنه بحاجة إلى مواقف التشجيع والمساندة، ليتمكن من القيام بواجب الدعوة والتبليغ. فهناك حقوق متقابلة، وواجبات متبادلة، بين العلماء والطلاب من جهة، والمجتمع من جهة أخرى.

وليس صحيحاً أن يطلب العلماء من المجتمع الاحترام والدعم، دون أن يقوموا هم بواجب بذل العلم، ونشر المعرفة، والاهتمام بأمور المجتمع.

كما لا يصح من المجتمع أن يتوقع من العلماء كل تلك الأدوار والمهام، دون أن يقف إلى جانبهم، ويقدم لهم ما يحتاجون من مساعدة وعون.

المبادرة من العالم:

طالب العلم الديني وقد انتهل من معارف الإسلام، واستوعب قدراً من علومه وتعاليمه، وعاش في رحاب كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وسيرة الأئمة الهداة ﷺ، واقترب من حياة العلماء الصالحين، الذين تتلمذ على أيديهم، أو سمع وقرأ عن جهادهم وتضحياتهم، بعد كل هذا يفترض فيه أن يكون مبادراً لتحمل مسؤوليته تجاه الدين والمجتمع، يدفعه إلى ذلك خشيته من الله تعالى ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١)، ورغبته في ثوابه، وإدراكه لمدى التحديات والأخطار التي تحيط بالدين والمجتمع.

وإذا كانت تواجهه بعض المصاعب الحياتية، والعقبات في طريق

العمل، فعليه أن يتحلى بالصبر والاستقامة، وأن يحتسب ما يعانیه عند الله تعالى، وأن يستحضر في ذهنه ونفسه ما تحمّله الأنبياء والأئمة والأولياء الصالحون في سبيل الله، ومن أجل خدمة الدين، فقد تحملوا الجوع والفقر والعناء وألوان الأذى والتنكيل، ولم يشتم شيء من ذلك عن القيام بواجب الدعوة إلى الله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١).

والعلماء ورثة الأنبياء، ونواب الأئمة، وامتداد مسيرة الدعوة.

إن ما يراه طالب العلم في المجتمع من ضعف تجاوب واهتمام، هو نتيجة لقلّة التوجيه والتربية الدينية الإيمانية، وذلك يحمله مسؤولية أكبر في العمل والإصلاح، وقد أثبتت التجارب مدى تأثير التحرك والنشاط الذي يقوم به العلماء والطلاب في تغيير واقع المجتمع، وجعله أكثر تفاعلاً واهتماماً بقضايا الدين، وأكثر اقتراباً والتفافاً حول العلماء.

ذلك أن الناس إذا لاحظوا من العالم الإخلاص والجدّ، وحسن الأخلاق وسعة الصدر، ورأوا آثار توجيهه وتوعيته في أوساط أبنائهم ومجتمعهم، وتصديه لقضاياهم ومشاكلهم، فإنهم سيقبلون عليه، ويلتفون حوله، ويبدون له كل دعم وتأييد.

التجاوب من المجتمع:

حينما ندعو المجتمع لتقدير العلماء وطلاب العلوم الدينية، والالتفاف حولهم، والتجاوب معهم، فليس ذلك من أجل أشخاصهم، ولا لتوفير المكاسب الذاتية لهم، وإن كان العلم يستحق الإجلال

(١) سورة التوبة الآية ١٢٠.

والتقدير، لكن الهدف المقصود هو استثمار وجودهم، والاستفادة من الدور الذي يقومون به لمصلحة المجتمع.

وقد تكون هناك ملاحظات يديها بعض الناس تجاه البعض من العلماء وطلاب العلوم الدينية، وتتعلق بالمستوى العلمي والثقافي، حيث يلحظون شيئاً من النقص والقصور لدى بعض الطلاب، وخاصة في مواكبة التطورات الفكرية والعلمية المعاصرة، مما يضعف قدرتهم في التخاطب مع المثقفين، والجيل المتعلم المنفتح على العصر. وملاحظات أخرى ترتبط بسلوكيات وأخلاقيات التعامل، كالتعاطي بطريقة فوقية مع الناس، واستخدام أسلوب الهيمنة والاستبداد دون إتاحة الفرصة للحوار والنقاش، وبالتالي عدم احترام الرأي، وقبول النقد من الآخرين.

ولسنا بصدور هذه الملاحظات أو رفضها، فأفراد هذه الطبقة ليسوا معصومين، وكأي شريحة من شرائح المجتمع، تتفاوت فيها المستويات، وتكون فيها عناصر غير ملتزمة أو غير لائقة.

تجد هذا الأمر في الأطباء والمهندسين والمعلمين وغيرهم، حيث فيهم المتفوق، ومتوسط المستوى، وضعيف الكفاءة، وفيهم المخلص الأمين، والمتساهل، وسيئ التصرف.

ولكن، لا يصح التعميم، وأخذ انطباع عن الكل من خلال عنصر أو أكثر.

من ناحية أخرى فإن بعض الملاحظات يمكن معالجتها بالنصيحة والترشيد، وبعض طلاب العلوم الدينية قد تعوزه الخبرة والنضج، لحدثة تجربته الاجتماعية، فإذا ما أعطي الفرصة الكافية، وقدمت له النصيحة والنقد البناء، فسيتجاوز ما يعانیه من ضعف أو نقص.

إن الدراسة العلمية النظرية شيء، والممارسة التطبيقية الاجتماعية شيء آخر، فمهما درس طالب العلم الديني، وحقق من تقدم علمي، فإنه بحاجة إلى فترة من الخبرة والتجربة العلمية، لتنقل مواهبه، وتكامل شخصيته.

فإذا ما رأينا نقصاً أو ضعفاً عند أحدهم، فلا يصح أن نلغيه من الحساب، ونسقطه من الاعتبار، بل علينا أن نساعد في تجاوز ضعفه، وتلافي نقصه.

تقدير الكفاءة:

مما يُفخر به في بلادنا، ويستحق الاعتزاز والفخر، بروز مجموعة من الكفاءات والقدرات العلمية الناضجة، خلال هذه الفترة، فيهم العالم الفاضل، والخطيب المتميز، والمفكر العارف، والكاتب القدير، والقيادي المتصدي لأُمور المجتمع.

وهذه نعمة كبيرة نشكر الله تعالى عليها، ويجب أن نقابلها بما تستحق من التفاعل والتجاوب، حتى تأخذ هذه الكفاءات مداها في خدمة الدين والوطن.

إن البعض من الناس لا تملأ عينه كفاءات بلده، وينبهر دائماً بمن هم خارج بلده فقط، ويحصل أحياناً أن يُبخس حق بعض الكفاءات لتصنيفات طبقية أو فئوية، فلأنه من أسرة ضعيفة الحال، أو من أتباع المرجع الفلاني، تتجاهل مكانته، ولا تقدر كفاءته، وهذا ظلم وعدم إنصاف، وحرمان للمجتمع من الاستفادة من طاقات أبنائه. إن الله سبحانه يحذر وينهى عن بخس الحقوق حيث يقول تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾^(١) وقد تكرر هذا النص ثلاث مرات في

(١) سورة الأعراف الآية ٨٥.

القرآن الكريم، في سورة الأعراف آية ٨٥، وسورة هود آية ٨٥، وسورة الشعراء آية ١٨٣ .

والبخس هو إنقاص الحق، سواء كان حقاً مادياً أو معنوياً، والتعبير بـ ﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ يشمل الجانبين المادي والمعنوي لأي إنسان مسلماً كان أو كافراً، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ .

الشيخ الشيبب: كفاءة و عطاء :

وقد فجعت بلادنا هذه الأيام بفقد كفاءة علمية متميزة، ذات عطاء ونشاط علمي واسع، هو العلامة الشيخ عبد اللطيف الشيبب رحمته الله، والذي التحق بالرفيق الأعلى صباح يوم الثلاثاء ٢٥ / ٤ / ١٤٢٢ هـ، وهو في ريعان شبابه، وربيع عطائه العلمي والاجتماعي، حيث لم يكمل الثامنة والثلاثين من عمره، فولادته بتاريخ ١٣ / ٥ / ١٣٨٤ هـ.

هاجر إلى طلب العلم في السابعة عشر من عمره، واتصف بالذكاء والنبوغ، حيث أكمل المقدمات والسطوح، وحضر بحوث الخارج في الفقه والأصول، وكان من أفاضل المدرسين للسطوح العالية، وأصبح ركناً أساسياً للحوزة العلمية في القطيف، حيث درّس فيها رسائل الشيخ الأنصاري، وكفاية الأصول للأخوند الخراساني، وكان يقرّر أبحاث مستمسك العروة الوثقى للسيد الحكيم.

وكان يعرف اللغتين الفارسية والإنكليزية. وإلى جانب نشاطه العملي، كان له عطاء علمي واسع، حيث كان يؤم الجماعة في بلدته (أم الحمام) من قرى القطيف، ويلقي المحاضرات، ويدير حلقات الدروس الدينية للشباب، ويرعى مجموعة من الأنشطة الثقافية والاجتماعية، كان من آخرها افتتاح موقع على الإنترنت، وسبق للفقيد أن كان مبلغاً في أوساط الجالية الإسلامية في بلجيكا لمدة سنتين، وله كتابات وأبحاث

علمية وثقافية مطبوعة ومخطوطة.

حقاً إن وفاته خسارة فادحة، وبرحيله افتقدنا كفاءة واعدة، كانت معقداً لآمال وطموحات كبيرة، ولكننا نسلم الأمر لله تعالى، راضين بقدره وقضائه، قائلين: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾^(١). سائلين المولى سبحانه أن يتغمده بواسع رحمته، وأن يحشره مع أوليائه الصالحين، وأن يلهم ذويه الصبر والسلوان، وأن يخلف على بلادنا بالخلف الصالح.

وإذ نعزي كافة أبناء المجتمع بهذا المصاب الأليم، لندعوهم إلى الالتفاف حول علمائهم الأعلام، والتجاوب مع الكفاءات الواعية العاملة من أجل خدمة الدين والوطن، حفظ الله الجميع من كل مكروه، وأدام على بلادنا نعمة الأمن والإيمان. والحمد لله رب العالمين.

مكانة أهل البيت عليهم السلام

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٧ جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ

من الطبيعي أن يحتل آل بيت رسول الله ﷺ مكانة مرموقة متميزة في نفوس أبناء الأمة، وأن تهفو لهم قلوب المسلمين وأفتدتهم، حيث أن هناك عوامل وأسباب عديدة توجب ذلك وتفرضه، ومن أبرزها ما يلي :

البعد الامتدادي :

أهل البيت ﷺ يشكلون الامتداد الطبيعي لرسول الله ﷺ فهم أسرته وذريته، ومن بديهيات العلاقات المتداولة بين أبناء البشر، أن تنعكس مكانة الإنسان ومعزته عند الناس، على عائلته ونسله، فإذا أحب الناس إنساناً، وانجذبوا نحوه وعظّموه، فإن ذلك يدفعهم إلى حب وتقدير كل من يمت إليه بصلة أو قرابة، إظهاراً لمحبّتهم ووفائهم لذلك العزيز المحبوب .

وهو أمر فطري وجداني أشار إليه رسول الله ﷺ، فيما روته عنه ابنته الزهراء ﷺ في خطبتها المشهورة أنه قال: «المرء يحفظ في ولده»^(١).

وتأسيساً على هذه الحقيقة فإن رسول الله ﷺ هو الأحب والأعلى والأعز على قلب كل مسلم ينبض قلبه بالإيمان، وكأثر وانعكاس لهذا

(١) القزويني: السيد محمد كاظم، فاطمة الزهراء من المهد إلى اللحد، ص ٣١٣، الطبعة الأولى ١٩٩١م، مؤسسة النور، بيروت.

الحب العظيم للرسول الكريم ﷺ، تفيض قلوب المسلمين بالمحبة والإجلال لأهل بيته وعترته.

روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي» قال الحاكم النيسابوري في المستدرک على الصحيحين: هذا حديث صحيح الإسناد^(١).

بل إن محبة المسلمين لنبيهم ﷺ تدفعهم للاهتمام بأي أثر من آثاره، فكيف بذريته وعترته وهم الأثر الحي، والامتداد الطبيعي لشخصه وشخصيته؟

ينقل الدكتور محمد بيومي مهران، أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم في جامعة الإسكندرية بمصر، وهو عالم باحث محقق، وعضو في عدة هيئات ولجان علمية، أغير إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، في الفترة ١٩٧٣-١٩٧٧ م، ثم أغير إلى جامعة أم القرى بمكة المكرمة، في الفترة ١٩٨٣-١٩٨٧ م. ينقل هذا الدكتور في كتابه (الإمامة وأهل البيت) القصة الطريفة التالية:

روى (ابن شهر آشوب) في مناقبه: أن الإمام أبا حنيفة جاء ليسمع من الإمام جعفر الصادق، فخرج إليه الإمام جعفر يتوكأ على عصا، فقال أبو حنيفة: يا ابن رسول الله، لم تبلغ من السن ما تحتاج معه إلى العصا، قال: هو كذلك، ولكنها عصا رسول الله ﷺ، أردت التبرك بها.

فوثب أبو حنيفة وقال: أقبلها يا ابن رسول الله.

فحسر أبو عبد الله جعفر الصادق عن ذراعيه، وقال له: والله لقد علمت أن هذا بشر رسول الله، وأن هذا من شعره، فلم لا تقبله،

(١) الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين، حديث رقم ٤٧١٦.

وتقبّل العصا؟^(١). وتتناقل أوساط الأمة جيلاً بعد آخر أحاديث عديدة عن رسول الله ﷺ تذكّر وتؤكد على ما يجسده أهل البيت من امتداد لشخص رسول الله ﷺ وشخصيته.

كقوله ﷺ عن ابنته الزهراء ﷺ فيما رواه البخاري: «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني»^(٢) جاء في لسان العرب: أي أنها جزء مني كما أن القطعة من اللحم^(٣).

وكقوله ﷺ لعلي ﷺ فيما رواه البخاري: «أنت مني وأنا منك»^(٤)

ومثله ما رواه ابن حنبل عنه ﷺ في حق الحسين ﷺ، أنه ﷺ قال: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسينا»^(٥)

هذه الأحاديث وكثير مثلها تشير إلى تلك العلاقة والصلة الطبيعية لأهل البيت ﷺ برسول الله ﷺ، والتي تجعلهم امتداداً له، وعلى هذا الأساس كان المسلمون ينظرون إلى أهل البيت ﷺ بمحبة خاصة، وتقدير مميز. حتى روى البخاري عن الخليفة الأول أبي بكر في اعتذاره للسيدة فاطمة الزهراء حول أخذه فدك، وسخط فاطمة على ذلك أنه قال: «والذي نفسي بيده، لقرابة رسول الله أحب إلي أن أصل من قرابتي»^(٦)

(١) مهراّن: الدكتور محمد بيومي، الإمامة واهل البيت، ج ١ ص ٢٥، دار النهضة العربية، بيروت ١٩٩٥ م.

(٢) البخاري: محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٣٧٦٧، باب مناقب فاطمة ﷺ، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٣) ابن منظور، لسان العرب، ج ١ ص ٢٢٢، طبعة دار الجيل ودار لسان العرب ١٩٨٨ م.

(٤) البخاري: محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، باب مناقب علي بن أبي طالب، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٥) ابن حنبل: الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم ١٧٧٠٤، الطبعة الاولى ١٩٩٨ م، عالم الكتب، بيروت..

(٦) البخاري: محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٤٢٤١، باب غزوة خيبر، دار الكتب العلمية، بيروت.

النصوص الشرعية :

يجد المسلم نفسه ملزماً باتباع النص الشرعي الوارد في الكتاب والسنة، وأن يأخذ به ويطبقه، امثالاً لأمر الله تعالى، وتقرباً إليه، وطلباً لرضاه، وأساساً فإن الإسلام يعني التسليم لله والعبودية له.

كما يعتقد المسلم بأن أمر الله تعالى إنما يستهدف مصلحة الإنسان في دنياه وأخرته.

وحيثما تعدد النصوص الشرعية وتستفيض وتتواتر بكثافة حول أمر من الأمور، فذلك يعني أهمية خاصة، وعناية إلهية مؤكدة، تدفع المسلم للحرص عليه، وأخذه بكل جد واهتمام.

من هذا المنطلق فإن ما ورد من نصوص شرعية كثيرة صحيحة ثابتة عن فضل أهل البيت، ومكانتهم عند الله ورسوله، وحقوقهم على الأمة، هو أرضية هذا الولاء العميق لأهل البيت عند المؤمنين، وهو الذي أوجب انشداد الأمة للعترة النبوية، وغمر قلوب المسلمين بمحبتهم وعشقهم.

وصحيح أن هناك نصوصاً شرعية قد وردت في فضل الصحابة، وفي الإشادة بمكانة بعضهم، وامتداح مواقفهم الجهادية المشرقة، إلا أنها بمجملها لا ترقى إلى درجة ومستوى ما ورد حول أهل البيت (عليهم السلام)، لا من ناحية الكم، ولا من حيث قوة السند، ولا على صعيد المضمون والدلالة.

فهي نصوص كثيرة العدد جداً، وقسم كبير منها اتفق المسلمون سنة وشيعة على قبوله وصحة سنده، وفي تلك النصوص دلالات واضحة على تميّز أهل البيت وأفضليتهم، وعلى لزوم أتباعهم والتمسك بهم.

وكمثال بسيط نشير هنا إلى ما نقله الحاكم النيسابوري في المستدرک عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب ﷺ.^(١)

وقال إسماعيل القاضي والنسائي وأبو علي النيسابوري: لم يرد في حق أحد من الصحابة بالأسانيد الحسان أكثر مما جاء في علي^(٢).

وأخرج بن عساكر عن ابن عباس قال: ما نزل في أحد من كتاب الله تعالى ما نزل في علي^(٣). ويأتي في طليعة النصوص الشرعية آيات من الذكر الحكيم، اتفق جمهور علماء المسلمين على نزولها في أهل البيت ﷺ.

كآية المباهلة وهي قوله تعالى ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٤). والتي نزلت عند مجيء وفد نصارى نجران لمناظرة النبي ﷺ، فأمره الله تعالى أن يدعوهم إلى المباهلة إن لم يستجيبوا للحق، وهكذا خرج النبي ﷺ لمباهلتهم ومعه علي وفاطمة والحسنان فقط، تجسيدا لما ورد في الآية الكريمة، ﴿أَبْنَاءَنَا﴾ هما الحسنان، و﴿نِسَاءَنَا﴾ هي فاطمة، و﴿أَنْفُسَنَا﴾ هو علي، وذلك ما ذكره جمهور المفسرين ومؤرخو السيرة النبوية، وأئمة الحديث، جاء في صحيح مسلم عن سعد بن أبي وقاص: لما نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾، دعا رسول الله

(١) الحاكم النيسابوري: محمد بن عبدالله، المستدرک على الصحيحين، حديث رقم ٤٥٧٢، من مناقب أمير المؤمنين علي.

(٢) ابن حجر الهيتمي: أحمد بن محمد، الصواعق المحرقة، ج ٢ ص ٣٥٣، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٣) المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٤) سورة آل عمران آية ٦١.

عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال: «اللهم هؤلاء أهلي»^(١).

وكآية التطهير وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٢).

قال الشيخ ابن تيمية:

وقد روى الإمام أحمد والترمذي وغيرهما عن أم سلمة: أن هذه الآية لما نزلت أدار النبي ﷺ كساءه على علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ فقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا» وسنته تفسر كتاب الله وتبينه، وتدلل عليه، وتعبر عنه، فلما قال ﷺ: «هؤلاء أهل بيتي» مع أن سياق القرآن يدل على أن الخطاب مع أزواجه، علمنا أن أزواجه وإن كنَّ من أهل بيته، كما دلَّ عليه القرآن، فهؤلاء أحق بأن يكونوا أهل بيته، لأن صلة النسب أقوى من صلة الصهر... ولما بين سبحانه أنه يريد أن يذهب الرجس عن أهل بيته، ويطهرهم تطهيرا، دعا النبي ﷺ أقرب أهل بيته، وأعظمهم اختصاصا به، وهم: علي، وفاطمة ﷺ، وسيدي شباب أهل الجنة، جمع الله لهم بين أن قضى لهم بالتطهير، وبين أن قضى لهم بكمال دعاء النبي ﷺ، فكان من ذلك ما دلنا على أن إذهاب الرجس عنهم وتطهيرهم نعمة من الله، ليسبغها عليهم، ورحمة من الله وفضل لم يبلغوهما بمجرد حولهم وقوتهم»^(٣).

وكآية المودة وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾^(٤).

قال ابن حجر الهيتمي: أخرج أحمد والطبراني وابن أبي حاتم

(١) القشيري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم ٣٢، كتاب فضائل الصحابة.

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٣.

(٣) ابن تيمية: تقي الدين أحمد، حقوق آل البيت، ص ٢٥-٢٧، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٤) سورة الشورى آية ٢٣.

والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنه، أن هذه الآية لما نزلت قالوا: يا رسول الله من رابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال ﷺ: «علي وفاطمة وابناهما»^(١).

من السنة النبوية:

أما الأحاديث النبوية الصادرة عن رسول الله ﷺ في فضل أهل البيت، وحث الأمة على الالتزام بهديهم، والتمسك بحبلهم، فيكفي لمعرفة حجمها، وصراحة مضامينها، مراجعة أي مصدر حديثي من كتب السنة أو الشيعة، بل لقد صنف بعض الحفاظ والمحدثين كتباً خاصة أفردوها لما ورد في أهل البيت عامة، أو في بعض أشخاصهم بشكل خاص. كـ (ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى) للإمام الطبري المكي ٦١٥-٦٩٤هـ، و(تذكرة الخواص) لسبط الحافظ ابن الجوزي الحنفي ٥٨١-٦٥٤هـ، و(خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) للحافظ النسائي، وغيرها من المصنفات.

وفي طليعة تلك الأحاديث المتواترة ما روي عنه ﷺ أنه قال: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»^(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک والهيثمى في مجمع الزوائد، والحافظ الطبري في ذخائر العقبى وغيرهم.

وكذلك حديث الثقلين الذي ورد بطرق كثيرة صحيحه، منها ما أخرجه مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً، بماء يدعى خمأ، بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس! فإنما أنا

(١) ابن حجر الهيتمي: أحمد بن محمد، الصواعق المحرقة، ج ٢ ص ٤٨٧.

(٢) الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله، المستدرک على الصحيحين، حديث رقم ٣٣١٢.

بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه. ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي»^(١).

وأورده الألباني في الأحاديث الصحيحة تحت رقم ١٧٦٧ بلفظ الترمذي عن جابر بن عبد الله عنه ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس! إنني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا، كتاب الله، وعترتي أهل بيتي»^(٢). وقد أثبت الألباني صحة الحديث وذكر عدة شواهد له من أحاديث أخرى صحيحة.

هذه الأحاديث وأمثالها هي التي غرست في القلوب محبة أهل البيت، وكرّست في جمهور المؤمنين موالاتهم، ودفعتهم لاتباعهم.

التفوق العلمي:

الكفاءة تفرض نفسها، وتستقطب الاحترام والاهتمام، ولأن أهل البيت ﷺ كانوا يمتلكون كفاءة علمية فائقة، فإن أعلام الأمة كانوا ينتهلون من علومهم، والخلفاء كانوا يلجأون إليهم في القضايا الصعبة، وجماهير الأمة كانت ترى فيهم مرجعية علمية معتمدة.

يتحدث السيد أبو الحسن الندوي في كتابه (المرتضى) عن رجوع الخليفة الثاني عمر بن الخطاب للإمام علي بن أبي طالب في المعضلات والمشاكل، فيقول: «وكان علي لسيدنا عمر ناصحاً أميناً، وقاضياً في المعضلات حكيمًا، يفض المشكلات، ويزيح الشبهات، حتى أثر عن سيدنا عمر أنه قال: لولا علي لهلك عمر، واشتهر في التاريخ

(١) القشيري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم ٢٤٠٨، كتاب فضائل الصحابة.

(٢) الألباني: محمد ناصر الدين، سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج ٤ ص ٣٥٥.

والأدب وذهب مثلاً: (قضية ولا أبا حسن لها) وروى عن النبي ﷺ أنه قال: (أفضاهم علي) وقد استخلفه عمر عند رحيله إلى القدس»^(١).

وقد لاحظ الدكتور ظافر القاسمي أستاذ العربية و العلوم الإسلامية في الجامعة اللبنانية، والباحث المعروف، عند بحثه لموضوع السلطة القضائية في الشريعة و التاريخ الإسلامي، الملاحظة التالية: «أما علي ابن أبي طالب فقد كان أفضى الصحابة، والظاهر أنه كان يُستشار، ولا يستشير. ومن يدري؟ فإن ورع الإمام ربما دعاه لأن يسأل، وأن يستشير، ولكن لم ترو لنا الكتب حادثة استشار فيها علي أحدا من الصحابة»^(٢).

والتفسير الصحيح لهذه الملاحظة هو اكتفاء الإمام علي من الناحية العلمية، وتفوقه على معاصريه، لذا لم يكن بحاجة للرجوع إلى أحد في أي مسألة أو مشكلة.

ويتحدث الشيخ محمد أبو زهرة عن علم الإمام جعفر الصادق فيقول: «ما أجمع علماء الإسلام على اختلاف طوائفهم في أمر، كما أجمعوا على فضل الإمام الصادق وعلمه، فأئمة السنة الذين عاصروه تلقوا عنه وأخذوا، أخذ عنه مالك ﷺ، وأخذ عنه طبقة مالك، كسفيان بن عيينة، وسفيان الثوري، وغيرهم كثير، وأخذ عنه أبو حنيفة مع تقاربهما في السن، واعتبره أعلم أهل الناس، لأنه أعلم الناس باختلاف الناس، وقد تلقى عليه رواية الحديث طائفة كبيرة من التابعين، منهم يحيى بن سعيد الأنصاري، وأيوب السختياني، وأبان بن تغلب، وأبو عمرو بن العلاء، وغيرهم من أئمة التابعين في الفقه والحديث، وذلك فوق الذين رووا عنه من تابعي التابعين ومن جاء بعدهم، والأئمة

(١) الندوي: أبو الحسن، المرتضى، ص ١٠٣، الطبعة الأولى ١٩٨٩م، دار القلم، دمشق.

(٢) القاسمي: ظافر، نظام الحكم في الشريعة و التاريخ الإسلامي، ج ٢ ص ٣٢٩، الطبعة الأولى ١٩٧٨م، دار النفائس، بيروت.

المجتهدين الذين أشرنا إلى بعضهم»^(١).

وهكذا كان كل إمام من أئمة أهل البيت مرجعية علمية في عصره، لا يوازيه أو يدانيه أحد من العلماء والفقهاء، مما عزز مكانة أهل البيت في أوساط الأمة، وأحاطهم بأعلى درجات التقدير والاحترام.

مكارم الاخلاق:

تعشق النفوس كل نزيه طاهر السلوك، ويحب الناس من يجسد مكارم الأخلاق في شخصيته وحياته، ويحترمون من يعاملهم بالافضال والإحسان.

وقد رأى المعاصرون لأهل البيت ﷺ في سيرتهم كل مظاهر الكمال والفضل، من صفاء النفس، ونقاء السلوك، وحسن المعاملة، والعطاء الوافر للمحتاجين، والاهتمام بمشاكل الفقراء والضعفاء والنفوس عن المسيئين. وهم بذلك يمثلون الامتداد والاستمرارية لأخلاق جدهم الرسول الكريم ﷺ الذي وصفه الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

المظلومية والمعاناة:

ما وقع على أهل البيت من الظلم والأذى، من قبل الحاسدين لهم، والذين كانوا يخشون على سلطتهم وعروش حكمهم، من عظيم شعبية أهل البيت، وسعة نفوذهم وهيمتهم على القلوب والنفوس، لذلك وجهوا لهم سهام الأذى، وأصابوهم بمختلف ألوان الاضطهاد، وتكفي واقعة كربلاء نموذجاً ومظهراً لمظلومية أهل البيت ومعاناتهم.

هذه الآلام والمآسي التي وقعت على أهل البيت ﷺ أوجدت

(١) أبو زهرة: محمد، الإمام الصادق، ص ٦٦، دار الندوة الجديدة، بيروت.

تعاطفا كبيرا في نفوس أبناء الأمة معهم، لأن من طبيعة البشر، التعاطف مع المظلومين.

وقد تحول هذا التعاطف إلى برامج مستمرة، وشعائر دائمة يقيمها أتباع أهل البيت في كل مكان وزمان، لتكريس الولاء والمحبة لهم، ولتجديد قراءة سيرتهم العطرة، ومواقفهم المجيدة.

نسأل الله تعالى أن يثبتنا على الولاء لرسول الله ولأهل بيته الأطهار وأصحابه الأخيار، وأن يجعلنا من المقتدين بهديهم، ويحشرنا في زميرتهم يوم القيامة.

التقريب بين أتباع المذاهب

كلمة الجمعة بتاريخ ٥ جمادى الآخر ١٤٢٢هـ

في بادرة طيبة تستحق الشكر والتقدير، خصصت جريدة المدينة صفحتين كاملتين من ملحقها الأسبوعي (الرسالة)، بتاريخ ٢٣ جمادى الأولى ١٤٢٢هـ لمناقشة مسألة التقريب بين السنة والشيعة، وأشركت في بحث الموضوع علماء ومفكرين أفاضل سنة وشيعة من المملكة وإيران ومصر.

فمن المملكة :

الدكتور الشيخ عبد الله بن بية عضو مجمع الفقه الإسلامي في جدة وأستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة الملك عبد العزيز.

الدكتور الشيخ عبد الله العبيد الأمين العام السابق لرابطة العالم الإسلامي عضو مجلس الشورى السعودي حالياً.

الشيخ عبد الله بن منيع عضو هيئة كبار العلماء في السعودية.

السيد علي موسى من فضلاء الحوزة العلمية في الإحساء.

ومن إيران :

الشيخ محمد واعظ الخراساني الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية في إيران.

الشيخ محمد يزدي رئيس مجلس القضاء الإيراني سابقاً عضو

مجلس صيانة الدستور في إيران حالياً.

الشيخ محمد مهدي الآصفي من أساتذة الحوزة العلمية في قم.

ومن مصر:

مفتي الديار المصرية الدكتور نصر فريد واصل.

الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي العالم والداعية المعروف.

الدكتور محمد عمارة المفكر والكاتب المعروف.

وتأتي أهمية هذه البادرة من حساسية هذا الموضوع لدى الوسط الديني في المملكة، لذلك لم تكن الصحافة السعودية تتناول معالجته، إلا من خلال نقل وجهة نظر واحدة. ويبدو أن التطورات والظروف الجديدة هي التي شجعت طرح هذا الموضوع بجرأة علمية، وأسلوب موضوعي، يجمع آراء كل الأطراف، ويعالج المسألة بشفافية ووضوح دون تشنج وتهريج.

وللإنصاف فإن مهرجان الجنادرية قد بادرن إلى طرح الموضوع في السنتين الماضيتين، كما أن جريدة الوطن السعودية نشرت بعض المقالات الإيجابية في هذا السياق. ويأتي الآن ملحق جريدة المدينة ليكرس هذا المنحى الموضوعي من الطرح والمعالجة لهذه المسألة الشائكة: العلاقة بين السنة والشيعة، في لحظة تشتد فيها حاجة الأمة إلى الوحدة، وفي ساحة طالما عانت من الحدة والتشنج المذهبي.

التقريب بين المذاهب أو الإلتباع:

قبل خمسين عاماً تبنى عالمان مصلحان من السنة والشيعة موضوع التقريب بين المذاهب الإسلامية، هما الشيخ محمد تقي القمي من

إيران، والشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر آنذاك، وتكونت في القاهرة مؤسسة رائدة في هذا المجال، باسم دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، وقامت بدور تاريخي جيد، لكن نشاطها توقف لأسباب سياسية فيما بعد.. وقبل سنوات قررت القيادة الدينية في إيران تجديد النشاط والتحرك على هذا الصعيد، ضمن مؤسسة بعنوان (المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية).

ومن وجهة نظري فإن عنوان التقريب بين المذاهب الإسلامية ليس دقيقاً.

أولاً: لأن المذاهب الإسلامية هي متقاربة في أصولها وفي خطوطها العامة، حيث تتفق جميعاً على مرجعية الكتاب والسنة، وتؤمن بأصول مشتركة هي التوحيد والنبوة والمعاد، وتجمع على أركان الإسلام وفرائضه الأساسية، كالصلاة والصيام والحج والزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله.

والاختلاف بين المذاهب إنما هو في بعض التفاصيل والفروع، ضمن نسبة محدودة وهذا لا يعني التباعد. لكن المشكلة تكمن في ما حدث للأمة في عصور تخلفها، من التركيز على نقاط الخلاف المحدودة، وتجاهل مساحات الاتفاق الواسعة.

يقول الدكتور حسين علي محفوظ، وهو عالم باحث من العراق: اطلعت على كتب الفقه وقرأت مسائل الخلاف وهي (٤١٥٢) مسألة، من مجموع مسائل الفقه الكثيرة، التي تبلغ في بعض كتبه (١٦٠٠٠٠) مسألة، فلم أر مسألة في مذهب، ولم أجد رأياً عند طائفة، إلا قال به جمع من الفقهاء، أو قال بعض جماعة منهم، أو هو المروي عن قوم. ولقد حققت ما انفردت به بعض المذاهب، وما يظن انفرادها به فوجدته

(٢٥٣) مسألة فقط من مسائل الخلاف بين المذاهب لا من مجموع مسائل الفقه.

وإذا قرأنا كتب الفقه والأحكام لوجدناها على منوال واحد تقريباً، بلغة فقهية مشتركة، متقاربة في الألفاظ والاشتقاقات^(١).

فالمذاهب قريبة من بعضها ولا تحتاج إلى تقريب.

ثانياً: قد يثير هذا العنوان مخاوف وهو اجس البعض بأن التقريب بين المذاهب يعني التنازلات المتبادلة بينها، والتخلي عن بعض الآراء والقناعات، حتى تلتقي المذاهب عند نقطة وسط.

وقد أعلن البعض تحفظه على فكرة التقريب بين المذاهب انطلاقاً من هذا الهاجس.

ولا يبدو أن المطلوب من أحد أن يتنازل عن شيء من قناعاته الدينية المبدئية، في مسألة عقديّة أو فقهية ضمن صفقة مساومة أو مجاملة.

وبالتالي فإن المذاهب ستبقى على توجهاتها وآرائها واجتهاداتها فماذا يعني التقريب بينها؟

الأصح أن يكون العنوان هو التقريب بين أتباع المذاهب والذين باعد بينهم ضعف الوعي بالدين، وأخلاقيات التعصب والتطرف، ووجود قوى مغرضة منتفعة من الخلاف، وتآمر الأعداء لتمزيق الأمة. ولكأنما عنى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هذه الحالة بقوله في إحدى خطبه: «وإنما أنتم إخوان على دين الله، ما فرّق بينكم إلا خبث السرائر، وسوء الضمائر، فلا توازروا ولا تناصحو، ولا تباذلو، ولا توادؤوا»^(٢).

(١) جواد: غانم، نحو ثقافة التقريب بين المذاهب الإسلامية، جريدة الحياة، ٤ شعبان ١٤٢١ هـ.
(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة رقم ١١٣، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان.

ويبدو أن هذا هو المقصود بالتأكيد أي التقريب بين أتباع المذاهب، لكن العنوان لا يعبر عنه بدقة ووضوح.

مسؤولية الخطاب الديني:

لقد تجاوزت الأمة الإسلامية والحمد لله الكثير من أخطار التمزق القومي، والصراعات القطرية، فهي وإن حصلت في بعض الأحيان، إلا أنها ضمن حدود مصلحة، لا أرضية لها في نفوس أبناء الأمة المتشعبة بقيم الإسلام.

لكن الخطر الأكبر على وحدة الأمة اليوم يتمثل في الخلافات المذهبية الطائفية، لأنها تنطلق من أرضية دينية وفق فهم أصحابها للدين، ولأن لها جذوراً نفسية وتاريخية عميقة.

وهنا يأتي دور الخطاب الديني. فقد يقوم بدور توحيد الصفوف، ورأب الصدع، وتقريب أبناء الأمة إلى بعضهم على اختلاف مذاهبهم، من أجل مواجهة التحديات المشتركة، والأخطار المحدقة بالدين والأمة، وتذكير المسلمين بالأصول الجامعة، والمبادئ الأساسية التي ينطلقون منها.

وذلك إذا كان هذا الخطاب صادراً من جهة واعية مدركة لأهداف الدين ومصالح الأمة.

وقد تؤدي بعض الخطابات الدينية دوراً سيئاً بالتركيز على قضايا الخلاف، وإشغال الأمة عن واقعها بقضايا جانبية، وأحداث تاريخية، وتعبئة جمهورها ضد الآخر المختلف مذهبياً، بإصدار فتاوى التكفير، وبيانات التبديع والتفسيق، وتصنيف المسلمين على أساس طائفي بغرض، والتمييز بين أبناء الوطن الواحد من منطلق الخلاف المذهبي..

لقد عانت الساحة الإسلامية كثيراً من تطرف وتشنج بعض الخطابات الدينية، والتي خلقت جيلاً من المتعصبين المتطرفين، الذين أساءوا والسمعة الإسلام، وأحدثوا الفتن والاضطرابات في مجتمعاتهم، وما يحصل في الجزائر وأفغانستان وباكستان، إنما هو نتاج وثمره لمثل هذا التوجيه والخطاب المتطرف.

دعوة التقريب وكيف تنجح؟

انطلقت دعوة التقريب من مصر وإيران، وتجاوبت معها العديد من الجهات والقوى الإسلامية من مختلف البلدان، وقطعت شوطاً جيداً باتجاه أهدافها الخيرة، لكنها لم تحقق بعد النجاح المطلوب، ولم تصل إلى الغاية المرجوة.

وأعتقد أن المملكة العربية السعودية بما تمتلكه من ثقل دولي، ومكانة في العالم الإسلامي، وبما تتمتع به من إمكانيات معنوية ومادية، تستطيع أن تقوم بدور كبير فعال، في إنجاح دعوة التقريب بين أتباع المذاهب الإسلامية.

وقد كان للمملكة دور ريادي في لم شمل الدول الإسلامية ضمن منظمة المؤتمر الإسلامي، فعلى أثر محاولات الصهاينة لإحراق المسجد الأقصى بتاريخ ٢١ أغسطس ١٩٦٩م، قامت المملكة بجهد كبير للعمل على انعقاد أول مؤتمر قمة إسلامي، تأسست على أساسه منظمة المؤتمر الإسلامي.

واليوم وحيث تشتد غطرسة الصهاينة المعتدين، وتتصاعد وتيرة بطشهم، متجاوزة كل الحدود والتوقعات، وحيث يخوض شعبنا الفلسطيني الصامد معركته المصيرية الخطيرة، ما أحوج الأمة إلى منعطف إيجابي يعزز وحدتها، ويرفع معنويات أبنائها ومجاهديها،

ويوجه كل إمكاناتها وجهودها نحو إنقاذ القدس الشريف، وتحرير الأراضي المغتصبة.

وذلك يتحقق بإنجاز هذه الخطوة الوحشية الكبيرة، لتأمين التضامن بين أبناء الأمة وشعوبها، وطي صفحة الخلاف بين أتباع المذاهب الإسلامية سنة وشيعة، وإغلاق هذا الملف الأسود، خاصة وأن الأبطال الغيارى من أبناء السنة والشيعة يقفون على خط واحد في مقاومة الاحتلال الإسرائيلي، فتضحيات وانتصار الشيعة في جنوب لبنان، هو الذي أشعل فتيل الانتفاضة المباركة في فلسطين.

وكما كان للمملكة دور ريادي في جمع رؤساء الدول الإسلامية، فإنها مؤهلة للقيام بدور وحدوي جديد لجمع قيادات المذاهب، على أساس هدي الكتاب والسنة.

ونأمل أن تكون ندوات الجنادرية حول التقريب بين المذاهب الإسلامية، وما تنشره الصحافة السعودية من كتابات وتحقيقات في هذا الاتجاه، إرهاصات للقيام بهذا الدور الخطير.

اللهم اجمع شمل المسلمين، ووحد صفوفهم، وأصلح ولاة أمورهم، وانصرهم على أعدائهم الصهاينة المعتدين. وأقر أعيننا بتحرير فلسطين والصلاة في المسجد الأقصى إنك على كل شيء قدير.

التعليم ومسؤولية العائلة

كلمة الجمعة بتاريخ ١٢ جمادى الآخر ١٤٢٢هـ

لا تنتهي مسؤولية العائلة عند حدود التنشئة الجسدية للولد، بتوفير احتياجاته الغذائية والصحية، بل إنها معنية أيضاً بتنمية قدراته العقلية، ومداركه المعرفية، وبتوجيه صفاته النفسية، وسلوكه الاجتماعي.

من هنا تؤكد النصوص الدينية على مسؤولية العائلة عن تعليم أبنائها، وأن ذلك حق من حقوق الأبناء، على الآباء.

جاء في الحديث عن أبي رافع عن رسول الله ﷺ أنه قال: «حق الولد على والده: أن يعلمه الكتابة، والسباحة، والرماية، وأن لا يرزقه إلا طيباً»^(١).

وفي حديث آخر عن أبي هريرة عنه ﷺ: «حق الولد على والده: أن يحسن اسمه، ويزوجه إذا أدرك، ويعلمه الكتاب»^(٢).

ومن قديم الزمان كان الحريصون على مستقبل أبنائهم، يهتمون بتوفير فرص التعلم لهم، ويبحثون لهم عن المعلمين، وينفقون على ذلك ما يلزم من التكاليف والمكافآت.

وفي حالات متقدمة لدى بعض المجتمعات كان يُبذل جهد أهلي

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٤٥٣٤٠، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.

(٢) المصدر السابق، حديث رقم ٤٥١٩١.

من قبل الجهات الدينية وأصحاب الخير لإقامة مدارس التعليم، حيث لم تكن الدولة تتحمل مسؤولية التعليم. ومع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، وبعد أن نشأت الدولة الحديثة في الغرب أصبح التعليم من وظائف الدولة تجاه المواطنين، وتدرجياً ساد هذا النظام في العالم، وأصبح لكل حكومة وزارة أو أكثر مكلفة بشؤون التعليم، وميزانية مخصصة لذلك.

وصار يقاس تقدم الدول، ومستوى التنمية البشرية فيها بمقدار اهتمامها بالقضية التعليمية، كواحد من أهم المؤشرات والمقاييس.

موقعية التعليم:

وإذا كان التعليم في الماضي يعتبر إضافة تكميلية لشخصية الإنسان، ووسيلة لتقدمه وتفوقه، فإنه في العصر الحاضر أصبح مقوماً أساسياً لحياة الإنسان، وطريقاً يكاد يكون وحيداً لبناء مستقبله.

فالإنسان في الماضي كان يمكنه العيش أمياً، وكان يجد فرص العمل المعتمد على قواه العضلية دون مستوى دراسي، وكان يستطيع إدارة شؤونه وترتيب حياته وإن لم يمتلك شهادة علمية، لكن واقع الحياة اليوم مختلف تماماً عن الماضي، كما هو واضح ومعلوم.

إذ لا مكان في حياة هذا العصر لغير المتعلم، بل ولا لغير المتقدم في التعليم. وذلك يضاعف من مسؤولية العائلة تجاه تعليم الأبناء، فأبى تساهل أو تفريط يعني ضياع مستقبلهم، بينما تمكنهم الرعاية والاهتمام التعليمي من شق طريق الحياة بقدرة ونجاح.

بين المدرسة والعائلة:

باعتبار أن الدولة تتحمل مسؤولية التعليم، وأن المدارس الحكومية

تستوعب الطلاب والطالبات، فإن الكثيرين من الآباء يرون أنفسهم غير معنيين بتعليم أبنائهم، ويلقون بكامل المسؤولية والعبء على المدرسة. وصحيح أن المدرسة بما تتوفر لها من إمكانيات، وباحتضانها للطالب والطالبة فترة طويلة من الوقت، فإنها تستطيع القيام بالدور الرئيس في العملية التعليمية، لكن ذلك لا يعني العائلة من تحمّل المسؤولية، ولا يغني عن دورها في الرعاية والاهتمام.

ومع بدء هذا العام الدراسي الجديد نشير إلى بعض الملاحظات والنقاط حول مسؤولية العائلة في مجال الدراسة والتعليم.

مسؤولية عائلية أولاً:

العائلة الواعية هي التي تعتبر نفسها جهة المسؤولية أولاً وبالذات عن تعليم أبنائهم، وأن تكون هي الاحرص على نجاحهم، والأكثر رعاية ومتابعة لهم. لأنها مخاطبة من الناحية الدينية بتحمل هذا الواجب، ولأن حبها لأبنائها وحرصها على مصلحتهم يجب أن يدفعها للاهتمام بتعليمهم، ولأنها التي ستجني ثمار نجاحهم أو تدفع ثمن إخفاقهم.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «وحق ولدك أن تعلم أنه منك ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره، وأنت مسؤول عما وليته من حسن الأدب، والدلالة على ربه عز وجل، والمعونة له على طاعته، فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه»^(١).

إن توفر فرص التعليم في المدارس الحكومية يساعد العائلة على تحمّل هذه المسؤولية تجاه الأولاد، ويرفع عن كاهلها الجزء الأكبر من

(١) زين العابدين: علي بن الحسين، رسالة الحقوق، ج ١ ص ٥٠٧، الطبعة الثالثة ١٩٩١ م، شرح السيد علي القبانجي، دار الأضواء، بيروت.

الأعباء، لكنها يجب أن تدرك دورها الأساس في إنجاز هذه المهمة. وإذا ما انعدمت فرصة التعليم الرسمي أمام الولد أو البنت في أي مرحلة من المراحل، أو تضاعل مستواها، فإن العائلة ينبغي أن تتحمل مسئوليتها، بأقصى ما تستطيع من جهد، لتأمين فرصة دراسية مناسبة عبر التعليم الخاص، والابتعاث إلى الخارج.

وهذا ما تقوم به الآن بعض العوائل المتمكنة والمهتمة بمستقبل أبنائها، لذلك انتشرت المدارس الأهلية، ونأمل أن يتاح المجال لتأسيس كليات وجامعات أهلية، لتساعد في معالجة هذا المشكل الكبير الذي يواجه الكثيرين من المتخرجين والمتخرجات، من مرحلة الثانوية، حيث لم تعد طاقة الجامعات الفعلية في البلاد قادرة على استيعابهم، أو تلبية رغبة الطامحين منهم في بعض التخصصات كالطب.

وبعض العوائل قد تستطيع الإنفاق على تعليم أبنائها أو ابتعاثهم للدراسات العليا، لكنها لا تعتبر ذلك من أولوياتها، بينما تنفق الكثير من المال على كماليات الحياة ومجالات الترف. وتكتفي بإلقاء اللوم على الأوضاع والظروف.

إن الاهتمام بتعليم الأبناء، والإنفاق على ذلك، هو من أهم الأولويات، وأفضل المصارف، وهو الاستثمار الصحيح، والادخار النافع.

التشجيع والمتابعة :

من الطبيعي أن لا يدرك أكثر الأبناء في فترة الطفولة والمراهقة أهمية الدراسة والتعليم، وأن يشغلوا باللعب واللهو على حساب برامجهم الدراسية، وخاصة في هذا العصر الذي توفرت فيه وسائل الترفيه والجذب، وأساليب الاستقطاب، وإثارة رغبات الشباب والمراهقين،

من برامج تليفزيونية، وقنوات بث مباشر، وأجهزة كومبيوتر، وشبكة إنترنت، ومجالات الألعاب الرياضية.. وما أشبه. وارتفعت ثقة الشباب في أنفسهم، وإصرارهم على تحقيق رغباتهم، وتكونت لهم تجمعاتهم وشللهم الخاصة، في هذا الوضع تحتاج العائلة إلى بذل جهود مكثفة لتشجيع الأبناء والبنات على الاهتمام بدراساتهم، والاجتهاد فيها.

وذلك عبر التحادث مع الأبناء وتوجيههم بأسلوب تربوي حكيم، يوضح لهم ما ينتظرهم من مسؤوليات مستقبلية، وما سيواجههم من تحديات الحياة، ويدفعهم للمواظبة والجد والاجتهاد.

كما أن إشعار الولد بالتقدير، وتقديم المكافآت المادية والمعنوية له، عندما يظهر التزاماً أو يحقق نجاحاً، تعتبر من أقوى الحوافز على اهتمامه الدراسي.

أما استخدام أسلوب الأمر والنهي فقط، أو ممارسة التعنيف والزجر دائماً، دون بذل جهد للإقناع، ودون وجود انفتاح مع الولد للتعرف على ما يدور في نفسه وذهنه، فذلك منهج خاطئ وأسلوب غير مجدي.

إن شعور الولد باهتمام أهله بتعليمه، ومتابعتهم لشؤونه الدراسية، يشكل دافعاً وحافزاً له نحو الاهتمام والاجتهاد.

ومشكلة بعض العوائل إهمال المتابعة لأوضاع أبنائهم الدراسية، بسبب انشغال الآباء والأمهات، أو لضعف وعيهم وإدراكهم للمسؤولية التربوية، أو لوجود مشاكل في العائلة، يدفع الأبناء ثمنها. ونسمع عن بعض الآباء أنه قد لا يعرف في أي مستوى يدرس ابنه، أو في أي مدرسة يتلقى تعليمه. ولا بد هنا من الإشادة بدور كثير من الأمهات اللاتي يبذلن جهوداً كبيرة في متابعة دراسة أبنائهن وبناتهن، إضافة إلى ما يتحملن من شؤون المنزل، ومهام الوظيفة في بعض الأحيان، أجزل

الله لهن الأجر والثواب، وأقر أعينهن بصلاح أبنائهن إن شاء الله.

الأجواء المساعدة:

الأجواء التي يعيشها الولد في البيت تؤثر وتنعكس إلى حد كبير على وضعه الدراسي، فالانسجام داخل العائلة، وتبادل الاحترام والتقدير، وجدية الوالدين، وتنظيم ظروف الحياة، كل ذلك يساعد الولد على الالتزام والاهتمام الدراسي.

بينما المشاكل العائلية، وسوء العلاقة بينه وبين الأهل، أو لا مبالاة الوالدين وتسيب شخصيتهما، أو الفوضى في أوضاع المنزل، كعادة السهر وتأخر وقت النوم، وعدم انتظام الوجبات، وتهيئة وسائل الراحة.. كل هذه الأمور قد تسبب في ضعف الاهتمام والجدية الدراسية عند الولد.

بين العائلة والمدرسة:

لكي تحقق العملية التربوية غرضها بنجاح، ولكي يستفيد الولد من فترة دراسته وينجز أهدافها، لا بد من تعاون وثيق، وتكامل في الأدوار، بين العائلة والمدرسة. ويتم ذلك عبر النقاط التالية:

١. متابعة سير الولد في المدرسة: بمعرفة مدى مواظبته على الحضور، والتزامه بأداء الواجبات، واستيعابه للمواد الدراسية، وعلاقته مع إدارة المدرسة والمدرسين وزملائه الطلاب.

وتستطيع العائلة معرفة كل ذلك بالتحادث مع الولد وتفقد أموره، وبالتواصل مع المدرسة، ففي كل مدرسة هناك مرشد طلابي معني برصد أوضاع الطلاب، كما ترحب الإدارة بأي تواصل من أولياء أمور الطلاب، وتضع برامج لذلك التواصل عبر تقارير المستوى الشهري

وغيره .

٢. مراقبة العملية التعليمية: حينما تنفق الدولة ميزانية ضخمة على التعليم، وتعيّن جهازاً كبيراً من الموظفين لتسيير أموره، فإنها تستهدف إنجاز العملية التعليمية على خير وجه. وواجب كل مواطن واع المساعدة على تحقيق هذا الهدف، وخاصة أولياء أمور الطلاب، بأن يهتموا بالإطلاع على مناهج التعليم، ويبدون تجاهها آراءهم ومقترحاتهم، وكذلك أنظمة التعليم، وأن يراقبوا سير الإدارة والتدريس في مدارس أبنائهم وبناتهم، فإذا ما وجدوا خللاً أو نقصاً، فعليهم المبادرة إلى التحرك والعمل من أجل معالجته وإصلاحه.

فقد يعاني بعض الطلاب من نقص أو مشكلة في مدرسته أو مع معلميه، ولا يعرف كيف يتصرف تجاه ذلك، فإما أن يستسلم ويسكت على الخطأ، أو يتصرف بشكل خاطئ تجاهه، وواجب الآباء التدخل لمعالجة مثل هذه الأمور، والسبل متاحة، وأبوابها مشرعة، بالتخاطب مع الجهات المعنية في المدرسة، أو الإدارة المرتبطة بها، أو حتى الجهات العليا إن استلزم الأمر. وقد أصبح المجال متاحاً لمناقشة أي رأي أو فكرة أو ملاحظة ترتبط بالعملية التعليمية حتى عبر وسائل الإعلام والصحافة.

ومن حسن الحظ صدور مجلة شهرية قيّمة من قبل وزارة المعارف بعنوان (المعرفة) تهتم بمناقشة قضايا التعليم بموضوعية وانفتاح.

إنه لا يصح السكوت على النواقص والأخطاء، ولا ينبغي الاكتفاء باجتراح المشاكل والسلبيات في المجالس الخاصة، بل المطلوب

استكشاف الطرق والسبل لمعالجة أي نقص أو مشكل، من أجل مصلحة المجتمع والوطن.

٣. التعاون مع المدرسة: المدرسة هي المكان الذي يقضي فيه الولد أكثر فترة من الوقت خارج منزله، وهي الجهة التي تمتلك أكبر تأثير على الولد بعد عائلته، وهي طريقه للنجاح والتقدم في الحياة.

لذا فعلى العائلة أن تهتم بمدرسة ابنها كما تهتم بالمنزل، وأن تساعد المدرسة على القيام بدورها ومهمتها، والتي تصب في مصلحة الولد بالنتيجة.

إن التبرع والدعم المالي من قبل الأهالي لمؤسسات التعليم، هو مؤشر على إدراك الأهالي لمسئوليتهم تجاه التعليم وتجاه أبنائهم، فيجب أن نجعل من مدارس أبنائنا أماكن جميلة مريحة تتوفر فيها كل الوسائل والمستلزمات. وصحيح أن هناك ميزانية من الدولة للتعليم، وأن الوزارة يجب أن تتحمل مسئوليتها في هذا المجال، لكننا أيضاً معنيون براحة أبنائنا ومصالحتهم، وليس حراماً ولا عيباً أن يتبرع المواطن ويسهم فيما يخدم البلاد والمجتمع، وإن لم يكن ذلك مطلوباً منه ومفروضاً عليه.

يحدث في بعض الأحيان مثلاً: أن يصاب جهاز التكييف في أحد الفصول بخلل فني، ويكون إصلاحه أو استبداله عبر القنوات الإدارية يحتاج إلى وقت طويل، ويبقى الأولاد أو البنات يعانون من الحر الشديد طيلة فترة الانتظار لإصلاح الخلل، بينما لو بادر أهاليهم أو بعضهم بشيء من العطاء، لو فروا على أبنائهم الكثير من التعب والعناء.. وأمثال ذلك من الحالات..

من جانب آخر فإن الدعم المعنوي من قبل الأهالي لإدارة المدرسة

ومدرسيها، بالتواصل معهم، وتقدير جهودهم وعطائهم، وبالتنسيق معهم لمتابعة مستوى الطالب ورفع كفاءته ومعالجة بعض ما قد يحصل من إشكاليات.. كل ذلك يعود بالنفع والفائدة على الأبناء ويخدم مسيرتهم العلمية.

وما يقوله بعض الآباء من أن هؤلاء موظفون يقومون بدورهم الوظيفي مقابل راتب من الدولة، فيه الكثير من التنكر والتجاهل لما يقوم به المدرسون من دور مهم خطير تجاه أبنائنا وبناتنا. والدافع الوظيفي لا يكفي وحده غالباً للإخلاص والاجتهاد في إنجاز هذه المهمة الحساسة، فينبغي تحفيز الدوافع المعنوية لدى المعلمين، وتواصل الأهالي واحترامهم، هو من محفزات العطاء الأكثر، والاهتمام الأكبر، لدى الإدارة والمعلمين في المدرسة.

كما يشعر المقصّرين منهم بالإحراج وإعادة النظر في ضعف مستوى أدائهم، ما داموا تحت المجهر، وعلى صلة بأولياء الأمور. إن وجود مجالس الآباء والمعلمين في المدارس يشكل إطاراً جيداً لتوثيق التواصل بين العائلة والمدرسة، إذا ما تفاعل الأهالي بحضورهم وعطائهم واهتمامهم بهذه المجالس.

تلك كانت بعض الملاحظات المتواضعة أقدمها بمناسبة بدء العام الدراسي الجديد، أسأل الله تعالى لطلابنا وطالباتنا التوفيق والنجاح، وأن يجعلهم من أهل الصلاح والإصلاح.

المرأة إذ تطالب بحقوقها [١]

كلمة الجمعة بتاريخ ١٩ جمادى الآخر ١٤٢٢ هـ

غالباً ما يكون اختلال موازين القوة بين الناس سبباً لحدوث العدوان والظلم، فالأقوياء يدفعهم غرورهم وطمعهم للاعتداء على الضعفاء.

لذلك تجتهد الشرائع والأنظمة في خلق قوة قانونية تنتصر للضعيف وتحمي حقوقه من بطش القوي.

لكن قوة القانون هذه على فرض وجودها لا تتحرك ذاتياً وبشكل آلي، لحماية أي حق ينتهك، بل تحتاج إلى إثارة واستنهاض، يضعها في موقع الحاجة لدورها.

وهنا يأتي دور المستضعف نفسه في أن يكون واعياً بحقوقه، مطالباً بها، مناضلاً من أجل حمايتها.

إن الكثيرين من الناس يجهلون ما لهم من حقوق بحسب إنسانيتهم، أو بحسب الموقع الذي يعيشونه في محيطهم، وهذا الجهل هو أرضية سكوتهم على الظلم، وتكفيهم مع ما يقع عليهم من عدوان مادي أو معنوي.

وقسم من الناس يدركون حقوقهم، ويتألمون لمصادرتها أو الانتقاص منها، لكنهم لا يجرؤون على المطالبة بها أو الدفاع عنها.

تربية الإسلام:

والإسلام الذي جاء لإعزاز الإنسان وإسعاده، ورفع شعار تكريمه وتبجيله، اعتمد منهجية البناء الذاتي للإنسان على أساس الوعي بمكانته وحقوقه، والثقة بالنفس في الدفاع عن مصالحه ومكاسبه.

وما آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الإنسان كخليفة لله في الأرض، وكسيد سخر الله تعالى له ما في الكون والحياة، وكمخلوق مميز في قدراته وطاقاته، وكمملك نافذ الأمر تتحقق له كل رغباته وشهواته في الجنة حينما يدخلها. ما هذه الآيات إلا تأسيس لوعي الإنسان بذاته، وإدراكه لقيمته ودوره.

ثم إن التشريعات الإسلامية، والتي ينبغي أن يفقهها الإنسان، ما هي إلا برامج وأحكام، تحدّد ماله وما عليه، وتبصّره بواجباته وحقوقه، وتضع الحدود والضوابط لردع أي ظلم أو اعتداء عليه.

ولا تقف منهجية الإسلام عند حد توعية الإنسان بذاته، وتشريع القوانين الحامية لحقوقه، بل توجهه التعاليم الإسلامية إلى ضرورة تمسكه بحقوقه، وحفاظه عليها، ودفاعه دونها.

فمن الصفات التي يركز عليها القرآن للمؤمنين أنهم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾^(١).

وفي آية أخرى، يشيد القرآن الكريم بانتصار المؤمنين لحقوقهم، ودفعهم الظلم عن أنفسهم، يقول تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾^(٢).

وعبر فقرات الدعاء والمناجاة يغرس الإمام زين العابدين علي ابن

(١) سورة الشورى الآية ٣٩.

(٢) سورة الشعراء الآية ٢٢٧.

الحسين عليه السلام في نفسية الإنسان المؤمن وذهنيته طموح الكرامة والعزة، وامتلاك القدرة والجرأة، للدفاع عن الذات والحقوق، يقول عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق: «اللهم صل على محمد وآله، واجعل لي يداً على من ظلمني، ولساناً على من خصمني، وظفراً بمن عاندني، وهب لي مكرراً على من كادني، وقدرة على من اضطهمني، وتكديماً لمن غصبني، وسلامة ممن توعدني»^(١).

وحينما يشجع الإسلام الإنسان على المطالبة بحقوقه والدفاع عنها، وعدم السكوت على الظلم والعدوان، فإنه يستهدف عدم إتاحة الفرصة للظالمين المعتدين، والذين إذا لم يواجهوا ويؤردوا فسيستمررون في ممارساتهم العدوانية.

أما الدعوة إلى الصفح والعفو والتسامح فهي أخلاقيات يأمر بها الإسلام ويشجع عليها، لكنها لا تعني السكوت عن الحق، ولا الخنوع للباطل والظلم، ومورد استخدامها هو مع الأنداد والضعفاء، وليس أمام المعتدين الأقوياء، والعفو إنما يصدق عند القدرة على أخذ الحق.

استضعاف المرأة

المرأة شقيقة الرجل، وشريكته في الحياة من بدايتها، ولا يستغني عنها كما لا تستغني عنه، فوجود أحدهما يعتمد على وجود الآخر، لأن التكاثر واستمرار النسل البشري يحتاج إلى كليهما، وإدارة شؤون الحياة وقضايا العيش لا تنتظم دون تكاملهما.

لكن حكمة الحياة اقتضت أن تظهر في الرجل حالة القوة والخشونة، وأن تتجلى في المرأة حالة العطف والحنان، هذا العطف والحنان الذي

(١) الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق، ج ١ ص ١١١، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، تحقيق ونشر مؤسسة الإمام المهدي عليه السلام، قم - إيران.

يحتاج إليه الرجل حين يكون جنيناً في أحشاء المرأة، ورضيعاً على صدرها، ووليداً في حجرها، وزوجاً تبذل له حبها.

وكان يجب أن يقدر الرجل دائماً للمرأة هذا الدور العظيم، لكنه بدلاً من ذلك غالباً ما يستضعفها، ويستغل طبيعتها اللينة الطيبة، ويتعامل معها من موقع قوة مهيمنة، حدث ذلك في ماضي الزمان ولا زال مستمراً إلى حاضره، فقد كانت إنسانية المرأة يوماً ما محل نقاش وجدال، بين الفلاسفة الرجال: هل أنهار روح أم لا؟ وهل روحها إنسانية أم لا؟ وعلى فرض إنسانيتها هل هي كالرجل؟ وهل خلقت لذاتها أم لخدمة الرجل وإمتاعه؟

وكان يتعامل معها في بعض الأزمان الغابرة كرقيق يباع ويُشترى، أو كسلعة تقتنى وتمتلك، ويُنظر إليها كمصدر للشروخ والخطيئات، وفي بعض الأحيان كان يُستكثر عليها الحق في الحياة والوجود، فتوَاد وتدفن حيّة، كما يُنقل ذلك عن عرب الجاهلية مثلاً، وأشار إليه القرآن الكريم بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ. يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (١).

في ظل الإسلام:

ومع أن الإسلام أعاد للمرأة اعتبارها، وأقر لها بدورها المميز، وشأنها العظيم، وحرّم أي تنكر أو تجاهل لحقوقها ومكانتها، وأعلن على لسان النبي محمد ﷺ الجنة على عظمتها وخطرها هي تحت قدم المرأة

الأم فقد روى أنس عنه رضي الله عنه أنه قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات»^(١)، وفي حديث آخر عنه رضي الله عنه «الزمها فإن عند رجليها الجنة»^(٢).

وعاشت المرأة في ظل الإسلام واقع العزة والكرامة، لكن ذلك لم يدم طويلاً، حيث عادت رواسب الجاهلية وبقياء آثارها إلى الظهور، وصار يُنظر إلى المرأة نظرة دونية، وكأنها إنسان من الدرجة الثانية، وتعرضت حقوقها للامتهان والانتهاك، وأسوأ ما في الأمر هو تبرير وتسويغ ذلك الظلم والعدوان من الناحية الدينية الشرعية، باختلاق نصوص موضوعة على لسان الشرع تارة، وبتحريف مقصد بعض النصوص تارة أخرى. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾^(٣).

المرأة المعاصرة:

رغم أن المرأة المعاصرة قد حققت تقدماً جيداً في اكتساب بعض حقوقها، في العديد من المجتمعات، وأصبحت تشارك في ميادين السياسة والاقتصاد والعلم، إلا أنها من ناحية أخرى تعيش معاناة الاستغلال لأنوثتها، والتسليع لجمالها، وعادت في ظل الحضارة المادية فريسة سهلة لشهوات الرجل، وأداة لإمتاعه ولذته، تقام لها أسواق النخاسة تحت عنوان انتخاب ملكات الجمال، وتُدفع إلى التعري واستعراض المفاتن باسم التحرر، وتبتذل صورها الفاضحة كأدوات دعاية وإعلان للجذب والاستقطاب، وتدفع هي ثمن كل ذلك بإهدار إنسانيتها وكرامتها، ونزعات الأمومة العميقة لديها، وتصبح عرضة

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال، حديث رقم ٤٥٤٣٩، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.

(٢) المصدر السابق، حديث رقم ١١٧٦٠.

(٣) سورة الأنعام الآية ٩٣.

للاغتصاب والابتزاز والاستغلال.

أفادت دراسة أوروبية نشرت في (ستراسبورغ) بمناسبة اليوم العالمي للمرأة سنة ١٩٩٩م: أن امرأة من كل خمس نساء تقع ضحية أعمال عنف مرتبطة بجنسها في دول مجلس أوروبا. وحسب الدراسة التي أجراها مجلس أوروبا فإن العنف يطاول النساء من كل الأعمار، وكل الطبقات، وكل الثقافات. وقالت (إيفيت رودي) رئيسة اللجنة التابعة للجمعية البرلمانية لدول أوروبا: في وقت وصلنا فيه إلى فجر الألفية الثالثة ترجعنا أعمال العنف هذه إلى العصر الحجري^(١).

وفي مؤتمر عقد في مدينة الإسكندرية بمصر بعنوان: واقع المرأة المصرية، نظمتها الجمعية المصرية لتنظيم الأسرة بالتعاون مع وكالة التنمية الدولية، وتحدثت فيه الدكتورة عائدة سيف الله عن العنف ضد المرأة، فقالت: إن الإحصاءات تؤكد أن ثلثي النساء في مصر يتعرضن للضرب من الأزواج، وأن ٣٠٪ من العاملات يتعرضن لتحرش جنسي^(٢).

وكشفت اللجنة العدلية التابعة لمجلس الاتحاد الأوروبي في ستراسبورغ أنها بصدد إعداد مسودة قانون خاص بمكافحة تجارة واسترقاق النساء في بلدان الاتحاد الأوروبي، حيث يشير تقرير الاتحاد الأوروبي بالأرقام إلى أن حوالي نصف مليون امرأة تم استرقاقها وإجبارها على ممارسة الدعارة في بلدان أوروبا الغربية عام ١٩٩٥م. وكانت شرطة الإجمام الألمانية كشفت في تقريرها السنوي عام ١٩٩٥م حول تجارة العبيد واستعباد القاصرات في الدعارة عن ازدهار مذهل لهذا العمل الإجرامي الجديد. وقدرت الناطقة الرسمية باسم الشرطة عدد النساء العاملات قسراً في الدعارة في ولاية شمال الراين ويستغاليا

(١) الحياة: جريدة يومية، لندن، ٦ مارس ١٩٩٩م.

(٢) الحياة: جريدة يومية، لندن، ٨ مايو ١٩٩٩م.

وحدها بـ ١٠ آلاف امرأة تشكل النسوة القادمت من أوروبا الشرقية حوالي ٩٠٪ منهن^(١).

وفي أمريكا تشير الإحصاءات إلى أن هناك نحو ١, ٢ مليون امرأة يقعن في برائن المغتصبين سنوياً في الولايات المتحدة الأمريكية، أما عدد وقائع الاغتصاب فترتفع إلى ٩, ٥ ملايين محاولة تمر بها النساء الأمريكيات خلال العام الواحد، وتؤكد الأرقام الأمريكية أيضاً أن واحدة من كل ست نساء مررن بتجربة اغتصاب، كما أن نحو ستة ملايين امرأة أمريكية يتعرضن لمحاولة التحرش الجنسي سنوياً^(٢).

في المجتمعات الإسلامية :

يترنح وضع المرأة في مجتمعاتنا الإسلامية بين واقعين سيئين: واقع الانجراف خلف النموذج الغربي للمرأة في بعده السلبي، حيث الابتذال والسفور، واستعراض المفاتن، واللهث وراء موضات الإثارة والاستهلاك، على حساب عفة المرأة وكرامتها، وعلى حساب دورها الإنساني الخطير.

وهناك واقع التخلف والجمود، الذي يشل حركة المرأة، ويحجم دورها، ويصادر الكثير من حقوقها المشروعة، بحجة الحفاظ على العفة والحجاب، وبمبررات زائفة تنسب إلى الدين.

ينقل الشيخ محمد الغزالي عن خطيب مشهور وقف يصيح بأسى وغضب قائلاً: رحم الله أياماً كانت المرأة فيها لا تخرج إلا ثلاث مرات: من بطن أمها إلى العالم، ومن بيت أبيها إلى الزوج، ومن بيت زوجها

(١) الشرق الأوسط: جريدة يومية، لندن، ٢٨ / ٤ / ١٩٩٧ م.

(٢) لها: مجلة أسبوعية، لندن، ص ٤٤، عدد ٥١ بتاريخ ١٢ / ٩ / ٢٠٠١ م.

إلى القبر! (١).

ويقول الشيخ يوسف القرضاوي: كنت أقرأ في كتاب (محاضرات الأدباء) للراغب الأصفهاني، فوجدته عقد فصلاً عن البنات بعنوان (فائدة موتها وتمنيها) ابتدأه بقوله: قال رسول الله ﷺ: «نعم الختن القبر (وقال): دفن البنات من المكرمات» والحديثان من الأحاديث الموضوعية المختلفة على رسول الإسلام (٢).

ولا يزال هناك من يرى: أن أفضل شيء للمرأة أن لا ترى الرجل ولا الرجل يراها، استناداً إلى حديث غير معتمد نقل عن السيدة الزهراء (ع). وأن الأمية مستحبة للمرأة لورود النهي عن تعليمها الكتابة. وأنه لا يجوز لها أن تشارك في الانتخابات بأن تنتخب أو تُنتخب، ولا أن تقود وسائل المواصلات الحديثة، وأن صوتها عورة لا تُسمعه الرجل الأجنبي إلا للضرورة، إلى غير ذلك من الآراء التي لا تصمد أمام البحث العلمي الصحيح، وتنفر المرأة من الإسلام، وتشرع للتمييز ضدها.

وعلى الصعيد العملي يجري استغلال الكثير من الأحكام الشرعية من قبل بعض الرجال على حساب كرامة المرأة وحقوقها الإنسانية، فبناء على ما يراه كثير من الفقهاء من ثبوت ولاية الأب والجد على الفتاة البكر في مسألة زواجها، واشتراط إذنه وموافقته، فإن بعض الآباء يسيئون استخدام هذا الحق بشكل يؤدي إلى عضل زواج البنت، ومنعها من الخاطب الكفء الذي ترغب فيه، وذلك حرام من الناحية الشرعية، حيث تسقط ولاية الولي حينما يمارس الأعضاء بحقها.

وبعض الأزواج يسيئون التعامل مع زوجاتهم استغلالاً لمبدأ قوامة

(١) أبو شقة: عبد الحليم، تحرير المرأة في عصر الرسالة، ج ١ ص ٥.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣.

الزوج، والحال أن قوامة الزوج على زوجته هي في إطار المعروف ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾^(١)، ﴿فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَانٍ﴾^(٢).

وبعضهم يستغل حق الطلاق والذي جعله الشارع بيده، لإذلال المرأة وابتزازها، وإبقائها معلقة، أو تخضع له، بإعطائه أي مبلغ يريد، مع أنه لا ضرر ولا ضرار في الإسلام، ومع تخويل الإسلام لحاكم الشرع أن يستخدم صلاحيته في رفع الضرر وتطبيق المرأة، ضمن حيثيات نص عليها الفقهاء.

أمام هذين الواقعين، التقليد للنموذج الغربي، وأسر حالة التخلف، تواجه المرأة امتحاناً صعباً لو عيها وإرادتها.

فكيف تكتشف طريق الخلاص؟

وكيف تهتدي إلى الخيار الصحيح؟

إن العودة إلى مفاهيم الإسلام الصحيحة، وتشريعاته الهادية، وتعاليمه القيمة، هو سبيل المرأة لتحرير ذاتها، وتحصيل حقوقها الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾^(٣).

(١) سورة النساء الآية ١٩.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٩.

(٣) سورة البقرة الآية ١٢٠.

المرأة إذ تطالب بحقوقها [٢]

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٦ جمادى الآخر ١٤٢٢هـ

كيف تعالج المرأة في مجتمعاتنا هذا التناقض والتباين، بين ما تسمعه عن الإسلام من إنصاف للمرأة، وإقرار لحقوقها، وبين ما تعيشه في الواقع الاجتماعي المعنون بالإسلام من تجاهل وتهميش وظلم؟ إن ذلك يتطلب من المرأة أن تفتح على الإسلام مباشرة، بقراءته في مصادره ونبأه الرئيسية الصافية، المتمثلة في القرآن الكريم، والسنة المطهرة الشريفة، وفي حياة المسلمين الأوائل، وأن تتجاوز حجب التفسيرات والإضافات والتراكمات، التي حصلت في عصور التخلف المتأخرة، من تاريخ الفكر والفقهاء الإسلامي.

لقد سررت جداً، حينما قرأت في إحدى المجلات: أن امرأة مسلمة معاصرة، أنهت كتابة تفسير كامل للقرآن الكريم، وطبعته تحت عنوان (المبصر بنور القرآن) في عشرة مجلدات، يضم كل واحد منها تفسير ثلاثة أجزاء من كتاب الله عز وجل، هي نائلة هاشم صبري من فلسطين، والتي أشارت إلى أن هناك من حاول تشيبتها وثني عزيمتها عن الاستمرار في كتابة التفسير، إلا أن صدور الأجزاء الأولى منه أثبت لهم جدارتها ونجاحها في تقديم عمل جيد متميز.^(١)

ولعل سبب تشيبتهم لها في البداية استكثارهم عليها كامرأة أن تقوم

(١) الأسرة: مجلة شهرية، الكويت، عدد ٨٥، ربيع الآخر ١٤٢١هـ.

بهذه المهمة التي طالما احتكرها الرجال.

للأسف فإنني لم أطلع بعد على هذا التفسير، لكنني مسرور لهذا التوجه الجميل، بانفتاح المرأة على المصدر الأساس لدين الله، وأتمنى حصول حركة فكرية فقهية أصيلة في أوساط بنات الإسلام، ليضمن بدورهن في تجلية مفاهيم الدين، ونشر تعاليمه وأحكامه، بلغة عصرية حديثة، وبمنهجية علمية واقعية. إننا في انتظار المرأة الفقيهة التي تكتب دورة كاملة في الفقه الإسلامي.

إن انفتاح المرأة على الدين في منابعه النقية، سيكشف لها عمق الظلم الذي مورس بحقها باسم الدين، وهو ظلم للدين نفسه أيضاً، وسيوضح أمامها مدى عظمة الإسلام وإنسانيته، وتقديره لمكانة المرأة ودورها في الحياة.

تفعيل برامج الإسلام:

بيد أن إدراك المرأة لمفاهيم الإسلام وأحكامه، ووعيها بحقوقها ضمن تشريعاته وتعاليمه، ما هي إلا خطوة أولى، والتي يجب أن ترافقها خطوة أخرى، باتجاه تفعيل هذه البرامج الإسلامية عملياً، وتغيير واقع المرأة الاجتماعي على ضوءها.

وذلك يقتضي أن تتوفر المرأة المسلمة على الثقة بذاتها، وأن تتحلى بالجرأة والإقدام للمطالبة بحقوقها، في إطار تعاليم الإسلام وآدابه.

ربما يرفض أكثر الرجال تشجيع المرأة على الثقة بالذات والمطالبة بالحقوق، ويرون ذلك بمثابة دعوة لها إلى التمرد، وتخريباً لطبيعة شخصيتها الناعمة اللينة.

بيد أن القضية أخطر وأعمق من ذلك بكثير، إنها ترتبط بتحد

صارخ تواجهه مجتمعاتنا أمام النموذج الغربي، والذي يُسوَّق كمشروع إنقاذ للمرأة، ويستقطبها باعتباره الطريق إلى تحرير شخصيتها، وإعزاز موقعيتها في الحياة.

فإذا وجدت المرأة نفسها أمام خيارين: السكوت على واقع التخلف والتهميش الذي تعيشه، أو الاستجابة لدعوات التحرر والانطلاق، وفق ما يطرحه النموذج الغربي، فإن هذا الخيار الثاني سيكون الأقدر على الجذب والاستقطاب.

والأهم من ذلك مسؤوليتنا الشرعية في صدق الالتزام بمبادئ الإسلام وتعاليمه، كما يريدنا الله تعالى، لا أن نحوِّرها ونكيفها وفق مصلحة هذه الشريحة على حساب شريحة أخرى.

فلا يصح للرجال أن يدافعوا عن واقع خاطئ، وأن يكتموا أحكام الشرع ويستروها، من أجل أن يكونوا في موقع أقوى تجاه المرأة.

علينا أن نستنطق الإسلام نفسه، لنرى موقعية المرأة ضمن مشروعه الاجتماعي، والمدى الذي يتيحه لها من أجل الدفاع عن مصالحها، ونيل حقوقها.

وعلى هدي النصوص الدينية، ووقائع العصر النبوي، وسيرة قادة الأمة في العهد الإسلامي الأول، يمكننا أن نتبين رؤية الإسلام وتوجيهه في هذا المجال، هل يفضل للمرأة أن تسكت على واقعها إذا كان متخلفاً، وأن تخضع للوضع المعاش على حساب كرامتها وحقوقها؟ أم يفسح لها مجال الطموح للتغيير، ويشجعها على التطلع لتحقيق مصالحها المادية والمعنوية؟

أمامنا في هذا البحث بعض النصوص والوقائع التي يمكن الاستضاءة بها في معالجة الموضوع.

المجادلة: مطالبة بتشريع:

فطرة الإنسان، وثقته بعدالة الشارع، وكمال التشريع الإلهي، تدفعه للبحث عن الحل والعلاج، لأي معضلة تواجهه، أو محنة يتعرض لها في حياته الاجتماعية.

فإذا ما وجد فراغاً تشريعياً في قضية من القضايا، عليه أن يعود إلى مصادر التشريع جاداً مجتهداً، للحصول على الحكم المطلوب لملاءمة ذلك الفراغ، ومعالجة ذلك المعضل.

يتحدث القرآن الكريم عن امرأة واجهت هذا التحدي في بدء تكوين المجتمع الإسلامي، حيث كانت لا تزال بعض الأعراف والتقاليد الجاهلية حاكمة سائدة، لأن التشريع كان يتكامل تدريجياً.

رأت هذه المرأة أن الحكم السائد في القضية التي واجهتها يضر بمصلحتها، ويهدد مستقبلها ومستقبل عائلتها بالضياع والدمار، فلم تسكت على ذلك، ولم تقبل الخضوع لعرف وتقليد يلحق بها الظلم والأذى، فانطلقت نحو جهة التشريع - النبي محمد ﷺ - تعلن معارضتها ورفضها القبول بالعرف السائد، وتطالبه بتشريع عادل يعالج مشكلتها وأمثالها بواقعية وإنصاف، وحينما اعتذر لها النبي ﷺ بأنه بعد لم ينزل عليه وحى حول الموضوع، لم يقنعها ذلك، ودخلت معه في نقاش وجدال، تلحّ وتضغط لجهة الإسراع في وضع حل صحيح.

لم ينهرها النبي ﷺ، ولم يغضب من جدالها وإصرارها، ولا استنكر عليها المطالبة والشكوى لحماية مصالحها، بل إن الله تعالى أشاد بموقفها وخلّده بأن جعله عنواناً لسورة كاملة في القرآن الكريم، تبدأ بالحديث عن المشكلة التي طرحتها تلك المرأة، وتضع التشريع الإلهي لمعالجتها، وهي السورة رقم ٥٨ واسمها سورة (المجادلة) بفتح الدال

إشارة إلى حادثة الجدل، أو بكسرها وهي القراءة المعروفة إشارة إلى المرأة صاحبة الموقف.

تبدأ السورة بقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١).

قال أكثر المفسرين: إن تلك المرأة صحابية من الأنصار اسمها (خولة بنت ثعلبة بن مالك الخزرجية) وزوجها أوس بن الصامت، وكان شيخاً كبيراً، قد ساء خلقه، فدخل عليها يوماً، فراجعته بشيء، فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، وكان الرجل في الجاهلية إذا قال ذلك لامرأته حرمت عليه، ويسمى ظهاراً، ولأنه أول حادث من نوعه في المجتمع الإسلامي، ولم يكن قد نزل حوله تشريع، فإن الحكم السابق يبقى ساري المفعول في عرف المجتمع.

ورغم أن الزوج قد تراجع عن كلامه، لكن التراجع لا يجدي وقد انتهت إلى الأبد العلاقة الزوجية بينه وبين زوجته.

فأتت الزوجة (خولة) رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله إن أوساً تزوجني وأنا شابة مرغوب فيّ، فلما خلا سنّي، ونثرت بطني - أي كثر ولدي - جعلني عليه كأمه، وتركني إلى غير أحد، فإن كنت تجدلي رخصة يا رسول الله، تنعشني بها وإياه فحدثني بها؟

قال ﷺ: «والله ما أمرت في شأنك بشيء حتى الآن».

وفي رواية: ما أراك إلا قد حرمت عليه.

قالت: ما ذكر طلاقاً. وجادلت رسول الله ﷺ مراراً ثم قالت: اللهم

إني أشكو إليك شدة وحدتي، وما يشق علي من فراقه.

وفي رواية قالت: أشكو إلى الله تعالى فاقتي، وشدة حالي، وإن لي صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاؤا!.

وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول: اللهم إني أشكو إليك، اللهم فأنزل على لسان نبيك. وما برحت حتى نزل القرآن فيها. فقال ﷺ: يا خولة ابشري. قالت: خيراً؟ فقرأ ﷺ عليها أوائل آيات سورة المجادلة، والتي تتضمن تشريعاً جديداً، يتيح للزوج التراجع عن تحريم زوجته عليه بتشبيهه لها بأمه، شريطة أن يقوم بالتكفير عن ذلك، بعق إنسان مستعبد، فإن لم يستطع يصوم شهرين متتابعين، فإن لم يكن قادراً يطعم ستين مسكيناً. وعند ذلك يستعيد علاقته الزوجية. يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾. (١)

أصبحت هذه المرأة الجريئة التي طالبت بتشريع يحمي حقوقها ومصالحها، ذات موقعية واحترام في وسط المسلمين، بعد أن خلد موقفها الذكر الحكيم.

ينقل السيد الألوسي في تفسيره أنه «كان عمر ﷺ يكرمها إذا دخلت عليه، ويقول: قد سمع الله تعالى لها، وروى ابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات أنها لقيته ﷺ، وهو يسير مع الناس، فاستوقفته فوقف لها، ودنا منها، وأصغى إليها، ووضع يده على منكبيها، حتى قضت حاجتها وانصرفت، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين حبست رجال

قريش على هذه العجوز؟ قال: ويحك أتدري من هذه؟ قال: لا، قال: هذه امرأة سمع الله تعالى شكواها من فوق سبع سموات، هذه خولة بنت ثعلبة، والله لو لم تنصرف حتى الليل ما انصرفت حتى تقضي حاجتها. وفي رواية للبخاري في تاريخه: أنها قالت: قف يا عمر. فوقف فأغلظت له القول. فقال رجل: يا أمير المؤمنين ما رأيت كالיום! فقال: وما يمنعني أن أستمع إليها وهي التي استمع الله تعالى لها فأنزل فيها ما أنزل»^(١).

وجميل ما قاله الشيخ ابن عاشور عند تفسيره لسورة المجادلة: (افتتحت آيات أحكام الظهر بذكر سبب نزولها، تنويهاً بالمرأة التي وجّهت شكواها إلى الله تعالى، بأنها لم تقصّر في طلب العدل في حقها وحق بنيتها. ولم ترض بعنجهية زوجها وابتداره إلى ما ينشر عقد عائلته دون تبصّر ولا روية، وتعليماً لنساء الأمة الإسلامية ورجالها واجب الذود عن مصالحها.)^(٢)

يطالبين بحقهن في التعلم:

فرص العلم والمعرفة في مختلف مستوياتها، يجب أن تتاح للنساء كما للرجال على حد سواء، وإذا ما لاحظت المرأة نقصاً أو غبناً لها في هذا المجال، فعليها أن لا تسكت على ذلك، بل تطالب بحقها في كسب المعرفة والعلم. وهذا ما حدث في عهد رسول الله ﷺ أقر لهن بمشروعية طلبهن، واستجاب لرغبتهن.

جاء في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري: قالت النساء

(١) الألويسي البغدادي: السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن، ج ٢٨ ص ٣، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) ابن عاشور: الشيخ محمد الطاهر، التحرير والتنوير، ج ٢٨ ص ٦ الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، مؤسسة التاريخ، بيروت.

للنبي ﷺ غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يوماً من نفسك. فوعدهن يوماً لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن. (١)

الحق في اختيار الزوج:

حينما يسيء الأب استخدام صلاحية ولايته على ابنته، فيمنعها من الزواج من كفاء ترغب الاقتران به، ويعضل زواجها، فإن الشرع يسقط ولاية الأب حينئذٍ. وكذلك لو فرض الأب على البنت زوجاً لا تريده هي، فإن بإمكانها رفضه، وخاصة إذا كان غير كفاء لها.

وتنقل مصادر الحديث النبوي: أن فتاة زوجها أبوها من ابن عمها وهي كارهة، فانطلقت تعلن رفضها عند رسول الله ﷺ، متمسكة بحقها في اختيار شريك الحياة، فأقر الرسول ﷺ طلبها، وأعطاهما الحق في إمضاء الزواج أو إبطاله، وحين حصل الإقرار بحقها، وافقت على إمضاء الزواج، وأعلنت أن هدفها من الرفض إثبات حق المرأة في الاختيار.

جاء في سنن النسائي عن عائشة: أن فتاة دخلت عليها فقالت: إن أبي زوجني ابن أخيه ليرفع بي خيسسته، وأنا كارهة. قالت: أجلسي حتى يأتي النبي ﷺ، فجاء رسول الله ﷺ فأخبرته. فأرسل إلى أبيها فدعاه، فجعل الأمر إليها، فقالت: يا رسول الله قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن أعلم للنساء من الأمر شيء؟ (٢)

تدافع عن حقوقها الاقتصادية:

حينما تصدر أي جهة قيادية في المجتمع قراراً ينال من مصالح المرأة المادية، أو يمسّ بشيء من حقوقها الاقتصادية، التي أثبتتها لها

(١) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ١٠١، كتاب العلم، دار الكتب العلمية، بيروت..

(٢) النسائي: أحمد بن شعيب، سنن النسائي، كتاب النكاح، ج ٣ ص ٨٧، دار القلم، بيروت.

الإسلام، فإن عليها أن تحتج وتعرض على ذلك، انتصاراً لحقها، ودفاعاً عن أحكام الشرع.

هكذا يحدثنا التاريخ الإسلامي عن امرأة مسلمة أعلنت معارضتها لقرار أصدره الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، لتحديد مهور النساء، فراجع أمام اعتراضها، وسحب قراره، معترفاً بخطئه في ذلك.

نقل ابن تيمية في كتابه (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)^(١) والزحيلي في (التفسير المنير) أنه: خطب عمر رضي الله عنه فقال: ألا لا تغالوا في صدقات النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا أو تقوى عند الله، لكان أولاكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما أصدق قط امرأة من نسائه ولا بناته فوق اثنتي عشرة أوقية. فقامت إليه امرأة فقالت: يا عمر، يعطينا الله وتحرمنا؟ أليس الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأْتَيْتُمُ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾^(٢)؟

فقال عمر: أصابت امرأة وأخطأ عمر. وفي رواية: فأطرق عمر ثم قال: كل الناس أफقه منك يا عمر! وفي أخرى: امرأة أصابت ورجل أخطأ. وترك الإنكار.^(٣)

حق الانفصال عن الزوج:

صحيح أن الإسلام قد جعل الطلاق وإنهاء العلاقة الزوجية بيد الرجل دون المرأة، لكن الزوج إذا قصر في القيام بواجبه تجاه زوجته، أو كان مسيئاً لها فلا يفرض عليها الإسلام أن تعيش الجحيم معه، أو

(١) ابن تيمية: أحمد الحرائي، رفع الملام، ص ٢٧، الطبعة الخامسة ١٣٩٦هـ، الجامعة الإسلامية، المدينة.

(٢) سورة النساء آية ٢٠.

(٣) الزحيلي: الدكتور وهبة، التفسير المنير، ص ٣٠٦ ج ٤، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

تخضع لإذلاله وابتزازه، ولا يرضى الإسلام أن تصبح معلقة، لا تتمتع بحقوقها الزوجية، ولا تشعر باستقلاليتها.

لذلك جعل من حقها أن ترفع أمرها إلى الحاكم الشرعي، والذي يلزم زوجها بالقيام بوظائفه تجاهها كزوج، أو يطلق سراحها، فإذا لم يستجب الزوج، ورغبت المرأة في الانفصال، طلقها الحاكم الشرعي رغماً عنه.

يقول الفقهاء: «إذا امتنع الزوج عن الإنفاق مع قدرته عليه فرفعت الزوجة أمرها إلى الحاكم الشرعي، أبلغه الحاكم بلزوم أحد الأمرين عليه، إما الإنفاق أو الطلاق، فإن امتنع عن الأمرين ولم يمكن الإنفاق عليها من ماله - ولو بيع عقاره إذا توقف عليه - ولا إجباره على الطلاق جاز للحاكم أن يطلقها بطلبها، وإذا كان الزوج غير قادر على الإنفاق على زوجته وجب عليه طلاقها إذا لم ترض بالصبر معه، فإذا لم يفعل جاز لها أن ترفع أمرها إلى الحاكم الشرعي فيأمر الزوج بالطلاق، فإن امتنع وتعذر إجباره عليه طلقها الحاكم.

إذا هجر زوجته هجراً كلياً فصارت كالمعلقة لا هي ذات زوج ولا هي مطلقة، جاز لها رفع أمرها إلى الحاكم الشرعي، فيلزم الزوج بأحد الأمرين: إما العدول عن هجرها وجعلها كالمعلقة، أو تسريحها لتتمكن من الزواج من رجل آخر، فإذا امتنع منهما جاز للحاكم - بعد استنفاد كل الوسائل المشروعة لإجباره حتى الحبس لو أمكنه - أن يطلقها بطلبها ذلك. ويقع الطلاق بائناً أو رجعيّاً حسب اختلاف الموارد، ولا فرق فيما ذكر بين بذل الزوج نفقتها وعدمه.

إذا كان الزوج يؤذي زوجته ويشاكسها بغير وجه شرعي، جاز لها رفع أمرها إلى الحاكم الشرعي ليمنعه من الإيذاء والظلم ويؤزمه

بالمعاشرة معها بالمعروف، فإن نفع وإلاّ عزّره بما يراه، فإن لم ينفع أيضاً كان لها المطالبة بالطلاق، فإن امتنع منه ولم يمكن إجباره عليه طلقها الحاكم الشرعي^(١).

تلك كانت بعض النماذج والأمثلة من اهتمام الإسلام بواقع المرأة، وحرصه على حفظ كرامتها ومكانتها، ووضعها للبرامج والتشريعات التي تتيح لها المطالبة بحقوقها، والدفاع عن مصالحها.

(١) السيستاني: السيد علي الحسيني، منهاج الصالحين، المعاملات ٢، كتاب النكاح، مسألة رقم ٣٦٠-٣٥٨-٣٥٦.

علي والتربية النبوية

كلمة الجمعة بتاريخ ١١ رجب ١٤٢٢هـ

تبليغ الرسالة الإلهية، وإنقاذ البشرية من الجاهلية والشرك وإخراجهم من الظلمات إلى النور، مهمة شاقة، ومسؤولية ضخمة، وذلك لصعوبة تغيير التوجهات والعادات الموروثة المتجذرة في نفوس الناس وسلوكهم، خاصة حينما تأخذ صفة القداسة والالتزام الديني. كما أن كل واقع اجتماعي عادة ما تحكمه مراكز قوى، تجد نفسها معنية بحمايته، والحفاظ عليه، تجاه أي محاولة للتغيير أو التطوير، قد تضر بسيطرتها وهيمنتها، أو تؤثر على مصالحها.

هكذا يجد الأنبياء أنفسهم في مواجهة الواقع السائد المألوف، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا لَآيَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾^(١). وفي مواجهة الزعامات الاجتماعية المتشبثة بمواقعها، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾^(٢).

ومع أن الله سبحانه وتعالى يختار لمهام النبوة والرسالة الأجدر والأكفأ ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ

(١) سورة المائدة آية ١٠٤.

(٢) سورة سبأ آية ٣٤.

عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١﴾. إلا أن شدة المواجهة وعنفها كثيراً ما يعرقل مسيرة الدعوة، ويحدّ من إمكانية نجاحها.

وكلما كان التخلف والشرك أكثر تجذراً في المجتمع، ومراكز القوى أعمق نفوذاً، أصبحت مهمة النبي أكثر مشقة وصعوبة. واستلزمت جهوداً أكبر، وتضحيات أوسع.

النبي موسى يطلب وزيراً:

وجد النبي موسى ﷺ نفسه - حينما بعثه الله تعالى بالنبوة - أمام مهمة عظيمة صعبة، حيث يواجه حاكماً مستبداً ادعى الألوهية لنفسه، وتمركزت في يديه أسباب القوة والغلبة، هو فرعون، من ناحية أخرى فإن مجتمع بني إسرائيل الذي ينتمي إليه موسى، والذي يطمح لإنقاذه وتخليصه من الاستضعاف والاضطهاد، قد نخر فيه التخلف، وتكاثرت في وسطه السلبيات ونقاط الضعف، فلم يعد سهل الانقياد.

لذلك اتجه النبي موسى ﷺ إلى الله تعالى طالباً منه دعمه ورفده بوزير مساعد، يعينه على تحمل هذه المسؤولية الخطيرة الجسيمة ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي. هَارُونَ أَخِي. أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي. وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾^(٢) قال الشوكاني: أي يارب أحكم به قوتي، واجعله شريكاً في أمر الرسالة. والأزر القوة، يقال: آزره: أي قواه.^(٣) ووضح بأن تحديد اختيار الوزير من أهله، لما في ذلك من استثمار لعلاقة النسب والقربان في توثيق الإخلاص والتعاون، كما أن معرفته بتوفر المواصفات القيادية في شخصية أخيه هارون، دفعته لترشيحه لهذا الدور الرسالي.

(١) سورة الأنعام ايه ١٢٤.

(٢) سورة طه ايه ٢٩-٣٢.

(٣) الشوكاني: محمد بن علي، فتح القدير، ج ٣ ص ٤٥١ الطبعة العصرية، صيدا - بيروت ١٩٩٧م.

واستجاب الله تعالى لطلب نبيه موسى ﷺ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾^(١).

علي بمنزلة هارون :

إن من يقرأ تاريخ العرب قبل الإسلام، وما كانوا يعيشونه من جاهلية وضياع، حيث التعصب القبلي، والصراعات والحروب الداخلية، وسيادة عبادة الأصنام والأوثان، وخشونة الطبع، ومن يتأمل أوضاع مجتمع مكة، وغطرسة قريش واعتزازهم بانتمائهم وذواتهم، وكذلك تجدر القوى اليهودية في أطراف المدينة، واحتكارهم للنفوذ الاقتصادي. إن من يقرأ ذلك يدرك ضخامة المسؤولية التي تحمّل أعباءها النبي محمد ﷺ حينما بعثه الله تعالى بالرسالة. وبين له خطورة مهمته منذ البداية: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾^(٢).

لذلك من الطبيعي أن يحتاج رسول الله ﷺ إلى وزير ينصره ويساعده على القيام بمهام الدعوة، وأعباء الرسالة.

ورغم أنه قد حفت برسول الله ﷺ مجموعة من الصحابة الأخيار، الذين سبقوا إلى الإسلام، وتفانوا في خدمته والدفاع عنه، إلا أن ضخامة المسؤولية كانت تستلزم وجود معين كفاء، قريب من نفس رسول الله ﷺ، يتعاطى معه بثقة مطلقة، وانفتاح تام.

ولم يكن ذلك الشخص غير علي بن أبي طالب ﷺ، فهو الأقرب إلى رسول الله ﷺ من بين الصحابة السابقين إلى الإسلام، والأكثر به التصاقاً وعلاقة.

فمن المعروف أن رسول الله ﷺ نشأ في كنف عمه أبي طالب منذ

(١) سورة الفرقان آية ٣٥.

(٢) سورة المزمل آية ٥.

الثامنة من عمره، بعد وفاة جده عبد المطلب، فتحمل أبو طالب وزوجته فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب رعاية رسول الله ﷺ.

ولما ولد علي كان لرسول الله ﷺ من العمر ثلاثون سنة، وقد تزوج خديجة بنت خويلد، وتشير المصادر التاريخية إلى أن الرسول ﷺ أخذ علياً إلى داره ليقوم برعايته وتربيته.

يروى الطبري في تاريخه عن سلمة، عن أبي إسحاق، قال: كان أول ذكر آمن برسول الله ﷺ، وصلى معه، وصدق به بما جاءه من عند الله، علي ابن أبي طالب، وهو يومئذ ابن عشر سنين، وكان مما أنعم الله به على علي ابن أبي طالب، أنه كان في حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام. وعن مجاهد ابن جبر أبي الحجاج قال: كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب، وما صنع الله له، وأراد به من الخير: أن قریشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى، من هذه الأزمة، فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ من بنيه رجلاً، فنكفيهما عنه. قال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه.

فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما.

فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرأً فضمه إليه، فلم يزل علي مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً، فاتبعه علي، فأمن به وصدق به.^(١)

وقد تحدث الإمام علي في إحدى خطبه عن نشأته في كنف

(١) الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري، ج ٢ ص ٥٧.

الرسول ﷺ قائلاً: «وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة، وضعني في حجره وأنا ولد، يضمني إلى صدره، ويكنُّني في فراشه، ويُمسني جسده، ويُسُّمني عَرَفَه، وكان يمضغ الشيء ثم يُلقمنيه»^(١).

ولا يمكن إنكار ما لهذه التربية من أثر في صياغة شخصية علي، واقترباها من شخصية رسول الله ﷺ، وبالتالي تهيئتها لدور الرديف والوزير المعتمد، في مهمات الرسالة الإلهية.

يقول المفكر المصري عبد الكريم الخطيب:

«والحق أن علياً كان أوفر الناس حظاً، وأطولهم صحبة لرسول الله ﷺ، فمنذ ولد علي، وهو بين يدي محمد، قبل النبوة وبعدها، لم يفترق عنه، في سلم أو حرب، وفي حلّ أو سفر، بل كان بين يدي النبي، وتحت سمعه وبصره، إلى أن لحق الرسول بالرفيق الأعلى، وهو على صدر علي، حيث سكب آخر أنفاسه في الحياة.

وأنت إذا ذهبت تستعرض جميع الذين كانوا في كنف النبي، من زوج وولد، لم تجد أحداً منهم قد كان له من طول صحبة النبي، ومن مخالطته، ما كان لعلي، فقد صحب علي النبي صحبة متصلة أكثر من ثلاثين عاماً، وتلك مدة لم يظفر بها أحد من المسلمين»^(٢).

حديث المنزلة :

كما طلب النبي موسى ﷺ من الله تعالى ان يسعفه بوزير من أهله،

(١) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، خطبة رقم ١٩٢، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان..

(٢) الخطيب: عبد الكريم، علي بن ابي طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة، ص ٨٥، الطبعة الثانية ١٩٧٥ م، دار المعرفة، بيروت.

يشاركة في القيام بأمر الرسالة، ورشح أخاه هارون لهذا المقام إدراكاً منه لخطورة ظروف تبليغها، فقد ورد في المصادر الإسلامية أن النبي محمداً ﷺ قدم نفس الطلب لله تعالى، ورشح علياً لوزارته.

ينقل السيد الألوسي البغدادي في تفسيره ما يلي: « وجاء أن النبي ﷺ دعا بمثل هذا الدعاء إلا أنه أقام علياً كرم الله تعالى وجهه، مقام هارون (عليه السلام)، فقد أخرج ابن مردويه، والخطيب، وابن عساكر، عن أسماء بنت عميس قالت: رأيت رسول الله ﷺ بإزاء ثبير، وهو يقول: أشرق ثبير، أشرق ثبير، اللهم إني أسألك مما سألك أخي موسى: أن تشرح لي صدري، وأن تيسر لي أمري، وأن تحل عقدة من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيراً من أهلي، علياً أخي، أشدد به أزري، وأشركه في أمري، كي نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنك كنت بنا بصيراً»^(١).

وقد روت مصادر الحديث المعتمدة عند السنة والشيعة ما يعرف بحديث المنزلة، حيث اعتبر النبي ﷺ علياً منه بمنزلة هارون من موسى.

١. ففي صحيح البخاري حديث رقم (٤٤١٦) عن مصعب بن سعد، عن أبيه: أن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك، واستخلف علياً، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟ قال ﷺ: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه ليس نبي بعدي»^(٢).

٢. ومثله جاء في المستدرک على الصحيحين حديث رقم (٤٥٧٥) عن طريق بكير بن مسمار، عن عامر بن سعد، عن أبيه سعد.

(١) الألوسي: السيد محمود، روح المعاني في تفسير القرآن، ج ١٦ ص ١٨٦ الطبعة الرابعة ١٩٨٥م، دار احياء التراث العربي، بيروت.

(٢) البخاري: محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري، حديث رقم ٤٤١٦، دار الكتب العلمية، بيروت.

- وجاء فيه عن طريق آخر تحت رقم (٣٢٩٤).^(١)
٣. وأورده مسلم في صحيحه حديث رقم (٢٤٠٤) عن ثلاثة طرق: عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد عن أبيه سعد وعن الحكم، عن مصعب بن سعد، عن أبيه سعد. وعن بكير بن مسمار، عن عامر بن سعد، عن أبيه سعد.^(٢)
٤. وفي مسند أحمد بن حنبل جاء عن طرق عديدة، كالحديث رقم ١٤٦٩٣ عن طريق جابر بن عبد الله. وحديث رقم ٣٠٦٢ عن ابن عباس. وحديث رقم ١٤٩٠ ورقم ١٥٠٩ ورقم ١٥٠٥ ورقم ١٥٨٣ ورقم ١٦٠٠. عن سعد بن أبي وقاص وموارد أخرى.^(٣)
٥. وأورده ابن ماجه في سننه في (فضائل علي) عن ابن سابط وهو عبد الرحمن، عن سعد بن أبي وقاص قال: قدم معاوية في بعض حجاته، فدخل عليه سعد، فذكروا علياً فنال منه، فغضب سعد، وقال: تقول هذا الرجل سمعت رسول الله ﷺ يقول: من كنت مولاه فعلي مولاه، وسمعته يقول: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي. وسمعته يقول: لأعطين الراية اليوم رجلاً يحسب الله ورسوله.^(٤)

ومن تتبع إسناد الحديث وطرق روايته، يتضح أنه قد رواه جمع من

(١) الحاكم النيسابوري: محمد بن عبد الله، المستدرک علی الصحیحین، حدیث رقم ٤٥٧٥، وحديث رقم ٣٢٩٤.

(٢) القشيري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، حديث رقم ٢٤٠٤.

(٣) ابن حنبل: الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، عالم الكتب، بيروت.

(٤) ابن ماجه القزويني: محمد بن يزيد، سنن ابن ماجه، فضائل علي.

الصحابه كجابر بن عبد الله الأنصاري، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله ابن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم، وأبي أيوب الأنصاري. وأسما بنت عميس، وأم سلمة، وآخرين.

كما أنه قد ورد بعدة صيغ، وفي أكثر من مورد ومناسبة، من بينها غزوة تبوك، وهو لا يقتصر عليها، بل ورد في غيرها أيضاً.

وبعيداً عن الجدل الطائفي والمذهبي، فإن الحديث صحيح السند، ثابت الرواية، متفق عليه بين المسلمين، وهو يدل على أن لعلي من رسول الله ﷺ نفس مكانة هارون من موسى، باستثناء النبوة التي كانت لهارون، ولا نبوة بعد رسول الله ﷺ.

وإذا كان هارون يلي موسى في المكانة والفضل، وكان شريكه ووزيره ومعتمده في حمل أعباء الدعوة والرسالة، فإن هذا المقام ثابت لعلي بن أبي طالب بصريح النصوص والأحاديث.

التربية والإعداد:

إن الدرس الهام الذي يجب أن نستفيده مما سبق، إضافة إلى معرفة مقام علي ومكانته المميزة، هو دور التربية والإعداد في صنع الشخصية الكفوءة.

لقد شاء الله تعالى أن يتبوأ علي بن أبي طالب موقعية متقدمة، في خدمة الرسالة الإلهية، فهياً له فرصة تربوية خاصة، حيث نشأ في كنف رسول الله ﷺ منذ نعومة أظفاره، وتربى في حجره منذ سنوات عمره الأولى، وبالتالي كان بعيداً عن تأثيرات أجواء الجاهلية والشرك، فهو لم يسجد لصنم قط، لذلك خصه المسلمون دون بقية الصحابة بقول: كرم الله وجهه. كما كانت شخصية الرسول ﷺ ومكارم أخلاقه، خير قدوة، وأفضل معلم، أنار لعلي طريق الحياة الرسالية الجهادية.

إننا إذ نرغب ونتمنى صلاح ذريتنا وأبنائنا، فإن علينا أن نهيم لهم أجواء التربية الصالحة، وذلك عبر التزامنا نحن أولاً بخط الصلاح والاستقامة، فالعائلة الصالحة، هي القادرة على تربية الولد الصالح. إن تحمل الإنسان لمسؤولية أبنائه وعائلته، يجب أن يكون دافعاً له نحو الالتزام بمبادئ الدين وأحكامه، وبمكارم الأخلاق والصفات، فذلك هو الذي يؤهله للقيام بوظيفته التربوية، ودوره التوجيهي، إن بعض الآباء يضعفون أمام دواعي الأهواء والشهوات، ويسمحون لأنفسهم بارتكاب بعض المحرمات والمحظورات، لكن بعيداً عن أنظار عوائلهم وأبنائهم، في الوقت الذي يوجهون فيه أبنائهم ليكونوا صالحين ملتزمين، فهل يتوقعون لكلامهم المجرد أن يترك أثراً في نفوس أبنائهم؟

إن التوجيه الصادق، الذي يتطابق مع سلوك الاستقامة والصلاح، هو التوجيه المؤثر.

يقول الإمام علي عن تربية رسول الله ﷺ له: «ولقد كنت أتبعه إتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً، ويأمرني بالإقتداء به»^(١).

(١) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة- خطبة رقم ١٩٢، ص ٣٠٠، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م، دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان.

الأمة الإسلامية ومواجهة الإرهاب

كلمة الجمعة بتاريخ ١٨ رجب ١٤٢٢هـ

تحاول الإدارة الأمريكية أن تعوّض ما فقدته من كبرياتها وهيبتها، خلال أحداث الحادي عشر من أيلول الماضي، في الهجوم الانتحاري على مركز التجارة العالمي، ومبنى وزارة الدفاع، في نيويورك وواشنطن. لتؤكد أمام شعبها والعالم احتفاظها بموقع الزعامة والهيمنة، واستعادتها زمام المبادرة تجاه التحديات العنيفة.

لقد كانت الخسارة الأكبر على أمريكا إضافة إلى فقد الآلاف من مواطنيها، وعشرات البلايين من الدولارات من اقتصادها وثرواتها، تتمثل في الجرح العميق الذي أصاب كبرياءها، والصفعة القاسية التي نالت من هيبتها، وهي القوة الأعظم المتفردة بالهيمنة والسيطرة على العالم.

ويكفي أن نعلم - كشاهد على مدى عمق التأثير الهائل الذي تركه الحدث في معنويات الإدارة الأمريكية - ما انتاب الرئيس الأمريكي نفسه من هول الصدمة، فقد ظل - كما تشير التقارير - عشر ساعات كاملة (من العاشرة صباحاً حتى الثامنة مساءً) بعيداً عن مكتبه، ومركز قيادته، ركباً طائرة هائمة في الأجواء، متردداً بين المطارات المدنية والعسكرية، عاجزاً عن حزم أمره ولم تبق أحواله هذه الساعات الحرجة سراً، لأن طائرته التي كان يستقلها من فلوريدا كان عليها مجموعة من الصحفيين، ورواياتهم الآن متداولة بالتفصيل، داخل قاعات التحرير في فضائيات

وصحف نيويورك بالذات، وبين الروايات أن الرئيس بوش تلقى ما سمع، وانتابته حالة من عدم التصديق، تعثر معها لسانه، وشحب وجهه، بينما هو وسط جمع من أطفال مدرسة كان يزورها في فلوريدا.

وضاعف من اضطراب الرئيس أنه في تلك اللحظة تلقى أنباءً تقول إنه شخصياً مطلوب ومهدد، وإن إحدى الطائرات (القذائف) تبحث عنه. وتحول الرجل الذي يملك وحده مفتاح القوة النووية الأمريكية -في ثانية- من رئيس للعالم إلى أسير في عهدة حرسه الخاص، فقد صمم الحرس ألا يعود الرئيس إلى واشنطن إلا بعد أن ينجلي الموقف، وتنطفئ آخر إشارة حمراء فوق العاصمة.

واتصل به كثيرون من أركان حكمه، وقادة حزبه منزعجين من تأخيره وهو يتعلل بالخطر والحرس، حتى كلمته والدته (بربارا بوش) مصرة عليه أن يعود إلى مكتبه لتطمين الأمريكيين.. وهكذا عاد من غيبته الجوية إلى مقر قيادته في البيت الأبيض. وخلال الأربع والعشرين ساعة التالية نزلت دموعه أمام كل الناس وعلى شاشات التلفزيون، خمس مرات^(١).

هذه الهزة والصدمة المعنوية التي أصابت الهيئة والقوة الأمريكية، إضافة إلى الخسائر البشرية والمادية الفادحة، هي التي تضغط على الإدارة الأمريكية الآن، للقيام بعمل ضخم كبير، تستعيد من خلاله هيبتها المخدوشة، وتؤكد قدرتها وهيمنتها، أمام شعبها والعالم.

التحشيد والقوة:

تريد أمريكا لرد فعلها على أحداث ١١ أيلول الماضي أن يتصف بسمتين رئيسيتين: التحشيد واستعراض القوة. فرغم أنها هي التي

(١) هيكل: محمد حسنين، حريق امريكي وعالمي، جريدة السفير اللبنانية ٢٠٠١، ١٠، ٢٠٠١م.

استهدفت، وأنه سبق وأن حصلت حوادث وهجمات إرهابية في بلدان عديدة من العالم، وكانت كل دولة تتصرف بمفردها وبالتعاون الثنائي مع حلفائها، إلا أن أمريكا حينما تصاب فيجب أن يهب العالم كله للتضامن معها، والدفاع عنها، لذلك تسعى لتحشيد العالم كله خلفها، لبناء تحالف عالمي بقيادتها، تحت عنوان مواجهة الإرهاب، والمسألة الأساس هو إعادة التأكيد على قيادة أمريكا وزعامتها، وأن العالم كله يصطف خلفها، وأن لا أحد يجرأ على التردد في الخضوع والاستجابة، لأن الرئيس الأمريكي وضع الجميع أمام خيارين: إما مع أمريكا أو مع الإرهاب، كما صرح بذلك. وبالتالي فإن من لا ينضم للتحالف الذي تقوده أمريكا، يضع نفسه في الخندق المعادي، ويعرض نفسه لمختلف الإجراءات الانتقامية.

ولإرواء غليل الأمريكيين في الانتقام وأخذ الثأر، لابد من عمل عسكري تستخدم فيه قوة تدمير ضخمة، وتسبقه وترافقه إجراءات قاسية، على مختلف الأصعدة، الأمنية والاقتصادية والسياسية والإعلامية.

المسلمون تحت الضغط:

يمارس الأمريكيون ضغوطاً هائلة على الدول العربية والإسلامية لكي ينضموا تحت لواء الحملة الأمريكية، خاصة وأن أصابع الاتهام بالهجوم على نيويورك وواشنطن قد وجهت إلى جهة إسلامية، بالطبع دون تقديم أدلة واضحة، وإنما بالاستناد إلى أدلة ظرفية، كما صرحت بذلك جهات اطلعت عليها، فقد قال وزير الداخلية الباكستاني لجريدة الحياة: إن الأدلة الأمريكية ظرفية لا ملموسة^(١). وكذلك تناولت الصحف البريطانية ضعف الأدلة التي قدمها رئيس الوزراء طوني بلير إلى مجلس

(١) الحياة- ٦ أكتوبر ٢٠٠١م.

العموم البريطاني، وكتبت صحيفة الغارديان في عمود رئيسي تحت عنوان: (لا يزال الدليل القاطع غير موجود) إن الأدلة التي تضمنتها الوثيقة المقدمة من بليز لن تكفي، من وجهة النظر القانونية، إن معظم ما تضمنته كان ذا طابع ظرفي تماماً.^(١)

هذا الاتهام لجهة من المسلمين وما رافقه من حملة إعلامية ثقافية، للتهجم على الإسلام والمسلمين، وإثارة الكراهية ضدهم، مما سبب حصول مئات الاعتداءات في أمريكا وأوروبا وأستراليا على مؤسسات وأفراد من المسلمين، كل ذلك أوقع المسلمين تحت ضغط معنوي، تريد أمريكا استثماره بدفعهم إلى الانضمام للتحالف العالمي الذي تقوده باسم مواجهة الإرهاب.

كما تستخدم نفوذها السياسي وهيمنتها على المؤسسات الدولية العالمية، حيث تستصدر من مجلس الأمن ما تريد من قرارات، وكذلك نفوذها الاقتصادي، بالتلويح بالدعم والمساعدات، والتهديد بالحصار ومنع التسهيلات، من أجل أن تحشد كل الدول والحكومات والجهات الإسلامية، خلف قيادتها وتحت لوائها، باتجاه معركة أو معارك هي تقرر مكانها وزمانها وضحاياها.

الموقف من الإرهاب:

ليس هناك شرع أو عقل يُقر الإرهاب أو يقبل به، والإسلام كدين أنزله الله تعالى رحمة للعالمين، جعل السلم والسلام شعاراً له، وعنواناً لرسالته، فالتحية التي يليقها المسلم على من يلقاه هي: (السلام عليكم) والقرآن يدعو جميع المؤمنين به إلى الالتزام بالسلم والسلام يقول

(١) المصدر السابق.

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلْمِ كَافَّةً﴾^(١).

إن مقياس الإيمان - حسب النصوص الإسلامية - هو احترام حقوق الناس المادية والمعنوية، كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن من آمنه الناس على أموالهم وأنفسهم»^(٢).

وفي حديث آخر عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «المسلم من سلم الناس من يده ولسانه»^(٣).

ويعتبر الإسلام أن الاعتداء على شخص بريء بمثابة إعلان حرب على الإنسانية كلها، يقول تعالى: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾^(٤).

وحتى في حالة الحرب والجهاد والذي شرعه الإسلام للدفاع وردع المعتدي يقول تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٥) فالجهاد للدفاع، ولا يصح مقاتلة مسالمين لم يقوموا بأي عدوان.

في حالة الحرب المشروعة يضع الإسلام الحدود والضوابط، ويؤكد على الآداب والأخلاقيات الإنسانية التي تحمي الأبرياء والمدنيين العزل، يروي أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ وصيته لجيش الجهاد الإسلامي قائلاً: «انطلقوا باسم الله وبالله، وعلى ملة رسول الله، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة، ولا تغلوا، وضموا

(١) سورة البقرة آية ٢٠٨.

(٢) الهندي: علي المتقي، كنز العمال - حديث رقم ٦٧٦، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ، مؤسسة الرسالة.

(٣) المجلسي: محمد باقر بحر الانوار ج ٧٢ ص ٥١.

(٤) سورة المائدة آية ٣٢.

(٥) سورة المائدة آية ٣٢.

غنائمكم، وأصلحوا، وأحسنوا إن الله يحب المحسنين»^(١).

وعن عبدالله أن امرأة وجدت في بعض مغازي رسول الله ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان^(٢).

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن» والفتك: أن يأتي الرجل وهو غارٌّ غافل فيشدّ عليه فيقتله^(٣).

واستثنى الفقهاء عشر طوائف أن يقتلوا في الحرب، بناء على نهي النصوص الدينية عن ذلك قالوا: «لا يقتل في الحرب عشر طوائف: الشيخ الفاني، والمرأة، والطفل قبل البلوغ، والمقعد، والأعمى، والمريض الذي قعد به المرض، والرسول، والراهب المتبتل، والذي لا يصلح قتله لمصلحة، والمجنون بأقسامه»^(٤).

وقال الفقهاء أيضاً: «يكره تبييت العدو، أي الإغارة عليهم ليلاً بلا إشكال، لخبر صهيب قال سمعت أبا عبدالله جعفر الصادق ﷺ يقول: «ما بيت رسول الله ﷺ عدواً قط ليلاً» بالإضافة إلى الاستحسان فإن الليل معرض كثرة القتلى، وقتل النساء والأطفال، وقتل المسلمين بعضهم بعضاً، واستبشاع ذلك عرفاً»^(٥).

الحديث عن الرحمة والسلم والتسامح في الإسلام، ونبذ العنف والقسوة والإرهاب، هو حديث عن جوهر الإسلام، والغاية التي يريد تحقيقها في المجتمع البشري، وهو ما يحتاج إلى بحوث مفصلة واسعة.

(١) السجستاني: سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود - حديث رقم ٢٦١٤.

(٢) المصدر السابق - حديث رقم ٢٦٦٨.

(٣) المصدر السابق - حديث رقم ٩٦.

(٤) الشيرازي: السيد محمد الحسيني، ج ٤٧ كتاب الجهاد ص ٢٠٥.

(٥) المصدر السابق ص ٢٢٦.

التطرف باسم الإسلام:

ابتلي الإسلام والمسلمون بفئات تنتسب إليه، وتمارس باسمه الإرهاب والعنف، منطلقة من عقلية امتلاك الحقيقة المطلقة، وعدم احتمال الرأي الآخر، دينياً كان أو سياسياً، فكل من لا يقبل رأيهم ومنهجهم فهو كافر مشرك، أو مبتدع ضال، يستحلون حرمة، ويعتدون على حقوقه.

لقد عانت الأمة الكثير من الفتن الداخلية، والتمزق والاضطراب الاجتماعي، بسبب هذه التوجهات المتطرفة، وشهدنا في هذا العصر، ممارسات جماعات التكفير والعنف، في مصر والجزائر وباكستان وأفغانستان وغيرها.

وعادة ما تستفيد هذه الفئات من أجواء الانغلاق الفكري والسياسي، وتوظيف حالات التأزم الاجتماعي، والانحراف عن منهج الدين، في تعبئة أذهان الناشئة، واستقطابهم نحو توجهاتها.

إن انتشار الوعي الصحيح بمفاهيم الدين، وفسح المجال لحرية الفكر والرأي، وإتاحة الفرصة للتعددية والحوار، ومعالجة المشاكل والضغط التي تعاني منها المجتمعات، هو الذي يحد من أفكار التطرف والتشدد.

مواجهة الإرهاب عالمياً:

ترفع أمريكا لحملتها شعار مواجهة الإرهاب، لكنها تمارس سياسة الانتقاء، فما كان متعارضاً مع مصالحها تصنّفه إرهاباً، وتقيم الدنيا ولا تقعد لها ضده، أما الإرهاب الذي يستهدف غيرها من الدول والشعوب والقوى، فهي تغض الطرف عنه، وقد تدعّمه وترعاه، كما هو الحال

في دعمها الكامل، ومساندتها الشاملة للإرهاب الصهيوني، وماذا يمكن أن يسمى احتلال أراضي الغير بالقوة؟ وتشريد شعب كامل من وطنه؟ وقصف المناطق المدنية والسكنية؟ واغتيال القيادات السياسية بالصواريخ من الجو؟ وقتل النساء والأطفال؟ وتهديم المنازل؟ وتخريب المزارع؟ إذا لم يكن ذلك إرهاباً فماذا يعتبره الأمريكيون؟.

والمدعش حقاً أن يُدين الأمريكيون مواجهة هذا الإرهاب والبطش الصهيوني، فيعتبرون دفاع الفلسطينيين واللبنانيين عن أراضيهم وأنفسهم، نشاطاً إرهابياً، بينما يستقبلون الإرهابي السفاح شارون بالأحضان!!

ترى كيف يمكن للمسلمين أن يثقوا بمصداقية شعار الحملة والتحشيد الأمريكي ضد الإرهاب؟

إن وجود الاحتلال والإرهاب الصهيوني هو الأرضية التي تغدّي التطرف وعدم الاستقرار في المنطقة والعالم.

إن سياسات الظلم والجور على مستوى العالم هي التي تفرّخ الإرهاب، وتنتشر الكراهية والأحقاد، وتدفع نحو ردود فعل انتحارية جنونية، عند من لا يجدون أنفسهم قادرين على حماية حقوقهم ومصالحهم بالطرق السلمية المشروعة.

وأهم ما ينبغي التنبيه إليه في هذه الظروف الحساسة، هو أن لا تتحول المشكلة التي تواجهها أمريكا الآن إلى مشكلة داخلية بين المسلمين أنفسهم، بين مؤيد ومعارض، وأن نحذر الفتن والقتال، لنحافظ على أمن أوطاننا ومجتمعاتنا.

الكازم خلق ومنهجية

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٥ رجب ١٤٢٢ هـ

يصادف الخامس والعشرون من شهر رجب ذكرى شهادة الإمام موسى ابن جعفر عليه السلام والتي كانت سنة ١٨٣ هـ، وهو في الخامسة والخمسين من عمره.

والإمام موسى هو السابع من أئمة أهل البيت عليهم السلام، وقد ولد سنة ١٢٨ هـ، وأواخر الدولة الأموية، التي انهارت سنة ١٣٢ هـ على أيدي العباسيين.

نشأ وتربى في ظل أبيه الإمام جعفر الصادق، والذي أتاحت له الظروف آنذاك القيام بحركة علمية كبيرة، مستغلاً ضعف الدولة الأموية الآفلة، والدولة العباسية الناشئة، فاهتم بتربية الكفاءات العلمية في مختلف التخصصات، حتى بلغ عدد تلامذته والرواة عنه أربعة آلاف، حسب ما ذكر العديد من المؤرخين.

قال ابن حجر: نقل الناس عنه (الإمام جعفر) من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان، وروى عنه الأئمة الأكابر، كيحيى بن سعيد، وابن جريج، والسفيانيين، وأبي حنيفة، وشعبه، وأيوب السخيتاني. ^(١)

(١) ابن حجر الهيتمي: أحمد بن محمد، الصواعق المحرقة ج ٢ ص ٥٨٦، الطبعة الأولى ١٩٩٧ م مؤسسة الرسالة-بيروت.

في هذه الأجواء العلمية عاش الإمام موسى مع أبيه الإمام جعفر عشرين سنة حيث التحق الإمام الصادق بالرفيق الأعلى سنة ١٤٨ هـ، فألت إليه زعامة البيت النبوي، والإمامة الدينية. وتحمل أعباءها لمدة خمسة وثلاثون عاماً.

بالطبع لم تعد الظروف مهياًة ومناسبة كما كانت في عهد أبيه الإمام جعفر، بل واجهته المتاعب والضغوط من قبل الحكم العباسي، الذي توطدت أركانه، إلا أنه واصل القيام بمسؤولياته الدينية والعلمية إلى أقصى حد تسمح به الظروف، وبلغ عدد من ذكره المؤرخون من تلامذته والراوين عنه ٣١٩ شخصاً، أثبت أسماءهم وتراجمهم الباحث القرشي في كتابه عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ^(١).

الكاظم:

من الطبيعي أن يتصف الإمام موسى بمختلف صفات الفضل والكمال، فهو من أهل بيت قد أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهير، وقد تحدث معاصروه، ومن قرأ سيرته من العلماء والمؤرخين، عن ما تجسده شخصيته من مثل عليا، وقيم سامية، حتى أصبحت بعض مكارم أخلاقه لقباً له، وعلماً عليه.

يقول ابن الجوزي في صفة الصفوة: «موسى بن جعفر عليه السلام، كان يدعى العبد الصالح وكان حليماً كريماً، إذا بلغه عن رجل أنه يؤذيه بعث إليه بمال» ^(٢).

ومن أشهر ألقابه التي يعرف بها: الكاظم. قال ابن حجر الهيتمي:

(١) القرشي: باقر شريف، حياة الإمام موسى بن جعفر ج ٢ ص ٢٢٥-٣٧٤.
 (٢) الشعراني: عبد الوهاب الانصاري، مختصر صفوة الصفوة ص ١٧٨ مطبعة النهضة الحديثة- مكة ١٩٦٧ م.

«موسى الكاظم: وهو وارثه (الإمام جعفر الصادق) علماً ومعرفةً وكمالاً وفضلاً، سمي الكاظم لكثرة تجاوزه وحلمه، وكان معروفاً عند أهل العراق بباب قضاء الحوائج عند الله، وكان أعبد أهل زمانه، أعلمهم وأسأخاهم»^(١).

وقال ابن الأثير: «إنه عرف بهذا اللقب لصبره، ودمائة خلقه، ومقابلته الشر بالإحسان»^(٢).

كظم الغيظ:

كظم الغيظ صفة أخلاقية هامة تحدث عنها القرآن الكريم: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣).

والكظم لغة مصدر قولهم: كَظَمَ يَكْظِمُ تدل على معنى الإمساك والجمع للشيء، ومن ذلك الكظم للغيظ الذي يعني: اجتراع الغيظ والإمساك عن إبدائه، وكأنه يجمعه الكاظم في نفسه.

والغيظ لغة مصدر قولهم: غَاظَهُ يَغِيظُهُ. جاء في لسان العرب: الغيظ: الغضب، وقيل هو أشد منه، وقيل: هو سَوْرَتُهُ وأوله.

أما اصطلاحاً فقال الطبري في تفسيره: الكاظمين الغيظ: يعني الجارعين الغيظ عند امتلاء نفوسهم منه. يقال: كظم فلان غيظه، إذا تجرعه فحفظ نفسه أن تُمضي ما هي قادرة على إمضائه، باستمكانها ممن غاظها، وانتصارها ممن ظلمها.

فحينما يواجه الإنسان إساءة تزعجه، أو تصرفاً يؤذيه أذى بالغاً من جهة ما، فينفعل نفسياً، ويمتلاً قلبه ألماً وغضباً، لكنه يسيطر على

(١) ابن حجر الهيتمي: أحمد بن محمد، الصواعق المحرقة ج ٢ ص ٥٩٠.

(٢) القرشي: باقر شريف، حياة الإمام موسى بن جعفر ج ١ ص ٥٠ دار البلاغة-بيروت ١٩٩٣ م.

(٣) سورة آل عمران آية ١٣٤.

انفعالاته، ويكتسب مشاعره الثائرة، فلا يبدي ولا يظهر أي رد فعل انتقامي، بل ولا ينعكس غضبه حتى على قسما ت وجهه، أو ألفاظ لسانه. هذا المستوى من الإرادة والتحكم وضبط الأعصاب، يطلق عليه كظم الغيظ. ولا يصل الإنسان إلى هذه القمة الأخلاقية السامقة، إلا بدرجة متقدمة من الوعي، والنضج والتهديب النفسي. حيث أن الطبيعة الأولية للإنسان تستجيب للمثيرات، وتندفع للانتقام، وتقع تحت تأثير الغضب والانفعال.

لذلك استحق الكاظم لغيظه من الله تعالى الثواب العظيم والتقدير الكبير، جاء في الحديث عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كظم غيظه ولو شاء أن يمضيه أمضاه، ملأ الله قلبه رجاء يوم القيامة». وفي حديث آخر عن ابن عمر أيضا عنه ﷺ أنه قال: «ما من جرعة أعظم أجراً عند الله من جرعة غيظ كظمها عبد ابتغاء وجه الله»^(١).

إن كظم الغيظ يدل على قوة الإرادة، وقدرة السيطرة على النفس، وتلك أهم من قوة العضلات، وهذا ما يؤكده الحديث الوارد عن أنس قال: إن النبي ﷺ مر بقوم يصطرون، فقال: ما هذا؟ قالوا فلان ما يصارع أحداً إلا صرعه، قال ﷺ: أفلا أدلكم على من هو أشد منه؟ رجل كلمه رجل فكظم غيظه، فغلبه وغلب شيطانه وغلب شيطان صاحبه.^(٢)

وكظم الغيظ لا يتحقق من قبل الإنسان الضعيف أو الجبان، الذي لا يمتلك قوة الرد، ولا شجاعة المواجهة، وإنما يصدق من المقتدر الجريء، الذي يقرر باختياره عدم الاستجابة للانفعال، مع قدرته على

(١) ابن حنبل: الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، حديث رقم ٦١١٦، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، عالم الكتب، بيروت..

(٢) العسقلاني: بن حجر، فتح الباري، حديث رقم ٦١١٦.

ذلك، وهذا ما تشير إليه النصوص الواردة: «لو شاء أن يمضيه أمضاه». إن من يُساءً إليه، ويعتدي على شيء من حقوقه، فينزِعُ ويُستفزعُ ويغضب وهو يملك شجاعة المجابهة، لكنه يقرر لجُم غضبه، وكبح جماح غيظه، لهدف أسمى، ومصلحة أهم، فهو الذي يتصف بهذه الصفة العظيمة: كظم الغيظ، وهو المستحق لثواب الله تعالى وثنائه، والجدير بالتقدير والإكبار.

الكاظم في أخلاقه :

لقد جسد الإمام موسى بن جعفر هذا الخلق الرفيع في سيرته وحياته، حتى أصبح لقباً له مصاحباً لاسمه، ويذكر المؤرخون العديد من الشواهد والمواقف، التي ضرب الإمام موسى بن جعفر فيها أروع الأمثلة والنماذج على كظم الغيظ، في تعامله الشخصي مع الآخرين، وكانت نتيجة ذلك التعامل في الغالب التأثير في أولئك المسيئين وتحويلهم إلى محبين.

رووا أن شخصاً كان يسيء للإمام، ويكيل السب والشتم لجده أمير المؤمنين عليه السلام، وحول الإمام أنصار وأتباع متفانون في الدفاع عنه، فأرادوا الانتقام من هذا الرجل بتصفيته واغتياله، فنهاهم الإمام عن ذلك، وكان يتحمل الإساءات المتكررة من ذلك الرجل، وذات يوم سأل الإمام عن مكانه، فقيل: إنه يزرع في بعض نواحي المدينة، فركب الإمام بغلته، ومضى إليه، فوجده في مزرعته، فأقبل نحوه، فصاح الرجل: لا تطأ زرعنا. وانتهى الإمام إليه، وجلس إلى جنبه، وأخذ يلاطفه، ويحدثه بأطيب الحديث، ثم قال له بلطف ولين: كم غرمت في زرعك هذا؟ قال الرجل: مئة دينار، فسأله الإمام: كم ترجو أن تصيب منه؟ قال الرجل: أنا لا أعلم الغيب، فقال الإمام: إنما قلت لك: كم ترجو أن

يجيئك منه؟، قال الرجل: أرجو أن يجيئني منه مائتا دينار.

فأعطاه الإمام ثلاثمائة دينار، وقال: هذه لك وزرعك على حاله^(١).

بعد هذه الحادثة تغير موقف الرجل من الإمام، وأدرك أنه لا مبرر لحقده وسوء تعامله مع الإمام، فصار يبدي الاحترام والتقدير للإمام كلما التقاه.

في أول اعتقال للإمام من قبل الخليفة هارون الرشيد سنة ١٧٩ هـ حمل الإمام من المدينة إلى البصرة، وأودع في السجن، تحت إشراف عيسى بن أبي جعفر، والذي كان بحسب وظيفته، وأوامر السلطة، يضيق على الإمام في سجنه، لكن تعامل الإمام معه بلطف وإحسان، وما رآه من سيرة الإمام، وصدق أحاديثه وتوجيهاته، ولمدة سنة كاملة أوجدت تحولاً في موقفه فأصبح يظهر للإمام كل احترام وتقدير، وأخيراً اعتذر للخليفة هارون الرشيد عن تنفيذ مهمة اغتيال الإمام أو الاستمرار في سجنه، وكتب الرسالة التالية: «يا أمير المؤمنين، كتبت إلي في هذا الرجل، وقد اخترته طول مقامه بمن حبسته معه عيناً عليه، فلم يكن منه سوء قط، ولم يذكر أمير المؤمنين إلا بخير، ولا دعا قط على أمير المؤمنين، ولا على أحد من الناس، ولا يدعو إلا بالمغفرة والرحمة له ولجميع المسلمين مع ملازمته للصيام والصلاة والعبادة، فان رأى أمير المؤمنين أن يعفيني من أمره، أو ينفذ من يتسلمه مني وإلا سرحت سبيله، فاني منه في غاية الحرج»^(٢).

وتكرر مثل هذا الأمر حينما اعتقل الإمام للمرة الأخيرة في سجن السندي بن شاهك في بغداد، والذي عانى الإمام فيه الكثير من الأذى

(١) القرشي: باقر شريف، حياة الإمام موسى بن جعفر ج ١ ص ١٥٦.

(٢) المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٧.

والتنكيل، لكن ذلك لم ينعكس على تعامله مع المحترفين لإيذائه، وكان أحدهم يقال له بشار، وهو مولى لمسئول السجن السندي بن شاهك، وكان بشار هذا من أشد الناس بغضاً لآل أبي طالب، وكان يباليغ في إيذاء الإمام، لكن الإمام كان يتحمل إساءاته وتنكيله دون أن يقابله حتى بلفظة نائية، أو نظرة قاسية، وبعد فترة من الزمن تغيرت شخصية بشار، وأصبح من المحبين والموالين للإمام.^(١)

هكذا كان الإمام يكظم غيظه، وينطوي على الأمة، في تعامله مع الأشخاص المسيئين إليه.

الكاظم في منهجيته :

يبدو لي أن السبب الأهم لإطلاق لقب الكاظم على الإمام موسى ابن جعفر، والتفسير الأدق يكمن في طبيعة المنهجية التي اتسمت بها سيرة الإمام، وطريقة تعامله مع الظروف السياسية التي أحاطت به.

فقد تحمل أعباء الإمامة لخط أهل البيت عليهم السلام في ظروف بالغة الحساسية والصعوبة، حيث تركزت السلطة في أيدي العباسيين، وكانوا في أوج قوتهم السياسية والاقتصادية، حتى أشتهر عن هارون الرشيد مخاطبته للسحاب: «أذهبني إلى حيث شئت يأتيني خراجك» وأصبحت عاصمتهم (بغداد) عروس الدنيا، بثرواتها وقصورها وحدائقها، ونقل ابن خلدون في مقدمته أن المحمول إلى بيت المال في أيام الرشيد بلغ ٧٥٠٠ قنطاراً في كل سنة. لقد دانت لهم البلاد، وخضع لهم العباد.

من جانب آخر فإن العلاقة بين الحكم العباسي والعلويين كانت متوترة متشنجة، لأن العلويين كانوا شركاء العباسيين في الثورة على الحكم الأموي، بل كانت الشعارات والدعوة باسمهم، وكانوا هم

(١) المصدر السابق ص ٤٨٧.

المرشحين لاستلام الحكم، بموجب مؤتمر (الأبواء) الذي اجتمع فيه زعماء هاشميون من علويين وعباسيين، وتداولوا أمر الدعوة، وإسقاط الحكم الأموي، واتفقوا على مبايعة محمد بن عبد الله بن الحسن، وممن تقدم لمبايعته السفاح وأبو جعفر المنصور اللذان توليا السلطة فيما بعد، وتجاوز العباسيون العلويين وتجاهلوهم وانفردوا بالحكم، فأوجد ذلك غضباً وانزعاجاً في أوساط العلويين، وأدرك العباسيون ذلك، فأصبحوا حذرين من العلويين، يتوقعون منهم ردّ فعل مناوئ، ولتوقي أية مضاعفات محتملة من قبل العلويين تجاه الحكم العباسي، بدأ العباسيون حملة من الضغوط والتضييق على منافسيهم وأبناء عمهم العلويين، أعادت إلى الذاكرة العلوية مآسي الحكم الأموي، وفي بعض الأحيان كانت ضغوط العباسيين أشد وأقسى، حتى قال الشاعر:

تالله ما فعلت أمية فيهم معشار ما فعلت بنو العباس

نتيجة لهذا الواقع ولهذه الضغوط تفجرت بعض الثورات من قبل العلويين، كثورة محمد بن عبد الله بن الحسن، وثورة أخيه إبراهيم، في عهد المنصور، وثورة فخ الشهيرة بقيادة الحسين بن علي بن الحسن، في عهد موسى الهادي.

والإمام موسى بن جعفر رغم أنه لم يشارك في أي من ثورات العلويين وانتفاضاتهم، لكن السلطة العباسية كانت حذرة قلقة من وجوده، لما يمثله من موقعية روحية دينية، ليس عند العلويين فقط وإنما في أوساط جماهير الأمة بشكل عام.

خط أهل البيت: تقدم ونمو:

بعدما عاشت الأمة مظالم العهد الأموي، وتكشفت لها نوايا الحكم العباسي، وأنهم طلاب سلطة، وليسوا حملة رسالة، اتجهت الأنظار

أكثر إلى أئمة أهل البيت عليهم السلام، باعتبارهم الأمل في تصحيح واقع الأمة وإنقاذها. ونتيجة للنهضة الفكرية الثقافية الواسعة التي قادها الإمامان الباقر والصادق، فترة انشغال العباسيين بالأمويين، انتشرت المفاهيم والمعارف التي تتبناها مدرسة أهل البيت عليهم السلام، والتي تمثل مبادئ الإسلام الحقّة، ومناهجه الأصيلة، المنبثقة من الكتاب والسنة، والنقية من الأهواء والتأثيرات السياسية والمصلحية.

كما أن التميز الواضح في شخصيات أئمة أهل البيت علماء وتقوى وأخلاقاً، جعل أفئدة الناس تهوي إليهم.

لكل هذه الأسباب كان خط أهل البيت في تقدم ونمو مطرد، وخاصة في عهد الإمام موسى بن جعفر، حتى وصل بعض الموالين لأهل البيت إلى مناصب ومواقع حساسة في جهاز الدولة، نتيجة لكفاءتهم المتميزة، ولتشجيع الإمام موسى لهم، بأن يتحملوا ظروف الحكم وأجواء الحاكمين، من أجل أن ينقذوا ما يمكن إنقاذه من المصالح العامة، وأن يصححوا ما يمكن تصحيحه من القرارات والإجراءات، وأن يكونوا عوناً للضعفاء والمؤمنين.

فمثلاً علي بن يقطين أصبح وزير الحكم في عهد المهدي ثم في عهد هارون الرشيد، وتشير بعض الروايات إلى أن الوالي على منطقة (ري) المهمة، كان من أتباع أهل البيت.

ومن مظاهر تقدم خط أهل البيت في تلك الفترة، المبالغ الطائلة التي كانت تبعث للإمام من مختلف الأمصار، كزكاة وخمس، يقول يونس ابن عبد الرحمن: مات موسى بن جعفر وليس من قوامه أحد إلاّ وعنده المال الكثير، وكان ذلك سبب وقفهم وجحدهم موته، طمعاً في الأموال، كان عند زياد بن مروان القندي سبعون ألف دينار، وعند علي

بن أبي حمزة ثلاثون ألف دينار^(١).

إن خط أهل البيت لم يعد مقتصراً على الحجاز والعراق، بل اتسعت رقعته إلى إيران ومصر والمغرب وسائر البقاع.

يقول أحدهم محرراً لهارون الرشيد ضد الإمام موسى: ما ظننت أن في الأرض خليفتين حتى رأيت موسى بن جعفر يسلم عليه بالخلافة، وأن الأموال تحمل إليه من المشرق والمغرب^(٢).

اشتداد الضغوط على الإمام:

تعرض الإمام موسى لضغوط كبيرة قاسية أكثر من سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام، فقد اعتقل خمس مرات، لمدد متفاوتة، قد يصل مجموعها إلى سبع سنوات، ووضع تحت الإقامة الجبرية في بعض الفترات.

وعانى في بعض السجون تنكيلاً وأذى رهيباً يتمثل في تقييده بالقيود والأغلال الثقيلة من الحديد، وفي جعله في سجن مظلم ضيق، وتسليط جلاوزة حاقدين عليه.

كما كانت الرقابة شديدة عليه ترصد حركاته حينما يكون خارج السجن، إضافة إلى الضغط النفسي الكبير الذي يعانيه بسبب اضطهاد العلويين من أسرته ومطاردتهم والبطش بهم من قبل السلطة.

كل هذه الضغوط كانت تدفع باتجاه أن يعلن الإمام معارضته للحكم العباسي، وأن يتحرك لمواجهته، دفاعاً عن نفسه وحرية، ولوضع حد لمعاناة أسرته العلوية وأتباعه الموالين.

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار ج ٤٨ ص ٢٥٢، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) القرشي: باقر شريف، حياة الإمام موسى ج ٢ ص ٤٥٥.

ولم تكن تنقص الإمام الشجاعة والجرأة، وما كان يشكو من قلة الأتباع، لكنه كظم غيظه، وقاوم الضغوط المتوجهة إليه، من أجل أن لا يعطي الفرصة للسلطة لتشن حرب إبادة ضد أتباع خط أهل البيت، وحتى لا تتأزم الأمور أكثر فتحدّ من نمو التشيع وتقدمه واتساع رقعته. فالإمام ليس طامحاً للسلطة، ولا طامعاً في الحكم، إنه صاحب رسالة، يفكر من خلال مصلحة الرسالة والأمة، ويتجرع الغيظ، وينطوي على الألم، ويتحمل المعاناة، لكنه لا يضحى بالمصلحة العامة، استجابة للانفعال، وطلباً للانتقام.

وهنا يتجلى كظم الغيظ كمنهجية عمل، وكسياسة دعوة، وكخطة تحرك، وبهذه المنهجية، بقي خط أهل البيت مدرسة أصيلة في فهم الإسلام، ورؤية حضارية في حياة الأمة، يتحدى الضغوط، ويتجاوز العقبات، ويشرّب بغير مشرق للإسلام والعالم.

الدرس والعبرة:

كم عانت أمتنا العربية والإسلامية في هذا العصر من معارك وحروب طاحنة استدرجت إليها دون إعداد وتخطيط، فدفعت ثمناً باهظاً، وتحملت خسائر فادحة؟؟

إن قوى الاستكبار في العالم لا تريد لشعوبنا أن تنهض وأن تتقدم، وقد ابتليت الأمة بقيادات تفتقد الإخلاص والنضج، فجرت الأمة إلى معارك خاسرة، وساعدها في ذلك سيطرة أجواء الانفعال، وغياب التعقل والحكمة، واستفزاز الأعداء الذين يريدون استدراج الأمة إلى معركة غير متكافئة، تستنزف قدراتها وتعرقل نهضتها، كما حصل في حرب الخليج الثانية، حيث احتل (صدام) الكويت، ودخل حرباً خاسرة مع التحالف الدولي بقيادة أمريكا، لقد أطلق صدام على حربته

المجنونة اسم (أم المعمارك) ورفع شعارات الإسلام، والدفاع عن القضية الفلسطينية، وكانت النتيجة دماراً في العراق، وعلى المنطقة كلها، والأمة العربية والإسلامية جمعاء.

ونعيش اليوم مأساة أخرى في أفغانستان، حيث تقود أمريكا زحفاً عسكرياً عالمياً، يمطر شعب أفغانستان الفقير بأنواع الصواريخ المتطورة، والقنابل المدمرة. ترى لماذا نُستدرج لهذه الحرب؟ ولماذا نعطي الفرصة لأمريكا وحلفائها حتى يحققوا أهدافهم الاستراتيجية، ومطامعهم الاستعمارية، على حساب مصالحنا ومستقبل أجيالنا؟ إنهم أعداؤنا، يتربصون بنا الدوائر، ولكن لماذا نعطيهم الفرصة وتتيح لهم المجال؟

إن الأمة بحاجة إلى نهضة حقيقية، تبني قوتها الذاتية، وتعيد صياغة حياتها السياسية والاقتصادية، وتركز جهودها على قضيتها المركزية فلسطين، أما المغامرات الطائشة فإنها تزيد الأمة ضياعاً وتمزقاً وتقدمها فريسة لمطامع الأعداء.

إن منهجية الإمام الكاظم عليه السلام تقدم لنا درساً وعبرة في أن لا نستدرج كأمة لمعركة لا نخطط لها، وأن نهتم أولاً ببناء القوة الذاتية، وتصلب الأرض التي نقف عليها.

الأمومة وظيفة أرقى

كلمة الجمعة بتاريخ ٣ شعبان ١٤٢٢هـ

في السنوات الأولى من عمر الإنسان تتشكل ملامح شخصيته، وتنغرس بذور صفاتها الأساسية، لذلك يسميها خبراء التربية بالسنوات التأسيسية، وفي تلك السنوات لا أحد أقرب إلى الطفل وأشد التصاقاً به من الأم، وبذلك تكون هي الجهة الأكثر تأثيراً في تشكيل شخصيته و صنعها .

ويتيح لها الارتباط العضوي والنفسي بينها وبين الطفل أكبر فرصة للتأثير، فهو في الأساس جزء منها، تكوّن في أحشائها، وتغذى من دمها، ثم ينشأ في حضانها، وينمو جسمه من لبنها، فمن الطبيعي أن تتعلق به، وأن ينشد إليها، هذه العلة الخاصة، والانشداد الوثيق، هي التي تجعل بيد الأم أدوات الرسم والتشكيل لشخصية الولد.

ولا تستطيع أي جهة أخرى أن تأخذ نفس مكانة الأم وتأثيرها، حتى وإن مارست وظائف الأم العملية، كالإرضاع والحضانة، لأنها لا تملك آليات التفاعل والارتباط النفسي والعاطفي الموجود لدى الأم، بل يمكن القول إن هناك برمجة غريزية، أودعها الخالق جلّ وعلا للاستجابة والتفاعل بين الأم ووليدها، ليس في عالم الإنسان فقط، بل في عوالم سائر الحيوانات أيضاً، فحتى عند الثدييات الدنيا مثلاً يبدأ التعلق مباشرة بعد الولادة، فالصغير يتعرف على أمه ويبقى إلى جانبها دون غيرها، والأم بدورها ترعى وتغذي وتحمي وليدها دون غيره.

لقد حاولت بعض النظريات في مجالات التربية وعلم النفس، أن تقصر تفسير ظاهرة التعلق والانشداد، بين الطفل والأم، على أساس تلبية الأم للحاجات البيولوجية للطفل، حيث توفر له متطلباته الأساسية. لكن هذه النظريات لم تصمد أمام النقد العلمي، والملاحظة التجريبية، ويرى (بولبي) ومجموعة من العلماء المتخصصين: أن هذه النظريات ليست مقنعة في تفسيرها لظاهرة التعلق عند الإنسان، ويستند (بولبي) إلى نتائج البحوث والدراسات، التي تبين أن التعلق يمكن أن ينمو ويتطور تجاه أفراد غير معينين بالعناية الجسدية للطفل وتطور العلاقة بين الأم والطفل يتجاوز تلبية الحاجات البيولوجية، ويعتمد إلى حد كبير على طبيعة التفاعل بين الجانبين، فإرضاء حاجات الطفل الأساسية عملية ضرورية، ولكنها غير كافية لنمو التعلق بين الأم والطفل، وغالباً ما يكون إرضاء هذه الحاجات فرصة للتفاعل المتبادل بكل أشكاله. فعندما ترضع الأم طفلها، تشعره بحرارة جسدها، وبحنو لمساتها، وبرقة عباراتها ومناغاتها، ويظهر الطفل بدوره علامات الرضا والارتياح، مما يشجعها على الاستمرار في التفاعل معه^(١).

الإشباع العاطفي:

أصبح من الواضح علمياً كما هو ملحوظ وجدانياً، مدى حاجة الطفل إلى الحنان والعطف الذي تفيضه عليه الأم، بشكل خاص، والذي لا يعوّض عنه أي بديل، وإن توفير الاحتياجات الجسدية للطفل، لا يمكن أن يغنيه عن حب أمه وحنانها، ذلك الحب والحنان المميّز الذي لا يصطنع ولا يستبدل.

(١) قنطار: الدكتور فايز، الأمومة نمو العلاقة بين الطفل والأم، ص ٣٧-٤١، عالم المعرفة، ١٦٦، الكويت.

حتى أن أبحاثاً علمية حديثة تشير إلى خطأ دارج من قبل المستشفيات التي يتم فيها التوليد بإشراف طبي، حيث يفصل الصغير عن الأم مباشرة بعد الولادة، لأسباب العناية الصحية، لكن نتائج هذه الأبحاث تخلص إلى القول: بوجوب وضع الوليد على تماس حسي مع الأم بعد الولادة مباشرة، وذلك لأهمية هذه اللحظات في العلاقات اللاحقة بين الطفل والأم، وأهمية توفير الفرصة للأم لرؤية الطفل وملامسته بعد الولادة مباشرة، فهي في أشد الحاجة لتحسه وتلمسه وتشمه، لذا يجب المزيد من الحذر قبل التفكير بفصل الطفل عن الأم بعد الولادة مباشرة.^(١)

إن الطفل يحتاج إلى الغذاء، ويمكن توفير حاجته الغذائية من أي مصدر، لكن أي تغذية للطفل، لا يمكن أن تكون بمستوى لبن الأم، لا من حيث القيمة الغذائية فقط، بل لما يوفره من فرصة للإشباع العاطفي، وإفاضة الحنان والحب على المولود، إضافة إلى ما تشعر به الأم من سعادة وسرور.

لذلك ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ليس للصبي لبن خير من لبن أمه»^(٢)، وعن علي رضي الله عنه: «ما من لبن يرضع به الصبي أعظم بركة عليه من لبن أمه»^(٣)، فحليب الأم تتناسب مركباته وحاجات الطفل خاصة في الأشهر الأولى، فهو قد صمم وركب ليفي بحاجات الطفل يوماً بيوم، ويعتبر رابطة فيزيولوجية محسوسة بين الطفل والأم، وامتداداً لحبل الولادة. وفوق ذلك كله، فإن قطرات حليب الأم التي يجتذبها الطفل، تصحبها دفقات عظيمة من العطف والحنان، تغذي

(١) المصدر السابق ص ٧٢.

(٢) المجلسي: محمد باقر، بحار الانوار ج ١٠٠ ص ٣٢٣، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي ج ٦ ص ٤٠، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الأضواء، بيروت.

نفسه إلى جانب تغذيته الجسدية.

ونفس الشيء يقال عن الحضانة، فقد يتوفر من يقوم بشؤون الطفل غير الأم، لكن لا أحد يوفر له ما تغدقه عليه الأم من حب وشفقة، وعطف وحنان.

لذلك قرر الإسلام أولوية الأم بإرضاع طفلها، وأحقيتها بحضانته في السنوات الأولى من عمره، على خلاف بين المذاهب والفقهاء في تحديد تلك السنوات.

إن انفصال الطفل عن الأم، وحرمانه من فيض حبها وعطفها، يحدث آثاراً سلبية عميقة في نفسه، تنعكس على تشكيل شخصيته، و مستقبل سلوكه، وسيرته في الحياة.

وكان العرب حينما تعجبهم متانة شخصية إنسان وقوتها، يصفونه بأنه (شبعان من حليب أمه) للتعبير عن ارتواء نفسيته، عطفاً وحناناً في صغره، مما جعله قوي الشخصية والجنان في ما بعد.

وتناقش دراسات تربوية واجتماعية حديثة، تأثير ابتعاد الأم العاملة عن وليدها عند ذهابها للعمل، وخاصة قبل إكمال السنة الأولى، وأن ذلك يعود بآثار سلبية على الأم والطفل، ومن الأفضل أن تمدد إجازة الأمومة إلى سنة كاملة.

وفي تقريره إلى منظمة الصحة العالمية قدم (بولبي) براهين عدة، تبين أن اضطراب الشخصية والعصاب، تكونان غالباً نتيجة الحرمان من عناية الأم، أو نتيجة لعلاقة متقطعة زمنياً، وغير دائمة بين الطفل والأم، وأن انقطاع العلاقة بينهما يعود بالنتائج السلبية على الطفل.^(١)

إن فيض حنان الأم يمنح نفس الطفل الأمن والاستقرار، ويغذي مشاعره بالطمأنينة والاستقامة، ويصلب شخصيته تجاه ما يستقبله في الحياة من مشاكل وأزمات.

البناء الثقافي والمعرفي:

يبدو العالم غريباً على الطفل حينما يتفتق إحساسه، ويبدأ وعيه، وتكون الأم هي أقرب شيء إليه، ينظر إلى ما يحيط به، ويتعامل معه من خلالها، فمنها يتعلم اللغة والكلام، وبواسطتها يتفهم ما يدور حوله. وبإمكان الأم الواعية أن تقوم بدور كبير في تنمية معارف طفلها، وزرع حب المعرفة في نفسه، وتربيته على التفكير، وتقوية مداركه العلمية، عبر التحادث معه، وإثارة اهتماماته، وتشجيعه على الاستفهام والبحث.

إن حالة الفضول والسؤال عن كل شيء، حالة طبيعية، تحصل عند الطفل مبكراً، وفي العوائل المتخلفة، قد تقمع هذه الحالة الإيجابية عند الطفل، ويستقل الوالدان كثرة تساؤلاته، وقد ينظر إليها باستخفاف، أو يجاب عليها بشكل خاطئ.

بينما يفترض أن يتيح فضول التساؤل عند الطفل فرصة مناسبة لتنمية معارفه، وتشجيع قدراته الذهنية.

والأم صاحبة الدور الأكبر في هذا المجال، ولا يصح أبداً أن تترك عقل ونفس طفلها ساحة مفتوحة أمام برامج التلفزيون، لتشكل ثقافته ومعارفه وفق توجيهات قد لا تكون منسجمة مع نظام القيم الديني والاجتماعي.

كما لا ينبغي الاستهانة بقدرات الطفل على الفهم والاستيعاب،

إن حقائق كثيرة، ومفاهيم مختلفة، يمكن تقديمها للطفل، عبر أساليب التوضيح والتبيين، وبواسطة التكرار والإعادة.

وكثيراً ما يكون نبوغ بعض الأطفال وتفوقهم الدراسي، ناتج عن التشجيع والاهتمام من قبل العائلة بالنمو المعرفي والبناء الثقافي.

التوجيه السلوكي:

كما يكتسب الطفل لغة الكلام من المحيط الذي يعيش فيه، كذلك يأخذ سلوكه وأسلوب تعامله وتعاطيه، من خلال ملاحظته وتقليده للقريين منه، إنه يأتي للحياة صفحة بيضاء فارغة، ثم تبدأ رسوم العادات والتقاليد التي ينشأ في أجوائها، تنعكس وترتسم على صفحة نفسه وسلوكه.

يقول الإمام علي عليه السلام: «إنما قلب الحدث كالأرض الخالية ما ألقى فيها من شيء قبلته»^(١).

ولأن الطفل يتأثر بالأقرب إليه، والأكثر التصاقاً به، فإن الأم هي المؤثر الأكبر في سلوكه في السنوات التأسيسية من عمره، تلك السنوات التي تتحكم في بناء شخصيته المستقبلية.

فالطفل شديد الملاحظة والتأمل في تصرفات أمه وحركاتها، ومن ثم يندفع لمحاكاتها وتقليدها، وتبقى في أعماق نفسه، وخبيا مشاعره، الكثير من الانطباعات عن مشاهداته ومعاشاته لسلوك المحيطين به فترة صغره، وخاصة الأم. هذه الانطباعات قد تصبح له مصدر توجيه وإلهام فيما يواجهه من مواقف وظروف.

(١) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة - كتاب رقم ٢٤، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان..

وإذا كان بعض العظماء والمفكرين والأدباء، قد تحدثوا عن بعض ما علق بذاكرتهم من فترة طفولتهم، وعن تأثيرات تلك الفترة في تشكيل شخصياتهم، فإنما هم يتحدثون عن ظاهرة عامة، لكل أبناء البشر، وميزة هؤلاء تعبيرهم عن هذه الظاهرة.

انطلاقاً من هذه الحقيقة فإن الأم الواعية، ذات السلوك القويم، والتوجيه التربوي، تصنع شخصيات أبنائها في مستوى رفيع، وبكفاءة عالية.

أمهات العظماء :

إن دراسة حياة العظماء في نشأتهم، والتأمل في ظروف تربيتهم العائلية، يكشف في غالب الأحيان عن دور الأمهات في صناعة شخصيات هؤلاء العظماء.

لقد تحدث القرآن الكريم عن نبي الله موسى ﷺ وظروف ولادته ونشأته، في آيات كثيرة، نقرأ فيها حضوراً فاعلاً لأمه، دون أي إشارة أو ذكر لأبيه عمران، مع تأكيد المصادر التاريخية على وجوده عند ولادة موسى ﷺ، وأن عمره آنذاك كان سبعين سنة، كما في تاريخ الطبري والكامل لابن الأثير.^(١)

أما نبي الله عيسى بن مريم ﷺ، فلم يكن له أب، وانفردت أمه برعايته وتربيته، وجاء ذكرها بالتعظيم والتقدیس في القرآن الكريم، بل خصصت سورة باسمها: سورة مريم.

وينقل عن (نابليون بونابارت ١٧٦٩-١٨٢١م) والذي أسس إمبراطورية عظيمة شملت معظم أرجاء أوروبا، ينقل عنه قوله: «إن ما

(١) الطبري: محمد بن جرير، تاريخ الطبري ج ١ ص ٢٧١، الطبعة الخامسة ١٩٨٩م مؤسسة الاعلمي - بيروت.

توصلت إليه اليوم هو من عند أمي»^(١).

وكتب أحد الباحثين: «تستطيع الأم الفاضلة أن تؤدي مهمة مئة أستاذ من أساتذة المدارس. هذا ما قاله الشاعر الإنجليزي جورج هربرت، وهذا ما أثبتته التاريخ. فـجورج واشنطن أول رئيس للجمهورية في الولايات المتحدة الأمريكية، كان قد فقد أباه وهو في الحادية عشرة من عمره، وما كان ليشبَّ على ما شبَّ عليه من رصانة الخلق، وقوة الشخصية، لو لم تكن أمه على جانب كبير من الحكمة والاعتدال، وقد تولت تربيته منفردة بعد وفاة أبيه. ويصدق ذلك كثيراً أو قليلاً على عدد من أعلام الأدب والعلم والشعر عبر التاريخ. نذكر منهم على سبيل المثال: جوته، وجرين، وشيللر، وبيكون، وارسكني. فلو لا تربية أمهاتهم لهم لما احتل هؤلاء مكانتهم بين أعلام المبدعين»^(٢).

إن كل أم ترغب الخير لولدها، وتتمنى أن يكون متقدماً متفوقاً، عليها أن تعلم أن ذلك رهن بحسن تربيتها، وإتقان رعايتها واهتمامها بتوجيهه، وتهذيب سلوكه.

أين دور الأب؟

لا يمكن إنكار دور الأب، ولا تجاهل تأثيره في تربية الأبناء، والحديث عن دور الأم إنما هو باعتبارها الأكثر التصاقاً بالولد، خاصة في الفترة الأولى من عمره، والتي يطلق عليها علماء التربية والنفس، أنها السنوات التأسيسية لتشكيل شخصية الإنسان.

لذلك نجد النصوص الدينية تؤكد على مكانة الأم، وحقها الكبير على الإنسان، فأتعابها وتضحياتها تجاه الولد، أثناء الحمل والولادة

(١) القائي: الدكتور علي، دور الأم في التربية ص ١٤ الطبعة الأولى ١٩٩٤ م دار النبلاء - بيروت.

(٢) مجلة العربي - الكويت، عدد ٩٥ ص ٩٥.

والحضانة، لا تقاس بأي جهد آخر، حتى جهد الأب.

ورد عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله من أبرُّ؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال أمك. قال: ثم من. قال: أباك. ^(١)

وروى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: «الجنة تحت أقدام الأمهات» ^(٢)

وواضح أن العلاقة بين الطفل والأم خاصة في السنوات الأولى، هي أوثق وأقوى من علاقته مع الأب، بسبب طبيعة دور الأم، لذلك تكون هي الأكثر تأثيراً عليه، وقدرة على صناعة شخصيته.

الوظيفة الأرقى:

تقاس أهمية أي وظيفة بعدة مقاييس من أبرزها ما يلي:

١. أهمية الإنجاز الذي تنتجه الوظيفة.
 ٢. مدى الجهد المبذول في القيام بها، والكفاءة المؤهلة لذلك.
 ٣. نسبة توفير البدائل والخيارات لأدائها.
- فكلما كان الإنجاز أهم، والجهد المبذول أكبر، والتأهيل المطلوب أرفع، والبدائل أقل، كانت الوظيفة أرقى وأعلى.
- على أساس هذه المقاييس فإنه يمكن اعتبار الأمومة أرقى وظيفة في المجتمع البشري، فهي ترتبط بإنتاج الإنسان نفسه، وصنع شخصيته، وذلك إنجاز لا يدانيه أي إنجاز.

(١) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي ج ٢ ص ١٥٩، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الأضواء، بيروت.

(٢) الهندي: علي المتقي، كنز العمال - حديث رقم ٤٥٤٣٩، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.

أما الجهد الذي تتطلبه مهمة الأمومة من حمل وولادة ورضاعة وحصانة، ففيه درجة قصوى من الخطورة والعناء والمشقة. ويعبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾^(١)، وفي آية أخرى ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾^(٢).

كما أن مؤهلات دور الأمومة صفات نفسية فطرية لا يمكن توفيرها بأي ثمن، إنها الحب الحقيقي، والحنان الصادق، والتحمل للعناء بكل رضا وسرور.

وعلى صعيد توفير البدائل والخيارات فإن من الواضح وجداناً وتجربة أن لا أحد يملأ مكان الأم، ولا يستطيع تقمص دورها المتميز. فالأمومة هي الوظيفة الأرقى، والأم التي تحسن أداء هذه الوظيفة، لا يمكن تمييز دورها بأي ثمن، ولا تحديد أجرها بأي مقابل، وكل إنسان مطوّق بفضلها، ومهما عمل وقدم لأمه فلن يستطيع مكافأتها. قال رجل لرسول الله ﷺ: إنَّ والدتي بلغها الكبر وهي عندي الآن أحملها على ظهري، وأطعمها من كسبي، وأميط عنها الأذى بيدي، وأصرف عنها مع ذلك وجهي استحياءً منها وإعظاماً لها، فهل كافأتها؟ قال: لا لأن بطنها كان لك وعاء وثديها كان لك سقاء، وقدمها لك حذاء، ويدها لك وقاء، وحجرها لك حواء، وكانت تصنع ذلك لك وهي تمنى حياتك، وأنت تصنع هذا بها وتحبّ مماتها.^(٣)

ومن المؤسف جداً ما تعيشه أغلب المجتمعات في هذا العصر، من إعلاء شأن الاهتمامات المادية والشهوانية، على حساب النوازع الإنسانية النبيلة، حيث تروج بعض الأفكار والتصورات التي تقلل من

(١) سورة الأحقاف آية ١٥.

(٢) سورة لقمان آية ١٤.

(٣) مؤسسة البعث، الطفل نشوؤه وتربيته - ص ٣٥٣ - الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - طهران.

قيمة دور الأمومة وتستخف به، في مقابل الإشادة بالأعمال الوظيفية الأخرى، التي تُدفع المرأة للقيام بها، وأصبحت بعض النساء تشعر بالهامشية والتخلف والخجل، إذا كان دورها متركزاً على القيام بمهمة الأمومة، بينما الوظيفة الأخرى مدعاة للفخر والاعتزاز.

إنه لا مانع من عمل المرأة في أي مجال من مجالات الحياة، لكن لا ينبغي أن يكون على حساب دور الأمومة، ولا يصح أبداً أن يستهان بقيمة هذا الدور.

وكما تطالب المنظمات الإنسانية والتربوية، فإنه ينبغي سن القوانين والتشريعات، التي تمكن المرأة العاملة من أداء وظيفة الأمومة المقدسة بالشكل المناسب.

إن الضعف والتقصير في أداء مهام الأمومة، ينعكس سلباً على شخصيات ونفسيات الجيل القادم. فلا بد من تعبئة وتوعية واسعة، تعيد هذه الوظيفة إلى مركز الصدارة في اهتمام امرأة اليوم.

التربية الصالحة :

إلى جانب إغداق الحنان والعطف، وتقديم الرعاية اللازمة للطفل، يجب أن تهتم الأم بغرس بذور الاستقامة والصلاح في نفسية ولبدها، وأن تسعى لإعداده للرقى في مدارج الكمال، إنها بسلوكها وسيرتها تستطيع أن تكون نموذجاً يحرص أبناؤها على الاحتذاء به، ومحاكاته، فاهتمامها بالمعرفة، والتزامها بالخلق القويم، وأداؤها للواجبات الدينية، يخلق في نفوس أبنائها نفس هذه التوجهات، ويدفعهم للأخذ بها.

كما أن محادثة الأم مع الأبناء، وتقديمها النصائح والإرشادات، وشرح حقائق الحياة ومعادلاتها لهم بلغة واضحة رقيقة، يسهم كثيراً في بناء شخصياتهم الواعية الناضجة.

عولمة الجور وانتظار العدل

كلمة الجمعة بتاريخ ١٠ شعبان ١٤٢٢هـ

لم يخل زمن من أزمنة التاريخ البشري من وجود الظلم والجور، فدائماً كان هناك من تسوّّل له نفسه، وتُغريه قوته بالاعتداء على الآخرين، لكن الجور والظلم في هذه العصور المتأخرة أصبح أشد بشاعة وأوسع نطاقاً.

فقد تمركزت القوة والقدرة عالمياً، وتطورت وسائل الفتك والدمار، وسيطرت النزعات المادية والمصلحية على النفوس، وتعززت التوجهات العدوانية في أحيانٍ كثيرة بمباركة مؤسسات ذات صبغة شرعية دولية، حيث تهيمن الدول الكبرى على قرارات مجلس الأمن الدولي، وتتمتع فيه بحق النقض (الفيتو)، كما تمارس نفوذها الطاغية في الأمم المتحدة، والمؤسسات التابعة لها.

إن الظلم والجور لم يعد الآن كما في السابق يجري ضمن دائرة محدودة، من شخص تجاه شخص، أو من قبيلة أو مجموعة تجاه أخرى، ولا من دولة تشن عدوانها على دولة ثانية، بل أصبح الظلم يأخذ شكل تحالف دولي، تشارك فيه دول الشرق والغرب، والشمال والجنوب، والدول الكبرى والصغيرة، والمتقدمة والنامية، ضمن إرادة قوة واحدة، تريد السيطرة على العالم، والهيمنة على الشعوب والمجتمعات.

لقد انتهى مع نهاية الحرب الباردة، وانتهاء الاتحاد السوفيتي، ومنظومة المعسكر الشرقي، عصر تعدد القوى والأقطاب، وأصبحت

أمريكا وحدها زعيمة العالم، ترفض أي تحدٍ لهيمنتها، وتجيّش العالم كله، وتحشد قواها لمواجهة من تراه خصماً لسياساتها، متمرداً على إرادتها.

ولأننا نعيش عصر العولمة، وتشابك المصالح وتداخلها، فقد أصبحت كل ميادين الحياة ساحة مفتوحة لقوى الظلم والجور، ولم يعد العدوان محصوراً في الجانب العسكري واستخدام القوة، بل اتسع نطاقه ليشمل كل الجوانب، من ضغوط سياسية، وتعبئة إعلامية، وتحريض ثقافي، وحصار اقتصادي، وتضييق أمني..

الجوع والفقير:

هذه الثروات الضخمة الموجودة في العالم، وحركة الإنتاج والتصنيع الهائلة، وهذا التقدم العلمي واذلتكنولوجيا الكبير، إنما يتنعم بخيراتها جزء صغير من البشرية، أما الأكثرية الساحقة فإنهم يعانون الفقر والجوع والأمراض والتخلف.

وذلك مظهر صارخ من مظاهر الجور والظلم في التاريخ المعاصر، إن أغنى ثلاثة أشخاص في العالم، يتجاوز مجموع ثروتهم مجمل الناتج الإجمالي لمجموعة الدول الأقل فقراً، والتي تضم حوالي ٦٠٠ مليون شخص.

وبينما يقدر حجم التداولات في أسواق العملات والبورصات العالمية يومياً حوالي ١, ٥ تريليون دولار، فإن البنك الدولي أصدر تقريره السنوي عن (مؤشرات التنمية ٢٠٠١) راسماً صورة كئيبة عن الفقر والجهل والمرضى في الأكثرية الغالبة من أبناء البشر، تتضح بعض معالمها في الإحصاءات والأرقام التالية:

■ من بين سكان العالم البالغ عددهم ستة بلايين نسمة يعيش ١, ٢

بليون إنسان على أقل من دولار واحد يومياً.

- توفي نحو ١٠ ملايين طفل تحت سن الخامسة في عام ١٩٩٩ م غالبيتهم بسبب أمراض يمكن الوقاية منها.
- لا يتنظم زهاء ١١٣ مليون طفل في المدارس.
- يتوفى سنوياً نحو نصف مليون امرأة أثناء الحمل والولادة، نتيجة لمضاعفات يمكن علاجها بسهولة أو الوقاية منها^(١).

وبين فترة وأخرى تحدث مجاعات رهيبة في مناطق من العالم، ويتفرج العالم على ضحايا الجوع والمرض، وهم يلفظون أنفاسهم، شاهدين على واقع الظلم والجور العالمي.

فقبل سنة تقريباً تناقلت وكالات الأنباء أخبار المجاعة في القرن الأفريقي، والتي هددت حياة عشرين مليون شخص، قضى كثير منهم بسبب الجوع والعطش والحر والمرض.

كتب مراسل صحفي زار إحدى تلك المناطق: «عشرات المدافن تحفر يومياً لضحايا القحط والمجاعة والأمراض في منطقة أوغادين.. غالبية الأطفال يموتون من سوء التغذية والأمراض، والذين ما زالوا على قيد الحياة يفترشون الأرض في أكواخهم، يتألمون من شدة المرض والجوع والقيظ. والذي يستطيع الكلام منهم يردد كلمة (جاشو) باللغة الصومالية، وتعني (أنا جائع).

وحينما يلمح السكان زائراً يرحبون به بلهفة لا اعتقادهم بأنه ربما يحمل إليهم الأمل في إنقاذهم، يأخذونه إلى خيامهم الممزقة، حيث يتمدد ضحايا الجوع أطفالاً وعجزة متهاكين لا يستطيعون الحراك.

(١) الحياة، جريدة يومية، لندن ٣٠ نيسان ٢٠٠١ م

أما المساعدات التي تصل عبر بعض الهيئات الخيرية للإغاثة فهي لا تكاد تكفي لأكثر من ١٠٪ من حاجة أولئك الجياع»^(١).

مأساة الشعب الأفغاني:

بعد أن رزح الشعب الأفغاني فترة تحت وطأة الاحتلال السوفيتي، وقدم تضحيات كبيرة للخلاص منه، أصبح بعد نيل حريته واستقلاله نهياً للمطامع والمؤامرات، وآلت به الأمور حالياً ليكون فريسة لعدوان بشع تقوم به أمريكا بتأييد ومشاركة من أغلب الدول.

إننا لا ندافع عن حكومة طالبان، فهي بسياساتها الخاطئة، وتوجهاتها الموغلة في التخلف والانغلاق، لم تبق مجالاً لكي يتعاطف معها أي مسلم واع.

كما أننا ندين الهجمات الانتحارية على نيويورك و واشنطن لاستهدافها الأبرياء والمدنيين.

لكن ما تقوم به أمريكا وحلفاؤها في أفغانستان، هو ظلم وجور فظيع، يحصل على مرأى ومسمع من العالم، على شعب مستضعف فقير، بحجة مكافحة الإرهاب.

فخلال عشرين يوماً من القصف العنيف على أفغانستان يقدر المراقبون أن نصيب كل يوم كان ٣٠٠ قنبلة..

وقد بدأت أمريكا تستخدم القنابل الانشطارية التي تحوي متفجرات مضادة للأفراد وتخرق التصفیحات.

وقبل أيام أصابت القنابل الأمريكية حافلة تقل عدداً من المتوجهين إلى الصلاة في مدينة قندهار مما أدى إلى مقتل العشرات منهم. كما

(١) الحياة، جريدة يومية، لندن ٢٧ نيسان ٢٠٠٠م.

أصاب القصف إحدى المستشفيات ليقتل جميع المرضى والمشرفين على علاجهم، وأصاب مستودعات ومخازن أغذية وأدوية للصليب الأحمر.

إن من يعيش داخل أفغانستان يعيش الرعب والخوف، ويتعرض لخطر الموت، ومن يهرب منها يصبح لاجئاً يعاني الفقر والجوع، ويتوقع مسؤولون في إحدى مؤسسات الإغاثة وفاة ١٠٠ ألف أفغاني من اللاجئين في الأشهر المقبلة!!

في انتظار العدل :

توقعت نصوص دينية كثيرة هذه الحالات من انتشار الظلم والجور، وتحولته إلى ظاهرة عالمية، لكن هذه النصوص لا تذكر ذلك في سياق تكريس حالة الإحباط واليأس، بل إنها تؤكد على التطلع للخلاص والإنقاذ، وتحيي في النفوس روح الأمل والثقة بالمستقبل الأفضل.

إنها تبشر بحركة عالمية واسعة، تقاوم الظلم والجور، وتؤسس لحضارة إنسانية قائمة على العدل والقسط.

وذلك على يد إمام مصلح منقذ من عترة الرسول محمد ﷺ هو الإمام المهدي عليه السلام.

وخروج الإمام المهدي لمقاومة الجور وتحقيق العدل في العالم، قضية تناولتها نصوص وأحاديث كثيرة في مختلف المصادر الإسلامية، وهي موضع اتفاق بين السنة والشيعة، والخلاف إنما هو في بعض تفاصيلها.

ومن المصادر الحديثية التي اهتمت بموضوع الإمام المهدي عليه السلام (سنن أبي داود) حيث أفرد له فصلاً بعنوان (كتاب المهدي) ذكر فيه

أحد عشر حديثاً، بدأها بثلاثة أحاديث، عن عدد الخلفاء بعد رسول الله ﷺ، وأنهم اثنا عشر خليفة، كحديث عامر عن جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال هذا الدين عزيزاً إلى اثني عشر خليفة» قال فكبر الناس وضجوا، ثم قال كلمة خفيفة، قلت لأبي: يا أبت ما قال؟ قال: كلهم من قريش.^(١)

ثم يورد حديث أبي الطفيل عن علي رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ قال: «لو لم يبق من الدهر إلا يوم، بعث الله رجلاً من أهل بيتي يملؤها عدلاً كما ملئت جوراً»^(٢).

وحديث سعيد بن المصيب، عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المهدي من عترتي من ولد فاطمة»^(٣).

ولعلنا نستوحي من الأحاديث التي بدأ بها أبو داود كتاب المهدي، والتي تتحدث عن الخلفاء الاثني عشر، أن الإمام المهدي هو امتداد لتلك السلسلة وتمامها وختامها.

وسنن أبي داود من مصادر الحديث المعتمدة عند أهل السنة، وهو ثالث الكتب الستة المشهورة، بعد صحيح البخاري ومسلم.

وأبو داود هو سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٠٢ - ٢٧٥هـ).

معطيات الإيمان بالمهدي:

حينما نجد عدداً كبيراً من النصوص الدينية، الواردة بأسانيد وطرق مختلفة، والمذكورة في المصادر والمراجع الحديثية المعتمدة، وهي تؤكد موضوع خروج الإمام المهدي ليملاً الدنيا عدلاً بعد ما ملئت

(١) السجستاني: سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود - حديث رقم ٤٢٨١.

(٢) المصدر السابق - حديث رقم ٤٢٨٣.

(٣) المصدر السابق - حديث رقم ٤٢٨٤.

جورا، وحينما نرى اهتمام علماء الأمة من مختلف الطوائف والمذاهب بإثبات هذه القضية، والدفاع عنها، والردّ على المشككين فيها، فذلك يعني أهمية القضية وموقعيتها في الفكر الإسلامي.

هذه النصوص إضافة إلى ما تستهدفه من تبين حقيقة ثابتة، فإنها تريد تفعيل معطيات الإيمان بهذه الحقيقة في حياة الإنسان المسلم، وواقع الأمة الإسلامية.

فما هي معطيات الإيمان بخروج الإمام المهدي وحركته الإصلاحية العالمية؟

أولاً: إحياء روح الأمل في نفس الإنسان المسلم والأمة المسلمة، فمهما تعاظمت الخطوب، واشتدت الكروب، لا يصح أبداً الاستسلام لليأس، ولا الخضوع للإحباط. إن فقدان الأمل يعني الاعتراف بالهزيمة والعجز، وبالتالي توقف السعي والحركة لبلوغ الهدف.

والهزيمة النفسية أخطر من الهزيمة المادية، حيث لا تقوم بعدها للمهزوم قائمة، بينما قد يستجمع المغلوب قوته من جديد، ويتلافى نقاط ضعفه، ويحقق الانتصار والتقدم.

إن الإيمان بخروج المهدي يعني الثقة بمستقبل الإسلام والأمة، وأن النكسات والأزمات هي حالات مؤقتة محدودة، مما يعطي الساحة الإسلامية زخماً معنوياً مستمراً، يمكنها من تجديد ذاتها، واستعادة نشاطها، والتغلب على أزماتها.

ثانياً: التطلع للعدل: بأن لا ينساق الإنسان مع تيار الظلم والجور، وإن كان ملاً الدنيا كلها، بل يبقى رافضاً له، متطعاً إلى زواله ونهايته.

وذلك يستلزم وعي الإنسان المؤمن — بالإمام المهدي — لما يجري

في العالم من أوضاع وأحداث، قارئاً لها برؤية صحيحة، لئلا تلتبس عليه التوجهات والمواقف، ولا ينخدع بزيف الباطل وإغراءاته.

فلا يسمح لنفسه بأن يكون جزءاً من واقع الجور، ولا أن يمارس شيئاً من الظلم، في مختلف مستوياته. وكيف يقارب الجور وهو يتحفظ نفسياً وذهنياً لمقاومته؟ وكيف يخالف العدل وهو يتطلع لخروج الإمام الذي يحققه؟

إن الإيمان بالمهدي كحاسم لمعركة العدل ضد الجور، يعني أن يتهيأ الإنسان، ويضع نفسه ضمن معسكر العدل، فيتحلى بالعدالة والإنصاف في تعامله مع الآخرين، حسب موقعه كفرد، أو كرتب أسرة، أو صاحب منصب، أو مدير مؤسسة... أما إذا كان يمارس الظلم والاعتداء على حقوق الآخرين، وهو يدعي التطلع والانتظار لخروج إمام العدل، فهو تناقض وخداع!!

ثالثاً: الرؤية العالمية: إننا نعيش عصر العولمة بما تعنيه من سقوط الحواجز والحدود أمام حركة المعلومات والأشخاص والسلع، والعالم الآن ساحة مفتوحة على بعضها، وقرية صغيرة متداخلة الأحياء.

وعلينا كمسلمين أن ننطلق في حركتنا من رؤية عالمية، فنفكر في واقع البشرية جمعاء، ونبادر إلى وضع الحلول والمعالجات لمشاكل الإنسانية، ونجتهد ونسعى للتخاطب مع الإنسان على مستوى العالم.

وديننا (الإسلام) رسالة إنسانية عالمية، يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(١) وفي آية أخرى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

(١) سورة سبأ آية ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء آية ١٠٧.

وتكررت في القرآن الكريم عشرات الآيات تخاطب الناس بشكل عام: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ أو ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾.

لكن واقع الخطاب والتحرك الإسلامي لا يرقى إلى هذا المستوى من الرؤية العالمية، فلا يزال التفكير والاهتمام في حدود الدوائر الضيقة التي ننتمي إليها اجتماعياً أو مناطقياً أو مذهبياً، بينما نجد الآخرين يتحركون على مستوى العالم، ويصوغون خطابهم لاستقطاب الإنسان من أي أمة كان، وينشئون المؤسسات التي تهتم بمشاكل البشر عامة، كمنظمة العفو الدولية، وأطباء بلا حدود، ومكافحة التمييز، ومقاومة الأمراض الفتاكة كالإيدز، وحماية البيئة، وأخيراً مناهضة العولمة. إن الإيمان بالإمام المهدي يعني التطلع لإنقاذ العالم كله، والتفكير في مستقبل البشرية جمعاء، فهو يخرج لا لإصلاح العالم الإسلامي فقط، أو لقيادة الطائفة الشيعية فحسب، بل ليملاً الأرض عدلاً، بكل من على ظهرها من البشر، بعدما ملئت جوراً.

وعلى الواعين و المتصددين للقضايا الدينية أن يتجاوزوا حالات الانغلاق والانكفاء المذهبي أو الطائفي أو الديني، وأن يرتقوا إلى مستوى الرؤية الإسلامية العالمية، فيكون خطابهم إنسانياً بمضمونه الديني، ويضعون البرامج والخطط على مستوى العالم، وليس على مقاسات قراهم وعشائهم، ويفكرون في التحديات الكبرى التي تواجه الإنسانية في هذا العصر، لا أن ينشغلوا بالجدالات الكلامية والنظرية الموروثة من العصور السابقة.

رابعاً: التوجه لأهل البيت عليهم السلام: هل هي مصادفة أن تكون بداية الإسلام على يد الرسول محمد عليه السلام وانبعث الإسلام عالمياً آخر الزمان على يد رجل من عترته وذريته؟

وهل الصلاة على آل محمد في التشهد للصلاة أمر اعتباطي؟ حيث اتفق المسلمون على ذلك، إما كسنة كما هو رأي الحنفية والمالكية أو كواجب كما هو رأي الشيعة والحنابلة الذين يوجبون الصلاة على النبي وآل النبي في التشهد للصلاة.

قال ابن قدامة الحنبلي في المغني: «ويتشهد بالتشهد الأول، ويصلي على النبي فيقول: اللهم صل على محمد وآل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.. وهي واجبة في صحيح المذهب»^(١).

ثم إن النصوص الواردة في فضل أهل البيت من آيات القرآن كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾^(٢)، وآية المباهلة: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾^(٣) وغيرها، وكذلك الأحاديث الثابتة عن رسول الله ﷺ في التذكير بحق أهل البيت ومقامهم، كالحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه بسنده عن زيد بن أرقم أنه قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فبينا خطيباً، بماء يدعى حُماً بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به» فحث على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي. أذكركم الله في أهل بيتي

(١) ابن قدامة الحنبلي: عبدالله بن أحمد، المغني ج ٢ ص ٢٢٨.

(٢) سورة الأحزاب آية ٣٣.

(٣) سورة آل عمران آية ٦١.

أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»^(١).

هل هذه النصوص عادية في مستوى سائر النصوص التي تتحدث عن فضل بقية الصحابة والمسلمين؟

أم أن في هذه الأمور وأمثالها دلالة وإشارة على موقعية متميزة لأهل البيت عليهم السلام؟

لا شك أن ذلك هو ما يتبادر إلى الذهن السليم، وما تؤكد أي دراسة موضوعية لمكانة أهل البيت وسيرتهم الطيبة.

وقضية خروج الإمام المهدي من أهل البيت عليهم السلام ينبغي أن تكون دافعاً عند من يؤمن بها، للاقتراب الأكثر من أهل البيت، والتمسك بولائهم، ولأخذ أمور الدين والشرع منهم.

(١) القشيري: مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم - حديث رقم ٢٤٠٨ فضائل الصحابة.

المرأة وقوة الشخصية

كلمة الجمعة بتاريخ ١٧ شعبان ١٤٢٢هـ

هل تحتاج المرأة إلى قوة الشخصية؟

وهل تنسجم قوة الشخصية مع طبيعتها الأنثوية الناعمة؟

أو تتناسب مع دور الأمومة العظيم الموكل إليها والذي يتطلب أعلى درجات العطف والحنان؟

لمناقشة هذا الموضوع، والإجابة على التساؤلات التي يثيرها، لابد أولاً من تحديد المقصود بقوة الشخصية.

معنى قوة الشخصية :

إننا نفرّق بين نوعين من الأجسام: جسم قوي، وجسم ضعيف، وتقاس قوة الجسم بدرجة مناعته تجاه الجراثيم والمكروبات، وتقلبات المناخ، وبمستوى أداء أجهزته وأعضائه لمهامها ووظائفها.

كما نفرّق بين نوعين من الشخصيات: شخصية قوية، وأخرى ضعيفة، ولو تأملنا الفرق بين هاتين الشخصيتين، لتبيّن لنا أن الشخصية القوية تمتاز بالسّمات التالية:

١. الثقة بالنفس: فكلما كان الإنسان أكثر ثقة بنفسه كانت شخصيته أقوى، حين يدرك ما ينطوي عليه من كفاءات وقدرات، ويعرف ما يجب أن يتمتع به من حقوق وامتيازات، ويقدر ما حباه الله

تعالى من نعم، ويحترم إنجازاته ومكاسبه، فتتجلى قوة شخصيته، وثقته بنفسه.

في المقابل فإن غفلة الإنسان عن مؤهلاته، وعدم توجهه إلى ما يكتنز من طاقات، وانبهاره بما لدى الآخرين، هو الذي يفقده الثقة بنفسه، ويصيبه بضعف الشخصية.

٢. التعبير عن الذات: تدور في ذهن كل إنسان آراء وتصورات، وترسم في نفسه مشاعر وأحاسيس، تجاه أحداث أو أشخاص أو قضايا، لكن القليل من الناس هو من يعبر عن أفكاره وأحاسيسه في المواقف المناسبة، وتلك هي سمة من سمات قوة الشخصية.

إن الكثيرين يكتمون آراءهم، ويحبسون مشاعرهم، خجلاً من إبدائها، أو تهيئاً من عدم رضا الآخرين عنها، أو تشكيكاً منهم في قيمة ما لديهم من أفكار وانطباعات، وما إذا كانت تستحق الاهتمام أم لا؟ ويحدث أحياناً أن يضم الإنسان مجلس يُناقش فيه أمر من الأمور، ويكون له رأي في ذلك الأمر، لكنه يتردد في التعبير عنه، ثم يُفاجأ بطرح نفس الرأي من شخص آخر، واهتمام الحاضرين به، فيأسف لتفويته الفرصة على نفسه.

وقد يستمع الإنسان لخطيب أو متحدثٍ حول موضوع ما، وتكون لديه مناقشة أو نقد أو تساؤل، لكنه لا يجرؤ على الطرح، فإذا ما خرج من المكان، رفع صوته معترضاً منتقداً.

والبعض من الناس يصعب عليه التعبير عن مشاعر الارتياح والرضا حتى أمام القريبين منه، فلا يقدم الشكر لزوجته، ولا يبدي التقدير لولده، ولا يثنى على جهود زميله، في مواقف وتجاه خدمات تملأ نفسه بالراحة

والإعجاب. وهو مؤشر واضح على ضعف الشخصية.

٣- الدفاع عن المصالح: يتحمل الإنسان مسؤولية الدفاع عن ذاته، وحماية مصالحه وحقوقه المشروعة، فكما لا يجوز له الاعتداء على حقوق الآخرين، كذلك لا يصح له التفریط بحقوقه، وتضييع مصالحه، ورد في أحد الأدعية المأثورة: «اللهم إني أعوذ بك أن أُظلمَ أو أُظلم، أو أعتدي أو يُعتدى عليّ».

إن البعض من الناس تتعرض مصالحه للخطر، ويُعتدى على حقوقه، فيتألم ويتأذى، لكن دون أن يتخذ أي موقف للدفاع عن الذات، أو لحماية المصالح والحقوق، لشعوره بالعجز والضعف، وحتى في المواقف البسيطة، والحالات العادية، كالبيع والشراء، وأمور الخدمات، فيبيع شيئاً أو يشتري شيئاً بثمان معين، ثم يتأسف لأنه إنما قبل خجلاً من فلان، أو تحت إلحاح فلان!

إنه يتحمل التزامات ترهقه، أو يتنازل عن مصالح تهمة لأن أحداً قد طلب منه ذلك و ألح عليه، بدافع الحياء أو الخجل أو الإحراج، مع عدم اقتناعه ورضاه، وقد تسمع من يقول ما كنت أرغب في هذا الأمر لكن ماذا أصنع وقد ضغط علي فلان؟

بالطبع لا مانع من التسامح مع الآخرين، وتقديم التنازلات، إذا كان ذلك بقرار واختيار ذاتي، وعن قناعة ورضا، بل هو أمر مطلوب ومرغوب.

أما أن يستجيب الإنسان ويتنازل من منطلق الشعور بالعجز والخجل، والتساهل بحقوقه، فذلك دليل ضعف الشخصية واهتزازها.

لذلك يروي الحسين عن أبيه عن جده رسول الله ﷺ أنه قال:

«المغبون لا محمود ولا مأجور»^(١) فالذي يفرط في حقوقه ومصالحه، ويتيح الفرصة لتلاعب الآخرين عليه، هذا لا يجعله في موقع التقدير والاحترام، ولا يكسبه الأجر من الله.

شخصية المرأة:

ربما يُفَضَّل أغلب الرجال لو خير بين امرأة قوية الشخصية، وأخرى ضعيفة الشخصية، لاختار النمط الثاني، لأنه يريد امرأة تعطيه الفرصة لممارسة سلطته عليها، وتكون خاضعة له بشكل تام، دون أي مناقشة أو اعتراض.

وربما ناقش كثيرون في مدى تناسب صفة قوة الشخصية مع طبيعة المرأة، ومهامها الأساسية في الحياة الاجتماعية؟

فهي يجب أن تكون زوجة متوافقة مع زوجها، خاضعة لقيومته عليها، وأن تكون أماً تفيض على أبنائها العطف والحنان، وتغمرهم بالحب والرأفة.

وإذا كان الرجل يحتاج إلى قوة الشخصية لمواجهة أزمات الحياة ومشاكلها، فإن المرأة تحت حماية الرجل، وهو الذي يدرأ عنها المصاعب والأخطار.

لكن هذا الطرح فيه تسطيح لدور المرأة، وتجاهل لمقومات إنسانيتها، فهي إنسان أولاً وقبل كل شيء، حباها الله تعالى كل الاستعدادات والمؤهلات الخيرة، لكي تنطلق بها في إنسانيتها، تماماً كالرجل.

وقوة الشخصية سمة تقدم، وضمنة نجاح للإنسان في هذه الحياة،

(١) القرشي: باقر شريف، حياة الإمام الحسين ج ١ ص ١٣٨.

بشقيه الذكر والأنثى.

ويمكننا أن نتلمس بعض موارد الأهمية لهذه الصفة في حياة المرأة، وانعكاسها على أداء دورها الاجتماعي بشكل أفضل و أتقن، في أكثر من بعد وجانب من جوانب الحياة.

مواجهة التحديات:

تتعرض المرأة كالرجل لألوان من المصاعب والتحديات في هذه الحياة، وعليها أن تواجهها مباشرة، فحماية الرجل لا تتوفر لها ولا تنفعها دائماً، وقوة الشخصية هي السلاح النافع في ظروف التحديات والمواجهة.

فماذا تصنع المرأة إذا تعرضت لعدوان، ولم يكن إلى جانبها رجل؟ هل تخضع له وترفع راية الاستسلام؟

ثم ماذا لو كان مصدر العدوان عليها من قبل المسؤول عن حمايتها؟ وهذا ما قد يحدث أحياناً، فهل تستطيع الدفاع عن حقوقها بشخصية ضعيفة خانعة؟

وحينما يتعرض دينها ومجتمعها للخطر، هل يمكنها الإسهام في معركة الدفاع عن الدين والوطن، إن لم تتصف بالقوة والصلابة في شخصيتها؟

لقد أشار الفقهاء إلى أن بعض حالات الجهاد قد توجب على المرأة المشاركة في ميادين القتال.

وتحدث التاريخ الإسلامي عن مواقف بطولية سجلتها المرأة المسلمة في ساحة المعركة والجهاد، كموقف أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية، والتي شهدت معركة أحد، والحديبية، وحيناً، وحرب اليمامة

ضد مسيلمة الكذاب، وقطعت يدها في حرب اليمامة، وحينما حلت الانتكاسة بالجيش الإسلامي في معركة أحد، وانهزم الرجال، ولم يبق مع الرسول ﷺ إلا نفر قليل، كانت نسبة في مقدمة المدافعين عن رسول الله ﷺ، حتى أصيبت باثني عشر جرحاً، وقال عنها رسول الله ﷺ مشيداً ببسالته وقوة شخصيتها: «ما التفت يميناً وشمالاً يوم أحد إلا ورأيتها تقاتل دوني». (١)

مثل هذا الموقف البطولي لا يصدر إلا من شخصية قوية متماسكة.

إن المرأة القوية الشخصية قد تلعب دوراً في حماية الرجل في المواقف الصعبة، ولا تحمي نفسها فقط، ألم يقل رسول الله ﷺ عن زوجته خديجة بنت خويلد: «أمنت إذ كفر الناس، وصدقتني وكذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس»، قال أبو إسحاق: كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله، وصدق بما جاء به، فخفف الله بذلك عن رسول الله ﷺ، لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه إلا فرّج الله عنه بها، إذا رجع إليها تُبَّتته وتخفف عنه، وتصدقه، وتهوّن عليه أمر الناس، رضي الله عنها. (٢)

وكذلك دافعت فاطمة الزهراء ﷺ عن حق علي بن أبي طالب، ووقفت زينب بنت علي إلى جانب أخيها الحسين في نهضته... وفي التاريخ الماضي والحاضر شواهد كثيرة عن بطولات النساء، ودفاعهن عن قضايا مجتمعاتهن العادلة والمشروعة.

(١) باشميل: محمد أحمد، موسوعة الغزوات الكبرى - أحد ص ١٥٣، الطبعة الثامنة ١٩٨٥م مكتبة ابن تيمية - القاهرة.

(٢) ابن الاثير: علي بن محمد الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٧ ص ٨٣-٨٦، دار الكتب العلمية - بيروت.

من أجل تربية سليمة :

نريد لأبنائنا أن يكونوا أقوياء في شخصياتهم، وهم يتربون في أحضان و حجور أمهاتهم، فإذا كانت الأم ضعيفة الشخصية هل تستطيع أن تربي أبنائها على الشجاعة والإقدام؟

ينقل عن الإمام علي عليه السلام أنه أمر ابنه محمد بن الحنفية بالهجوم، وكان حامل اللواء في حرب الجمل، فأجهز على العدو، لكن ضربات الأسنة، ورشقات سهام منعه من التقدم، فتوقف قليلاً، وسرعان ما وصل إليه الإمام، وقال له احمل بين الأسنة. فتقدم قليلاً ثم توقف ثانية، فتأثر الإمام من ضعف ابنه بشدة، وصاح به: «أدركك عرق من أمك»^(١).

إن الارتباط الوثيق بين الأم والولد، في السنوات التأسيسية التي تشكل فيها نفسيته، يجعل تأثير الأم في تكوين شخصيته كبيراً، فإذا كانت تمتلك قوة الشخصية، فستغرس هذه الصفة في أبنائها، وعلى العكس من ذلك، قد تربيهم على الضعف والخنوع حين تكون مهزوزة الثقة بنفسها.

أمام الإغواء والإغراء :

تتعرض المرأة وخاصة في الحياة المعاصرة للكثير من محاولات الإغواء والإغراء، حيث تمتلئ الأجواء العامة بوسائل الإثارة والتحريض للشهوات والغرائز، فيندفع المستجيبون لهذه الإثارات بحثاً عن فرص لإشباع غرائزهم المتحفزة، ويستخدمون مختلف أساليب الإغواء والإغراء للإيقاع بضحاياهم من النساء والفتيات في شبك أهوائهم

(١) فلسفي: محمد تقي، الطفل بين الوراثة والتربية ج ١ ص ٦١ الطبعة الثانية ١٩٩٢م - مؤسسة الأعلمي - بيروت.

الطائشة، وتدفع المرأة الضحية ثمناً باهظاً من مستقبلها الحياتي، ووضعها الاجتماعي، بينما يخرج الرجل بأقل قدر من الخسارة والضرر. وعلى مستوى كل المجتمعات البشرية المعاصرة تتعرض المرأة لحالات كثيرة من التحرش والاعتداء والاعتصاب.

وحتى في مجتمعاتنا المحافظة أصبحنا نواجه اختراقاً حاداً لأننا الاجتماعي والأخلاقي، عبر وسائل الاتصال الحديثة كالتليفون والإنترنت، وعبر محاولات استدراج الفتيات بالكلام المعسول، والوعود البراقة، وفي بعض الأحيان بوسائل الابتزاز الرخيصة... إن القوانين الرادعة، والأعراف الاجتماعية، ما عادت كافية للوقوف أمام تأثيرات هذه الأجواء المفتوحة، وأساليب الإغواء والإغراء المكثفة، والحصانة الأفضل، تكمن في قوة شخصية المرأة، فالمرأة الناضجة، الواثقة من نفسها، الجريئة في الدفاع عن مصالحها، هي التي تستعصي على محاولات الإغراء، ووسائل الابتزاز.

إن ملاحظة فاحصة لأغلب ضحايا حالات الإغراء والإغواء من الفتيات، تكشف أن ضعف الشخصية هو الثغرة الكبيرة التي ينفذ منها المغرضون، فالبنت التي تُسحق شخصيتها وسط العائلة، والفتاة التي تعيش خواءً وفراغاً نفسياً، والمرأة التي تصدر حقوقها من قبل زوجها، قد تصبح فريسة سهلة للمنحرفين والعابثين.

النجاح في العلاقات:

قوة الشخصية وما ينبثق عنها من صفات الثقة بالنفس، والتعبير عن الذات، والسعي للدفاع عن المصالح، تجعل الإنسان أقدر على النجاح في علاقاته مع الآخرين، فهو يعيش الاستقرار النفسي، والوضوح في التعامل، وبذلك يعرف حدود مصالحه ومصالح الآخرين، كما يسهل

على الآخرين إدراك توجهاته ومتطلباته.

والمرأة القوية الشخصية تريح زوجها وعائلتها، وتحمل عنهم الكثير من أعباء حياتها وشؤونها، وتكسب ثقتهم واعتمادهم.

وشتان بين صنفين من النساء: امرأة تدير شؤون بيتها ونفسها بثقة واقتدار، وتترك لزوجها ما لا تستطيع من الأعمال والمهام، وأخرى تهتز أمام أي مشكلة، وتخاف من التعامل مع أي جهة أو موضوع، ولا تكاد تقوم بأي مهمة خارج ما ألفته دون وجود رجل معها.

إن التاريخ يحدثنا عن نساء عظيمات، نجحن في تحمل أعباء قيادية على صعيد مجتمعاتهن، وعن نساء كنَّ مرجعية في أوساط أهاليهن و عوائلهن، يلجأ إلى رأيهن في الأزمات، ويعتمد عليهن في معالجة المشكلات. وفي عصرنا الحاضر نماذج كثيرة من هذا القبيل.

بينما نجد الغالبية من النساء في مجتمعاتنا يعانين من ضعف شديد في شخصياتهن، بحيث يفشلن في حياتهن، وفي بناء علاقاتهن مع المحيطين.

وإذا كان بعض الرجال يستصعب السيطرة على المرأة القوية الشخصية، فإن عليه أن يعيد النظر في أسلوب تعامله، وطريقة تعاطيه، وأن يدرك أن العلاقة الزوجية الناجحة لا تتم بأسلوب الفرض والسيطرة، وإنما بالفهم والتفاهم، والاحترام للحقوق المتبادلة.

وإيجابيات قوة شخصية المرأة أهم وأكبر مما قد يبدو للرجل من سلبياتها وإشكالياتها.

بين الحياء وقوة الشخصية

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٤ شعبان ١٤٢٢ هـ

إذا كان مطلوباً أن تتحلّى المرأة بقوة الشخصية فأين موقعية صفة
الحياء إذاً؟

أليس هناك تناقض بين الصفتين بما تعنيه الأولى من جرأة وإقدام،
وما تستلزمه الأخرى من تحفّظ وهدوء؟

إن الحياء صفة إيجابية حسنة للرجال والنساء، حتى ورد عن رسول
الله ﷺ أنه قال: «إن لكل دين خُلُقاً وإن خُلُقَ الإسلام الحياء» عن أنس
وابن عباس^(١) وفي حديث آخر عنه ﷺ: «إن الحياء من الإيمان» عن ابن
عمر^(٢) وعنه ﷺ: «الحياء زينة»^(٣). ويروى عن الإمام علي^(عليه السلام) أنه قال:
«أحسن ملابس الدنيا الحياء»^(٤)

وتأخذ صفة الحياء أهمية أكبر بالنسبة للمرأة، فهي تصونها عن
الابتذال، وتجعلها أكثر رزانة وانضباطاً، وأبعد عن مواقع الفتنة والإثارة،

(١) الهندي: علي المتقي، كنز العمال - حديث رقم ٥٧٥٧، الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ، مؤسسة
الرسالة.

(٢) المصدر السابق - حديث رقم ٥٧٦٧.

(٣) البخاري: محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري - حديث رقم ٦١١٨، دار الكتب العلمية،
بيروت.

(٤) الأمدي التميمي: عبدالواحد، غرر الحكم ودور الكلم، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م،
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

يقول الإمام علي عليه السلام: «على قدر الحياء تكون العفة». (١)

وملاحظ أن المرأة بطبيعتها أكثر نزوعاً إلى الحياء من الرجل، فرغم أن اندفاعاتها الغريزية الجنسية لا تقل عن الرجل، إلا أنها أفضل تحكماً وانضباطاً منه. حتى ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الحياء عشرة أجزاء فتسعة في النساء وواحد في الرجال» (٢).

ويُضرب المثل بين الرجال عادة بحياء المرأة، فإذا أُريد المبالغة في نعت رجل بالحياء، يقال إنه أحياء من فتاة. وهكذا تحدث الأصحاب عن شخصية رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عن أبي سعيد الخدري: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أشد حياءً من العذراء في خدرها» (٣).

وكان مألوفاً في المجتمع أن تلوذ الفتاة بالصمت، حينما تُسأل عن رأيها في الزواج ممن تقدم لخطبتها، حياءً وخجلاً، فاعتبر الشرع سكوتها دليلاً على رضاها، لأن إبداء الرفض لا يستلزم حياءً.

تأسيساً على ما سبق لماذا التأكيد على قوة الشخصية لدى المرأة، إذا كان ذلك على حساب صفة الحياء المطلوبة في شخصيتها؟

معنى الحياء:

عرّف الراغب الاصفهاني في مفرداته الحياء بقوله: الحياء انقباض النفس عن القبائح وتركها. وعرفه آخرون بأنه: الترقّي عن المساوي خوف الذم.

(١) المصدر السابق.

(٢) الهندي: علي المتقي، كنز العمال - حديث رقم ٥٧٦٩، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.

(٣) البخاري: محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري - حديث رقم ٦١١٩، دار الكتب العلمية، بيروت.

وقد ورد عن الإمام علي عليه السلام قوله: «الحياء يصدُّ عن الفعل القبيح»^(١).

فهو رادع ذاتي داخلي يمتنع به الإنسان من ارتكاب المعاييب، التي نهى عنها الشرع أو العقل أو العرف. وهو بهذا المعنى لا يتصادم ولا يتناقض مع قوة الشخصية، لأن قوة الشخصية لا تعني الجرأة على المساوئ والمعايب، بل تعني الثقة بالنفس والتعبير عن الذات والدفاع عن الحقوق والمصالح، وكل ذلك في الإطار الصحيح، وبالأساليب اللائقة السليمة.

إن الحياء كأى ملكة من الملكات الفاضلة، والصفات الطيبة، لها موقعها المناسب، ومكانها الصحيح، في شخصية الإنسان وحياته، وإذا ما استخدمت في موقعها المطلوب، فإنها لا تلغي ولا تناقض المكارم الأخرى.

وما قد يبدو من تناقض بين بعض مفردات مكارم الأخلاق، كالحزم واللين، والشجاعة والعفو، والعزة والتواضع، يزول بالنظر إلى اختلاف الموارد. لقد وصف الله تعالى صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم بأنهم أشداء ورحماء، وبين الصفتين تناقض، لكنهم ﴿أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٢) ومدح تعالى المؤمنين بأنهم أعزة وأذلة، والتناقض واضح بين الصفتين لكنهم ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾^(٣).

إن الإفراط في ممارسة الحياء، واستخدامه في غير موضعه، ليس حالة صحيحة، ولا تدخل ضمن الحياء المحبذ والمطلوب. بل تعبر

(١) الأمدى التميمي: غرر الحكم ودرر الكلم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

(٢) سورة الفتح آية ٢٩.

(٣) سورة المائدة آية ٥٤.

عنها النصوص الشرعية بأنها سمة ضعف، ومؤشر حماقة وجهل. جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «الحياء حياءان: حياء عقل، وحياء حمق، فحياء العقل هو العلم، وحياء الحمق هو الجهل»^(١).

ويعلق الشيخ المجلسي على هذا الحديث بقوله: يدل على انقسام الحياء إلى قسمين: ممدوح ومذموم، فأما الممدوح فهو حياء ناشئ عن العقل، بأن يكون حياؤه وانقباض نفسه عن أمر يحكم العقل الصحيح، أو الشرع بقبحه، كالحياء عن المعاصي أو المكروهات. وأما المذموم فهو الحياء الناشئ عن الحمق، بأن يستحي عن أمر يستقبحه أهل العرف من العوام، وليست له قباحة واقعية، يحكم بها العقل الصحيح، والشرع الصريح، كالاستحياء عن سؤال المسائل العلمية، أو الإتيان بالعبادات الشرعية، التي يستقبحها الجهال. (فحياء العقل هو العلم) أي موجب لوفور العلم، أو سببه العلم المميّز بين الحسن والقبح، وحياء الحمق سببه الجهل وعدم التمييز المذكور، أو موجب للجهل^(٢).

وعن الإمام جعفر الصادق ﷺ: «الحياء على وجهين فمنه ضعف ومنه قوة»^(٣) إن استخدام الحياء في غير موقعه المناسب، حالة مرضية، تنشق من ضعف شخصية الإنسان، وتؤدي إلى تخلفه وحرمانه. وهو ما يعنيه الإمام علي ﷺ بقوله: «قُرْن الحياء بالحرمان»^(٤) وقوله ﷺ: «الحياء يمنع الرزق»^(٥)، وقوله ﷺ: «من استحيا من قول الحق فهو الأحمق»

(١) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي ج ٢ ص ١٠٦، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الأضواء، بيروت.

(٢) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار ج ٦٨ ص ٣٣١، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) المصدر السابق ج ٧٥ ص ٢٤٢.

(٤) الأمدي التميمي: عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

(٥) المصدر السابق.

(١) وقوله ﷺ: «ولا يستحيين أحد إذا لم يعلم الشيء أن يتعلمه» (٢).
 فالحياء ليس صفة مطلوبة في المطلق، بل يستحسن في موارده
 الصحيحة، ويكره حينما يكون على حساب مصالح الإنسان المشروعة.
 اتضح إذاً أن لا تناقض ولا تصادم بين التأكيد على قوة شخصية
 المرأة، وبين اتصافها بفضيلة الحياء، فالحياء الحسن المطلوب للمرأة،
 هو ما يسمو بها عن الابتذال، وما يرفعها عن مساوئ وقبائح الأفعال،
 وذلك لا يعني فقدان الثقة بالنفس، ولا العجز في التعبير عن الذات، ولا
 يمنع الدفاع عن حقوقها ومصالحها المشروعة.

غلو وتشدد:

يغالي البعض ويتشدد في مسألة حياء المرأة، يفرض عليها ألواناً
 من الحياء المذموم، الذي يشلّ عضويتها في المجتمع، ويجمّد طاقتها
 وقدرتها، ويمنعها من التفاعل مع قضايا الحياة، فتصبح تحت شعار
 الحياء والعفة موجوداً هامشياً دونياً، لا رأي لها ولا فاعلية ولا شخصية.
 فعليها أن تبقى سجيناً البيت، لا تخرج منه إلا إلى القبر، فقد صرح
 بعضهم بأن لا تخرج المرأة إلا ثلاث مرات: من بطن أمها إلى العالم،
 ومن بيت أبيها إلى الزوج، ومن بيت زوجها إلى القبر. كما نقل ذلك
 الشيخ الغزالي (٣).

وعليها أن لا تتحدث مع رجل أجنبي لأن صوتها عورة. وهي
 عبارة شائعة في أوساط المتدينين، ولا أصل لها في الشرع، يقول

(١) المصدر السابق.

(٢) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة - قصار الحكم ٨٢، الطبعة الأولى ١٣٨٧ هـ -
 ١٩٦٧ م، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان.

(٣) أبو شقة: عبد الحليم، تحرير المرأة ج ١ ص ٥.

السيد الخوئي: «فهي وإن كانت كلمة مشهورة بينهم إلا أنها لم ترد في شيء من النصوص، فلا وجه لجعلها دليلاً.. مضافاً إلى السيرة القطعية المتصلة بزمان المعصوم ﷺ حيث كانت النساء تتكلم مع الرجال، من دون تقيّد بحالة الضرورة»^(١).

وعليها أن تختبئ عن الرجال فلا تنظر إلى أحد، ولا ينظر إليها أحد، وينقلون رواية مرسلّة عن فاطمة الزهراء ﷺ أنها قالت لأبيها رسول الله ﷺ، حينما سألها عن خير شيء للمرأة؟ أنها قالت: «خير للنساء أن لا يرين الرجال ولا يراهن الرجال» وهي مرسلّة وغير مقبولة من ناحية السند عند السنة والشيعة. كما نصّ على ذلك السيد الخوئي^(٢) والحافظ العراقي^(٣).

وقبل فترة قرأت لأحد كبار العلماء، كلمة يتحدث فيها عن فضيلة الحياء للمرأة، بنظرة فيها الكثير من الغلو والتشدد، يقول ما نصه: «إن المرأة التي تربت على الإسلام في المجتمعات المحافظة، تتسم حياتها بالحياء، وعندما يخاطبها الرجل لا تكاد تسمع كلامها حياءً أن ترفع صوتها، بل ربما بعضهن تتكلم وهي ترتجف، وبعضهن لا تستطيع أن تنطق، وبعضهن يعلوها نوع من الرخضاء، واحمرار الوجه، وغير ذلك من الأحوال التي تكون عند المرأة عندما يكلمها الرجل، والمرأة المحافظة هي المرأة التي عاشت وتربت في الإسلام، وسمعت القرآن، وتأديت بأداب الإسلام، عندما يكلمها الرجل فإنها تكون منها هذه الأحوال، وبخاصة إذا كان الكلام من كلام الرفث والفسوق ونحو

(١) الخوئي: السيد أبو القاسم، مباني العروة الوثقى - كتاب النكاح ج ١ ص ١٠٠.

(٢) المصدر السابق ص ٥٣.

(٣) أبو شقة: عبد الحليم، تحرير المرأة ج ٣ ص ٣٩.

ذلك» (١).

إن مثل هذا الغلو والتشدد، فيه تضيق كبير على حرية المرأة وحقوقها المشروعة، وإضعاف لشخصيتها، ومصادرة لدورها الاجتماعي، وحينما ينسب إلى الإسلام فهو تشويه لصورته المشرقة، ودافع لردة فعل تجاهه، تجعل بنات المسلمين هدفاً سهلاً للتيارات المنحرفة، وأنماط السلوك الوافدة. ومن يقرأ عن حياة المرأة ودورها في العهد الإسلامي الأول، وكيف كانت تشارك في خدمة المجتمع، وتسهم في بناء الكيان الإسلامي، وتتمتع بشخصية قوية، وحضور فعال، منذ بداية الدعوة ممثلة في السيدة خديجة أم المؤمنين، ثم السابقات إلى الإسلام، اللاتي هاجرن إلى الحبشة وإلى المدينة، وبايعن رسول الله ﷺ، وحضرن المعارك والغزوات، وواظبن على صلاة الجماعة مع رسول الله ﷺ، وحفظن حديثه، وكنّ بعده راويات للحديث، ومتحدثات للرجال بما وعينَ وحفظن.

من يقرأ تلك الصور الزاهية، والمواقف البطولية الرائعة للمرأة، التي سجلها القرآن الكريم، وسجلتها أحاديث السنة والسيرة النبوية، وتاريخ المسلمين، يكتشف أن نظرة الغلو والتشدد تجاه المرأة، ناتجة عن تخلف الأمة، والابتعاد عن مفاهيم الإسلام النقية، والأخذ بالأعراف والتقاليد المتخلفة.

إن الحياء مطلوب من المرأة في حدود صيانة شخصيتها عن الابتذال، وحفظ عفافها وكرامتها عن الضياع، بالتزامها بأحكام الشرع وتعاليم الدين.

إن القرآن الكريم يحدثنا عن ابنتي نبي الله شعيب، وما يتمتعان به

(١) المسلمون: جريدة - لندن، عدد (٥٤٢) ٢٥ محرم ١٤١٦هـ..

من خلق الحياء ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾^(١) والاستحياء مبالغة في الحياء. لكن حياءهما الشديد لم يكن مانعاً لهما من القيام برعاية أغنام أبيهما رعيًا وسقاية، مع ما يستلزمه من اختلاط واقتراب من الرجال الأجانب ولو بدرجة محدودة، وحينما كلمهما موسى ﷺ، وهو شاب أجنبي لم تترددا في الإجابة على سؤاله يقول تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾^(٢).

وقد أرسل نبي الله شعيب ﷺ إحدى ابنتيه لتوجه الدعوة إلى موسى ليأتي منزلهم، فأرسلها وحدها، ولم تتلصق في تقديم الدعوة إلى ذلك الشاب الأجنبي: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾^(٣).

ولم يمنعها الحياء واحترام مقام أبيها من أن تقترح عليه وبعبارة الأمر والطلب، أن يستأجر موسى ﷺ مبدية إعجابها بأمانة ذلك الشاب وقوته: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾^(٤).

هكذا يعلمنا القرآن أن الحياء - ومهما كان شديداً - لا يمنع المرأة من الاتصاف بقوة الشخصية، وممارسة دورها الاجتماعي الفاعل.

(١) سورة القصص آية ٢٥.

(٢) سورة القصص آية ٢٣.

(٣) سورة القصص آية ٢٥.

(٤) سورة القصص آية ٢٦.

مصادر قوة الشخصية :

كيف تُبنى شخصية المرأة قوية ثابتة، تستعصي على الإغواء والإغراء، وتشق طريقها في الحياة بثقة والتزام، وتؤدي واجباتها الدينية والاجتماعية على خير وجه؟

وكيف تتجاوز المرأة في مجتمعاتنا حالة الضعف والشعور بالدونية تجاه الرجل، مما يجعلها عاجزة عن تسيير أبسط شؤون حياتها، والدفاع عن حقوقها ومصالحها؟

يبدو أن هناك عدة عوامل ومصادر تساعد على بناء وتنمية قوة الشخصية لدى المرأة، من أهمها مايلي:

١. التربية السليمة: فالبنت التي تنشأ في أجواء تربوية صالحة، وتتوفر لها رعاية كافية، تلبي جميع احتياجاتها المادية والنفسية والروحية، وتغرس في شخصيتها بذور الخلق القويم، عبر التوجيه المناسب، والقدوة الصالحة، المتمثلة في سلوك الوالدين. هذه البنت تكون مهيأة للاستقامة، جديرة بامتلاك قوة الشخصية.

٢. الوعي بالدين والحياة: غالباً ما يتشكل وعي الفتاة في مجتمعاتنا، من خلال الموروثات والأعراف المتداولة في أوساط عوائلهن، ثم ينفتحن على وسائل الإعلام والاتصالات الحديثة، كقنوات البث الفضائي، وشبكة الإنترنت، لتنقلهن إلى عالم آخر من الأفكار وأنماط السلوك، المخالفة لنظام قيمنا الدينية والاجتماعية.

وهنا يحصل الاختلال في التوازن لدى الفتاة، وتصبح عرضة للضياع الفكري والسلوكي، بسبب غياب برامج التوعية الدينية التي تخاطب الفتاة بلغة عصرها، وتتفهم طبيعة المشاكل والتحديات التي

تواجهها، فبرامج التوجيه الديني - إن توفرت - هي للذكور غالباً، وحظ المجتمع النسائي منها قليل، وهذا القليل تشوبه ثغرات ونواقص كثيرة. فحتى المسائل الفقهية المرتبطة بقضايا المرأة الخاصة لم تكتب لها بلغة ميسرة، وأسلوب واضح، حيث لا تطور في الرسائل العملية الفقهية، إلا من خلال بعض المحاولات المحدودة.

وكذلك ما تواجهه الفتاة من تحديات في حياتها الاجتماعية، فترة المراهقة، وعند بدء حياتها الزوجية، وحينما تدخل مرحلة الأمومة. إنها بحاجة إلى مساعدتها بالثقافة الهادفة، وتقديم التجارب والخبرات النافعة، لتكون على بصيرة من أمرها، حين تواجهها المشاكل والتحديات.

إن بعض الفتيات يقعن في أخطاء فادحة، ويعثرن عشرات خطيرة، لأنهن لم يتوفرن على الوعي والتوجيه اللازم للتحويلات التي واجهنها في حياتهن.

لقد وصلتني قبل فترة رسالة من إحدى الفتيات، تتحدث فيها عن المفاجآت التي واجهتها حينما التحقت بالجامعة، بعيداً عن حياتها العائلية المألوفة، فخلال ثمانية عشر عاماً، حتى تخرجت من الثانوية، كانت تعيش مع أهلها، وفجأة وجدت نفسها في منطقة بعيدة، وضمن تجمّع سكني يضم عشرات أو مئات الفتيات، من بيئات مختلفة، وصارت تتعامل بشكل أو آخر مع رجال أجنبي، من خلال مواصلات السفر، وقضايا السكن، وشؤون الدراسة، وتعرضت لمحاولات من الإغواء والإغراء، ولم تكن مهياًة نفسياً ولا فكرياً للتعاطي مع مثل هذه التحويلات والتحديات!!

إن الجيل الناشئ من أولادنا وبناتنا - على الخصوص - في حاجة ماسة للوعي الحياتي، حتى لا تلتبس عليهم الأمور، ولا تفاجئهم

الإشكاليات، وحتى يكون تعاملهم مع وسائل الإعلام، وأجهزة الاتصال الحديثة، وأجواء الاحتكاك بالآخرين، ضمن إطار من الفهم والإدراك السليم.

٣. الاحترام والإشباع العاطفي: تمتاز المرأة برقة عواطفها، ورهافة مشاعرها وأحاسيسها، منذ فترة الطفولة، فتحتاج إلى دفء عاطفي، وإحاطة بالرعاية والاحترام، لتشعر بقيمتها في وسط عائلتها، وتنهل من فيض حنانهم وعطفهم، فتمتلئ نفسها بالثقة والعزة، وتتعامل مع الآخرين من موقع الثبات والرزانة.

أما إذا عاشت حالة من الإهمال والتجاهل وسط عائلتها، ولم تحترم مشاعرها وأحاسيسها، فسيدفعها ذلك للبحث عن مصادر أخرى تشبع جوعها العاطفي، وتغذي الجفاء الذي تعاني منه، مما يجعلها فريسة سهلة، ولقمة سائغة، للطامعين والمنحرفين. وكم من فتاة وقعت في مهاوي الخطأ، وفخاخ المجرمين، منخدعة بالكلام المعسول، والوعود البراقة، وإبداء المشاعر الزائفة؟ ولو كانت عواطفها مشبعة، وشخصيتها محترمة، ونفسها قوية ناضجة، لكانت أوعى وأذكى من الانخداع والاستدراج.

احترام المرأة:

في تراثنا الديني نصوص وتعاليم كثيرة تؤكد على إغداق المزيد من العطف، على البنت في صغرها، وتوفير أكبر قدر من الاحترام للفتاة، والمرأة حين تكون زوجة، وحين تصبح أمًا. لاستحقاقها لذلك، ولما له من دور في بناء شخصيتها القوية الثابتة. وفيما يلي بعض النماذج من تلك النصوص:

١. عن حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أولادكم البنات»^(١).

٢. عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «من عال ثلاث بنات، أو ثلاث أخوات، وجبت له الجنة. فقيل يا رسول الله: واثنين؟ فقال: واثنين؟. فقيل: يا رسول الله وواحدة؟ فقال: وواحدة»^(٢).

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الانوار ج ١٠١ ص ٩١، الطبعة الثالثة ١٩٨٣م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) المصدر السابق ص ٩٢.

الإمام الشيرازي.. الانطلاقة والفكر

كلمة الجمعة بتاريخ ١٣ شوال ١٤٢٢هـ

لم يكن الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي (١٣٤٧هـ - ١٤٢٢هـ) الذي افتقدته الأمة الإسلامية مطلع هذا الشهر (٢ شوال) مجرد مرجع ديني، وإن كان من أبرز مراجع الدين في هذا العصر.

ولم يكن مجرد شخصية دينية سياسية. وإن كان في طليعة القيادات الدينية المعاصرة ذات الاهتمام والتأثير السياسي، ولم يكن مجرد مفكر إسلامي ومؤلف موسوعي، وإن كان قد ضرب الرقم القياسي في عالم التأليف، حيث تجاوز إنتاجه الألف كتاب في مختلف مجالات المعرفة. بل إن ميزته الأهم تكمن فيما يطرحه ويشكله من مشروع متكامل لنهضة الأمة، وبناء قوتها الحضارية.

وحتى نفهم حياة هذا الرجل لا بد وأن نتحدث شيئاً يسيراً عن الظروف التي عاش فيها وانطلق بحركته منها.

العائلة :

لقد انحدر من عائلة كريمة كان أفرادها يتحملون مسؤولياتهم تجاه الدين والأمة، وما كانوا مجرد علماء وفقهاء. وإن كانت هذه الصفة مهمة ومتوفرة فيهم - لكنهم إلى جانب ذلك كانوا يحملون راية الجهاد والدفاع عن الدين والأمة، كالميرزا محمد تقي الشيرازي الذي قاد ثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠م ضد الاستعمار البريطاني، واستنقذ العراق

من هيمنته واحتلاله.

والمجدد الميرزا محمد حسن الشيرازي (١٢٣٠-١٣١٢هـ) الذي واجه محاولات الإنجليز للسيطرة على اقتصاد إيران وصولاً إلى الهيمنة السياسية، عبر احتكار امتياز تسويق التبغ الإيراني، فأصدر فتواه الشهيرة بتحريم التبناك، مما عبأ الشعب الإيراني لتحدي الهيمنة الأجنبية، وأسقط تلك المحاولات، فيما عرف بثورة التبناك. والميرزا عبد الهادي الشيرازي و الميرزا مهدي الشيرازي واللذان كان لهما دور في مواجهة المد الشيوعي في العراق، وغيرهم من رجالات أسرته الذين حملوا راية الجهاد والدفاع عن الدين والأمة.

هذا الرجل نشأ في أحضان هذه العائلة ولذلك كان يتحسس مسؤوليته تجاه واقع الأمة والدين.

هيمنة الاستعمار:

كانت الحضارة الغربية المادية تواصل زحفها على العالم الإسلامي، عسكرياً واقتصادياً والأهم من ذلك فكرياً وثقافياً، كانت هيمنة الغرب على الحياة العامة عبر تقدمهم التكنولوجي والصناعي والاقتصادي هيمنة مطبقة، والأهم من ذلك ما صاحب هذه الهيمنة المادية من هيمنة نفسية وفكرية، أصابت جماهير الأمة بالهزيمة والانكسار، ففقدوا الثقة في دينهم، وفقدوا الثقة في أنفسهم، وانبهروا بالحضارة الغربية المادية، ونشأت الأحزاب المختلفة الغربية والشرقية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار في بلاد المسلمين، وخاصة البلاد التي تشكل مراكز دينية كالعراق وإيران، وانخرط فيها أبناء المسلمين حتى من البيوتات الدينية والبيوتات العلمية، بيوت و عوائل لعلماء كبار لكن بعضاً من أبنائهم وشبابهم استوعبوا وخذعوا واستدرجوا من قبل تلك التيارات.

واقع الأمة:

كانت الأمة تعيش تخلفاً عاماً في مختلف المجالات.. التخلف السياسي.. الاقتصادي.. العلمي.. الصناعي.. هذا التخلف كان يدفع بجماهير الأمة وأبناء الأمة ومثقفوها إلى الانبهار بالحضارة الغربية، والارتقاء في أحضانها وتياراتها، ومن ناحية ثالثة كانت الحالة الدينية راکدة جامدة في الغالب، لم يكن هناك وعي بهذا التحدي، ولم يكن هناك نشاط على مستوى هذا التحدي، هذا السيد الجليل (الإمام الشيرازي). أدرك مسؤوليته وواجبه، كان وعيه يدفعه إلى تحمل المسؤولية، إضافة إلى الأجواء التي عاشها في عائلته، والتي كانت تحفزّه لتحمل مسؤوليته في الدفاع عن الدين والأمة، فقد كان يسمع من والده ووالدته وسائر أقربائه قصصاً ومشاهد وذكريات، عن نضالات وجهاد أعلام الأسرة، وتضحياتهم في سبيل الدفاع عن الدين وإنقاذ الأمة. ولذلك انطلق للعمل والجهاد، ولم يكن هو الوحيد في ساحة الإصلاح والجهاد والعمل الديني في هذا العصر، كان هناك في نفس الفترة، وفي نفس المرحلة، علماء وفقهاء آخرون، في إيران والعراق، امتلكوا هذا الوعي الرسالي، وأحسوا بواجبهم ومسؤوليتهم، لكنهم بالطبع كانوا قلة قياساً إلى العدد الكبير من العلماء، ومن جموع الحالة الدينية بشكل عام.

عقبات العمل:

عندما انطلق للعمل واجهه - كبقية المصلحين - عقبات ومشاكل ومشاق من أبرزها: مخططات الاستعمار وعملائه.

حيث كانت الحكومة العراقية خاضعة للهيمنة والتوجيه الاستعماري، وكان الاستعمار يرصد حركة المجاهدين ويدرس

شخصياتهم، فسفاراتهم تضم الأجهزة المتخصصة حيث كانوا يدرسون العلماء والمراجع والخطباء والفعاليات، وكانت استخباراتهم نافذة في كل مكان، فإذا رأوا أن شخصاً يفهمهم، ويريد أن يعمل لمواجهتهم، ورأوا أن لديه قدرات وطاقات لا يتركونه يعمل في الساحة، فالاستعمار عندما يرى مجاهداً لا يدعه وشأنه..

ومن طبيعة الاستعمار أنه يعمل في الظلام - كاللص - فإذا ما كشفه شخص وأثار الناس عليه، فإنه يقاومه ويحاول أن يقضي عليه.

الاستعمار يحاول أن يسرق نفوسنا وأفكارنا وثرواتنا، ولكن ذلك يحدث في حالة استغلالنا وجهلنا وتخلفنا، فإذا كانت هناك حركة واعية، وأشخاص مدركون لمخططات الاستعمار، فإنهم يحبطون هذه المخططات، من ناحيته يقوم الاستعمار بمحاولة تعويق حركتهم، وتحطيم شخصياتهم، وتشويه صورتهم، ومنعهم من أن يقوموا بدورهم في الساحة، وهذا ما واجهه كل المصلحين و المجاهدين، والسيد الراحل عاش مثل هذه الحالة وعانى الضغوط بأساليبها المختلفة من قبل الاستعمار وعملائه الحاكمين و النافذين.

الحالة الدينية :

لم تكن الحالة الدينية السائدة تقبل بانطلاق حركة تجديدية تغييرية في المجتمع، ولذلك واجه المصلحون ضمن نفس الدائرة الدينية وفي مختلف البلدان، معارضة من بعض المتدينين، وإنك حين تقرأ مذكرات المصلحين في تلك الفترة تجد ذلك جلياً.

فقد كتب الإمام الخميني - عن معاناته مع من سماهم بالمتقديسين وذكرهم في العديد من خطباته، وحين تقرأ حياة الشهيد السيد محمد باقر الصدر - تجد المعاناة واضحة جلية، وكذلك هو الوضع بالنسبة

للإمام الراحل السيد محمد الشيرازي، من ناحية أخرى كان التخلف العام الذي يعيشه المجتمع يصنع العقبات أمام طريقه، لكنه انطلق بهمة قعساء، وعزم عظيم، وتصميم ثابت، وشق طريقه وعمل وجاهد في مختلف البقاع والمناطق.

البعض قد يناضل في منطقة معينة، وحينما ينتقل إلى أخرى يجد نفسه معقياً من مهمة النضال، أو قد يعمل في ظرف معين، فإذا ما تغير الظرف برر لنفسه عدم إمكانية العمل في الظرف الجديد، لكن الفقيد الراحل في أية منطقة حلّ، وفي أي ظرف كان يعيش، ومنذ مقبل عمره وحياته بدأ العمل الرسالي.. بدأ التحرك الجهادي، واستمر عليه إلى آخر لحظة من لحظات حياته.

جهاد و عطاء حتى الساعات الأخيرة:

في شهر رمضان المبارك المنصرم كما أخبرني القريبون منه كان من أكثر الأشهر حيوية ونشاطاً، وكأنه ينظر بعين الله، ففي العشر الأواخر من شهر رمضان طلب من جهازه أن يهيئوا له لقاء مع المسؤولين الأفغان الموجودين في إيران، من علماء وقيادات وفعاليات، وأصرَّ على أن يتم هذا اللقاء بأسرع وقت، وبالفعل فقد تم اللقاء واجتمع بهم إلى وقت متأخر من الليل وتحدث لهم حول الوضع الجديد في أفغانستان، وقدم لهم آراءه ونصائحه وتوجيهاته بهذا الخصوص، وفي ليلة أخرى طلب أن يجتمع بعدد من الشخصيات القيادية العراقية، وقدم آراءه لهم حول القضية العراقية، والتطورات التي تمر بها، والتوقعات المحتملة، وفي ليلة ثالثة طلب بعض رؤساء الهيئات واللجان الدينية والاجتماعية الموجودة في إيران، واجتمع بهم اجتماعاً مفصلاً، وفي ليلة أخرى طلب الاجتماع مع الفعاليات النسائية، والهيئات واللجان العاملة في

الحقل النسوي، وجلس معهن، وقدم لهن توصياته وكان ذلك في آخر ليلة من ليالي شهر رمضان وهي ليلة العيد، وبعد اجتماعه بهن بفترة وجيزة أصيب بنزيف في الدماغ، ونقل إلى المستشفى، ودخل في غيبوبة، ومنها انتقل إلى الرفيق الأعلى.. حياته كلها حركة.. كلها جهاد، واستطاع خلال هذه الفترة أن ينجز، وأن يعمل، وأن يقدم تجربة متميزة.

مجالات متنوعة للعطاء :

ففي المجال العلمي كان لسماحة السيد المرجع عطاء علمي فكري غزير، حتى أن الرقم الذي وصلت له مؤلفاته تعتبر رقماً قياسيًّا، فليس هناك مؤلف وصل إلى هذا الرقم من عدد المؤلفات والكتابات.

■ وفي المجال التربوي ربي مجموعة من الكوادر والكفاءات، فقد تخرج من مدرسته مجموعة من العلماء الفقهاء، والخطباء والكتاب والمفكرين والعاملين في مختلف المجالات، جيش من الكوادر والكفاءات تربوا على يديه، وفي رحاب مدرسته، وأصبح العديد منهم يقود نشاطات علمية واجتماعية كبيرة في ساحات مختلفة.

■ وعلى صعيد بناء المؤسسات فقد بنى ورعى إنشاء المئات من المؤسسات والمشاريع، من حوزات ومكتبات ومنظمات ولجان وهيئات ومستوصفات طبية، وأنشطة علمية، هذه المؤسسات والمشاريع الضخمة التي رعاها، وهذا التيار الجماهيري الضخم الذي أوجده ونماه ورباه.. يحتاج الإنسان إلى وقت طويل حتى يحصي الأنشطة والمشاريع والمؤلفات والمؤسسات والتلامذة الذين أنتجهم هذا الرجل في فترة عمره وجهاده .

مرحلة جديدة :

بانتقال السيد الشيرازي إلى عالم الآخرة يبدأ فكره مرحلة جديدة، فإذا كانت كتاباته وأفكاره في أيام حياته تتأثر بوجوده الشخصي، حيث كان البعض قد أخذ موقفاً سلبياً من أفكاره وكتاباتاته بسبب وجوده الشخصي، إما حسداً أو منافسة أو لشبهة وسوء فهم، فإن انتقاله إلى جوار ربه ربما يفتح الباب لمرحلة جديدة لهذا الفكر، وهذا التناج العلمي الغزير، أتوقع أن فكره سيأخذ مداه في الساحة الإسلامية، وهو بالطبع ملك لجميع الأمة، لا تحتكره فئة معينة، أصبح الآن فكراً ومدرسة وتراثاً ورصيلاً لكل العلماء، ولكل المفكرين، ولكل المثقفين، ولكل العاملين.. يفتحون عليه بدون حواجز، إذا كانت في حياته هناك بعض الحواجز، فبارتحاله الآن إلى الرفيق الأعلى انتهت هذه الحواجز، يدخل الإمام الشيرازي الآن مرحلة جديدة، وفكره يدخل حياة جديدة ستكون - بإذن الله - أثمر وأنفع وأبقى من المرحلة الأولى التي عاشها، وكذلك ما سيجده من ثواب عظيم عند الله تعالى.

وما تضمنته بعض بيانات نعيه من قبل كبار العلماء والقيادات الدينية، من ثناء على جهوده الفكرية والعلمية، ومن دعوة لدراسة كتبه ومعارفه، هي من مؤشرات هذه المرحلة الجديدة، في انفتاح الساحة على فكر الإمام الشيرازي.

سمات فكره :

١ / الأصالة :

نعني بها ارتباطه بالمصادر الإسلامية، فأراؤه.. وأفكاره.. ونظرياته لم تتأثر بهذا التيار أو ذاك من هنا أو هناك، وليست استحسانات أو

استذواقات، وإنما لديه ارتباط عميق وثيق بالينابيع الإسلامية، ولعلي لا أبالغ إذا قلت: إن سعة إطلاعه على النصوص الإسلامية ومداومته على مراجعتها لا نظير لها في عالم الفقهاء والعلماء.

ففي مجال القرآن الكريم عدا عن حفظه للقرآن، تجده يجتهد في مهمة التفسير حتى لقد فسر القرآن عدة مرات، في كل مرة يفسر القرآن تفسيراً كاملاً ومختلفاً عن التفسير الآخر، وذلك انطلاقاً من أن القرآن الكريم - كما ورد في حديث الإمام علي الرضا عليه السلام: «هو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة».

فقد كتب تفسيراً للقرآن تحت عنوان (تقريب القرآن إلى الأذهان) أيام كان في كربلاء، وقد طبع في ثلاثين جزءاً، كما كتب تفسيراً موضوعياً للقرآن الكريم في عشرة مجلدات، وكتب تفسيراً مختصراً (توضيح القرآن أو تسهيل القرآن) وكان لديه في الكويت درس ليلي في تفسير القرآن استمر طوال فترة وجوده في الكويت، أي حوالي تسع سنوات.

إضافة إلى مجموعة من الكتب والبحوث التي كتبها حول القرآن الكريم مثل: (الفقه: حول القرآن الكريم) و (متى جمع القرآن) و (بيان التجويد) وغيرها.

وفي مجال الروايات تجده إطلاعاً واسعاً جداً على الروايات والأحاديث الواردة عن النبي وأهل بيته عليهم السلام وذلك واضح في كتاباته وخطاباته، واستدلالاته الفقهية.

■ وفي وقت مبكر من حياته جمع الوسائل والمستدركات في كتاب واحد يقع في أربعين جزءاً طبع منها خمسة مجلدات في القاهرة.

■ كما باحث الكثير من كتب الحديث كبحار الأنوار مع بعض لفضلاء، وهو في منهجه يقترب من منهج المحدثين، حيث يميل إلى القبول بكل ما ورد في الكتب الأربعة، ومن النادر جداً أن يرد رواية من الروايات، بل تجده يوجه الروايات ويؤولها ويجتهد في التوفيق بينها، وتجد ذلك واضحاً في كتبه، ككتاب الآداب والسنن، وفي مختلف أبواب كتاب الفقه.

■ وقد شرح نهج البلاغة في كتابين منفصلين، أحدهما مطبوع وهو (توضيح نهج البلاغة) في أربعة مجلدات والآخر موسع لم يطبع .

■ كما شرح الصحيفة السجادية شرحاً مختصراً مطبوعاً، وشرحاً آخر موسعاً يقع في ثلاثة مجلدات لم يطبع بعد، وألف كتاباً يقع في عشرة مجلدات شرح فيه كل الأدعية والزيارات الواردة.

ولكثرة مراجعته ومتابعته للروايات والأحاديث تجد لديه حالة من الحضور الذهني لكل النصوص، وذلك واضح من كثرة استشاداته في كتبه وخطاباته.

إنه لا يكاد يتحدث في موضوع أو يطرح فكرة إلا ويستشهد لها بنص ديني من آية أو رواية، فهو ينطلق من النصوص الشرعية في آرائه وأطروحاته.

وفي مجال السيرة والتاريخ لديه عدة كتب في السيرة النبوية، وكذلك سيرة الأنبياء والأئمة عليهم السلام تصل إلى أكثر من ستين كتاباً بمختلف الأحجام، وقد سمعت عدداً من الخطباء الكبار الذين أعرفهم أنهم يسمعون من سماحة السيد نواذر وقضايا ووقائع تاريخية، حول حياة الأئمة، أو حول مصائب الأئمة فيتعجبون من أين يأتي بها، وأتذكر حين

كنت في الكويت كان السيد ﷺ يخطب في مسجده في كل جمعة، وعندما تمر مناسبة من المناسبات بمناسبة عاشوراء.. كان الناس يستمعون إلى الخطباء ورواة المقتل ثم يأتون تحت منبره، فتساءل: ما الذي سيأتي به السيد من جديد للمستمعين بعدما سمعوا رواية المقتل بتفاصيله!

وقد تعجبت من خطاب سماحته، حيث ذكر وقائع من مقتل الحسين جعلت الحضور ينهمكون في البكاء لفترة طويلة، ولأول مرة نحن نسمعها!!

توجهت له مع مجموعة من الخطباء متسائلين عن مصدر هذه الروايات، فقال: راجعوها في كتاب كذا وكتاب كذا.. وذكر لنا عدة مصادر، وقد وجدنا تلك الروايات في مصادرنا كما ذكر لنا سماحته.

وفي هذا السياق كان له إطلاع واسع على آراء الفقهاء في مختلف مسائل الفقه، وقد طلب مني أحد الفقهاء المعاصرين أن أوفر له موسوعة الفقه الضخمة، و قدمتها له، وبعد فترة من الزمن سألته عن وجهة نظره حول الكتاب، فقال: ما أدهشني هو إحاطة السيد بالآراء، ففي كل مسألة يبحثها يذكر كل الآراء الواردة في الساحة الفقهية حول المسألة، ويناقشها رأياً رأياً حتى بعض الآراء النادرة الشاذة يذكرها.

هذا الاطلاع الواسع على النصوص من آيات وروايات، وعلى آراء الفقهاء واستحضارها عند كل فكرة أو مسألة، هو مصدر وأرضية الأصالة في فكر سماحة الإمام الراحل.

٢ / الانفتاح

كان لديه انفتاح عجيب على العصر، وعلى مختلف الثقافات، كان مواظباً على استماع الأخبار ومن مختلف الإذاعات، كما كان مواظباً

على قراءة الصحف والمجلات والكتب المختلفة، وإنك لتعجب من هذا النهج العجيب للمطالعة، بل وسرعة المطالعة.

كان يوصي كل من يسافر من تلامذته وأصدقائه القريين أن يحضر له آخر ما صدر من كتب ومؤلفات، وكان يعتبر الكتاب أفضل هدية تقدم له، ولا أزال أتذكر أنه ذات مرة رأى عندي كتاب (خريف الغضب) وهو في أربع مئة صفحة تقريباً للكاتب المصري محمد حسنين هيكل فقال: هذا كتاب جديد. قلت: نعم، قال: أحب أن أطلع عليه، قلت: غداً أحضر لكم نسخة منه، قال: أطلع عليه هذه الليلة وأرجعه لك غداً. في اليوم التالي أحضره معه، وبعد نهاية درسه الفقهي بدأ يتحدث عن الكتاب، وأنه أحسن في هذه النقطة، واشتبه في تلك المسألة، وعرض مختلف جوانب الكتاب.. لخص الكتاب في حديثه معنا في ما يقرب من نصف الساعة.

كما كان يجيد الاستفادة من أحاديث الناس، كان لديه في الكويت برنامج زيارات بعد صلاتي المغرب والعشاء، وكنا نصحبه في بعض زيارته، فكان حين يلتقي برجل قد عاد من اليابان مثلاً يسأله كيف وجدت تلك البلاد؟.. كيف هو وضعهم الديني؟.. وضعهم السياسي.. الأخلاقي..

ماذا لفت انتباهك لديهم؟ هل مررت على مكباتهم؟.. كنائسهم؟..
 فيأخذ معلومات بأكبر قدر ممكن، ثم يستفيد منها في خطابه وأحاديثه ويستشهد بما سمع من معلومات عن تلك البلاد..
 يجمع مختلف المعارف، ومختلف العلوم، ويوظفها، ويستنتج منها، ويستثمرها لصالح الأفكار والدعوة التي يريد طرحها.
 كان لديه انفتاح على مختلف جوانب الحياة.. ومتابعة للأحداث

والمستجدات على الساحة الإسلامية والعالمية.

ذات مرة كنا متوجهين من طهران إلى قم لزيارة سماحته ولم نعتقد
استمعنا الأخبار، وعندما التقينا به وجدناه في وضع من التحفّز والتفاعل
وأخذ يسألنا متعجباً: ألم تسمعوا الأخبار؟!.. لقد سقط جدار برلين!!
وهل تعلمون ماذا يعني سقوط جدار برلين؟.. إنه يعني انتهاء
الحرب الباردة.. وانتهاء المعسكر الشرقي، وخضوع العالم لهيمنة
واحدة، وبدأ يتحدث عن تاريخ جدار برلين وكيف أقيم؟ وماذا يعني
سقوطه؟ وأخذ يعطي تحليلاته حول الحدث، فاعتبره مفصلاً تاريخياً،
ومنعطفاً وتحولاً في تاريخ العالم، كما حدث بالفعل، بينما لم تكن
نشعر بأهمية الحدث بنفس المستوى الذي كان لديه.

٣ / الاهتمام بالبرمجة

نحن في حاجة إلى أفكار ونظريات، وإلى جانب ذلك نحتاج إلى
ترجمة تلك الأفكار والنظريات إلى برامج، والكثير من الناس يقبلون
الأفكار ويستحسنونها، فمثلاً: نقول بضرورة الوحدة وعدم التفرقة في
المجتمع، والجميع يقبل هذه الفكرة، لكن ما هو البرنامج لتطبيق هذه
الفكرة؟

ونطرح مثلاً أن الشباب يعيش حالة من الضياع والفراغ ولا بد من
استيعابهم وهي فكرة جميلة.. لكن ما هو البرنامج لتطبيق هذه الفكرة..
وما هي الآلية؟

في بعض الأحيان تتوفر الفكرة، وتتوفر النظرية، ولكن المشكلة
الأهم هي البرمجة والآليات..

لقد كان سماحة السيد ﷺ متميزاً في وضع البرامج.. كان لا يأتي

بفكرة إلا ويصحبها ببرنامج ومشروع عمل، وترى ذلك واضحاً في كتبه وأحاديثه في مختلف المجالات.

■ منذ الأيام الأولى لتصديه للمرجعية ألف كتاباً اسمه (إلى وكلائنا في البلاد) وهو مطبوع عدة طبعات، يحتوي الكتاب على ثمانين مادة يعتبرها سماحته برنامجاً عملياً لو كیل المرجع في مختلف جوانب حياة الناس.

■ في أيام الحرب الظالمة المفروضة على الجمهورية الإسلامية في إيران ومع القصف الذي أصاب مدينة قم انتقل سماحة السيد إلى مدينة مشهد وأخذ يتأمل أوضاعها وموقعها وما يحيط بها وأهميتها، حيث يقصدها الزائرون بالملايين فلا بد وأن يكون لمشهد دور كبير، ونتيجة هذا التأمل وهذا التفكير ألف كتاباً حول مدينة مشهد بعنوان (مشهد والحضارة الإسلامية) وضع فيه مقترحات لتحويل مدينة مشهد إلى مبعث للحضارة الإسلامية.

■ وحينما ذهب إلى الحج قبل أكثر من أربعين عاماً، ورأى أوضاع مكة المكرمة، والمشاعر المقدسة في موسم الحج، وكان يستمع إلى انطباعات الحجاج حول الحج ومشاكله، فخرج ببرنامج حول تطوير أوضاع الديار المقدسة ومعالجة أحكام مسائل الحج بعنوان (لكي يستوعب الحج عشرة ملايين).

■ ودعا إلى تكوين الحركات والتنظيمات الإسلامية، وقدم برنامجاً عملياً في طريقة تكوين هذه التنظيمات وإدارتها.

■ وقدم برنامجاً للجاليات التي تعيش في البلاد الأجنبية وذلك في كتاب بعنوان (نجاة الغرب) ويرى فيه أن الغرب أفضل أرضية للعمل الديني والإسلامي، كما تؤكد ذلك الكثير من الوقائع،

وفي أثناء لقاءاته مع الفعاليات التي تعيش في الغرب كان يؤكد على العمل بحيث يتحول الدين الإسلامي - بعد خمسين سنة - إلى الدين الأول في تلك البلاد.

ومن ضمن البرامج التي يضعها سماحته لتحقيق هذا الهدف (برنامج الخدمات الإنسانية) يدعو فيه العجاليات المسلمة إلى عدم الاكتفاء ببناء المساجد والحسينيات بل التوجه إلى المشاريع الخدمائية لغير المسلمين كإنشاء المستشفيات المجانية، وتكوين الجمعيات التي تهتم بتزويج العزاب، فإذا كنا نريد أن نؤثر على الغربيين فلا بد من إنشاء مشاريع تقدم الخدمات لهم، وقد كانت الإرساليات التبشيرية تستخدم هذا الأسلوب في التبشير بالمسيحية.

ودراسة فكره تحتاج إلى بحوث مطولة وجهد كبير، وما ذكرناه هو لمحات سريعة عن فكر الإمام الشيرازي تغمده الله بواسع رحمته، وأعلى الله مقامه، وخلف على الأمة الإسلامية بالخلف الصالح، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

الإمام الشيرازي.. قراءة في الشخصية

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٠ شوال ١٤٢٢هـ

تحتل الصفات النفسية، والعادات السلوكية، لأي قائد من القادة، دوراً هاماً، ومكانة أساسية، في تشكيل شخصيته القيادية، وتجربته العلمية. فهي التي تحدد حجم تأثيره، ومساحة فاعليته، وهي التي توجه طريقة تعاطيه وتعامله مع الظروف والتحديات. كما ترسم صورته في أذهان معاصريه وذاكرة التاريخ.

ويمكن القول أن الصفات النفسية أكثر تأثيراً في حياة الإنسان من الكفاءات العلمية والعملية، لأنها هي التي تدفعه أو تقعد به عن نيل تلك الكفاءات واكتسابها، فإذا امتلك صفات نفسية جيدة، فستحفزه وتؤهله لتنمية ذاته وتطوير قدراته، أما إذا سيطرت عليه صفات سيئة، فستهوي به إلى حضيض التخلف والهوان.

وبالصفات النفسية الإيجابية يستطيع الإنسان استثمار كفاءاته وتوظيفها بالشكل الأفضل، بينما قد تصبح كفاءاته مهدورة ضائعة أو وبالأعلى حين تحكم نفسه وسلوكه عادات مشينة.

وفي حديث القرآن عن مؤهلات الإمامة والقيادة يبدأ بذكر ما يرتبط بالملكات النفسية، يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾^(١). فقد استحقوا موقع القيادة والإمامة

حين تجسدت فهيم صفة الصبر بكل أبعادها ومعانيها ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ ثم أعلى درجات الإيمان وهي اليقين ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوْقِنُونَ﴾.

كما أننا نجد تركيز النصوص والأحاديث الدينية على محورية الأخلاق والتي تعني السجايا النفسية والعادات السلوكية، وأنها هي التي ترفع مقام الإنسان عند الله وعند الناس بحسنها، وتضعه بسوئها. روي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه قال: «رب عزيز أذله خلقه، وذليل أعزه خلقه»^(١) أي أن من يمتلك مقومات العز والرفعة قد لا يتمتع بها، لوجود انحراف في صفاته النفسية والسلوكية، تمنعه من الاستفادة من تلك المقومات وتوظيفها بالشكل الصحيح. بينما قد يتقدم ويتفوق إنسان كان في موقع ذل وضعف، لتحليه بصفات طيبة دفعته نحو الرقي والعز.

الإمام الشيرازي علمه وجهاده:

قد نقرأ الإمام السيد محمد الشيرازي عليه السلام في البعد العلمي من شخصيته، فنجد فيه ذلك العالم المتبحر، الواسع الاطلاع على علوم الشريعة، ومعارف الحضارة، والذي مارس الدرس والتدريس، والمطالعة والكتابة، والبحث والتفكير، منذ حداثة سنه حتى اليوم الأخير من حياته. ونجد فيما طرحه من آراء وأفكار، موارد كثيرة من الابتكار والإبداع، والتطوير والتجديد، في ميدان الفقه والفكر الإسلامي.

كما نلاحظ غزارة ووفرة هائلة في إنتاجه العلمي والمعرفي حيث حقق رقماً قياسياً لم يبلغه أي مؤلف في مجال الكتابة والتأليف.

وقد ندرس البعد الجهادي في حياته، فنراه ذلك العالم المجاهد، الذي يتدفق غيرة على الدين، وحماسة في الدفاع عنه، والذي حمل

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٩٦، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

آلام الأمة وهمومها بين جنبيه منذ بواكير وعيه وإدراكه، وحتى الساعات الأخيرة من عمره، لم يتوان ولم يهدأ ولم يتراجع، رغم اختلاف الظروف التي مر بها، والأوضاع التي عايشها، ورغم اشتداد الضغوط عليه من هذه الجهة أو تلك.

لقد بدأ نضاله السياسي وهو دون العشرين من عمره، حين كان العراق في العهد الملكي، ولما سقط الحكم الملكي سنة ١٩٥٨م كان في الثلاثين من عمره، واستمر في العهد الجمهوري حكم الشيوعيين والقوميين والبعثيين في العراق وهو يحمل لواء الجهاد ضد الانحراف عن منهج الإسلام، ومصادرة الحقوق والحريات.

ولم يكن جهاده السياسي منحصراً في القضية العراقية، بل كان له دور طليعي في تأييد الثورة الإسلامية في إيران منذ انطلاقتها سنة ١٩٦٣م وحتى انتصارها عام ١٩٧٩م حيث انتقل من الكويت إلى (قم) ليسهم بأرائه وأطروحاته ومواقفه في دعم مسيرة التجربة الإسلامية الوليدة وترشيدها، ولم يمنع التيار العام والحماس العارم، من إبداء ملاحظاته الناقدة، وطرح آرائه الجريئة، حرصاً منه على مصلحة الإسلام، وإخلاقاً لمستقبل الأمة.

كما أن مواقفه في نصرته القضية الفلسطينية، ومساندة جهاد الشعب الأفغاني، وسائر قضايا المسلمين والمستضعفين، واضحة ومشهودة، من خلال كتاباته وبياناته وخطاباته ولقاءاته وتحركاته.

إنه دائم التحفز لإنهاض الأمة من أجل نيل استقلالها وحريتها، وتحقيق وحدتها وكرامتها، ولمواجهة محاولات الهيمنة الاستعمارية الاستكبارية، عبر نشر الوعي التحرري، وثقافة المسؤولية، وعبر تعبئة الطاقات، وشحن الهمم، وتربية القيادات الرسالية، وتشجيع الحركات

والمنظمات والمؤسسات العاملة، وإعلان الدعم والتأييد لكل القضايا العادلة.

الشخصية القيادية :

هناك بعداً آخر له أهميته القصوى في شخصية الإمام الشيرازي وسيرته، وهو البعد الأخلاقي، ونقصد به السمات الشخصية التي اتصف بها، وانطلق منها في حركته الرسالية، والتي مكنته من تحقيق هذه الإنجازات الضخمة في الميادين المختلفة، وصنعت له مكانته المميزة المرموقة، وتأثيره الفعال.

ودراسة هذا البعد في شخصيته يقدم للعاملين تجربة غنية ثرية، تنفعهم في بناء ذواتهم، وتكميل شخصياتهم، وتعينهم على تحمّل مسؤولياتهم الرسالية الاجتماعية.

ونسلط الأضواء هنا على بعض تلك السمات الهامة في شخصية الإمام الشيرازي رحمته الله.

الزهد توجه للهدف :

حينما يدرك الإنسان وظيفته ومهمته في الحياة، وحينما يعي دوره ومسؤوليته، فإن عليه أن يجعل ذلك أولوية في حياته، ومحوراً لجهوده واهتماماته.

ولأن الاسترسال مع متع الحياة وملذاتها، والانسحاق خلف إغراءات الراحة والرفاه، يستهلك بطبيعته الاستدرجية القسط الأكبر من اهتمام الإنسان ووقته وجهده، فإن الأولياء العارفين، والرسالين المخلصين، يجاهدون في أنفسهم هذه التوجهات، ليوفروا أكبر قدر من وقتهم وطاقاتهم، صوب هدفهم الأساس، وغايتهم السامية. يقول الإمام علي

ﷺ: «فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات»^(١).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن كونهم في موقع النموذج والقدوة، يستلزم منهم أن يكونوا مصداقاً للقيم والمثل التي يبشرون بها. يقول الإمام علي ﷺ: «أقنع من نفسي بأن يقال: هذا أمير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر، أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش؟»^(٢).

والإمام الشيرازي باقتفائه لسيرة أجداده من الأئمة الطاهرين ﷺ وبتلمذه في مدرستهم الإلهية كان يلتزم بالزهد، التزاماً صادقاً، لا تكلف فيه، إنه يؤمن بضرورة البساطة في العيش، ويدعو إلى ذلك في كتاباته ومحاضراته، ويرى أن التفنن في أساليب الرفاه، أدى إلى تعقيد شؤون الحياة. ويؤكد في توصياته لعلماء الدين والعاملين في الحركة الإسلامية على أهمية هذه الصفة.

يقول رحمه الله:

«الواجب على القائمين بالحركة أن يتزهدوا في الدنيا، فإن الزهد يوجب أولاً كثرة العمل، وثانياً التفاف الناس.. لنفرض أن قائداً كان دخله السنوي ألف دينار، فإذا كان زاهداً في ملبسه وسائر شؤونه، صرف من هذا الألف مئة، وأبقى التسعمائة لأجل الحركة، بينما إذا كان إنساناً راغباً صرف كل الألف لنفسه»^(٣).

فزهده نابع من رؤيته وقناعته، ولأنه منشغل بقضايا الدين والأمة، فهو يوفر وقته وإمكاناته لخدمة أهدافه الرسالية.

(١) الموسوي: الشريف الرضي، نهج البلاغة، كتاب ٤٥، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، دار الكتاب اللبناني، بيروت - لبنان..

(٢) المصدر السابق.

(٣) الشيرازي: السيد محمد الحسيني، السبيل إلى إنهاض المسلمين، ص ١٠٠ الطبعة ١٩٩٤م، مؤسسة الفكر الإسلامي، بيروت.

عاش في الكويت ثمانية أعوام (١٣٩١-١٣٩٩ هـ) والتف حوله الأثرياء ورجال الأعمال إضافة إلى الشباب وعامة الناس، وواضح أن مستوى المعيشة هناك متقدم، ووسائل الرفاه متوفرة، لكنه رفض أن يمتلك في الكويت داراً أو عقاراً، وحينما قدمت له دار واسعة لتكون سكناً له ولعائلته، أوقفها مدرسة دينية، وسكن في شقة صغيرة بنيت ملحقاً للمسجد الذي يصلي فيه على أن تكون وقفاً يسكنها إمام الجماعة في المسجد.

وأذكر أنني مع بعض الأصدقاء زرناه في غرفة متواضعة الأثاث، لفت نظرنا فيها سرير معلق في منتصف الجدار، فسألناه عنه فأجاب ﷺ: إن هذه الغرفة يأتي فيها الأطفال ويلعبون، وهي مكان بحثي وكتابتي، فعملت هذا السرير المعلق، لأجلس عليه مع كتبي وأوراقي بعيداً عن عبث الأطفال.

وعندما أقام في مدينة (قم) اتخذ له مسكناً متواضعاً وأتذكر أنه ﷺ عانى في السنوات الأولى من آلام المفاصل (الروماتيزم) بسبب رطوبة المنزل، وبرودة الطقس، فتحدث معه الكثيرون، وأنا واحد منهم حول تركيب تدفئة مركزية للمنزل، لكن المنطقة آنذاك لم تصلها تمديدات الغاز الطبيعي، ولأن التدفئة المعتمدة على (المازوت) مرتفعة التكلفة، فإنها غير متوفرة لأكثر بيوت تلك المنطقة، فرفض سماحته أن يتميّز على جيرانه من الطلبة، بتدفئة بيته مركزياً، إلى أن وصلت تمديدات الغاز لتلك المنطقة، وتوفرت التدفئة للبيوت المحيطة ببيته، حينها سمح بوجودها في منزله.

زوّج أكثر أولاده وبناته وكنّا قريبين منه، وما كنا نحسّ بأي حركة في مراسيم زواجهم، لأن سماحته كان يصبر على البساطة، وعدم القيام

بأي مراسيم إلا بمقدار الاستحباب الشرعي، والذي يتحقق بدعوة مجموعة محدودة على مائدة بسيطة، ولا يكاد يعرف الكثيرون عن زواج ابن الإمام المرجع، إلا فيما بعد وكخبير عادي عن أمر قد حصل قبل أيام.

وقبل سنوات استقر اثنان من أبنائه في دمشق بجوار العقيلة زينب عليها السلام حيث الحوزة العلمية الزينية، ومع أن أكثر زملائهم وتلامذتهم من العراقيين والخليجيين قد تملكوا بيوتاً لسكنهم، إلا أن أبناء المرجع لم يفعلوا ذلك، حتى حينما بنى بعض التجار الكويتيين عمارة، وخصصوا بعض شققها لسكن أبناء سماحة السيد مع عوائلهم، فإن توجيهات الإمام الشيرازي منعتهم من ذلك، وطلب منهم سماحة السيد أن يتركوها لسائر الطلبة، وبقوا هم في بيوت مستأجرة.

كان يعيش حياة البساطة في سكنه وأثاث منزله وطعامه ولباسه وسائر شؤون حياته.. كما شاهدناه وشاهده كل من اقترب منه، وكان زهده حالة طبيعية لديه دون أي تكلف.

الطموح و علو الهمة :

لوعيه بعمق التحديات والأخطار التي تحيط بالإسلام والأمة، ولأنه يراقب تطورات الأحداث وأوضاع الشعوب والمجتمعات بيقظة وتأمل، ولإيمانه بقدرات الإنسان وما ينطوي عليه من طاقات، ولثقته المطلقة بمبادئ الدين وتعاليمه.. لذلك كان الإمام الشيرازي محلّقاً دائماً في طموحاته وتطلعاته.. وقد يراه البعض خيالياً مثالياً فيما يطرح من مشاريع ومقترحات.. وخطط وبرامج.

لكنه يبرهن على إمكانية تحقيق أطروحاته بالإمكان العقلي، وبالتوجيه الديني - الذي لا يأمر بالمحال - وبإنجازات الأمم والعظماء

في غابر الزمان وحاضره، كما يقدم بسيرته العملية وإنجازاته الفعلية دليلاً على إمكانية تحقيق ما كان يُستبعد تحقيقه.

كان يرفض منطق: (ما يصير) و (ما يمكن) ويرى أنه منطق الكسالى والعاجزين والمنهزمين.

■ في كربلاء - العراق، وقبل أربعين سنة تقريباً، حيث تواضع الإمكانات، وصعوبة الظروف، كان يؤكد ويؤكد على ضرورة طبع الكتب الدينية بأرقام كبيرة (١٠٠ ألف نسخة) مثلاً، وكان البعض يستعظمون هذا الرقم ويرونه خيالياً، لكنه كان يؤكد حتى حقق ذلك بالفعل، فطبعت بعض الكراسات والكتيبات برقم ١٠٠ ألف نسخة وأكثر.

■ وحين بدأ الشيخ عبد الزهراء الكعبي يقرأ مقتل الإمام الحسين في يوم العاشر من محرم في صحن الإمام الحسين عليه السلام بكربلاء، فتحشد الجماهير لاستماعه، لطريقته المتميزة المؤثرة، أصر الإمام الشيرازي على ضرورة السعي والتحرك لإذاعة تسجيل المقتل من إذاعة بغداد، ليستمع له العالم العربي كله، واستبعد الكثيرون إمكانية تحقيق ذلك، لكنه استمر في التأكيد والإلحاح والتحريض حتى تحقق ما كان مستبعداً، وأذيع تسجيل المقتل صبيحة العاشر من المحرم سنة ١٣٧٩ هـ وأعيد بثه مساءً استجابة لطلبات آلاف الراغبين، وأصبح برنامجاً ثابتاً للإذاعة العراقية في اليوم العاشر من المحرم كل عام إلى ما قبل التطورات الأخيرة في العراق.

■ عندما استقر سماحته في الكويت سنة ١٣٩١ هـ دعا إلى تأسيس حوزة علمية دينية، فعارض دعوته الكثيرون من أصدقائه، على أساس أن أجواء الكويت وظروفها غير مهيأة لذلك، لكنه استمر

في طرح فكرته، وعمل على تحقيقها، حتى قام صرح (مدرسة الرسول الأعظم ﷺ)، وتوافد إليها الطلاب من أماكن مختلفة، وكنت ممن انضم إليها واستفاد منها، حيث تشكلت فيها حركة علمية تربوية، خرّجت عدداً طيباً من العلماء والخطباء والمفكرين والكتاب، من بلدان مختلفة.

■ إنه يتحدث عن إعادة توحيد الأمة الإسلامية الممزقة سياسياً إلى خمسين دولة، وأنها يجب أن تصبح في ظل دولة واحدة، ويؤكد على ضرورة ذلك، وإمكانية تحقيقه، وألف كتاباً تحت عنوان (إلى حكومة ألف مليون مسلم) وكتاباً آخر تحت عنوان (الوصول إلى حكومة واحدة إسلامية). كما طرح هذه الفكرة والبرنامج الذي يقترحه لتنفيذها في العديد من كتبه الأخرى.. ويستشهد لذلك بتوحيد القبائل العربية على يد رسول الله ﷺ بعد أن كانت متحاربة متصارعة، وبسعة الدولة الإسلامية واستيعابها للأمة إلى نهاية حكم العثمانيين، ويستشهد بدولة الهند الواحدة، مع تنوع الأديان واللغات والقبائل فيها، وكذلك الصين، وباتجاه أوروبا نحو الوحدة، فما الذي يقعد بالمسلمين عن بناء كيانهم الموحد الواحد؟

■ وهو يقدم برنامجاً للتنمية الثقافية، يدعو فيه إلى طبع ثلاثة مليارات من الكتب، ويقول في مقدمته: «ثلاثة مليارات من الكتب، حيلة العاجز، وأقل الإيمان، لمن يريد إنقاذ المسلمين من هذا السقوط الذي لا مثيل له في تاريخ الإسلام الطويل»^(١).

■ وأذكر أنني زرته يوماً وقدمت له مجلة جديدة أصدرناها، فرحّب

(١) الشيرازي: السيد محمد الحسيني، ثلاثة مليارات من الكتب ص ١١.

وأبدى إعجابه بها، ثم سألتني: كم نسخة تطبعون من المجلة؟ وبكم لغة؟ قلت: نطبع منها ثلاثة آلاف نسخة باللغة العربية فقط، ونوزعها في مختلف المناطق.

فتحدث لي مطولاً عن ضرورة رفع الرقم إلى عشرة آلاف نسخة، وضرورة الإسراع بترجمتها إلى اللغات الأخرى كالفارسية والإنكليزية، واستشهد بنصوص وأحاديث وأرقام وإحصائيات لتأكيد فكرته.

اتصلت بسماحته تلفونياً ذات مرة، وأبدت له ارتياحي وإعجابي بالموقع الذي باسم سماحته على الإنترنت، فأجابني سريعاً: اتصل بالإخوة المشرفين على الموقع وشجعهم على أن يجعلوه بأربعين لغة، فماذا نضع بلغتين أو ثلاث فقط؟

هكذا كان ﷺ دائم التحفيز والتطلع، عالي الهمة والطموح.

شجاعة الرأي والموقف:

يعاني المفكرون والمصلحون في العالم الثالث، من شدة الضغوط التي تحيط بهم، فتمنعهم من إبداء آرائهم، وطرح أفكارهم، ومن اتخاذ المواقف المناسبة. فهناك ضغوط الحكومات، وضغوط التيارات السائدة في المجتمع، وضغوط مراكز القوى والتأثير، وضغط الحواشي والأتباع. وقد عانى الإمام الشيرازي كمصلح ومفكر من وطأة هذه الضغوط، من جهاتها المختلفة، وبأشكالها العديدة، لكنه واجهها بشجاعة وثبات، وأصر على التمسك بحقه في التعبير عن رأيه، واتخاذ الموقف الذي يراه مناسباً، مستعداً لدفع باهظ الأثمان، وتحمل أقصى المضاعفات.

ونشير إلى بعض تلك المواقف الشجاعة:

■ أطروحاته ومواقفه الداعية إلى الالتزام بالإسلام في ظل الحكم

البعثي العراقي، ومعارضته لمصادرة الحريات الدينية والسياسية، وقيادته لعدد كبير واسع من الأنشطة الإسلامية مما يعتبره النظام العراقي تحد لسلطته وسياسته.

وكان من نتائج ذلك اعتقال أخيه الشهيد السيد حسن الشيرازي، وتعذيبه بقسوة ثم اعتقال مجموعة كبيرة من تلامذته وأتباعه، وتهديد حياته بالتصفية، بل وصدور حكم بإعدامه - كما ينقل -، مما اضطره إلى مغادرة العراق، وبعد خروجه من العراق كان يرفع النشاط الإسلامي، والعمل الحركي، وفي مرحلة لاحقة تبنى مواجهة النظام العراقي، وأصبحت حياته في خطر التصفية، كما اغتيل أخوه الشهيد السيد حسن في بيروت سنة ١٩٨٠م.

■ حينما وجد في نفسه الأهلية والكفاءة للتصدي للمرجعية، ورأى أن ذلك يساعده على القيام بمهامه الرسالية، لم يتردد في طبع رسالته العملية وإعلان مرجعيته، مع أن ذلك كان يصطدم مع الأعراف السائدة في الحوزات الدينية، لأنه لا زال في مرحلة الشباب، سنة ١٣٩٠هـ، ولوجود من هم أكبر منه سناً وأكثر شهرة علمية.

وتوالت عليه الضغوط الهائلة بسبب ذلك، فلم يتأثر ولم يتراجع، بل استمر في ممارسة نشاطه ومسؤولياته، حتى اتسعت رقعة مرجعيته، وأصبح واحداً من أبرز المراجع المؤثرين في الساحة.

■ وعندما استقر في إيران بعد قيام الجمهورية الإسلامية، وتشكلت لديه آراء وملاحظات، حول طريقة الحكم، وإدارة شؤون السلطة الإسلامية، وخاصة فيما يرتبط بالحريات العامة، وموقعية الفقهاء المراجع، والنشاط الحزبي السياسي، فإنه جهر بأرائه، وتحدث وكتب حولها العديد من الكتب والأبحاث، وكانت أطروحته

آنذاك مخالفة للتيار العام في أوساط الحكم والثورة، والأجواء كانت مفعمة بالحماس الثوري ونصحه الكثيرون من معارفه وأصدقائه المخلصين، بأن يحتفظ بآرائه، وأن لا يجهر بها، فيتعرض للمضايقات والضغوط رسمياً وشعبياً، لكنه أصراً على ممارسة حقه في التعبير عن رأيه، ورأى أن وظيفته الشرعية تقتضي طرح تلك الآراء خدمة للإسلام والأمة، وتحمل من أجل ذلك الكثير من المشاكل والضغوط الشديدة القاسية. والتي تقلصت فيما بعد، بحصول تطورات سياسية واجتماعية إيجابية في إيران، هي أقرب إلى ما كان يطرحه الإمام الشيرازي من أفكار وآراء.

■ من بداية الثمانينيات، وحيث المد الثوري الإسلامي على أشده، والحركات الإسلامية الجهادية في عنفوانها، كان الإمام الشيرازي يطرح سياسة اللاعنّف، ويعارض أعمال العنف من اغتالات وتفجيرات وما أشبه، ويؤكد على المعارضة السلمية بأشكالها المختلفة، وكان رأيه آنذاك مخالفاً للتيار الثوري الجهادي العام في الساحة، واتهم من قبل بعض الجهات بأنه بآرائه يخدم مصلحة الاستكبار والأنظمة الحاكمة، لكنه استمر في التبشير برأيه عن طريق الحوار وتقديم الأدلة والبراهين الشرعية، والاستشهاد بوقائع التاريخ الماضي، وأحداث الحاضر المعاصر، ولم يتأثر بالتيار السائد، ولا الأجواء المحيطة، ولا الضغوط العنيفة.

رحم الله الإمام الشيرازي، وأثابه خير الجزاء على ما بذل من جهود، وتحمل من تضحيات وعناء في سبيل الله، ووفق الله العاملين للاستفادة من نهجه وفكره، وخلف على الإسلام والأمة أحسن الخلف والحمد لله رب العالمين.

تقدير الكفاءة والإبداع

كلمة الجمعة بتاريخ ٢٧ شوال ١٤٢٢هـ

لا تقاس الشعوب والمجتمعات بوفرة عددها وبكثافتها السكانية، فقد تكون الكثرة الكمية عبئاً يستنزف الموارد، ويعوق الحركة، كما عبر عن ذلك رسول الله ﷺ فيما رواه عنه مولاه ثوبان، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم، من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها، قال: قلنا: يا رسول الله، أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثيرٌ، ولكن تكن غُثاءً كغُثاء السَّيل»^(١).

وإنما تقاس المجتمعات بقوتها النوعية، المتمثلة في كفاءات أبنائها، وقدراتهم المتميزة علمياً وعملياً. من هنا اعتبر القرآن الكريم فرداً واحداً بمثابة أمة كاملة، لما كان يتمتع به من صفات ومواصفات عظيمة، وهو نبي الله إبراهيم الخليل ﷺ، يقول تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٢).

وكان العرب يقولون عن المتفوق في شجاعته وتدييره: رجل كَألف. فالكفاءة والإبداع هي مصدر قوة الأفراد والشعوب. والمجتمع الأقوى هو الذي تكثر الكفاءات وقدرات الإبداع بين أبنائه. ولكن كيف تنمو الكفاءات؟ وكيف تتفجر الكفاءات؟ ولماذا تزخر

(١) ابن حنبل: الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل - حديث رقم ٢٢٧٦٠، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، عالم الكتب، بيروت..

(٢) سورة النحل آية ١٢٠.

بعض المجتمعات بالمبدعين والمتفوقين، بينما تعاني مجتمعات أخرى من القحط والفقير؟

هناك عوامل وأسباب عديدة تؤثر في مستوى حركة الإبداع والتفوق في أي مجتمع، لعل من أبرزها: مدى ما تجده الكفاءة من تشجيع واحترام، فالمجتمعات المتقدمة عادة ما تحرص على توفير أكبر قدر من الاحترام والتشجيع للطاقات والقدرات المتميزة من أبنائها، بينما تنعدم أو تتضاءل مثل هذه الحالة في المجتمعات المتخلفة.

احترام الذات:

احترام الكفاءة والإبداع مظهر للراقي وطريق للتقدم.

فالإنسان السوي، يخترن في أعماق نفسه، مشاعر إعجاب وتقدير، لكل كفاءة متميزة، وإبداع خلاق، ودون ذلك لا يكون إنساناً سوياً أبداً، لكن امتلاك قدرة التعبير عن تلك المشاعر، والمبادرة لإبرازها هو سمة الراقين المتحضرين.

إن من يظهر مشاعر تقديره للكفوئين المبدعين، إنما يسجل احترامه لذاته أولاً، بالتعبير عما تختزنه من انطباعات، ومنحها جدارة التقديم والعرض، بينما يشكك ضعفاء الثقة بذواتهم، في استحقاق مشاعرهم للإظهار والإبراز، ويخلون على أنفسهم بفرصة التعبير عما يختلج فيها، لضعف احترامهم لها.

أمراض التخلف:

وقد تتراكم على نفس الإنسان حجب قاتمة من نوازع الأنانية والحسد، تمنعه من إعلان تقديره للمستحقين للتقدير، وذلك خلق سيئ، وحالة مرضية، لا علاج لها إلا بالوعي الصحيح، والتربية الفاضلة،

وممارسة جهاد النفس، وهو الجهاد الأكبر.

إن البعض تمتلئ نفسه بحب ذاته بشكل نرجسي، وسيطر عليه الغرور، وتتضخم لديه الأنا بحيث لا يرى أحداً غيره مستحقاً للمدح والتقدير، بل وينزعج ويتذمر حينما يشاد بآخرين، وقد يكون ذلك ناتجاً من شعور عميق بالنقص والضعف، يستثيره ذكر كمال الآخرين وتفوقهم.

وقد يشعر بعض من يجد في نفسه الكفاءة بالغبن حينما يرى تكريم غيره من المبدعين، والحقيقة إنه يجب أن يغتبط ويفرح بذلك، لأن تقدير أي كفاءة في المجتمع، يعتبر تكريماً لمنهجية صحيحة، إذا تأكد وجودها، فستشمله بركاتهما وآثارها كغيره من المؤهلين.

ولشيوع مثل هذه الأمراض في نفوس أبناء المجتمعات المتخلفة، عادة ما يتأجل تقدير الكفوئين، من العلماء والأدباء والمصلحين إلى ما بعد وفاتهم، ومغادرتهم الدنيا إلى الآخرة، عندها تُعقد مجالس التأيين لذكر محاسنهم، وتعداد فضائلهم، وإعلان الحسرة على فقدهم، بينما كانوا في حياتهم مجهولين أو متجاهلين.

وكما قال الشاعر (عبيد بن الأبرص):

لأعرفنك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادي

وذكروا في ترجمة العالم الجليل الشيخ عبد العلي بن جمعة الحويزي (توفي سنة ١١١٢هـ) صاحب التفسير المعروف (نور الثقلين) وهو من علماء الأهواز، وكان معاصراً للشيخ المجلسي صاحب بحار الأنوار، والحر العاملي صاحب الوسائل، أن تلميذه السيد نعمة الله الجزائري، سأل أحد العلماء، عن قيمة ومستوى كتاب تفسير (نور الثقلين) لأستاذه الشيخ الحويزي، وقال: إن كان هذا التفسير قابلاً

للاستكتاب، مشتتلاً على جملة من الفوائد كتبناه وإلا فلا؟

فأجابه ذلك العالم الكبير على سؤاله بما يلي: ما دام مؤلفه حياً فلا تساوي قيمته فلساً واحداً، وإذا مات فأول من يكتبه أنا، وهذا إخبار عما في الضمير، ثم أنشد:

تري الفتى ينكر فضل الفتى ما دام حياً فإذا ما ذهب
لجّ به الحرص على نكتة يكتبها عنه بماء الذهب^(١)

التقدير والتطوير:

التفوق والإبداع لا يتأتى إلا ببذل جهد، وتحمل عناء، لذلك يكون المتفوقون قلة، لأن أكثر الناس يتقاعسون ولا يرغبون في إتعاب أنفسهم وإجهادها، وقديماً قال المتنبي:

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يُفقر والإقدام قتال

وهنا يأتي دور التشجيع والتقدير، في رفع معنويات رواد الإبداع والتفوق، وامتصاص آثار التعب والعناء الذي يواجهونه في طريقهم، مما يجعلهم أكثر عزمًا وتصميماً على الإنجاز والتقدم.

إن تقدير الكفاءة يساعد على تنميتها وتطويرها، ويدفع أصحابها إلى المزيد من العطاء والإنجاز، ويكرّس في نفوسهم حب مجتمعهم، والإخلاص إليه، والتفاني في خدمته، بينما تجاهل الكفاءات قد يثبّط نشاطها، ويصيبها بالإحباط، وفي أحسن الفروض، تسلك طريق النزوح والاعتراب، وما يصطّلع عليه الآن بهجرة الكفاءات والأدمغة.

(١) الحويزي: الشيخ عبد العلي، تفسير نور الثقلين - ترجمة المؤلف ص ٨ ج ١، الطبعة الأولى ٢٠٠١م مؤسسة التاريخ العربي - بيروت.

الطموح للتفوق:

إن تكريم المبدعين يرفع درجة الطموح والتطلع نحو التقدم والإبداع لدى أبناء المجتمع، لذلك تجتهد المجتمعات المتقدمة في وضع البرامج، وابتكار الأساليب، لتقدير الكفوئين من أبنائها، بالاحتفاء بهم إعلامياً، وتكريمهم اجتماعياً، ورصد الجوائز والأوسمة لهم، وتوفير وسائل العيش الكريم، والخدمات اللازمة لفاعليتهم ونشاطهم.

وقد أخذت مجتمعاتنا العربية والإسلامية المعاصرة عن المجتمعات المتقدمة بعض عادات الاهتمام، وبرامج التقدير للمتفوقين، لكنها تكاد تنحصر في الاهتمام بالمتفوقين في القوى البدنية كالرياضيين، والقدرات الفنية كالمغنيين.

في عام ٢٠٠٠م قام أحد أنديةنا الرياضية في المملكة بشراء لاعب من ناد آخر بمبلغ ٩ مليون ريال، نصيب اللاعب مليوني ريال وراتبه الشهري ٢٥ ألف ريال. وقبل فترة تم تكريم لاعب من أحد الأندية بمناسبة اعتزاله وقدمت له هدايا بمبلغ ٤٠ ألف ريال.

وذكر موقع (اللاعب) على الإنترنت أنه: أعلنت اللجنة المنظمة لحفل اعتزال لاعب بمناسبة اعتزاله اللعب خلال الأشهر القادمة بأن تكلفة إقامة حفل الاعتزال أكثر من مليون ونصف وستكون في مدن الرياض وجدة والدمام.. وبلغ عدد رجال الأعمال الذين أبدوا مساهمتهم في التكريم إلى (٢٤٥) شخصية.. ومن المنتظر أن يبلغ إجمالي الهدايا ما مقداره ٤ مليون ريال.

وقبل فترة أفردت مجلة (المجلة) ملحقاً حول أجور الفنانين العرب، جاء فيه: تصل حصص كبار الفنانين السعوديين إلى ٦٠٠ ألف ريال مقابل النسخة الأصلية من الشريط، ونسبة من توزيعه تختلف

باختلاف الفنان، فمنهم من يحصل على ريال مقابل كل شريط أو ريالين، وأحياناً تصل إلى ثلاثة ريالاً، وهذا يعني أن دخل الفنان من الكاسيت فقط يصل لأكثر من مليون ونصف سنوياً، إذا افترضنا أنه يطرح شريطين في السنة.

وتتراوح أجرة إحياء الحفلات الخاصة من قبل كبار الفنانين بين ٨٠ إلى ١٠٠ ألف ريال للحفلة الواحدة، دون أجر الفرقة المصاحبة^(١).

أما العلماء، والمفكرون، والأدباء المبدعون، وسائر الكفاءات النافعة، فهي في الكثير من أقطار العالم الثالث تتمنى السلامة على نفسها، فضلاً عن أن يتوفر لها الاهتمام والتقدير، حتى قال أحد الأدباء (الشاعر العراقي أحمد مطر) معبراً عن هذه الحقيقة المرّة:

«قال أبي

في كل قطر عربي

إن أعلن الذكي عن ذكائه فهو غبي»

بالطبع لا يمكن التعميم فهناك بشائر طيبة وبوادٍ مشجعة هنا وهناك، لكن المقصود هو الحالة العامة والوضع السائد في الوطن العربي والعالم الإسلامي، قياساً على إمكاناته الهائلة، ومقارنة بأوضاع المجتمعات الأخرى. ومما يشاد به عندنا في المملكة جائزة الملك فيصل العالمية وبرامج تكريم المتفوقين دراسياً في كل عام.

احترام الكفاءة لذاتها:

إن الكفاءة يجب أن تحترم لذاتها وعطائها، من أي عائلة انبثقت، وإلى أي طبقة انتمت، ومن أي طائفة كانت، وبغض النظر عن اتجاهها

(١) المجلة عدد ٨٧٨ بتاريخ ٨-١٤ ديسمبر ١٩٩٦م.

الأيديولوجي والسياسي والمذهبي.

هكذا يأمر العقل وإلى هذا يرشد الشرع.

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾^(١).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي النجدي في تفسيره لهذه الآية:

«﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي لا يحملنكم. ﴿شَنَاٰنُ قَوْمٍ﴾ أي: بغضهم. ﴿عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، فلو كان كافراً أو مبتدعاً. فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق»^(٢).

وفي ثلاثة موارد من القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ (الأعراف ٨٥ - هود ٨٥ - الشعراء ١٨٣).

والبخس - كما يقول ابن عاشور-: هو إنقاص شيء من صفة أو مقدار هو حقيق بكمال في نوعه.

ولنتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ﴾ ولم يقل المسلمين أو المؤمنين فقط. ومن مسلمات الفقه الإسلامي عدم جواز البخس والظلم على أي إنسان إلا أن يكون معتدياً فيقاوم عدوانه.

﴿أَشْيَاءَهُمْ﴾ تشمل الحقوق المادية والمعنوية فكما لا يجوز أن تبخس أحداً من الناس شيئاً من حقوقه المادية، كذلك لا يصح أن

(١) سورة المائدة آية ٨.

(٢) السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص ٣٣٢، دار الذخائر - بيروت ١٤١٨ هـ.

تبخس شيئاً من حقوقه المعنوية.

وفي تراثنا الإسلامي تأكيد على خلق الإنصاف من مادة (نَصَفَ). يقال في اللغة أنصف النهار: أي انتصف، وأنصفَ الشخص إذا عدل. وتناصف القوم: أي أنصف بعضهم بعضاً من نفسه. وقيل: إذا تعاطوا الحق بينهم. وقال في القاموس: انتصف منه: استوفى حقه منه كاملاً. ومن تعريفات علماء الأخلاق للإنصاف أنه: استيفاء الحقوق لأربابها.

ومن روائع حكم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «الإنصاف يرفع الخلاف ويوجب الائتلاف» وقال عليه السلام: «زكاة القدرة الإنصاف». وفي السيرة النبوية: نقرأ كيف احترم الرسول صلى الله عليه وسلم سَفَانَةَ - بفتح السين وتشديد الفاء - بنت حاتم الطائي، والذي مات على الكفر قبل الإسلام. وأمر بإطلاق سراحها من السبي قائلاً: «خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق. وإن الله يحب مكارم الأخلاق».

ونقرأ في تاريخنا أيام عزة الحضارة العربية كيف أن الشريف الرضي العالم الفقيه (٣٥٩-٤٠٦ هـ) يشيد بأدب وشخصية أبي إسحاق إبراهيم ابن هلال الصابي - وهو على دين الصابئة - في مراسلاته له بالشعر والنثر ثم يبكيه ويرثيه بقصيدة تعتبر من أروع قصائده في الرثاء و مطلعها:

أرأيت كيف خبا ضياء النادي	أعلمت من حملوا على الأعواد
من وقعه متتابع الأزيد	جبل هوى لو خر في البحر اغتدى
أن الثرى يعلو على الأطواد	ما كنت أعلم قبل حطك في الثرى

إلى أن يقول:

الفضل ناسب بيننا إن لم يكن شرفي مناسبه ولا ميلادي^(١)
وينقل الثعالبي في يتيمة الدهر: أن الشريف الرضي مريوماً بقبر
أبي إسحاق الصابي وهو بالجينية من أرض كرخايا فقال:
أعلم قبر بالجينية إننا أقمنا به نعي الندى والمعاليا
عطفنا فحيننا مساعيه إنها عظام المساعي لا العظام البواليا
إلى آخر قصيدته وهي ٣٥ بيتاً^(٢).

وكذلك فعل أخوه السيد المرتضى علم الهدى حيث رثى أبا
إسحاق الصابي بقصيدة رائعة.

هكذا كان أسلافنا يحترمون الكفاءة لذاتها وعطائها.

وهكذا يشجعنا الإسلام على الاعتراف بفضل ذوي الفضل يقول
تعالى: ﴿وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾^(٣).

ويأمرنا بشكر من يستحق الشكر، حيث روى الإمام محمد الباقر
عن جده رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»^(٤).

(١) القمي: الشيخ عباس، الكني والألقاب، ج ٢ ص ٤٠٠.

(٢) الثعالبي: أبو منصور عبد الملك، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج ٢ ص ٣٦٦، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ دار الكتب العلمية - بيروت.

(٣) سورة البقرة آية ٢٣٧.

(٤) الحر العاملي: محمد بن الحسن، وسائل الشيعة، حديث رقم ٢١٦٣٧ ص ٣١٣.

الحالة الدينية ومرض الغرور

كلمة الجمعة بتاريخ ٤ ذو القعدة ١٤٢٢هـ

الغرور لغة: مصدر قولهم غرَّه يَغُرُّه، وهو مأخوذ من مادة (غ ر ر) التي تدل على النقصان، والمراد نقصان الفطنة.

اغترَّ بالشيء: خُدع به. ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾^(١) أي ما خدعك.

قال ابن منظور: غرَّه يغرُّه: خدعه وأطمعه بالباطل.

واصطلاحاً عرفه الجرجاني بأنه: سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، وقال الكفوي: هو تزيين الخطأ بأنه صواب. وعرفه بعض بأنه إخفاء الخدعة في صورة النصيحة.

ويمكن أن نستخلص من التعريفات المختلفة، ومن الاستخدام المتداول في الثقافة المعاصرة: أن الغرور هو مبالغة الإنسان في تقدير حجم إمكانياته وقدراته، أو اعتماده على قوة غير حقيقية.

ألوان الغرور:

هناك ألوان مختلفة من الغرور قد تصيب الإنسان، منها اغتراره بحسبه ونسبه، واعتقاده بأن انتماءه لهذه العائلة كفيلاً بنجاحه في الدنيا ونجاته في الآخرة، وبذلك يتوانى عن السعي والعمل والاجتهاد.

(١) سورة الانفطار آية ٦.

يقول الإمام علي عليه السلام: «من أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه». وقد يغتر الإنسان بماله و ثروته، فيرى ذلك مصدراً للكمال المطلق، ولتحقيق كل التطلعات، غافلاً عن اكتساب سائر مقومات القوة. وقد يغتر الإنسان بمستواه العلمي، فيتصور أنه وصل إلى قمة العلم، وأن لا أحد يدانيه في مكانته العلمية، فيتوقف عن التقدم، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا أوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾^(١) ويقول تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾^(٢). وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من قال: أنا عالم فهو جاهل».

كما تحدث القرآن الكريم في العديد من آياته محذراً من الاغترار بالدنيا، بأن يُستغرق الإنسان في شهواتها وإغراءاتها، دون التفات إلى المكاسب المعنوية، والمصير الأخروي. قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾^(٣).

وأساس الغرور في كل ألوانه واحد، وهو الجهل أو الغفلة وتبرير التقاعس والكسل، للتوقف عن الاجتهاد والسعي، ونتيجته دائماً هي التراجع والفسل والسقوط أمام التحدي والامتحان، يقول الإمام علي عليه السلام: «كفى بالاغترار جهلاً». «من جهل اغتر بنفسه وكان يومه شراً من أمسه».

الغرور الديني:

هناك لون خطير من ألوان الغرور قل أن تسلط عليه الأضواء وهو الغرور الديني، ونعني به أن يعتقد الإنسان امتلاكه للحقيقة الدينية

(١) سورة الإسراء آية ٨٥.

(٢) سورة يوسف آية ٧٦.

(٣) سورة لقمان آية ٣٣.

المطلقة، دون استعداد للبحث والنقاش، وأنه أفضل ذاتاً من الآخرين، وأن مجرد انتمائه وانتسابه لهذا الدين أو المذهب، وقيامه بهذه الممارسة الدينية، يعني الفوز والنجاح في الدنيا والآخرة.

هذا النوع من الغرور يشلُّ فكر صاحبه، ويجمّد عقله، وينحرف به عن الطريق القويم، ويوفر له الأعذار والتبريرات لكل تقصير أو خطأ يصدر منه. كما يدفعه إلى التعالي على الآخرين والاستهانة بحقوقهم. والأسوأ من ذلك أنه يقدم نموذجاً مشوهاً للدين أو المذهب الذي ينتمي إليه.

يقول الشيخ محمد الغزالي: أفسد شيء للأديان غرور أصحابها، يحسب أحدهم أن انتماءه المجرّد لدين ما قد ملّكه مفاتيح السماء، وجعله الوارث الأوحّد للجنة! ومن ثم فإن صاحب هذا التدين يتوسل إلى أغراضه بما يتاح له من أسباب، بغض النظر عن قيمتها الأخلاقية^(١).

لكن الدين الحقيقي لا يوجد الغرور في نفس الإنسان، وإنما هي حالة دخيلة، ناشئة عن سوء فهم للدين، أو تحريف لتعاليمه، وبالتالي فهي نوع من الافتراء والكذب على الله، يقول تعالى: ﴿وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾^(٢) فمنشأ الغرور ما افتروه على الدين، وليس من ذات الدين.

وقد تحصل الإضافة والافتراء على الدين من قبل شخص أو جماعة، لكنها تؤسس لنهج خاطئ يسير عليه التابعون. وهنا تأتي ضرورة الوعي والبصيرة في الدين، حتى لا يجد الإنسان نفسه مخدوعاً في دينه. إن هناك عدة مظاهر لهذا المرض الخطير على الإنسان أن

(١) الغزالي: محمد، قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوفاة، ص ٢٦.

(٢) سورة آل عمران آية ٢٤.

يتأمل نفسه، ويتفحص سلوكه، ليتأكد من سلامته من هذه الأعراض.

الأحقية دون نقاش:

من الطبيعي أن يعتقد كل إنسان بصحة ما يعتنقه من دين أو مذهب، لكن ذلك يجب أن يتأسس على الدراسة والبحث الموضوعي، فقد وهب الله تعالى للإنسان عقلاً يدرك به الحقائق، ويهتدي به إلى الصواب، والعقيدة لا ينبغي أن يأخذها الإنسان كموروث عائلي، أو كاستجابة لأعراف البيئة الاجتماعية. وإنما عليه أن يستخدم عقله بالشكل الصحيح، بعيداً عن تأثيرات الأهواء والمصالح. وأن يعتمد على لغة الدليل والبرهان. يقول تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

ومع مرجعية العقل، واعتماد حجية البرهان، لا يخشى الإنسان المتدين من الانفتاح على مختلف الآراء، بل يدرسها ويمحصها ليكتشف الأحسن والأقرب إلى الحقيقة والصواب. ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

هذا هو مقتضى التدين الواعي، أما المصاب بمرض الغرور الديني، فعادة ما يرفض أي بحث أو نقاش، ويكتفي بادعاء الأحقية المطلقة، فهو وحده على الحق، والآخرين كفار مبتدعون وفي ضلال مبين!! وبذلك يخدع نفسه قبل أن يخدع الآخرين، سواء كان في أصل الدين أو في قضية من قضاياها.

(١) سورة البقرة آية ١١١.

(٢) سورة الزمر آية ١٨.

التعالي على الآخرين:

اعتقاد الإنسان بأحقية دينه ومذهبه، لا يعني الاعتقاد بعلو الذات على الآخرين، ولا يسوغ ممارسة التعالي على الغير، بالاستهانة بهم، وانتهاك حقوقهم، والإساءة إليهم.

فينبغي التمييز بين الاعتقاد بعلو المبادئ والقيم، وبين الاعتقاد بعلو الذات. لأن سمو الذات يرتبط بمدى التزامها بالقيم والمبادئ، وهي لا تشرع للظلم، ولا تقبل انتهاك حقوق الغير.

لذلك نجد التعاليم الدينية الحقّة، تؤكد على احترام الآخرين والإحسان إليهم. إن الله تعالى يصف المتقين بأنهم الذين: لَا يَرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا^(١) ويأمر المؤمنين باستخدام الخطاب الأحسن مع الناس: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢).

ولو تأملنا النصوص الدينية الواردة في احترام حقوق أبناء الديانات الأخرى (أهل الكتاب)، لرأينا مدى اهتمام الإسلام بتربية أبنائه على رعاية حقوق الآخرين، فقد أخرج أبو داود في سننه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا من ظلم معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»^(٣).

وكان نبي الإسلام محمد ﷺ يظهر الرعاية والاحترام للآخرين، مع إعراضهم عن التصديق بدعوته الواضحة، بل ومع كل محاولاتهم ومؤامراتهم ضده و ضد رسالته، حتى أنه ﷺ كان يبدي الاحترام لجنازات موتاهم فضلاً عن الأحياء.

(١) سورة القصص آية ٨٣.

(٢) سورة الإسراء آية ٥٣.

(٣) السجستاني: أبو داود، سنن أبي داود، حديث رقم ٣٠٥٢.

أخرج البخاري عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: مرّ بنا جنازة، فقام لها النبي ﷺ وقمنا به، فقلنا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي؟ قال ﷺ: «إذا رأيتم الجنازة فقوموا» وفي حديث آخر: إن النبي ﷺ مرت به جنازة فقام فقبل له: إنها جنازة يهودي، فقال: «أليست نفساً؟»^(١)

وفي هذا السياق تأتي توجيهات أئمة الهدى حتى في التعاطي مع العصاة المذنبين، فانحرفهم لا يبرر الحقد عليهم، والإساءة إليهم، من قبل المتدينين الصالحين، بل ينبغي مساعدتهم على تجاوز ما وقعوا فيه، سئل الإمام موسى الكاظم عليه السلام: الرجل من مواليكم يكون عارفاً يشرب الخمر، ويرتكب الموبق من الذنب نتبراً منه؟ فقال عليه السلام: «تبرؤوا من فعله ولا تتبرؤوا منه، أحبوه وأبغضوا عمله»^(٢).

الانتماء الرسمي:

الدين ليس قبيلة ينتمي إليها الإنسان، ولا جنسية بلد يحملها، إنه قيم ومبادئ، ومنهج وسلوك، والتدين الصادق هو الالتزام بقيم الدين، والسير على نهجه، بيد أن المبتلين بمرض الغرور الديني، يخدعون أنفسهم بالاكْتفاء بالانتماء الرسمي. والاسمي للدين، دون العمل بمبادئه وتشريعاته، ويدعون لأنفسهم الأفضلية، وضمنان النجاة في الدنيا والآخرة.

لكن الله تعالى لا يخدع عن جنته، والمقياس هو الالتزام والعمل، وليس الشعارات والادعاءات، وحينما ادعى جمع من الحاضرين في

(١) البخاري: محمد بن اسماعيل، صحيح البخاري- حديث رقم ١٣١١، ١٣١٢، دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢) المجلسي: محمد باقر، بحار لانوار ج ٦٥ ص ١٤٧.

مجلس رسول الله ﷺ ذات يوم أنهم غارقون في حب الله تعالى، وزايدوا على الآخرين في دعواهم، نزل الوحي من قبل الله تعالى مطالباً لهم بتصديق دعواهم عملياً باتباع تعاليم الرسول ﷺ، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾^(١).

لذلك لا تكاد تجد آية في القرآن تتحدث عن الإيمان إلا وتردده بالحديث عن عمل الصالحات، لأن الإيمان يجب أن يتجسد في سلوك الإنسان وممارساته.

القرآن يفضح الغرور الديني:

حينما يتحدث القرآن الكريم في العديد من آياته، عما أصاب اليهود والنصارى، من غرور في دينهم، فإنه لا يقصد مجرد الذم والتشهير بهم، وإنما يريد تقديم الدرس والعبرة، وتحذير المجتمع المسلم من الوقوع في ذات المنزلق، والسقوط في نفس الهاوية.

لذلك جاء الحديث مفصلاً عن ادعاءاتهم النابعة من الغرور مع تسليط الأضواء على منطلقاتها الخاطئة، وكشف ثغراتها الجذرية.

١. فهم يدعون أن الجنة حكر عليهم وملك لهم، لا يدخلها غيرهم وقد يدعي غير اليهود والنصارى مثل هذه الدعوى، لذلك جاء الرد القرآني مفنداً هذا الادعاء بشكل عام، من أي جهة انطلق، فالجنة لا تنال بالأمانى، وإنما يجب أن يبرهن الإنسان على استحقاقه لها، بالإخلاص لله تعالى في توجهاته، وبالإحسان في سلوكه، ومن اتصف بهاتين الصفتين كان أهلاً لدخول الجنة، من أي أمة كان. يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ

هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ
بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴿١﴾.

٢. وكانوا يرون لأنفسهم صلة خاصة بالله تعالى، فهم أبناء الله وأحباؤه دون سائر الخلق، لكن سنن الله تعالى في الحياة الدنيا، وحكمه في الآخرة، تناقض مثل هذه الادعاءات فجميع البشر محكومون بسنن واحدة، ونظام إلهي عادل، لذلك يتعرض المخالف لسنن الله وتعاليمه للعذاب والجزاء دنيًا وآخرة، من أي أمة كان، فليس بين الله وبين أحد من خلقه قرابة، فهم خلقه وعباده جميعاً.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ ﴿٢﴾.

٣. ويخدعون أنفسهم بأن الله تعالى سيتساهل في مجازاتهم، ويتسامح معهم، فلا ينالهم عذاب النار، إلا بشكل محدود، وضمن فترة قصيرة، لخصوصيتهم وامتيازهم على الآخرين.

ويدحض الله تعالى قولهم، بأن ذلك نابع من غرورهم، وأن كل إنسان سيحاسب وفق عمله، وليس حسب انتمائه.

يقول تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبَهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿٣﴾.

(١) سورة البقرة آية ١١١، ١١٢.

(٢) سورة المائدة آية ١٨.

(٣) سورة آل عمران آية ٢٤-٢٥.

هكذا يفضح القرآن الغرور الديني بمنطق إلهي واضح، يقوم على أساس تساوي الخلق أمام الرب تعالى، وأن التفاضل هو بالتزام القيم، وتطبيق المبادئ، وليس بالانتماء الاسمي، ولا بالأمنيات والادعاءات والشعارات.

وهو المنطق المعتمد في الخطاب الإلهي لكل الأمم وأتباع الديانات من يهود ونصارى ومسلمين وغيرهم.

الإئمة يحاربون الغرور الديني:

وعلى هدي كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ جاءت توجيهات أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، تدعو أتباعهم وشيعتهم، إلى الحذر من خداع النفس، والانزلاق في هاوية الغرور الديني حيث قد يتصور البعض أن مجرد محبة أهل البيت (عليهم السلام)، والانتماء إلى مذهبهم وإظهار الولاء والتعاطف معهم كافٍ في تحقيق النجاة والنجاح.

خاصة وأن ثقافة معينة قد تشكلت من إشاعة مثل هذا التصور، تعتمد على بعض الأحاديث الضعيفة، والنصوص المبتورة من سياقها، وعلى سوء الفهم والتفسير لبعض الروايات، وتستعين ببعض مبالغات الشعراء كقول أحدهم:

كل من والى علي المرتضى لا يهابنَّ عظيم السيئات
جبه الإكسير لو ذُرَّ على سيئات الخلق صارت حسنات

وقول الآخر

سوِّدت صحيفة أعمالِي ووكلت الأمر إلى حيدر
أمام هذه الثقافة الخاطئة التي تكررّس الغرور الديني، وتخالف المنطق الإلهي، تأتي توجيهات أئمة الهدى (عليهم السلام)، لتأكيد محورية الالتزام بالقيم والمبادئ، وأن ذلك وحده طريق النجاة والنجاح.

١. عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام قال: «لا تذهب بكم المذاهب فو الله ما شيعتنا إلا من أطاع الله عز وجل». ^(١)

وعلى حاشية هذا الحديث في الكافي جاء تعليق الشيخ المجلسي قال فيه: أي لا يذهب بكم الشيطان في المذاهب الباطلة، من الأمانى الكاذبة، والعقائد الفاسدة، بأن تجترئوا على المعاصي، اتكلاً على دعوى التشيع والمحبة والولاية من غير حقيقة، فإنه ليس شيعتهم إلا من شايعهم في الأقوال والأفعال، لا من ادعى التشيع بمحض المقال. ^(٢)

٢. وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: قال لي: يا جابر أيكتمني من ينتحل التشيع أن يقول بحبنا أهل البيت، فو الله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه.. يا جابر: لا تذهبن بك المذاهب حسب الرجل أن يقول: أحب علياً وأتولاه ثم لا يكون مع ذلك فعلاً؟ فلو قال: إنني أحب رسول الله صلى الله عليه وآله فرسول الله خير من علي ثم لا يتبع سيرته، ولا يعمل بسنته، ما نفعه حبه إياه شيئاً، فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحب العباد إلى الله عز وجل وأكرمهم عليه، أتقاهم وأعملهم بطاعته، يا جابر والله ما يتقرب إلى الله تبارك وتعالى إلا بالطاعة، وما معنا براءة من النار، ولا على الله لأحد من حجة، من كان لله مطيعاً فهو لنا ولي، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، وما تنال

(١) الكليني: محمد بن يعقوب، الكافي ج ٢ ص ٧٣، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الأضواء، بيروت.

(٢) المصدر السابق ص ٧٤.

ولايتنا إلا بالعمل والورع.^(١)

تحقيق الأفضلية :

نحن لا نعيش في صحراء فارغة، نردد في أجوائها ادعاء الأفضلية فلا يسمعنا أحد، بل نعيش ضمن عالم مزدحم بالأديان والمذاهب والنظريات والمناهج، وإذا كنا ندعي أحقية ديننا على سائر الأديان، وأفضلية مذهبنا على بقية المذاهب، فعلياً أن ثبت ذلك ونحققه عبر طريقين :

الأول: الإثبات العلمي المعرفي، بعرض أدلتنا وبراهيننا وتقديم البرامج والمناهج الأفضل، لمعالجة مشاكل الحياة، ورفع مستوى البشرية.

أما إذا كنا عاجزين وفاشلين في وضع البرامج والمناهج التي نحتاجها لتيسير شؤون حياتنا، فكيف نقنع العالم بأننا نمتلك أفضل منهج، وخير سبيل؟

الثاني: السلوك الحضاري المتميز، فإن الله تعالى جعل خيرية الأمة الإسلامية، مشروطة بدورها الريادي في العالم. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾^(٢).

وبحمل رسالة الإصلاح على مستوى البشرية جمعاء ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^(٣).

والمعروف مفهوم شامل لكل ما ينفع الناس، والمنكر عنوان

(١) المصدر السابق ص ٧٤.

(٢) سورة البقرة آية ١٤٣.

(٣) سورة آل عمران آية ١١٠.

عام لكل ما ينكره العقل والوجدان، إن من المؤسف جداً أن تنطلق المبادرات الإنسانية والحضارية من مجتمعات أخرى، بينما تعيش أغلب مجتمعاتنا الإسلامية حالة التخلف والجمود، والعجز حتى عن إصلاح شؤونها، وترتيب أوضاعها. مما يناقض الموقعية التي أرادها الله تعالى لهذه الأمة.

سيرة الأئمة ومناهج العرض

كلمة الجمعة بتاريخ ١١ ذو القعدة ١٤٢٢هـ

من نعم الله تعالى على مجتمعنا وجود هذه العادة الطيبة، إحياء المناسبات الدينية المرتبطة بذكرىات النبي محمد ﷺ والأئمة الهداة من أهل بيته، بعقد المجالس والاحتفالات وإلقاء الخطب والمحاضرات والأناشيد.

هذا الإحياء والاحتفاء بالمناسبات الدينية نعتبره مصداقاً لبعض العمومات الواردة في الكتاب والسنة، كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْكُمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(١) والآية وردت في الحديث عن الهدي ومناسك الحج، لكن عدداً من العلماء رأى أن مناسك الحج هي مصاديق للشعائر التي ينبغي تعظيمها، ولا تنحصر بها. يقول الشيخ عبد الرحمن ابن ناصر السعدي النجدي: «والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها»^(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾^(٣) بناءً على أن الضمير في: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ عائد إلى رسول الله ﷺ كما هو اختيار جمع من المفسرين،

(١) سورة الحج آية ٣٢.

(٢) السعدي: الشيخ عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - سورة الحج آية ٣٢.

(٣) سورة الفتح آية ٩.

وهو مروى عن ابن عباس رضي الله عنهما ^(١) واختاره الشيخ السعدي النجدي قال: «أي تعزروا الرسول وتوقروه، أي تعظموه وتجلوه، وتقوموا بحقوقه» ^(٢).

وأيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ ^(٣) وإحياء ذكريات أهل البيت إظهار لمودتهم.

إضافة إلى النصوص المروية عن أئمة أهل البيت رضي الله عنهم والتي تحث وتشجع على إحياء هذه المناسبات والاحتفاء بها. ومعلوم أن أتباع أهل البيت يعتبرون كلام الأئمة حجة شرعية يستند إليها ويعتمد عليها، لأدلة عقلية ونقلية ذكروها في بحوثهم الكلامية والعقدية.

ولإحياء هذه المناسبات منافع وفوائد عظيمة، فهي تتيح فرصة كبيرة للتذكير بالقيم والمبادئ الدينية، وتحقيق الانشداد والولاء في النفوس لرسول الإسلام وأهل بيته رضي الله عنهم، وتبقي شخصياتهم في موقع القدوة والأسوة.

كما تعتبر تنشيطاً وتفعيلاً للحالة الدينية في المجتمع، وللتواصل الاجتماعي في إطار التوجهات المبدئية.

مناهج العرض:

حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم والأئمة من أهل البيت رضي الله عنهم تشكل تجسيدا عملياً لقيم الإسلام، وهي مصدر من مصادر التشريع والفكر الإسلامي، كما تزخر بالعلوم والمعارف، والدروس والعبر.

ولا شك أن تعرف الأمة على حياة النبي صلى الله عليه وسلم والأئمة رضي الله عنهم أمر مطلوب، لتحصيل المعرفة والوعي بالدين، وبتاريخه ومعالم حضارته.

(١) ابن عاشور: محمد الطاهر، التحرير والتنوير - سورة الفتح، آية ٩.

(٢) السعدي: الشيخ عبدالرحمن، تيسير الكريم الرحمن، سورة الفتح آية ٩.

(٣) سورة الشورى آية ٢٣.

والاحتفاء بالمناسبات الدينية هو أفضل فرصة لتعريف الأمة على حياة قادتها الهداة، فحينما يحتفى بالمولد النبوي الشريف، فذلك يتيح المجال للحديث عن حياة رسول الله ﷺ، وسيرته العطرة، وأخلاقه العظيمة، وهدية الرسالي. وكذلك في مناسبة أي إمام من الأئمة، إنما يجب أن توظف وتستثمر في استحضار سيرة ذلك الإمام، ومواقفه النبيلة، وتوجيهاته الصالحة.

وذلك هو الأمر المألوف والمتعارف عليه في احتفاء مجتمعنا بهذه المناسبات. لكننا نلاحظ أن مناهج العرض، وأساليب الطرح، لسيرة الرسول والأئمة تختلف من خطيب إلى آخر، حسب اختلاف التوجهات والمستويات، ولعل من أبرز تلك المناهج ثلاثة:

العرض التاريخي؛

حيث يتم عرض حياة النبي ﷺ أو الإمام ﷺ، منذ ولادته، وحتى وفاته، في الجانب الشخصي، كالحديث عن زوجاته وأولاده ومواليه، وطريقته في العيش، وفي الجانب الاجتماعي، كتلامذته، وتنقلاته، ومناظراته، وعلاقته مع حكام عصره، ومراكز القوى في مجتمعه، ومالقي من الحوادث والمشاكل..

ويتهج كثير من الخطباء هذا الأسلوب، ليسره وسهولته، ووفرة المصادر حوله، ولارتياح شريحة كبيرة من المستمعين له.

ولهذا المنهج فائدة طيبة تتمثل في تقديم السيرة الذاتية، لصاحب المناسبة، ورسم صورة عامة لحياته في أذهان المستمعين، وهي لا تخلو من الدروس والعبر النافعة. وخاصة إذا صاحبها التحليل والدراسة الموضوعية.

المنهج العاطفي:

ويتكون هذا المنهج من بعدين:

الأول: التركيز على مسألة الكرامات والمعاجز، والجوانب الغيبية في حياة النبي ﷺ والأئمة ؑ. للتأكيد على المكانة الخاصة التي يحضون بها عند الله سبحانه وتعالى، فهم وإن كانوا من البشر، لكن صلتهم المميزة بالله سبحانه، وموقعيتهم لديه، تمنحهم قدرات غير طبيعية، وإمكانات غير متعارفة.

فقد يتحدثون عن أمور غيبية هم مطلعون عليها.

وقد يفعلون ما هو خارق للعادة لإثبات صدقهم أمام الآخرين.

وإمكانية ذلك بالنسبة للأنبياء أمر واضح، تحدث عنه القرآن الكريم، واتفق المسلمون على حصوله من رسول الله ﷺ.

فنبى الله عيسى بن مريم ﷺ يقول حسبما جاء في القرآن الكريم: ﴿قَدْ جِئْتَكُمْ بآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾^(١).

أما بالنسبة لغير الأنبياء من الأئمة والأولياء فإن القرآن الكريم يتحدث عن مريم بنت عمران بقوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢).

ويتحدث القرآن الكريم عن القدرات الخارقة لأصحاب نبي الله

(١) آل عمران آية ٤٩.

(٢) سورة آل عمران آية ٣٧.

سليمان عليه السلام حينما طلب إحضار عرش بلقيس من اليمن: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَأَهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي﴾^(١).

قال الشيخ السعودي النجدي: «والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينه وبين سبأ، نحو مسيرة أربعة أشهر، شهران ذهاباً، وشهران إياباً.. قال المفسرون: هو رجل عالم صالح، عند سليمان يقال له: (آصف بن برخيا) كان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دعا الله به أجاب، وإذا سأل به أعطى»^(٢).

وتأسيساً على ذلك لا مانع من أن تصدر عن الأئمة والأولياء كرامات وتصرفات خارقة للعادة، من علم ببعض الغيبات، أو قدرة على القيام ببعض الأعمال غير الممكنة عادة. وإنما يتحدث عنها الخطباء لإظهار مكانة الإمام عند الله تعالى، مما يؤثر في نفس المستمع، ويجعله أكثر محبة وولاء للإمام.

لكن يجب التنبيه هنا على أمرين:

١. إن هذه الكرامات لا تصدر عن قدرة ذاتية للإمام أو الولي أو النبي، وإنما بإذن الله تعالى، فلا أحد له سلطة أو تصرف في شيء من أمور الكون والحياة إلا الله تعالى، والأنبياء والأئمة إنما يمنحهم الله تعالى القدرة على القيام ببعض هذه التصرفات بإرادة وحكمة منه، ليعرف الناس صدق رسالتهم، وصحة مسارهم، ولتؤكد مكانتهم في النفوس، فتقبل دعوتهم إلى توحيد

(١) سورة النمل آية ٤٠.

(٢) المصدر السابق - تفسير سورة النمل آية ٤٠.

الله تعالى وعبادته.

الحذر من الوضع والاختلاق:

٢. الأمر الثاني الذي يجب التنبيه عليه هو الحذر من الموضوعات والروايات المختلقة والضعيفة السند، فليس كل ما ورد في الكتب من معاجز وكرامات للأنبياء والأئمة والأولياء يحمل على الصحة، ويتحدث به للناس، بل ينبغي الأخذ من المصادر المعتمدة، ودراسة طريق الرواية والسند، فقد حصلت سوق رائجة لهذا النوع من الروايات، وهناك كذبة وضاعون، وهناك دسّ وتسريب لتشويه صورة الدين، وسمعة مذهب أهل البيت عليهم السلام.

عن ابن سنان قال: قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «إنا أهل البيت صادقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا ويسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس»^(١).

وقد جاءت روايات عديدة عن الأئمة عليهم السلام بلعن بعض الرواة الوضاعين والكذابين الذين اختلقوا وبثوا روايات فيها مبالغات وغلو واصطناع قضايا لم تحصل، ونسبتها إلى الأئمة عليهم السلام، كما أن هناك من اختلق الروايات بهدف جذب الأنظار إلى الأئمة، وتعظيم مكانتهم، كالذي ينقل عنه أنه اختلق أحاديث في فضل سور القرآن، مبرراً ذلك بأنه رأى إعراض الناس عن القرآن، فأحب تشويقهم إليه، بالطبع هذه وسيلة مرفوضة.

وتداول في مجتمعنا بعض الروايات التي أكد العلماء عدم صحتها

(١) المجلسي: محمد باقر، بحار الأنوار، ج ٢٥ ص ٢٦٣، الطبعة الثالثة ١٩٨٣ م، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

كخطبة البيان المنسوبة للإمام علي عليه السلام والتي تحكي عن بعض المغيبيات، وقد سئل عنها الإمام الخوئي رحمته الله فأجاب: «لا أساس لها»^(١) وكذلك قصة (حلّال المشاكل) والتي تتداول كثيراً في مجتمعنا النسائي، وهي قصة مجهولة المصدر، ولا تمثل نصاً دينياً يستوجب هذا الاهتمام والقداسة، كما أن ما تحويه من مضمون وعبارات واضح الركافة والضعف.

جانب المأساة والمعاناة:

البعد الثاني: ويتمثل في المنهج العاطفي بإبراز ما حلّ بأهل البيت من المصائب والمآسي من قبل أعدائهم الظالمين والحاسدين لهم، لإظهار مظلوميّتهم، ذلك أن الإنسان بطبيعته السويّة يتعاطف مع المظلوم، وخاصة إذا كان من العظماء والصالحين، كما أن ذلك يبيّن سوء الطرف الآخر المناوئ لأهل البيت عليهم السلام، وكيف أنه تجاوز الحدود والموازن الإسلامية والإنسانية، في عدوانه عليهم، مما يعبئ جمهور المستمعين ضده، ويؤكد نفورهم منه.

الطرح العلمي الحضاري:

فالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الكرام عليهم السلام إنما يعبرون بسيرتهم وأقوالهم عن مشروع إلهي، يستهدف تنوير البشرية، ودفعها نحو مستوى حضاري أرفع، فهم ليسوا مجرد عبّاد زهّاد، ولا أصحاب طريقة صوفية، وليسوا زعامات سياسية تصارع من أجل المواقع والمناصب، بل هم حملة رسالة إلهية، ومشروع حضاري.

ومن يدرس سيرتهم بعمق، ويقرأ حياتهم بوعي، ويتأمل آراءهم وكلماتهم، يجد بوضوح تركيزهم على استثارة العقل، وتنمية المواهب

(١) الخوئي: السيد أبو القاسم، صراط النجاة ج ١ ص ٤٧١ مسألة ١٣٣١.

والطاقات، وتوجيههم نحو العلم والمعرفة، والفاعلية والإنتاج. وفي أحاديثهم وأقوالهم إشارات جليّة لنظريات علمية حول الطبيعة والحياة، لم يكتشفها العلم الحديث إلا مؤخراً، كما أن مدرستهم قد خرّجت علماء بارزين في مختلف المعارف والعلوم.

أما خطبهم وتوجيهاتهم فتتضمن برامج لتنظيم المجتمع تربوياً وسياسياً واقتصادياً، وفي شتى ميادين الحياة.

إن تقديم الأئمة من خلال مشروعهم الحضاري، وعطائهم العلمي المعرفي، هو ما تحتاجه البشرية في هذا العصر، وهو ما يساعد الأمة الإسلامية على تجاوز واقع التخلف، والانطلاق نحو آفاق الحضارة.

أفضل وثيقة سياسية :

وكنموذج من عطاء أهل البيت عليهم السلام والذي يجب الاهتمام به، والتركيز عليه، وبثه ونشره في أوساط الأمة، عهد الإمام علي عليه السلام لمالك الأشر النخعي حين ولاه مصر سنة ٣٩ هـ. هذا العهد الرائع الذي يمثل أفضل وثيقة سياسية شاملة في التراث الإسلامي، حيث تحدث فيه الإمام عن واجبات الحاكم تجاه رعيته، وأخلاق تعامله معهم، وعن اختيار الوزراء والموظفين، وضرورة مراقبتهم وإرشادهم، وعن ضرورة استفادة الحاكم من الكفاءات العلمية، ثم عن طبقات الشعب بحسب أدوارها ومهامها، وأهمية كل طبقة وحقوقها وواجباتها، كالعسكريين، والقضاة، والتجار، والصناعيين، وعمامة الموظفين، والضعفاء ذوي الحاجات.

وكما قال المحامي توفيق الفكيكي الذي شرح هذا العهد ضمن كتاب طبع سنة ١٩٣٩م في بغداد بعنوان (الراعي والرعية) قال: «وهذا العهد من أهم العهود التي قطعها خلفاء المسلمين وملوكهم إلى عمالهم وولاتهم في تدبير شؤون المملكة الإسلامية. والحق يقال

إن القواعد التشريعية السياسية والإدارية والقضائية والمالية والنظريات الدستورية التي قررها الإمام علي كرم الله وجهه في عهد مالك النخعي تعد (مثلاً علياً) للحكم الديموقراطي في الإسلام إذا قيست بنظم الحكم اليوم من ديموقراطية ودكتاتورية، وبأحدث النظريات السائدة اليوم في العالم المتمدن^(١).

منهجية العلماء الغربيين:

إن من المفارقات العجيبة أن يبادر علماء الغرب إلى استكشاف هؤلاء الأئمة، بتكرار الجوانب العلمية والمعرفية في حياة أئمة المسلمين، بينما نكتفي نحن المحسوبين على مصائبهم ومعجزهم، دون أن نتوجه إلى علومهم ومعارفهم في مختلف ميادين الحياة، مع حاجتنا الماسة إليها.

لقد بادرت جامعة (استراسبورغ) الفرنسية إلى عقد دورة علمية عن التاريخ العلمي والحضاري للإمامية، وحيات الإمام جعفر الصادق وفكره، في شهر مايو ١٩٦٧م، وشارك في هذه الدورة أكثر من عشرين عالماً من أعلام المستشرقين والعلماء في الجامعات الأوروبية، وشاركهم علماء متخصصون من جامعات لبنان وإيران. ونشرت هذه البحوث الأكاديمية من قبل دار المطبوعات الجامعية الفرنسية في باريس عام ١٩٧٠م. وترجمت هذه البحوث إلى اللغة العربية وطبعت ضمن كتاب تحت عنوان (الإمام الصادق كما عرفه علماء الغرب) وفي مقدمة الترجمة العربية كتب الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي الأستاذ بجامعة الأزهر العبارة التالية: «إن القارئ لهذه الفصول ليقف أمام صفحاتها المضيئة مذهولاً حقاً، ولسوف يجد نفسه أمام عظمة هذه الروح العلمية، التي

(١) الفكيكي: توفيق، الراعي والرعية، ص ١٥، الطبعة الثانية ١٩٦٢م، مكتبة المعارف، بغداد.

انعكس ضوءها على هذه الدراسات، فكان من وراء ذلك عالم فسيح كشف عنه هؤلاء العلماء، وبدا في صدر هذه الصور الرفيعة صورة الإمام جعفر الصادق، مشرقة شامخة بفكره الرفيع، وبشخصيته الجليلة المهيبة، وبحكمته الصادقة، وتجاربه الواسعة في فهم الحياة والناس. وتجلت عظمة هذه الشخصية في عظمة هذه البحوث، فكان من وراء ذلك كله حقيقة رائعة، لم نكن نعرف عنها شيئاً، حقيقة هذا العقل العظيم، الذي بنى للإنسانية وللإنسان أروع ما يمكن أن يبينه من أصول حضارة الدنيا ورفاهيتها^(١).

ومن تلك البحوث التي تناولها العلماء الغربيون نظريات الإمام الصادق في المجالات التالية: نشأة الأرض، نشأة الكون، الأدب، نقد التاريخ، نظرية الضوء، نسبية الزمن، أشعة النجوم، قضايا البيئة، حركة الموجودات، الطب وأسباب بعض الأمراض، الفلسفة والحكمة والفرق بينهما، الرضاعة السليمة، الموت والفناء وغير ذلك من الأبحاث.

مسؤوليتنا تجاه معارف الأئمة :

إن مثل هذه المبادرات والبحوث لتشعرنا بتقصيرنا الكبير تجاه مدرسة أهل البيت عليهم السلام، فمع أننا نحیی مناسباتهم، وتحت أيدينا أوقاف ضخمة مرصودة للإنفاق على ما يتعلق بهم، وهناك موارد حق الإمام من الخمس إلا أن سعينا في إحياء علومهم ومعارفهم لا يزال محدوداً، وضمن دائرة ضيقة.

إننا بحاجة إلى مراكز دراسات علمية لدراسة حياتهم وأفكارهم.

وبحاجة إلى دعم بعض العلماء والمفكرين وأساتذة الجامعات

(١) آل علي: نور الدين، الإمام الصادق عليه السلام كما عرفه علماء الغرب، ص ١١ الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، مؤسسة الوفاء، بيروت.

لكي يتفرغوا لإعداد البحوث المختصة بسيرتهم وآرائهم العلمية.
وبحاجة إلى تنشيط حركة الطباعة والنشر للكتب التي تتضمن
كلماتهم وتوجيهاتهم، كنهج البلاغة، والصحيفة السجادية، ورسالة
الحقوق، وسائر آثارهم المباركة، مع شرحها وترجمتها إلى مختلف
لغات العالم الحيّة.
وكل ذلك بحاجة إلى عمل مؤسساتي، لكن المبادرات الفردية
يمكنها أن تملأ جزءاً من هذا الفراغ.

اختيار المنهج:

وإذا كانت مناهج العرض لحياة الأئمة وسيرتهم متعددة، فإن كل
منهج منها يتكامل مع الآخر، واختيار أحدها لا يعني إلغاء المناهج
الأخرى، إذا طرحت بالشكل الصحيح، الذي يستهدف التعريف بالأئمة،
و شدّ الأمة إليهم، واستفادتها من بركات عطائهم.

لكنه ينبغي مراعاة الزمان والمكان والمخاطبين في اختيار أي منهج
من هذه المناهج، وخاصة بالنسبة للخطباء الكرام، الذين يتحدثون في
المناسبات الدينية.

ونلاحظ هنا أن الإمام علي الرضا عليه السلام يركز على أهمية المنهج الثالث
أي الطرح العلمي الحضاري، كما يستنتج ذلك من الحديث الذي يرويّه
عبد السلام بن صالح الهروي قال: سمعت أبا الحسن الرضا عليه السلام يقول:
«رحم الله عبداً أحيا أمرنا» فقلت له: فكيف يحيي أمركم؟ قال: «يتعلم
علومنا ويعلمها الناس، فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لاتبعونا»^(١)

(١) العطاردي: الشيخ عزيز الله، مسند الإمام الرضا، ج ١ ص ٦ الطبعة الثانية ١٩٩٣ م، دار الصفوة،
بيروت.

حقاً إن علوم أهل البيت ومعارفهم لو عرضت للناس عرضاً صحيحاً، لاستقطبت كل الواعين المخلصين، ولأسهمت في رفع مستوى جمهور الأمة، ومعالجة مشاكل المجتمع.

ثبتنا الله جميعاً على محبة رسول الله وآله الكرام وجعلنا من السائرين على طريقهم، والمقتدين بهديهم، وحشرنا يوم القيامة في زمرتهم إنه أرحم الراحمين.

مقالات

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسالة

الداعية حسن الصفار:

أشعر بالأسؤولية تجاه تماسك المجتمع وأعي
مدى ضرر الخلافات على أمن الوطن

ملحق أسبوعي يصدر عن صحيفة **الرسالة**

اللاثنين ٢١ ذي القعدة ١٤٢٢ هـ - الموافق ٤ فبراير ٢٠٠٢م (العدد ١٤٦٦) المنة السابعة والستون العدد التاسع والتسعون

الداعية حسن الصفار للرسالة:

أشعر بالأسؤولية تجاه تماسك المجتمع
وأعي مدى ضرر الخلافات على أمن الوطن

أحظى بالتشجيع من الأمير محمد بن فهد ونائبه الأمير سعود بن نايف

علي باقر الموسى - التقطيف

حسن الصفار من العلماء المحدثين لاصحة استنساخ الأئمة والحفاظ على وحدتها وتوفير طابقتها في ما يقعها، فهو دارس مؤهل للغة والعلوم الإسلامية وفق المنهج الجعفري لكنه لم ينحصر في هذا الطريق بل أشرع بؤأذله لنهواء الطلق وفعل انتماءه لهذه الأرض المباركة السعودية، واستحضر مواطنته في خطابه الدعوي والتربوي وحاول تكريس صورة الفرد السعودي المسلم بوصفها هي الصورة الرئيسة لجميع أبناء هذا البلد، ومأسوى ذلك فهو تنوعات واختلافات مستوعدة في رحم الوطن والتدين الواحد، والصفار الذي كرس انتاجه وجهده لهذه الغاية، كان متوصلاً مع الجميع فقد كان على صلة ومراسلة مع سماحة المفتي الراحل الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، واجتهد في أن يكون جسراً بين المدرسة السنية والتسوية في وطنه تعزيزاً للمعق فيه وتوضيحاً للمختلف عليه، ولعل الصفار في نتاجه الواسع (كاسيت، خطب، دروس، محاضرات، كتب... الخ) قد قارب الغاية التي كان يتوخاها، ومؤخراً نشط الشيخ الصفار في المنتديات والصحف صوتاً معتدلاً ودعوة للتسامح والوعي بالذات، ومن آخر ذلك استكثابه بشكل دائم في صحيفة انبؤم السعودية، وفي هذا الحوار الذي تجريه معه في (الرسالة) تعرج على انطريق الاصوب في الحوار يجمع الكلمة، وتتناول أيضاً انعكاسات ١١ سبتمبر على الدعوة الإسلامية والعالم الإسلامي كله، ونسأل الصفار عن موقفه من الثنائية التي وضع فيها يوش ومن لأن العالم الإسلامي ازامها (معي او ضد الحضارة عند يوش ومعني او ضد الإسلام عند من لاس) واستنكر الصفار في هذا الحوار هذه الهجمة المحجومة ضد المملكة العربية السعودية.



حسن الصفار

حوار جريدة المدينة*

حسن الصفار من العلماء المدركين لأهمية انسجام الأمة والحفاظ على وحدتها وتوفير طاقاتها فيما ينفعها، فهو دارس مؤصل للفقه والعلوم الإسلامية وفق المذهب الجعفري، لكنه لم ينحصر في هذا الطريق بل أشرع نوافذه للهواء الطلق وفعل انتمائه لهذه الأرض المباركة (السعودية) واستحضر مواظبته في خطابه الدعوي والتربوي وحاول تكريس صورة الفرد السعودي المسلم بوصفها هي الصورة الرئيسية لجميع أبناء هذا البلد، وما سوى ذلك فهو تنوعات واختلافات مستوعبة في رحم الوطن والدين الواحد. والصفار الذي كرس إنتاجه وجهده لهذه الغاية، كان متواصلاً مع الجميع فقد كان على صلة ومراسلة مع سماحة المفتي الراحل الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله، واجتهد في أن يكون جسراً بين المدرسة السنية والشيعية في وطنه تعزيزاً للمتفق فيه وتوضيحاً للمختلف عليه. ولعل الصفار في نتاجه الواسع (كاسيت، خطب، دروس، محاضرات، كتب... الخ) قد قارب الغاية التي كان يتوخاها، ومؤخراً نشط الشيخ الصفار في المنتديات والصحف صوتاً معتدلاً ودعوة للتسامح والوعي بالذات، ومن آخر ذلك استكتابته بشكل دائم في

* حوار اجراه علي باقر الموسى - بصحيفة المدينة في ملحقها الأسبوعي الرسالة، بتاريخ ٢١ ذو القعدة ١٤٢٢هـ - ٤ فبراير ٢٠٠٢م العدد ١٤١٦٦، السنة السابعة والستون، العدد التاسع والتسعون.

صحيفة اليوم السعودية، وفي هذا الحوار الذي نجريه معه في (الرسالة) تعريج على الطريق الأصوب في الحوار يجمع الكلمة، وتتناول أيضاً انعكاسات ١١ سبتمبر على الدعوة الإسلامية والعالم الإسلامي كله، ونسأل الصفار عن موقفه من الشائبة التي وضع فيها بوش وبن لادن العالم الإسلامي ازاءها «معي أو ضد الحضارة عند بوش ومعي أو ضد الإسلام عند بن لادن» استنكر الصفار في هذا الحوار هذه الهجمة المحمومة ضد المملكة العربية السعودية.

احترام الذات:

▼ كيف نستطيع استعادة زمام المبادرة بين أمم العالم حيث يقبع المسلمون الآن في قاع الأمم؟

أود في البداية أن أتوجه بخالص شكري وتقديري لجريدة المدينة المنورة وخاصة ملحقها الأسبوعي (الرسالة) لإتاحتها لي فرصة الإطلاع على قرائها الكرام، ولما أجده في هذه الجريدة من توجهات جادة ل طرح قضايا الدين والأمة، بوعي وانفتاح، جزى الله القائمين عليها والمهتمين بهذه التوجهات كل خير.

لكي نأخذ موقعيتنا بين الأمم، ونستفيد من زمام المبادرة، لا بد وأن نحترم ذاتنا أولاً، فالأمة التي لا تحترم نفسها لن يحترمها الآخرون، وأركز هنا على النقاط التالية:

أولاً: أن نحترم العقل فينا، بأن نرفع القيود والأغلال التي تكبل عقولنا، وأن نستخدمها كما أمرنا الله تعالى في معرفة طرق الخير ومزالق الشر، وفي اكتشاف آفاق الكون من حولنا، وتسخير إمكانات الطبيعة، وفي إدارة شؤون الحياة، إننا أمة تعاني من سيطرة العواطف على مواقفنا وتوجهاتنا، وغياب مرجعية العقل، وتحديد مساحة حركته،

مع أننا ننتمي إلى دين تركز آيات كتابه القرآن المجيد على محورية العقل وضرورة تحكيمه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

ثانياً: أن نحترم قدراتنا وطاقاتنا، التي منحنا الله تعالى إياها لنفجرها ونُفعلها، فنعمر الأرض ونصلحها، ونتجاوز حالة الكسل والخمول والتواكل، التي جعلتنا نعيش على فئات موائد الآخرين، حيث نستورد أغلب احتياجاتنا من الدول الأخرى، ونفقد أدنى درجات الاكتفاء الذاتي، وتشكو أكثر مجتمعاتنا من أفواج العاطلين، ومن البطالة المقنعة.

إن المواطن العربي أصبح يعتمد على الخارج مثلاً للحصول على ٦٥٪ من احتياجاته من القمح، و٧٤٪ من السكر، و٦٢٪ من الزيوت النباتية. وكما قال وزير التجارة المصري في افتتاح المؤتمر السنوي الـ ٣٤ لإتحاد غرف التجارة العربية: إن الدول العربية أصبحت في مجموعها أكثر مناطق العالم عجزاً في الغذاء!! مع أن لدينا أرضاً زراعية لا تكاد نستثمر منها إلا حوالي ١٠٪، كما لا يزيد مستوى الإفادة من الأمطار عن ١٥٪.

وكمثال واضح على ضعف استفادتنا من الإمكانيات المتوفرة واعتمادنا على الخارج ما تشير إليه التقارير من توفر الثروة السمكية في منطقة الخليج والتي تمتلك سواحل مترامية الأطراف تمتد لحوالي ٣٥٠٠ كيلومتر، والرصيف القاري لها يحتل مساحة تقدر بـ ٢٥٠ كيلومتراً مربعاً، ولكننا نستورد حوالي ٤٠٪ من حاجتنا السمكية من الخارج، ولا نستقل إلا نسبة ١٤٪ من المخزون السمكي الممكن استغلاله سنوياً. حسب تقرير نشرته مجلة الاقتصاد الصادرة من غرفة صناعة وتجارة المنطقة الشرقية عدد ٢٧٢. إننا بحاجة إلى تربية عائلية، ومناهج تعليمية، وأجواء اجتماعية، وأنظمة وقوانين تدفع الإنسان عندنا

للعمل والفاعلية، وتحفزه لتفجير طاقاته وقدراته.

حقوق الإنسان في العالم الإسلامي:

ثالثاً: أن نحترم بعضنا بعضاً، على مستوى العالم الإسلامي فتراعى حقوق الإنسان، كما أقرتها الشريعة الإسلامية، وتتاح فرصة المشاركة في الشأن العام، وتتوفر الحريات، أليس من المؤسف حقاً أن يعيش اليهود المحتلون لفلسطين حالة من الاستقرار والتعايش والتلاحم فيما بينهم، وهم شتات تجمعوا من أصقاع شتى، وتعاونوا على إثم الاغتصاب لأراضينا، والعدوان على شعوبنا، بينما لا تزال الكثير من المجتمعات الإسلامية تعاني من الأزمات والفتن الداخلية؟ إننا باحترام أنفسنا ضمن هذه الأبعاد الثلاثة، نتأهل لاحترام العالم لنا وأخذ موقعيتنا بين الأمم.

نحاور الغرب أم أنفسنا؟

▼ في الوقت الذي نتهم الغرب لأنه لا يصغي إلينا.. هل أحسنا الحوار فيما بيننا؟.. وكيف نتجاوز هذه الحالة؟

الحوار مع الآخر قد ينطلق من حالة وعي حضاري، وإيمان بإنسانية الإنسان وحقوقه وكرامته التي أقرها الله تعالى بقوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾^(١) وهنا يكون الحوار نهجاً وخلقاً ثابتاً، مع كل آخر مختلف معه، في الدين أو المذهب، أو الرأي أو الانتماء الحضاري. بل يصبح الحوار أوثق وأعمق كلما اقترب الآخر من دائرتك.

لكن بعض من يطرحون الحوار مع الغرب، لا ينطلقون من هذه الحالة مع الأسف، وإنما من واقع الشعور بالضعف تجاه الغرب، والإحساس بالحاجة له. أما على مستوى الأمة فهناك استئساد على

(١) سورة الإسراء آية ٧٠.

بعضنا البعض، وممارسة للقهر والفرص.

هذا هو تفسير الدعوة إلى الحوار مع الغرب مع الإصرار على التشرذم والقطيعة الداخلية في نظري. والسبيل إلى تجاوز هذه الحالة هو الوعي الحضاري، والفهم الصحيح للدين، والنضج السياسي والأخلاقي. إننا بحاجة إلى ثقافة إنسانية عميقة تعرفنا بحقوق الإنسان بيننا، وبحاجة إلى وعي مبدئي، يدفعنا إلى احترام الرأي الآخر في داخلنا، ويقنعنا بالإقلاع عن الاستبداد والتعصب، والذي لم نجن منه إلا التخلف والدمار.

السعوديون شعب مسلم عربي واحد :

▼ أنت من الدعوة إلى تعزيز الوحدة الوطنية على قاعدة الولاء لمطلقات الإسلام وقواعده العامة منادياً بتجاوز الاختلافات الجزئية، هل لك أن تحدثنا عن جهدك في هذا المجال؟

في المملكة العربية السعودية شعب مسلم عربي واحد والحمد لله، ولم تكن بين أبناء هذا البلد نزاعات في الماضي، لكن ما رافق انتصار الثورة الإسلامية في إيران، والحرب العراقية الإيرانية، من مشاكل وأحداث، أعطى الفرصة لبعض التوجهات المتشجعة طائفيًا، أن تصطاد في الماء العكر، وأن تمارس نشاطاً إعلامياً ودعائياً محمومًا في مصلحة القوى المعادية للإسلام، والطامعة في النفوذ في بلاد المسلمين، ومن الطبيعي أن تشجّع وتدعم ما يفرق الصفوف، ويمزق وحدة الشعوب. لكن الظروف الآن قد تغيرت والحمد لله، والمطلوب معالجة آثار الفترة السابقة.

وكمواطن مسلم أسلك طريق الدعوة إلى الله، فإنني أشعر بالمسؤولية تجاه وحدة الأمة، وتماسك المجتمع. وأعي جيداً مدى

أضرار النزاعات والخلافات على أمن الوطن ومصصلحة المواطنين، لذلك انطلقت للعمل على هذا الصعيد بتوفيق الله تعالى.

ولمست من تشجيع المسؤولين كسمو أمير المنطقة الشرقية الأمير محمد ابن فهد ونائبه الأمير سعود بن نايف حفظهما الله ما دفعني لمضاعفة الجهد والنشاط.

ويتركز جهدي في هذا المجال على محورين:

الأول: التأكيد على ثقافة الوحدة وضرورتها، وتأسيس أخلاقياتها كاحترام الرأي الآخر، والقبول بالتعددية، والتذكير بالأصول الدينية الواحدة بين المسلمين، والتسامح تجاه الاختلافات الفرعية والجزئية، والاهتمام بالمصالح المشتركة لنا كمواطنين وللأمة الإسلامية التي تواجه أشد التحديات والأخطار في هذا العصر. كل ذلك عبر الكتابة والتأليف، وإلقاء الخطابات والمحاضرات والتحدث المباشر مع مختلف الأوساط.

المحور الثاني: التواصل الاجتماعي، بالمبادرة إلى زيارة العلماء وذوي الرأي والتأثير من أجل تمكين أواصر العلاقة، ومناقشة ما يدور في الأجواء من تساؤلات، لتوضيح الصورة، وتلافي آثار الفترة السابقة.

بالطبع فهذه مسؤولية عامة يجب أن يشترك في القيام بأعبائها كل من تهمة مصلحة الوطن ومستقبل الدين والأمة. وهناك جهود خيرة تبذل في هذا المجال من قبل العديد من الواعين المصلحين دعاء الوحدة في المملكة وبلدان إسلامية أخرى، مما يبشر بخير والحمد لله، وجهدي المتواضع ما هو إلا إسهاماً بسيطاً ضمن هذه الجهود المبذولة.

لا يمكن تجاهل الاختلاف:

▼ بأمانة - هل ترى إن السبيل الأمثل للحوار هو في المصارحة العلمية بطبيعة الاختلافات مع التأكيد على وجوب أن تتعود الذهنية العامة على تقبل الخلاف تحت سقف المبادئ العامة للإسلام؟

لا يمكن تجاهل وجود اختلاف الرأي داخل الأمة الإسلامية على صعيد بعض المسائل العقديّة والفقهية، ومن المطلوب علمياً ومعرفياً مناقشة هذه المسائل الخلافية، والمصارحة والجرأة في الحوار حولها، لكن يجب التنبيه على أمور:

أولاً: أن لا نشغل بها عن الأخطار المحدقة بنا، أيصح لجماعة تتعرض سفينتهم لخطر غرق في البحر، أو طائرتهم لمحاولة اختطاف، أن يتجاهلوا ذلك، وينشغلوا بمناقشة أمور علمية وتاريخية؟!!

ثانياً: أن نعمل لتهيئة الأجواء الهادئة المستقرة التي تساعدنا على الحوار الموضوعي، والنقاش الحر، والنقد البناء لبعضنا البعض، أما مع التشنج الطائفي المتمثل في فتاوى التكفير، وخطابات التحريض، وحالات التمييز والقطيعة الاجتماعية، فإن الحوار قد يأخذ منحى آخر يبعده عن هدفه الصحيح، وغايته المرجوة.

ثالثاً: أن يتم الحوار والنقاش في المسائل المختلف فيها ضمن مؤتمرات علمية، ومنتديات جادة، وليس بأسلوب الترشق الإعلامي والإثارات على المستوى الجماهيري. وحيث يسعى كل طرف للانتصار على الآخر، ورفع معنويات أتباعه.

أمريكا وابن لادن :

▼ أمريكا قسمت العالم إلى قسمين: قسم مع الإرهاب وقسم مع أمريكا، وابن لادن شطر العالم إلى (فسطاطين).. أما مع القاعدة أو مع الكفر!.. كيف يواجه المسلمون هذه (الثنائية) الخاطئة؟

أمريكا تعتمد منطق القوة والهيمنة والتسلط على العالم، والإدارة الأمريكية الحالية، تقود انقلاباً عنيفاً على مبادئ الدستور الأمريكي، وتمارس سياسات واضحة التصادم والتناقض مع كل الشعارات التي يطرحها الغرب حول الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان. ودعم أمريكا للإرهاب الصهيوني، وخاصة جرائم شارون التي تجري هذه الأيام، هو المثل الصارخ لتوجه الإدارة الأمريكية نحو الهيمنة والتسلط بالقوة دون حساب لأي قيم أو مبادئ.

أما منطق بن لادن وطالبان في هذه المواجهة ففيه الكثير من التخبط والجهل، وقد أعطى هذا المنطق لأمريكا فرصة ذهبية ما كانت تحلم بها. تماماً كما فعل صدام حسين في غزوه للكويت، حيث مكن لأمريكا أن تحقق أهدافاً عسكرية وسياسية واقتصادية كبيرة في المنطقة والعالم الإسلامي.

وما قدمه بن لادن من مجال لأمريكا هو أكبر وأعظم، ونحن الآن نقطف الثمار المرّة لما حدث، من خلال ما يجري في فلسطين وما يحصل في أفغانستان وما تحاك خيوطه لباكستان، ولمختلف أنحاء العالم الإسلامي ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

حملة مشبوهة :

▼ تتعرض المملكة العربية السعودية لهجمة حادة من الإعلام

الأمريكي والغربي بشكل عام وأنها مصدر الإرهاب في العالم،
برأيك ما هي الصيغة المثلى للتصدي لهذه الهجمة؟

واضح أن الهجمة الحادة من الإعلام الأمريكي والغربي على
المملكة لها أهداف مشبوهة، فهي تستهدف صمود المملكة في الدفاع
عن القدس والقضية الفلسطينية، كما تستهدف تجفيف ينابيع الصحوة
الإسلامية والاتجاه الديني.

والتصدي لهذه الهجمة الشرسة يستدعي في نظري: أن نمتلك
الشجاعة في مراجعة الذات، واتخاذ المبادرات الجادة، في سدّ
الثغرات، ومعالجة النواقص ومواطن الخلل، حتى لا يستغلها الأعداء،
ولا تنمو من خلالها حالات الجهل والخطأ. والحمد لله فقد أكد سمو
ولي العهد في العديد من خطاباته الأخيرة على هذا التوجه.

كما أن المطلوب مضاعفة الجهد الثقافي والإعلامي للتعريف
بالإسلام وبقضايا المسلمين العادلة أمام الرأي العام العالمي، وفي
أوساط المجتمعات الغربية، بتطوير المضمون، وتجديد وسائل الطرح.

العلم في القطيف:

▼ باعتباركم من علماء القطيف هل لك أن تحدثنا عن الحركة
العلمية والثقافية في القطيف؟

الحركة العلمية والثقافية في القطيف عميقة الجذور، فقد كانت في
هذه المنطقة حضارات إنسانية سابقة كالفينيقيين، وفي العصر الجاهلي
قبل الإسلام كان فيها بنو قيس والذين أشتهر منهم العديد من الشعراء
كطرفه بن العبد، وفي ظل الإسلام تواصل ونما العطاء العلمي والأدبي
لهذه المنطقة عدا بعض الفترات الصعبة التي مرت عليها.

والآن في العهد السعودي المجيد في القطيف حركة علمية ثقافية نشطة تتمثل في وجود عدد من علماء الدين الأفاضل البارعين في علوم الأدب العربي والشريعة الإسلامية.

وفي القطيف حركة أدبية أصيلة يقودها عدد من الأدباء والشعراء المبدعين .

أما الحركة الثقافية في القطيف فهي نشطة متقدمة، ينعكس نتائجها في بعض المجالات الفكرية والأدبية التي تهتم بشؤون الفكر الإسلامي والتراث، عدد من الكتب والمؤلفات ينتج عن هذه الحركة الثقافية والأدبية في القطيف سنوياً.

وهذا النشاط المعرفي هو جزء من الحركة الثقافية في وطننا الغالي المملكة، وضمن نفس التوجهات الدينية والوطنية. بالطبع فنحن بحاجة إلى تواصل أكبر بين مثقفي هذا الوطن وعلمائه وأدبائه في مختلف المناطق .

تطوير المناهج التعليمية :

▼ ما رأيك في تطوير مناهج التعليم بصورة عامة، وهل لديك تصور جديد يناسب هذه المرحلة؟

دراسة المبادئ الدينية، وتعميق القيم الإسلامية، وتبيين أحكام الشريعة، والأخلاق الفاضلة، ضرورة ملحة في كل مجتمع مسلم، ومما نفخر به في المملكة وجود هذا الاهتمام في مناهجنا التعليمية.

أما موضوع تطوير هذه المناهج، ومراجعة موضوعاتها وأساليبها. فهو أمر كان مطروحاً منذ فترة سابقة، وتجب المبادرة إليه لا على أساس الاستجابة لضغوط خارجية، وإنما من منطلق أخذ التطورات الثقافية

والاجتماعية بعين الاعتبار، فأجيالنا وناشئتنا المعاصرة لا يصح أن نربيتها
ونتخاطب معها كالأجيال السابقة، بل نحتاج إلى تطوير المناهج من
حيث أولويات التركيز، وأسلوب الطرح والمعالجة.

وفي هذا السياق ينبغي أن تركز المناهج على الأصول الإسلامية
العامّة، وتهيئ الناشئة لقبول الاختلاف وتعدد الآراء ضمن الإطار
الديني، وأن ذلك لا يחדش بإسلام أحد، ولا ينتقص من مواظنته
وحقوقه. وفي كثير من الجامعات الإسلامية كالأزهر الشريف هناك
دراسة للفكر الإسلامي والفقهاء الإسلامي المقارن وهذا ما ينبغي أن
يحصل في جامعاتنا.

الشيخ حسن موسى الصفار في حوار لقراء المواقف عن :

● التطورات الإيجابية في البحرين ● تعدد المذاهب وتلاقيها والحوار بينهما ● الحرية في الإسلام وحوار الحضارات

● أجرى الحوار :

عقيل بن ناجي المسكين
سيهات

السنتمك والواتكم ان في ذلك آيات للعالمين) (الروم / ٢٢). كما تحدث القرآن الكريم عن تعدد الديانات ، واعتبره ظاهرة طبيعية في هذه الحياة ، لأن الله تعالى قد منح الانسان حرية الاختيار ، وأودع في نفسه نوازع الخير والنشر ، ويوم القيامة هو يوم الفصل والحساب يقول تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله فصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد) (الحج / ١٧) . بل ان التنوع والتعدد ظاهرة كونية ، فعمل مستوى كل المخلوقات والكائنات ، هناك أصناف واللوان وأشكال ، تدل على إبداع الخالق وقدرته بقول تعالى (و النخل والزرع مختلفا آكله والريزون والرمان متشابها وغير متشابهه) (الانعام / ١٤١) . ومن الطريف في هذا السياق ما نشرته الصحف هذه الأيام حول احتفالات الهند بعيد (المانغو) والتي أصبحت تقيمها سنويا منذ عام ١٩٨٨ م وتستمر يومين في شهر تموز (يوليو) فقد أشارت إلى انه يوجد في العالم اليوم ١٢٠٠ صنفاً معروفاً من المانغو ، وفي الهند وحدها موطن لـ ١١٠٠ من هذه الأصناف . (جريدة الحياة ١٣ / ٧ / ٢٠٠٦ م) . فحين إذا أمام سنة كونية وظاهرة اجتماعية طبيعية ، وبخاصة الان وعي المجتمعات ونضجها ، ومستوى تحضرها ، بمقدار نجاحها في التقاسم الإيجابي مع التعدد والتنوع الداخلي ، فالمجتمعات المتحضرة المقدمة تعتبر التنوع مصدر إثراء وإغناء لتجربتها الحضارية ، تحترم الخصوصيات لكل فئة وطائفة مهما كانت قليلة

والبحرين منطقة واحدة تاريخياً ، هذا التداخل والتواصل الاجتماعي ، يجعلنا متفاعلين مع كل ما يحدث في البحرين ، فهم أهلنا وأخواننا . لذلك فمن الطبيعي ان نتفاعل مع هذه التطورات الأخيرة ، وان نتعامل بها خيراً ، فالتصديبات الكبيرة التي تواجهنا وأمننا تستوجب اعلم قدر من الوحدة والانسجام الوطني . ومبادرة سمو أمير البحرين بالاقتراج عن المعتقلين ، وتسهيل عودة القيادات الدينية والسياسية من الخارج ، ومعالجة بعض المشاكل التي كانت قائمة ، وإتاحة الفرصة للتعبير عن الرأي ، كل ذلك يخلق أجواء مناسبة لتوطيد الاستقرار والأمن ، وتحقيق الوحدة والانسجام .

وشعب البحرين بقواه الواعية الفاعلة يستحق كل خير ، وكل تقدير واحترام ، لصموده وتضحياته ، ولتجاوبه مع مبادرات الأمر الطيبة . ونأمل ان تتطور الأوضاع في البحرين إلى الأفضل إنشاء الله بتحقيق كل ما يصبو إليه الشعب والحكومة من الآمال والتطلعات المحمودة .

٢- في دول مجلس التعاون الخليجي هناك تعدد مذهبي سنة وشيعة وإباضية ، وضمن السنة هناك موالك وحنابلة وشافعية ، وضمن الشيعة هناك زيدية وإسماعيلية ، فهل يؤثر هذا التعدد المذهبي على الوحدة الوطنية في هذه الدول ؟

التعددية والتنوع ظاهرة قائمة في كل المجتمعات البشرية ، فليس هناك مجتمع متجانس بالكامل ١٠٠٪ . فبعض المجتمعات تتعدد فيها الأعراق والقوميات ، وبعضها تتعدد فيها الأديان ، وبعضها تتعدد فيها المذاهب أو التوجهات السياسية . وقد تحدث القرآن الكريم عن التنوع العرقي واللغوي واعتبره من دلالات القدرة الإلهية وعظمتها يقول تعالى : (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف

في حديثنا مع فضيلة الشيخ حسن موسى رضى الصفار ، العالم التقضيي المعروف والذي اخصص به (المواقف) تحدثت عن العديد من القضايا والمواضيع التي تتعلق بالحرية في الإسلام والتعددية المذهبية وإمكانية التواصل والتعاور بينها . كما تحدث الشيخ الصفار عن التطورات والإصلاحات الإيجابية التي تشهدها البحرين في العهد الجديد حيث أكد ان مبادرة سمو الأمير بالاقتراج عن المعتقلين وتسهيل عودة القيادات الدينية والسياسية من الخارج وإتاحة الفرصة للتعبير عن الرأي وحل المشاكل المعلقة ، كل ذلك يخلق أجواء مناسبة لتوطيد الاستقرار وتحقيق الوحدة الوطنية .. وفيما يلي الحوار :



○ الشيخ حسن الصفار ○

١- التطورات الإيجابية الكبيرة التي حصلت في البحرين أخيراً كيف تنظرون إليها وكيف تقرأونها ؟
- التواصل والتداخل الاجتماعي بين أهالي المنطقة الشرقية وشعب البحرين تواصل عميق ، فوشائج النسب ، وعلاقات القرابة ،

مستحكمة بين العديد من الأسر والعوائل في الجانبين ، حيث ان بعض الأسر في المنطقة أصلها من البحرين ، وكذلك هناك أسر في البحرين أصلها من المنطقة ، إضافة إلى علاقات المصاهرة الكثيرة ، وأساساً كانت الطيف والإحسان

حوار مجلة المواقف البحرينية*

في حديثنا مع فضيلة الشيخ حسن موسى رضي الصفار، العالم القطيفي المعروف الذي اختص به (المواقف) تحدث فضيلته عن العديد من القضايا والمواضيع التي تتعلق بالحرية في الإسلام والتعددية المذهبية وإمكانية التواصل والتحاور بينها.

كما تحدث الشيخ الصفار عن التطورات والإصلاحات الإيجابية التي تشهدها البحرين في العهد الجديد حيث أكد أن مبادرة سمو الأمير بالإفراج عن المعتقلين وتسهيل عودة القيادات الدينية والسياسية من الخارج وإتاحة الفرصة للتعبير عن الرأي وحل المشاكل المعلقة، كل ذلك يخلق أجواء مناسبة لتوطيد الاستقرار وتحقيق الوحدة الوطنية..
وفيما يلي الحوار:

التطورات السياسية في البحرين:

▼ التطورات الإيجابية الكبيرة التي حصلت في البحرين أخيراً كيف تنظرون إليها وكيف تقرأونها؟

التواصل والتداخل الاجتماعي بين أهالي المنطقة الشرقية وشعب البحرين تواصل عميق، فوشائج النسب، وعلاقات القرابة، مستحكمة

* حوار أجراه عقيل بن ناجي المسكين - لمجلة المواقف البحرينية، ونشر في العدد ١٢٦٦.

بين العديد من الأسر والعوائل في الجانبين، حيث أن بعض الأسر في المنطقة أصلها من البحرين، وكذلك هناك أسر في البحرين أصلها من المنطقة، إضافة إلى علاقات المصاهرة الكثيرة، وأساساً كانت القطيف والأحساء والبحرين منطقة واحدة تاريخياً، هذا التداخل والتواصل الاجتماعي، يجعلنا متفاعلين مع كل ما يحدث في البحرين، فهم أهلنا واخوتنا.

لذلك فمن الطبيعي أن نتفاعل مع هذه التطورات الأخيرة، وأن نتفاعل بها خيراً، فالتحديات الكبيرة التي تواجه أوطاننا وأمتنا تستوجب أعلى قدر من الوحدة والانسجام الوطني. ومبادرة سمو أمير البحرين بالإفراج عن المعتقلين، وتسهيل عودة القيادات الدينية والسياسية من الخارج، ومعالجة بعض المشاكل التي كانت قائمة، وإتاحة الفرصة للتعبير عن الرأي، كل ذلك يخلق أجواء مناسبة لتوطيد الاستقرار والأمن، وتحقيق الوحدة والانسجام.

وشعب البحرين بقواه الواعية الفاعلة يستحق كل خير، وكل تقدير واحترام، لصدوره وتضحياته، ولتجاوبه مع مبادرات الأمير الطيبة. ونأمل أن تتطور الأوضاع في البحرين إلى الأفضل إن شاء الله بتحقيق كل ما يصبو إليه الشعب والحكومة من الآمال والتطلعات المجيدة.

التنوع المذهبي والوحدة الوطنية :

▼ في دول مجلس التعاون الخليجي هناك تعدد مذهبي سنة وشيعة وأباضية، وضمن السنة هنالك موالك وحنابلة وشافعية، وضمن الشيعة هناك زيدية وإسماعيلية، فهل يؤثر هذا التعدد المذهبي على الوحدة الوطنية في هذه الدول؟

التعددية والتنوع ظاهرة قائمة في كل المجتمعات البشرية، فليس

هناك مجتمع متجانس بالكامل ١٠٠٪. فبعض المجتمعات تتعدد فيها الأعراق والقوميات، وبعضها تتعدد فيها الأديان، وبعضها تتعدد فيها المذاهب أو التوجهات السياسية. وقد تحدث القرآن الكريم عن التنوع العرقي والقومي واعتبره من دلالات القدرة الإلهية وعظمتها يقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١).

كما تحدث القرآن الكريم عن تعدد الديانات، واعتبره ظاهرة طبيعية في هذه الحياة، لأن الله تعالى قد منح الإنسان حرية الاختيار، وأودع في نفسه نوازع الخير والشر، ويوم القيامة هو يوم الفصل والحساب يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٢).

بل إن التنوع والتعدد ظاهرة كونية، فعلى مستوى كل المخلوقات والكائنات، هناك أصناف وألوان وأشكال، تدل على إبداع الخالق وقدرته يقول تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾^(٣).

ومن الطريف في هذا السياق ما نشرته الصحف هذه الأيام حول احتفالات الهند بعيد (المانغو) والتي أصبحت تقيمها سنوياً منذ عام ١٩٨٨م وتستمر يومين في شهر تموز (يوليو) فقد أشارت إلى أنه يوجد في العالم اليوم ١٢٠٠ صنفاً معروفاً من المانغو، وفي الهند وحدها مؤئل لـ ١١٠٠ من هذه الأصناف. (جريدة الحياة ١٣/٧/٢٠٠١م).

(١) سورة الروم آية ٢٢.

(٢) سورة الحج آية ١٧.

(٣) سورة الأنعام آية ١٤١.

فنحن إذاً أمام سنة كونية وظاهرة اجتماعية طبيعية. ويقاس الآن وعي المجتمعات ونضجها، ومستوى تحضرها، بمقدار نجاحها في التعامل الإيجابي مع التعدد والتنوع الداخلي، فالمجتمعات المتحضرة المتقدمة تعتبر التنوع مصدر إثراء وإغناء لتجربتها الحضارية، فتحترم الخصوصيات لكل فئة وطائفة مهما كانت قليلة وصغيرة، وتخضع لقانون وطني عام على صعيد حقوق المواطنة وواجباتها، يتساوى فيه الجميع على اختلاف أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم وتوجهاتهم.

أما في المجتمعات المتخلفة فغالباً ما يكون التنوع سبباً للظلم والحيث، بأن تجور فئة على أخرى، أو تصادر جهة حق سائر الجهات في ممارسة خصوصياتها، أو يفصل ثوب الوطن على مقاس طائفة واحدة.

وفي دول مجلس التعاون الخليجي ليس عندنا تعدد في القوميات ولا في الأديان، فالمجتمعات الخليجية تنتمي إلى الأمة العربية، وتدين بالإسلام والحمد لله.

أما التنوع المذهبي فهو يعني الاختلاف في بعض التفاصيل المرتبطة بالمعتقدات أو الأحكام الفقهية، مع الاتفاق على أساسيات العقيدة، وأركان الدين، ومعالم الشريعة.

وهذا الاختلاف لا ينبغي أن يؤثر أبداً على الوحدة الوطنية، مادام الجميع يؤمنون بدين واحد يدعوهم إلى الوحدة والتعاون، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾^(١) ويقول تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(٢).

(١) سورة الأنبياء آية ٩٢.

(٢) سورة المائدة آية ٢.

قضية التعايش والحوار:

▼ تتحدثون في كتاباتكم وخطاباتكم كثيراً عن التعددية والتنوع والتعايش وعن أهمية التلاقي والحوار والتعاون بين أبناء الأمة بمختلف اتجاهاتهم ومذاهبهم فقد صدر لكم كتاب (التعددية والحرية في الإسلام) وكتاب (التنوع والتعايش) وكتاب (التطلع للوحدة) وكذلك المحاضرة التي ألقيتها في الرياض أخيراً تحت عنوان (السلم الاجتماعي) ونالت اهتماماً وصدى واسعاً فما هو سبب تركيزكم على هذا الطرح، واهتمامكم بتأكيده؟

حديثي عن التعايش والتلاقي والحوار أنطلق فيه من مفاهيم الإسلام وتعاليمه، فالقرآن الكريم يشرع للتعايش السلمي مع الكفار المخالفين لنا في الدين، ويشجع على التعامل معهم بعدالة وإحسان يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾^(١).

والقرآن يأمرنا أن نلتزم بأفضل آداب الحوار حينما نتناقش مع اليهود والنصارى في أمور الدين يقول تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٢).

والقرآن يدعو المسلمين إلى عدم التنازع فيما بينهم حتى لا تهدر طاقاتهم وقدراتهم في الصراعات الداخلية، ويفشلون في إثبات وجودهم بين الأمم يقول تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(٣) كما أنطلق في حديثي عن التقارب والتعاون بين أبناء المجتمع، من معطيات العقل والواقع، فنحن نعيش عصر العولمة والانفتاح، حيث أصبح

(١) سورة الممتحنة آية ٨.

(٢) سورة العنكبوت آية ٤٦.

(٣) سورة الأنفال آية ٤٦.

العالم قرية واحدة، فهل من المعقول أن ننغلق تجاه بعضنا البعض؟
بينما تفتح كل غرفة من غرف بيوتنا على العالم كله عبر أجهزة التلفاز
وقنوات البث المباشر؟

ويدور الآن حديث عن حوار الحضارات والذي خصصت له هذه
السنة من قبل الأمم المتحدة، فهل من المنطق أن نتحاور مع الحضارات
الأخرى، ونتردد في الحوار الداخلي فيما بيننا؟

ثم إن الأخطار المشتركة التي نواجهها كأمة عربية وإسلامية ومن
أبرزها تحدي العدوان الصهيوني الذي يسرح ويمرح في مقدساتنا،
ويحتل أراضينا، ويتتهك حرماننا، ويقتل النساء والأطفال، ويهدم
البيوت، ويحرق المزارع في فلسطين.. أليس من العيب والمخجل أن
نتشاغل عنه بالخلافات الجانبية حول قضايا جزئية، وأحداث تاريخية،
أكل عليها الدهر وشرب؟.

وهناك تحدي العولمة والحفاظ على الهوية، وتحدي التخلف
العميق الذي نعيشه، ويجب أن نفكر في تجاوزه، وهناك المشاكل التي
تواجهها مجتمعاتنا في كل المجالات والبيادين السياسية والاقتصادية
والاجتماعية، والتي نشترك فيها جميعاً، وتهدد واقعنا ومستقبلنا..

إلا يدعونا كل ذلك للاقتراب من بعضنا البعض، وللتعاون من أجل
المصلحة المشتركة، والمستقبل الواحد؟

وإذا كنت أركز وأكثر من تناول هذا الموضوع فذلك لما لحظه
من وجود تعبئة في بعض الأوساط باتجاه الخلافات والفتن المذهبية
الطائفية، فبين فترة وأخرى تصدر فتاوى، وتوزع منشورات، وتلقى
خطب، لإثارة النزاع المذهبي، ولتعبئة هذه الطائفة ضد تلك، ولاجترار
مآسي الماضي، وخلافات التاريخ المنقرض، وهناك ممارسات طائفية

من قبل البعض تهدد وحدة أوطاننا، وتشكل خطراً على السلم في مجتمعاتنا، لذلك يجب مواجهة هذه التعبئة وهذا التوجه ببث الفكر الوحدوي الصحيح، ونشر ثقافة الألفة والتعاون والإصلاح يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾^(١) ويقول تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾^(٢).

مبادرات لاختراق الحوار:

▼ هل حصلت بالفعل لكم لقاءات مع علماء من سائر المذاهب الإسلامية في المنطقة؟ وهل وجدتم أرضية للحوار والتعاون معهم؟

بحمد الله تعالى فقد اجتمعت مع العديد من العلماء من مختلف المذاهب من السنة والزيدية والأباضية، ومن خلال تلك الاجتماعات واللقاءات أحسست بالحاجة أكثر إلى التلاقي والحوار، لأنني وجدت أن معلومات كل طرف عن الآخر تعاني من التشويش والغموض في كثير من الأحيان، لأننا نتعرف على بعضنا من خلال كتابات المناوئين والمغرضين، أو عبر معلومات ناقصة وغير متكاملة، مما يجعل صورة كل طرف عن الآخر مشوهة ومبتورة، وأذكر أنني اجتمعت مع أحد كبار العلماء من أهل السنة، فأثار بعض الملاحظات على الشيعة مستنداً إلى كتابات محب الدين الخطيب المصري وإحسان الهي ظهير الباكستاني، فقلت له: يا شيخ كيف تعتمد على انطباعات أناس مناوئين للشيعة؟ ثم إنك قريب من الشيعة، وتعيش معهم في بلد واحد، فلماذا لا تتعرف على واقعهم من خلالهم وهم يعيشون بجوارك بدل أن تأخذ المعلومات

(١) سورة الحجرات آية ١٠.

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٣.

عنهم من مصر أو باكستان؟

واعتقد أننا بحاجة إلى تكثيف المبادرات، واختراق الحواجز المصطنعة بيننا، لكي نتعرف على بعضنا بشكل مباشر، ولكي نتعلم على الحوار الصريح، ونترى على قبول الرأي الآخر واحترامه مهما اختلفنا معه.

لقد أقمت في سلطنة عمان أكثر من ستين في السبعينيات والتقيت مع بعض علماء الأباضية وأدبائهم، وكانت تربطني علاقة طيبة بالمفتي الراحل للأباضية الشيخ إبراهيم بن سعيد العبري رحمه الله، ثم كانت لي علاقة بخلفه المفتي الحالي للسلطنة الشيخ أحمد الخليلي، وكذلك مع وزير العدل في تلك الفترة الشيخ هلال السمار، ووزير الأوقاف آنذاك الوليد بن زاهر الهنائي وغيرهم. ومن علماء الزيدية في اليمن توطدت معرفتي وعلاقتي مع عالمهم الكبير السيد بدر الدين الحوثي، والعالم الفاضل السيد علي عبد الكريم الفضيل، والعالم المفكر الإسلامي المعروف السيد إبراهيم بن علي الوزير، كما التقيت وتواصلت مع العالم الأديب السيد أحمد الشامي الذي أصبح وزيراً للأوقاف لفترة قصيرة قبل سنوات، وآخرين من علمائهم وشخصياتهم.

وفي بلاد المملكة العربية السعودية زرت سماحة المفتي الراحل الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله واجتمعت معه مرتين بصحبة بعض المشايخ والأخوة من القطيف والأحساء، كما التقيت فضيلة الشيخ صالح اللحيدان رئيس مجلس القضاء الأعلى وفضيلة الشيخ محمد بن زيد رئيس المحاكم الشرعية في المنطقة الشرقية، وبين فترة وأخرى أزور رئيس وقضاة المحكمة الشرعية الكبرى عندنا في القطيف.

والحمد لله وجدت عند هؤلاء العلماء استقبالاً طيباً وأخلاقاً كريمة

واستعداداً للتحادث والنقاش في ما يتعلق بمصلحة الإسلام والمسلمين.

العلاقات الداخلية :

▼ وماذا عن العلاقات الداخلية ضمن المجتمع الشيعي، حيث تبرز على السطح بعض الأحيان خلافات وتشنجات بين أتباع التوجهات أو المرجعيات المختلفة؟

الشيعية كأى مجتمع بشري لا يمكن أن يكونوا ضمن قالب واحد، وعلى نمط واحد في التفكير والتوجهات، فعندهم كما عند غيرهم تعددية وتنوع في إطار مذهبهم، بعضها منبثق من اختلاف الرأي في المسائل العلمية الدينية، كما هو الحال في الخلاف بين مدرستي الإخباريين والأصوليين، وبعضها يعود إلى الاختلاف في المواقف السياسية والاجتماعية، إما بسبب اختلاف الرؤية والتقويم، أو لتضارب المصالح.

والمطلوب من الشيعة كما هو مطلوب من كل فئات الأمة أن يديروا خلافاتهم بالطرق السلمية، على أساس الحق في الاختلاف، واحترام الرأي الآخر، والاستفادة من أسلوب الحوار والتعامل الإيجابي، وتغليب المصلحة العامة على المصالح الفئوية، والتعاون في المساحات المشتركة.

كلمة لشعب البحرين :

▼ هل من كلمة أخيرة توجهونها لشعب البحرين عبر مجلة المواقف؟

إننا نتطلع إلى نجاح هذه التجربة الواعدة التي يعيشها إخواننا وأهلونا في البحرين، ونأمل أن يحرص الجميع على إكمال مشوار الانفتاح

والانسجام بين الحكومة الشعب، بحيث تعالج كل القضايا بروح إيجابية وطنية، وذلك لمصلحة الحكومة والشعب، والمنطقة كلها، من خلال أطر قانونية ثابتة، ومؤسسات ديمقراطية مستقرة.

ونأمل أن يستعيد شعب البحرين دوره الريادي في المنطقة على المستوى العلمي والأدبي فتاريخه حافل بالأمجاد العلمية والإنجازات الأدبية.

الشيخ حسن الصفار في الوطن

القطيف: عالية فريد

قال الشيخ حسن الصفار إن رمضان المبارك بلجوائه الروحية الصافية يوفر خير فرصة لأبناء الأمة الإسلامية للتأمل في واقعهم العيش والتفكير في سبل التغلب على مشكلته وصعوباته، كما نبه في حديثه لـ"الوطن" إلى أن أبناء الأمة يحتاجون إلى زخم روحي كبير يمنحهم المزيد من الثقة، مشيراً إلى أن العالم يعيش عصر العولمة والتكتلات ونحن نقيم بالهزيمة النفسية والفكرية فصاروا يلتقطون من كثيرين أصبوا بالهزيمة النفسية والفكرية فصاروا يلتقطون من الإسلام ما يوافق توجهاتهم واستحساناتهم وهذا ناص الحوار:



حسن الصفار

* شهر رمضان جديد أمل على الأمة الإسلامية كيف تقيمون أوضاع العلم الإسلامي؟

- أقبل علينا شهر رمضان المبارك والعالم الإسلامي يعيش محنة شديدة قاسية، بسبب تداعيات أحداث 11 سبتمبر في أمريكا، واتهام جهات من المسلمين بتفويضها، وما ترتب على ذلك من الهجمات على أفغانستان. هذه المحنة ذات بعدين:

البعد الداخلي: ويتمثل في معاناة إخواننا الأفغانيين حيث عاشوا أكثر من شهر حжим القصف من القوات الأمريكية والبريطانية، والذي لم يوفر أماكن العبادة، ولا مستشفيات العرضي، ولا حالات الركاب المدنيين.. ولا المناطق السكنية.. وكذلك ما تفرضه أجواء الحرب عليهم من حصار ورعب، ومشكلات في مختلف مجالات حياتهم. وهناك مئات الألاف منهم اضطروا إلى النزوح عن منازلهم ومناطقهم، وأصبوا يعيشون لأجدين في مخيمات تنتشر لأدنى مقومات

بعضنا، لأسباب عرقية أو قبلية مذهبية أو فئوية. فنحن نعيد عصر العولمة ونواجه تحالفاً وتكتلات عالمية، بينما نقيم صوامعنا الطائفية والمناطقية والحزبية. فحتى على مستوى الوطن الواحد نعيش كائتونا نفسية، تجعل نظرة الواحد من مشوشة عن الآخر يتهمه في دينه أو في ولائه الوطني، للمساواة النفسية الفاصلة، والتأكد بظروية تاريخية سابقة.

* ما تعليقكم على تطورات الوضع في أفغانستان والانهايا الفاجي لنظام طالبان؟

- لا أرى أن انهيار نظام طالبان كان مفاجئاً، فالعالم تحكمه سنن وقوانين، وليس شعارات وأمانيد والمعركة لم تكن متكافئة أبداً، بين تحالف دولي واسع تقوده أقوى الدول، وبين نظام حكم معزول محاصر في داخل بلاده، حيث اتسعت قاعدة المعارضة لطالبان حتى من قبل هذه الأحداث، إضافة إلى ثورات الجيران تجاه هذا النظام. وكان اعتماد طالبان على الدعم الأجنبي، وبباكستان اضطرت إلى التخلي عن تبني نظام طالبان.

بالطبع نظام طالبان إن ينهار ليس مسؤوفاً عليه وإنما لا أتحدث هنا عن طالبان كشخص أو كحركة، بل أتحدث عن طالبان كنظام له سياسات مختلفة متطرفة، أساءت للإسلام، وسببت

حاجزاً بيننا وبين الفهم الصحيح والطبيع السليمة. بالطبع فإن شهر رمضان هو شهر القرآن، حيث أنزل فيه (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان).

وكما جاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا التمس عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن - كنز العمال / حديث رقم 4027 - إن القراءة الواعية للقرآن، والتدبر الحر في آياته، والنظر في الواقع المعاش بموضوعية، يساعدنا كثيراً على الخروج من حالة التخبط في الرؤية، والتشويش في الفكر.

وثانياً: على المستوى النفسي يحتاج أبناء الأمة إلى زخم روحي كبير، يمنحهم المزيد من الثقة، ويبدفهم إلى تحمل المسؤوليات الضخمة، ومواجهة التحديات الخطيرة، إن قطاعاً واسعاً يعيش حالة اللامبالاة تجاه ما يحدث، وهنا من سيطر عليه الإحباط واليأس والبعض ابتلي بدهاء التشنج والانفعال.. إضافة إلى ما يسود الأجواء من ضعف في الفاعلية والنشاط..

ويمكننا التحول كثيراً على بركات شهر رمضان الروحية، لمعالجة الكثير من هذه الأجواء النفسية، والفترات الروحية، عبر التوجه إلى الله تعالى، والتزود من

يعيشون أسرف فهم القرون الماضية، مع أن القرآن الكريم يدعو البشرية بلجبالها الصاعدة إلى التأمل والتدبير في معانيه: (أفلا يتدبرون القرآن) (البيدبروا آياته) (أفلا يتفكرون) (القوم يعقلون) وإذا جمدنا على فهم السابقين، فذلك يعني أننا معفيون من الأمر

كثيرون أصبوا بالهزيمة النفسية والفكرية فصاروا يلتقطون من الإسلام ما يوافق توجهاتهم واستحساناتهم

بالتدبر والتفكير والتعلل. وهناك من حاول أن يفصل الإسلام على مقاسات مصالحه وزعاته الذاتية والفئوية وهناك من أصبوا بالهزيمة النفسية والفكرية تجاه تيارات الحضارة المادية، فصاروا يلتقطون من الإسلام ما يوافق توجهاتهم واستحساناتهم وهذا ناص الحوار:

السياق، وبلدان إسلامية أخرى تعيش نفس المشكلة لكن بدرجات متفاوتة.

أما البعد الخارجي: فيتمثل في المواقف الأمريكية والإجراءات التي تتخذها تحت شعار مكافحة الإرهاب، وما تتركة من آثار على مستوى العلاقة بين المسلمين والغرب، والضغط التي تتوالى على الجهات الإسلامية، من حكومات ومؤسسات، وشخصيات إسلامية، أصبحت معرضة للملاحقة والاستهداف، وعلى جميع المستويات الأمنية والاقتصادية والإعلامية.

والأهم من كل ذلك تأثيرات ما حدث على القضية المركزية للأمة قضية فلسطين، وسمي إسرائيل لاستخدام الظروف والأجواء لصالح سياساتها الظالمة التنسفية.

* هل يمكن استثمار شهر رمضان المبارك لما ينفع الأمة في مواجهة هذه التحديات؟

- شهر رمضان المبارك بلجوائه الروحية الصافية، يوفر خير فرصة لأبناء الأمة للتأمل في واقعهم العيش والتفكير في سبل التغلب على مشكلته وصعوباته، كما نبه في حديثه لـ"الوطن" إلى أن أبناء الأمة يحتاجون إلى زخم روحي كبير يمنحهم المزيد من الثقة، مشيراً إلى أن العالم يعيش عصر العولمة والتكتلات ونحن نقيم بالهزيمة النفسية والفكرية فصاروا يلتقطون من كثيرين أصبوا بالهزيمة النفسية والفكرية فصاروا يلتقطون من الإسلام ما يوافق توجهاتهم واستحساناتهم وهذا ناص الحوار:

حوار صحيفة الوطن السعودية*

قال الشيخ حسن الصفار إن رمضان المبارك بأجوائه الروحية الصافية يوفر خيراً فرصة لأبناء الأمة الإسلامية للتأمل في واقعهم المعاش وللتفكير في سبل التغلب على مشاكله وصعوباته، كما نبه في حديثه لـ(الوطن) إلى أن أبناء الأمة يحتاجون إلى زخم روحي كبير يمنحهم المزيد من الثقة، مشيراً إلى أن العالم يعيش عصر العولمة والتكتلات ونحن نقبع في صوامعنا الطائفية ومناطقنا الحزبية! وأن كثيرين أصيبوا بالهزيمة النفسية والفكرية فصاروا يلتقطون من الإسلام ما يوافق توجهاتهم واستحساناتهم وهذا نص الحوار:

أوضاع العالم الإسلامي:

▼ شهر رمضان جديد يطل على الأمة الإسلامية كيف تقيمون
أوضاع العالم الإسلامي؟

يقبل علينا شهر رمضان المبارك والعالم الإسلامي يعيش محنة شديدة قاسية، بسبب تداعيات أحداث ١١ سبتمبر في أمريكا، واتهام جهات من المسلمين بتنفيذها، وما ترتب على ذلك من الهجمات على أفغانستان.

* حوار أجرته عالية فريد - لجريدة الوطن السعودية، العدد (٤٣٠) السنة الثانية الاثني عشر ١٨ رمضان ١٤٢٢هـ الموافق ٣ ديسمبر ٢٠٠١م.

هذه المحنة ذات بعدين:

البعد الداخلي: ويتمثل في معاناة إخواننا الأفغانيين حيث عاشوا لأكثر من شهر جحيم القصف من القوات الأمريكية والبريطانية، والذي لم يوفر أماكن العبادة، ولا مستشفيات المرضى، ولا حافلات الركاب المدنيين. ولا المناطق السكنية.. وكذلك ما تفرضه أجواء الحرب عليهم من حصار ورعب، ومشكلات في مختلف مجالات حياتهم.

وهناك مئات الألوف منهم اضطروا إلى النزوح عن منازلهم ومناطقهم، وأصبحوا يعيشون لاجئين في مخيمات تفتقر لأدنى مقومات الحياة، سواء داخل أفغانستان أو خارجها.

من ناحية أخرى فقد سببت هذه المحنة تشنجاً واختلافاً في أغلب الأوساط والبلدان، حول تقويم ما حدث، والموقف الواجب اتخاذه. وباكستان هي البلد الأكثر تضرراً في هذا السياق، وبلدان إسلامية أخرى تعيش نفس المشكلة لكن بدرجات متفاوتة.

أما البعد الخارجي: فيتمثل في المواقف الأمريكية والإجراءات التي تتخذها تحت شعار مكافحة الإرهاب، وما تتركه من آثار على مستوى العلاقة بين المسلمين والغرب، والضغط التي تتوالى على الجهات الإسلامية، من حكومات ومؤسسات، وشخصيات إسلامية، أصبحت معرضة للملاحقة والاستهداف، وعلى جميع المستويات الأمنية والاقتصادية والإعلامية.

والأهم من كل ذلك تأثيرات ما حدث على القضية المركزية للأمة قضية فلسطين، وسعي إسرائيل لاستثمار الظروف والأجواء لصالح سياساتها الظالمة التعسفية.

استثمار الشهر الكريم:

▼ هل يمكن استثمار شهر رمضان المبارك لما ينفع الأمة في مواجهة هذه التحديات؟

شهر رمضان المبارك بأجوائه الروحية الصافية، يوفر خير فرصة لأبناء الأمة للتأمل في واقعهم المعاش، والتفكير في سبل التغلب على مشكلاته وصعوباته.

فأولاً: على الصعيد الفكري هناك تشويش وضبابية في الرؤية ناتجة من اختلاط المفاهيم، واضطراب المناهج، ففي فهم الإسلام ومعرفته، هناك من يعيشون أسرفهم القرون الماضية، مع أن القرآن الكريم يدعو البشرية بأجيالها الصاعدة إلى التأمل والتدبير في معانيه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وإذا جمدنا على فهم السابقين، فذلك يعني أننا معفيون من الأمر بالتدبير والتفكير والتعقل.

وهناك من حاول أن يفصل الإسلام على مقاسات مصالحه ونزعاته الذاتية والفئوية وهناك من أصيبوا بالهزيمة النفسية والفكرية تجاه تيارات الحضارة المادية، فصاروا يلتقطون من الإسلام، ما يتوافق مع توجهاتهم واستحساناتهم..

إننا بحاجة إلى الانفتاح على نبع الإسلام الصافي، ومصدره الأساس، كتاب الله الكريم، وما ثبت من السنة الشريفة، وأن نتجاوز العقد والعصبيات والانتماءات، حتى لا تشكل حاجزاً بيننا وبين الفهم الصحيح والرؤية السليمة.

بالطبع فإن شهر رمضان هو شهر القرآن، حيث أنزل فيه ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى

وَالْفُرْقَانِ ﴿١﴾. وكما جاء في حديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن»^(١).

إن القراءة الواعية للقرآن، والتدبر الحرفي آياته، والنظر إلى الواقع المعاش بموضوعية، يساعدنا كثيراً على الخروج من حالة التخبط في الرؤية، والتشويش في الفكر.

وثانياً: على المستوى النفسي يحتاج أبناء الأمة إلى زخم روحي كبير، يمنحهم المزيد من الثقة، ويدفعهم إلى تحمل المسؤوليات الضخمة، ومواجهة التحديات الخطيرة، إن قطاعاً واسعاً يعيش حالة اللامبالاة تجاه ما يحدث، وهناك من سيطر عليه الإحباط واليأس والبعض ابتلي بداء التشنج والانفعال.. إضافة إلى ما يسود الأجواء من ضعف في الفاعلية والنشاط..

ويمكننا التعويل كثيراً على بركات شهر رمضان الروحية، لمعالجة الكثير من هذه الأجواء النفسية، والثغرات الروحية، عبر التوجه إلى الله تعالى، والتزود من مناهل العبادة الخاشعة، لاستلهام المعنويات الرفيعة، وكسب العزم والتصميم على تحمل الواجبات تجاه ديننا وحياتنا ومستقبلنا وأوطاننا.

ثالثاً: في الجانب الاجتماعي: ينبغي استثمار الشهر الكريم في اختراق الحواجز التي فصلنا عن بعضنا، لأسباب عرقية أو قبلية أو مذهبية أو فئوية.

فنحن نعيش عصر العولمة ونواجه تحالفات وتكتلات عالمية، بينما نقبع في صوامعنا الطائفية والمناطقية والحزبية.

فحتى على مستوى الوطن الواحد نعيش كانتونات نفسية، تجعل نظرة الواحد منا مشوشة عن الآخر يتهمه في دينه أو في ولائه الوطني، للمسافات النفسية الفاصلة، والتأثر بظروف تاريخية سابقة.

تطورات أفغانستان:

▼ ما تعليقكم على تطورات الوضع في أفغانستان والانهيار المفاجئ لنظام طالبان؟

لا أرى أن انهيار نظام طالبان كان مفاجئاً، فالعالم تحكمه سنن وقوانين، وليس شعارات وأمان، والمعركة لم تكن متكافئة أبداً، بين تحالف دولي واسع تقوده أقوى الدول، وبين نظام حكم معزول محاصر في داخل بلاده، حيث اتسعت قاعدة المعارضة لطالبان حتى من قبل هذه الأحداث. إضافة إلى ثارات الجيران تجاه هذا النظام. وكان اعتماد طالبان الأساسي على الدعم الباكستاني، وأوضح أن باكستان اضطرت إلى التخلي عن تبني نظام طالبان.

بالطبع نظام طالبان إذ ينهار ليس مأسوفاً عليه وأنا لا أتحدث هنا عن طالبان كأشخاص أو كحركة، بل أتحدث عن طالبان كنظام له سياسات متخلفة متطرفة، أساءت للإسلام، وسببت المعاناة للشعب الأفغاني، وأعطت الفرصة للأمريكيين أن يحققوا نصراً سهلاً يستغلونه لإحكام هيمنتهم وسيطرتهم على العالم.

وما يؤلم الإنسان هو الدمار والظلم الذي لحق الأفغانيين من جراء الحملات الأمريكية العسكرية القاسية.

حسن الصفار متحدتاً عن السلم الاجتماعي و مقوماته :

إذا كان المجتمع يعيش نوعاً من التنوع في انتماءاته العرقية والدينية فيجب أن يشعر الجميع وخاصة الأقليات بضمان حقوقهم ومصالحهم المشروعة



إذا عانت بعض فئات المجتمع من الحرمان والتمييز فإن ما يظهر من استقرار زائف لا يلبث أن ينكشف عن فتن واضطرابات مدمرة

حسن الصفار

صريحة للالتزام بالسلم الاجتماعي، وتقدير له كشعار للمجتمع، وتحذير من الانزلاق عن مساره، وأن صفاء أجواء المجتمع من العداوات والصراعات، يجعله مهيباً للتعاون والانطلاق، ويحفظ قوته من الهدر والضياح، لذلك كان من الطبيعي أن تسعى القوى المناوئة لأي مجتمع من أجل تمزيق وحدته وإشارة العداوات بين فئاته، يقول تعالى: **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ** وأوضح الشيخ حسن الصفار أن من أهم مقومات السلم الاجتماعي السلطنة والنظام، حيث لا يستغني أي مجتمع بشري عن سلطة حاكمة ونظام سائد، يتحمل إدارة شؤون المجتمع، وتعمل القوى المختلفة تحت سقف هيئته، والأركان البديل هو الفوضى، وتصارع القوى والإرادات، مبيهاً أنه كان من سمات حياة العرب في الجزيرة العربية

الأخرى، أما العواجة فهي محصورة في حدود من يمارس العدوان ضد الإسلام والمسلمين، أو يمنع حركة الدعوة إلى الله تعالى، وحتى لو نشبت الحرب والمعركة مع المعادين المعتدين فإن الإسلام يشجع على اغتنام أي فرصة لإيقاف الحرب والقتال إذا ما أظهر الطرف الأخر إرادته في التراجع عن عدوانه والرغبة في إقامة علاقات سلمية. وأكد الصفار أنه إذا كانت هذه دعوة الإسلام على المستوى العالمي وفي العلاقة بين الأمة وسواها، فمن الطبيعي أن تكون أكثر تأكيداً والخاصة على الصعيد الداخلي. لذلك تناولت العديد من آيات القرآن الكريم وتشريعات الإسلام قضية الوحدة والوثام والسلم ضمن الكيان الإسلامي، مبيهاً أن قوله تعالى **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ** أمر واضح ودعوة

فتدفع باتجاه البطش والانتقام وإحراز أكبر مساحات من السيطرة والغبية. وذكر الصفار اختلاف الأوضاع والظروف في البلدان التي ابتليت بفقدان السلم الاجتماعي والوقوع في فخ الاحتراب والتناحر نظراً لاختلاف البلدان ما بين بلد فقير وآخر غني، وبلد آسيوي وآخر أفريقي، وبلد تتنوع فيه الأعراق، وآخر ينتمي مواطنوه إلى عرق واحد وقومية واحدة، وبلد تتعدد فيه الأديان والمذاهب وآخر يسوده دين واحد ومذهب واحد وهكذا مما يعني أن الخطر قد يهدم أي مجتمع لا يمتلك المناهضة الكافية، ولا يتسلح بقوة السلم الاجتماعي المتين. وبين الصفار أنه تكرر الحديث عن السلم والسلام في أكثر من خمسين آية في القرآن الكريم، موضحاً أن الإسلام يوجه الأمة المسلمة إلى إنشاء العلاقات السلمية القائمة على البر والقسوة والإحسان مع الأمم

الأحساء: علي الموسى

تحت عنوان السلم الاجتماعي مقوماته وحمايته) تحدث الشيخ حسن الصفار في أحذية الدكتور راشد المبارك في الرياض بحضور جمع كبير من المفكرين والمثقفين والمهتمين بالشأن العلمي والأدبي. وقد أشار المحاضر في بداية محاضرتة إلى أن تحقق السلم الاجتماعي عامل أساس لتوفير الأمن والاستقرار في المجتمع، وإذا ما فقدت حالة السلم والوثام الداخلي أو ضعفت، فإن النتيجة الطبيعية لذلك هي تدهور الأمن وزعزعة الاستقرار، حيث تسود حالة الخصام والاحتراب، فيسعى كل طرف لإيقاع أكبر قدر من الأذى والضرب بالطرف الآخر، وتضييع الحدود، وتنتهك الحرمات، وتدمر المصالح العامة، حين تشعر كل جهة أنها مهددة في وجودها ومصالحها.

تقرير صحفي عن ندوة السلم الاجتماعي ومقوماته*

تحت عنوان (السلم الاجتماعي مقوماته وحمايته) تحدث الشيخ حسن الصنفار في أحذية الدكتور راشد المبارك في الرياض بحضور جمع كبير من المفكرين والمثقفين والمهتمين بالشأن العلمي والأدبي. وقد أشار المحاضر في بداية محاضرتة إلى أن تحقق السلم الاجتماعي عامل أساس لتوفير الأمن والاستقرار في المجتمع، وإذا ما فقدت حالة السلم والوئام الداخلي أو ضعفت، فإن النتيجة الطبيعية لذلك هو تدهور الأمن وزعزعة الاستقرار، حيث تسود حالة الخصام والاحتراب، فيسعى كل طرف لإيقاع أكبر قدر من الأذى والضرر بالطرف الآخر، وتضيع الحدود، وتنتهك الحرمات، وتدمر المصالح العامة، حين تشعر كل جهة أنها مهددة في وجودها ومصالحها، فتندفع باتجاه البطش والانتقام وإحراز أكبر مساحة من السيطرة والغلبة. وذكر الصنفار اختلاف الأوضاع والظروف في البلدان التي ابتليت بفقدان السلم الاجتماعي والوقوع في فخ الاحتراب والتناحر نظراً لاختلاف البلدان ما بين بلد

* تقرير صحفي كتبه علي الموسى-الأحساء عن ندوة السلم الاجتماعي التي أقيمت بالرياض، صحيفة الوطن السعودية: العدد (٢٢٧) السنة الأولى الاثنين ٢٠ صفر ١٤٢٢ هـ الموافق ١٤ مايو ٢٠٠١ م.

فقير وآخر غني، وبلد آسيوي وآخر أفريقي، وبلد تتنوع فيه الأعراق، وآخر ينتمي مواطنوه إلى عرق واحد وقومية واحدة، وبلد تتعدد فيه الأديان والمذاهب وآخر يسوده دين واحد ومذهب واحد وهكذا مما يعني أن الخطر قد يدهم أي مجتمع لا يمتلك المناعة الكافية، ولا يتسلح بقوة السلم الاجتماعي المتين.

وبين الصفار أنه تكرر الحديث عن السلم والسلام في أكثر من خمسين آية في القرآن الكريم، موضحاً أن الإسلام يوجه الأمة المسلمة إلى إنشاء العلاقات السلمية القائمة على البر والقسط والإحسان مع الأمم الأخرى، أما المواجهة فهي محصورة في حدود من يمارس العدوان ضد الإسلام والمسلمين، أو يمنع حركة الدعوة إلى الله تعالى، وحتى لو نشبت الحرب والمعركة مع المعادين المعتدين فإن الإسلام يشجع على اغتنام أي فرصة لإيقاف الحرب والقتال إذا ما أظهر الطرف الآخر إرادته في التراجع عن عدوانه والرغبة في إقامة علاقات سلمية.

و أكد الصفار أنه إذا كانت هذه دعوة الإسلام على المستوى العالمي وفي العلاقة بين الأمة وسواها، فمن الطبيعي أن تكون أكثر تأكيداً وإلحاحاً على الصعيد الداخلي. لذلك تناولت العديد من آيات القرآن الكريم وتشريعات الإسلام قضية الوحدة والوئام والسلم ضمن الكيان الإسلامي. مبيناً أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾^(١) أمر واضح ودعوة صريحة للالتزام بالسلم الاجتماعي، وتقديره كشعار للمجتمع، وتحذير من الانزلاق عن مساره، وأن صفاء أجواء المجتمع من العداوات والصراعات، يجعله مهياً للتعاون والانطلاق، ويحفظ قوته من الهدر والضياع، لذلك كان من الطبيعي أن تسعى القوى المناوئة

لأي مجتمع من أجل تميزيق وحدته وإثارة العداوات بين فئاته، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾^(١).

وأوضح الشيخ حسن الصفار أن من أهم مقومات السلم الاجتماعي السلطة والنظام، حيث لا يستغني أي مجتمع بشري عن سلطة حاکمة ونظام سائد، يتحمل إدارة شؤون المجتمع، وتعمل القوى المختلفة تحت سقف هيئته. وإلا كان البديل هو الفوضى، وتصارع القوى و الإرادات.

مبيناً أنه كان من سمات حياة العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام، غياب السلطة المركزية، حيث كانوا يعيشون وضعاً قلياً تسوده النزاعات، وتكثر فيه الحروب، ولا يخضع لنظام أو قانون، إلا بعض التقاليد والأعراف التي لا تصمد أمام نوازع الشر، وغرور القوة. وبسبب ذلك لم يكن لهم كيان ولا شأن بين الأمم، وحينما جاء الإسلام استوعب تلك القبائل المتناحرة، ووحدها تحت لوائه، وصنع منها أمة متماسكة لم تلبث أن أخذت بأزمة قيادة العالم. وأشار المحاضر إلى أن من مقومات السلم الاجتماعي العدل والمساواة فالمجتمع الذي يتساوى الناس فيه أمام القانون، وينال كل ذي حق حقه، ولا تمييز فيه لفئة على أخرى، هذا المجتمع تقل فيه دوافع العدوان، وأسباب الخصومة والنزاع، أما إذا ضعف سلطان العدالة، وحدثت ممارسات الظلم والجور، وعانى البعض من الحرمان والتمييز، وأتيحت الفرصة لاستقواء طرف على آخر بغير حق. فهنا لا يمكن التوفر على سلم اجتماعي، وحتى لو بدت أمور المجتمع هادئة مستقرة، فإنه استقرار كاذب، وهدوء زائف، لا يلبث أن ينكشف عن فتن واضطرابات مدمرة. من هنا جاء تأكيد الإسلام على ضرورة العدل وأهميته في حياة البشر، واعتبره هدفاً أساساً لبعثة الأنبياء

وإنزال الشرائع وأكد الصفار على أن المجتمع هو عائلة كبيرة، وعدم المساواة بين أبنائه، وتمييز بعضهم على البعض الآخر، جور يزرع الضغائن والأحقاد، ويضعف حالة المودة والإخاء. موضحاً أن الطرف الذي يحظى بالامتيازات يشعر بالحصانة والعلو تجاه سائر الأطراف، مما قد يدفعه للطغيان والعدوان، كما أن الطرف الذي يقع عليه التمييز يشعر بالغبن والاضطهاد، فيضعف ولاؤه لمجتمعه ووطنه، ويتحسّن الفرصة للانتقام وإعادة الاعتبار، وقد يفتش عن جهات داخلية أو خارجية يستقوي بها، مما يخلق ثغرة في أمن المجتمع والوطن، تنفذ منها مؤامرات الأعداء ودسائسهم كما ذكر المحاضر أن من مقومات السلم الاجتماعي أيضاً ضمان الحقوق والمصالح المشروعة لفئات المجتمع فإذا كان المجتمع يعيش نوعاً من التنوع والتعدد، في انتماءاته العرقية أو الدينية أو المذهبية، أو ما شكل ذلك من التصنيفات، فيجب أن يشعر الجميع وخاصة الأقليات بضمنان حقوقها، ومصالحها المشروعة، في ظل النظام والقانون ومن خلال التعامل الاجتماعي. وهذا وإن كان متفرعاً عن موضوع العدالة والمساواة، لكن أهميته تقتضي التركيز عليه. فعلماء الاجتماع يصنفون المجتمعات من حيث درجة تنوعها وانسجامها إلى ثلاثة أصناف:

١. المجتمع المتجانس ولا يوجد في العالم مجتمع واحد متجانس كلياً وبشكل مطلق وإنما يقصدون به التجانس النسبي وليس المطلق، وهو الذي يتكون من جماعة واحدة منصهرة اجتماعياً وثقافياً، فتتوحد الهوية الخاصة والعامة في هوية واحدة جامعة وتسود في هذا المجتمع عملية الانصهار.
٢. المجتمع الفسيفسائي وهو الذي يتألف من عدة جماعات تغلب

هويتها الخاصة على الهوية العامة، وتتصف العلاقات فيما بينها بالتراوح بين عمليتي التعايش والنزاع وعدم الاتفاق على الأسس.

٣. المجتمع التعددي وهو الذي يتشكل من عدة جماعات تحتفظ بهويتها الخاصة ولكنها تمكنت من إيجاد صيغة تؤلف بين الهوية الخاصة والهوية العامة، لكنها قد تتعرض لهزات بسبب تدخل خارجي أو تسلط لجهة داخلية على حساب أخرى. فمع وجود التنوع والتعدد في المجتمع، لا بد من ضمان الحقوق والمصالح المشروعة للجميع، ليعيش الجميع في إطار المصلحة المشتركة، وفي بوتقة الوطن الواحد. ومبادئ الإسلام وشرائعه العظيمة تقدم النموذج الأرقى للتعايش بين الناس على اختلاف هوياتهم وانتماءاتهم، على أساس العدل والمساواة، وضمن الحقوق والمصالح المشروعة للجميع.

وختم الصفار محاضراته بقوله: أما عن التعامل مع فئة من المسلمين لها مذهب أو مسلك مخالف. ففي سيرة الإمام علي مثل إنساني حضاري رائع. حيث كان حريصا على حماية حقوق ومصالح مناوئيه من الخوارج، مع ما أظهره من معتقدات مخالفة لما عليه جمهور الأمة. بهذه المقومات يتجذر السلم في المجتمع، وتوحد أبواب الفتن والنزاع، وإذا حصلت بادرة من بوادر الشر أمكن تطويقها ومحاصرتها، وهبّ الجميع لمقاومتها.

وقد أعرب المداخلون عقب المحاضرة عن ارتياحهم وتقديرهم للأفكار التي قدمها الصفار في محاضراته والتي تدعو إلى توثيق عرى الوحدة بين أبناء الأمة والوطن، وتجنب مزلق الفتن والصراعات،

التي تستهلك الجهود، وتوجب الخلل والضعف في استقرار المجتمع وأمنه، وتعرقل مسار التنمية والتقدم. كما دارت الحوارات حول سبل ووسائل تجاوز الخلافات المذهبية والطائفية، وحول بعض المؤاخذات والشائعات حول هذا المذهب أو ذلك، حيث أكدّ الصفار والأساتذة المشاركون على ضرورة تجاوز هذه الإثارات التحريضية، واستبدالها بالحوار الموضوعي البناء، من أجل مزيد من الفهم والتفاهم، وأن يتم التركيز على هموم الحاضر وتطلعات المستقبل بدل الاستغراق في مشاكل الماضي.

کتابات

تقديم كتاب الآجام: بين الأمس واليوم*

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وآله الطاهرين شعرت بكثير من الغبطة والسرور وأنا أتصفح هذا الكتاب الجميل (الآجام بين الأمس واليوم) وكان مبعث سروري وغبطتي أمران: الأول: أن الكتاب يعتبر تأسيساً لتاريخ جزء عزيز من بلادي، لم يسبق أن دوّن له تاريخ ولا كتب حوله بحث توثيقي، عدا بعض الإشارات والسطور المختصرة في كتابات شاملة عن المنطقة.

هذا الجزء العزيز وهو منطقة (الآجام) يستحق أن تخصص له أكثر من دراسة تتناول مختلف جوانب الحياة فيه، ومعالم الطبيعة في محيطه وسجل الأحداث والتطورات في تاريخه، أسوة بالكتابات التوثيقية التي ظهرت عن سائر أجزاء هذا البلد الغالي.

لكن هذه المهمة بقيت شاغرة تنتظر رائداً يقتحم آفاق البحث للقيام بها، وظلت أمنية تراود النفوس والأذهان على أمل التحقيق والإنجاز،

* الآجام: بين الأمس واليوم، وجدي عبد العظيم آل مبارك، عن مطبعة البيان العربي، بيروت - لبنان - ١٤٢٢هـ.

لذلك سررت بهذا الكتاب لما يشكله من استجابة لتلك المهمة، وتلبية لتلك الأمنية، أنه جهد تأسيسي لتاريخ منطقة مغمورة التاريخ، ومن الطبيعي أن تكون هناك نواقص وثغرات في أي محاولة جديدة، لا تتوفر لها المصادر والمراجع الكافية، لكن هذا الجهد يكتسب أهمية من رياديته في مجاله. على أمل أن يسعى الكاتب لمتابعة جهده وتطويره وأن يقتني أثره آخرون.

أما المبعث الآخر لسروري بهذا الكتاب فهو تفاؤلي بمستقبل واعد لمؤلفه الكريم، فهو شاب أدرك أن عليه أن يستغل فترة شبابه في تقديم العطاء والخدمة لبلده ومجتمعه، وكم في بلادنا من شباب يخترنون الكثير من القدرات والطاقات، لكنهم لا يسعون لاكتشاف طاقات أنفسهم، ولا يجتهدون في تفعيلها وتنميتها، من أجل بناء مستقبلهم، ورفع شأن وطنهم ومجتمعهم. إن مرحلة الشباب هي مرحلة القوة والنشاط، وباستثمارها في الجد والاجتهاد يحقق الإنسان لنفسه التقدم، ويأخذ موقعه المناسب في الحياة.

وهي في نفس الوقت مرحلة تفجر الأحاسيس والعواطف، وأوج ظهور الغرائز والشهوات، مما يجعل الكثيرين من أبناء هذه المرحلة يستغرقون في الاستجابة لعواطفهم والاسترسال مع غرائزهم وشهواتهم، فتضيع عليهم أفضل فترات حياتهم ونشاطهم في اللهو واللعب، ثم يصبحون أفراداً عاديين لا يمتلكون تميزاً، ولا ينالون مكاسب متقدمة. بل قد يصعب عليهم توفير أدنى متطلبات الحياة، وخاصة مع التعقيدات التي أصبحت تحيط بمجالات الدراسة والعمل.

إن أفاق التقدم مفتوحة أمام شبابنا الأعزاء، فبلدنا فيه خير كثير، وأبناؤنا يتمتعون بقدرات وكفاءات جيدة، لكن المطلوب هو الجد

والاجتهاد، وتجاوز أهواء الميوعة والكسل، فالحياة ساحة كدح وعناء
قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾^(١)،
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾^(٢).

أرجو أن يكون المؤلف الكريم بهذا الجهد الذي يقدمه نموذجا
لشبابنا الأعزاء، في أن يوجهوا طاقاتهم ويستثمروا شبابهم في مجالات
المعرفة والعلم؛ فيبرز منهم العالم والأديب والمؤرخ والباحث والكاتب،
وتتبلور في أوساطهم مختلف القدرات والكفاءات العلمية والعملية.

لقد تصفحت هذا الكتاب الجميل، وأدركت مدى الجهد الذي
بذله مؤلفه الكريم الأخ وجدي عبد العظيم آل مبارك، أسأل الله تعالى
أن يشبه على جهوده الطيبة، وأن يوفقه للمزيد من العطاء والإنتاج، وأن
يكون هذا الكتاب باكورة لنشاط مستمر في الكتابة والتأليف، وأن يوفق
الله سائر شبابنا الأعزاء ليحتذوا حذوه، ولينسجوا على منواله في تنمية
وتطوير قدراتهم المعرفية والثقافية.

وفق الله الجميع للخير والصلاح والحمد لله رب العالمين.

حسن موسى الصفار

٥ رمضان ١٤٢٢ هـ

(١) سورة الانشقاق الآية ٦.

(٢) سورة البلد الآية ٤.

تقديم كتاب من ألحان الزهور*

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله
الطاهرين.

يتحفظُ الطفل منذ نهاية السنة الأولى من عمره إلى التعرف على
العالم من حوله، وفي السنة الثانية يبدأ محاولة التخاطب مع المحيطين
به، حيث تصل حصيلته اللغوية في سن السنتين إلى حوالي ٥٠ كلمة،
وفي منتصف السنة الثالثة يتوقّر على ٤٠٠ كلمة، وعند إكمال الثالثة
يصل رصيده من الكلمات إلى ١٠٠٠ كلمة، وتبدأ محاولاته لتركيب
الكلمات، ويصبح كلامه مفهوماً بنسبة ٨٠٪ وفي الرابعة من عمره يتقن
اللغة.

إنه يتأمل الوجوه والأشياء، وتستثير ذهنه الأحداث والوقائع التي
تجري في محيط إدراكه، ويزداد اندفاعه الذاتي للتعرف على ما حوله،
ولاستكشاف الأمور التي يلاحظها.

فينهال على والديه والقربين منه بالأسئلة، عن كل شيء وأي شيء،

* المسكين: عقيل، من ألحان الزهور، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، مؤسسة البلاغ، بيروت
- لبنان.

وينجذب نحو من يحدثه ويتفاعل معه، مما يوفر أفضل فرصة لتربيته وتنمية مداركه وقدراته، فإذا نشأ في أحضان عائلة واعية، تدرك أهمية هذه الفترة في تأسيس شخصية الطفل وبناء كيانه النفسي والعقلي والسلوكي، فإنها ستحرص على استثمار هذه المرحلة، الاستفادة من حالة الفضولية وحب الاستطلاع عند الطفل، باتجاه تفجير مواهبه وطاقاته، وتنشيط مواهبه الذهنية، وتوجيه سلوكه وميوله النفسية، وغالباً ما يترعرع الأطفال النوابغ والموهبون في مثل هذه الأجواء التربوية المشجعة.

بينما يتضايق بعض الكبار من أسئلة أطفالهم، ويقمعون لديهم هذه الحالة الطبيعية، أو يستهينون بها، وقد يكون انشغال الوالدين سبباً رئيساً في عدم التوجه لتنمية قدرات الطفل ومواهبه.

إن التخاطب مع الأطفال ومحدثهم بالإضافة إلى دوره في تنمية كفاءاتهم فإنه يوفر لهم زخماً معنوياً كبيراً، فالطفل عندما تقبل عليه وتحادثه يشعر بالثقة والاعتزاز والاحترام، بينما تجاهلك له وإعراضك عنه، يمزق مشاعره، ويخرج أحاسيسه.

من هنا يحتل أدب الأطفال مكانة هامة لدى المجتمعات المتحضرة، ويلفتنا القرآن الكريم إلى أهمية التخاطب مع الأبناء عبر نقله لحديث لقمان التربوي المفصل الذي وجهه لإبنيه. كما تنقل لنا السيرة النبوية حرص الرسول ﷺ على السلام على الأطفال والتعاطي معهم بكل محبة واحترام، والتخاطب معهم حسب مستوى إدراكهم كما في وصيته ﷺ لابن عباس يوم كان غلاماً صغيراً.

وفي عالم اليوم أصبح أدب الأطفال والثقافة الموجهة لهم مكتبة واسعة مترامية الأطراف، وبوسائل متعددة، وألوان مختلفة، من القصة

والشعر، والرسوم المتحركة، والألعاب التعليمية، والأفلام، والمسارح. وكل مجتمع يهتم بتنشئة أبنائه ضمن نظامه القيمي، وأخلاقه الاجتماعية، لا بد وأن يهيأ الوسائل والأساليب التربوية التي تجذب الطفل، وتزرع في نفسه عادات الخير، وتوجهات الصلاح.

وقد سررت كثيراً حينما قدّم لي الأخ الكريم الأستاذ عقيل المسكين، عمله الأدبي الجديد، الموجه للأطفال، تحت عنوان (من ألحان الزهور). ورأيت فيه استجابة لحاجة ملّحة نعيشها في مجتمعنا، وهي توفير وسائل التثقيف والتوجيه للجيل الناشئ، بأن نقدم لأطفالنا مفاهيم الدين، ومكارم الأخلاق، بلغة سهلة واضحة شيقة.

والأستاذ عقيل المسكين عرفته من حادثة سنة باهتمامه الثقافي، ونبوغه الأدبي، ونشاطه الاجتماعي، وخلقه القويم، وهو نموذج للمواطن الصالح المخلص لهموم مجتمعه ووطنه.

فحيّاه الله في نتاجه الجديد (من ألحان الزهور) والذي يمثل عملاً أدبياً هادفاً ناجحاً، وأسأل الله له المزيد من التوفيق والعطاء في خدمة دينه وأمته، وأن يكون قدوة لأبناء جيله من الشباب الذي نعقد عليهم آمال التغيير والتطوير.

والحمد لله رب العالمين

حسن موسى الصفار

١٠ رمضان ١٤٢٢هـ

تقديم كتاب

من فيض الولاء*

من طبيعة النفس البشرية السويّة أنها تحب الخير والجمال، وتعشق الفضيلة والكمال، فإذا ما جسّد شخص من الناس، شيئاً من مبادئ الخير والقيم السامية، فإنه بنفس الدرجة يتبوأ مكانة من الحب والتقدير في النفوس، وتنجذب نحوه القلوب.

ولعل ذلك هو ما تشير إليه الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾^(٢) فالإيمان والعمل الصالح، يعني التحلي بمكارم الأخلاق، وجميل الصفات، وذلك يزرع لهم المحبة والودّ، والإجلال والإكبار في نفوس الأسوياء ولم يحفل التاريخ البشري بسيرة أقدس وأطهر من حياة نبي الإسلام محمد ﷺ، وعترته الطاهرة ﷺ فقد جسّدوا قيم الخير والفضيلة بأرفع درجاتها، وتكاملت في شخصياتهم مكارم الأخلاق بأجلى معانيها، حيث توفّروا على أرقى مستوى من العلم والمعرفة، وكانوا المثل الأعلى في الأخلاق، والتزام تقوى الله عز وجل. لذلك من الطبيعي أن تهوي

* من فيض الولاء، الحاج موسى ابن الشيخ رضي الصفار، الطبعة الأولى، ذي الحجة ١٤٢٢ هـ، مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر - لبنان - بيروت.

(٢) سورة مريم آية ٩٦.

إليهم الأفتدة، وتهيم بحبهم القلوب، وتعشق سيرتهم النفوس.
ومن توفيق الله تعالى للمجتمعات الموالية لأهل البيت عليهم السلام، أن
تأصلت وتجذرت في أوساطهم تقاليد وشعائر لتخليد ذكر أهل البيت
عليهم السلام، واستعادة قراءة سيرهم العطرة، وإحياء أمرهم، بالحديث عن
فضائلهم العظيمة، ومواقفهم النبيلة، وتعاليمهم النافعة.

وذلك استجابة لتوجيهات أئمة الهدى عليهم السلام، الذين أمروا شيعتهم
وأتباعهم بإحياء أمرهم، وشجعوهم على التفاعل مع ذكرياتهم السارة
والمحزنة، كما روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «فأحيوا
أمرنا، فرحم الله من أحيا أمرنا»^(١). وروي عن الإمام علي الرضا عليه السلام أنه
قال: «إن سرك أن تكون معنا في الدرجات العلى فاحزن لحزننا، وافرح
لفرحنا»^(٢).

إن ناشئة وأبناء الموالين لأهل البيت عليهم السلام، يتفتق وعيهم وهم في
أحضان آبائهم وأمهاتهم، على ذكر أهل البيت عليهم السلام، وتمتلى أسماعهم
وأبصارهم بأخبار سيرتهم العطرة، وتنطع في أعماق نفوسهم ومشاعرهم
صور التقديس والتعظيم لأولئك الأئمة الهداة.

وموسم عاشوراء، ومناسبات ذكريات مواليد الأئمة ووفياتهم، خير
شاهد على برامج تكريس الولاء والارتباط بأهل البيت عليهم السلام في أوساط
المجتمعات الشيعية.

هذه البرامج الولائية المتجذرة والمتطورة عبر مسيرة زمنية طويلة،
بدأت من عصور الأئمة عليهم السلام أواخر القرن الأول للهجرة، أنتجت ثقافة

(١) شرف الدين: السيد عبد الحسين، المجالس الفاخرة ص ٢١، مطبعة النعمان - النجف -
١٩٦٩.

(٢) المصدر السابق.

واسعة، متعددة الألوان والأشكال، من الشعر والنثر، تُعنى بتاريخ أهل البيت عليهم السلام، والإشادة بمواقفهم، والتفجع لمآسيهم ومصائبهم.

ويأتي الشعر في طليعة ذلك الإنتاج الثقافي الولائي، حيث تراكت ثروة كبيرة من الأدب، انصبَّ قسط وافر منها على التذكير بالمصائب والآلام التي حلت بالعترة الطاهرة، من قبل أعدائهم الظالمين، والغاصبين لحقهم. وهي تستهدف إذكاء مشاعر التعاطف مع أهل البيت كأصحاب حق مظلومين، وترسيخ التباعد والنفور من الظلمة المعتدين، كما أنها تبرز صور البطولة والثبات على المبدأ في حياة أهل البيت عليهم السلام، رغم ما وقع عليهم وأصابهم من فجائع ونكبات.

بدأ هذا الأدب الولائي باللغة العربية الفصحى، في أرقى مستوياتها البلاغية، متمثلاً في شعر الكميت والسيد إسماعيل الحميري ودعبل الخزاعي وغيرهم، واستمر مع أجيال الأدب الصاعدة، في مستوياتهم المتفاوتة والمختلفة، ولما انتشرت اللغة العامية في أوساط المجتمعات العربية، على تنوع لهجاتها، أصبحت هناك طبقة من الشعراء الولائيين الذين ينظمون الشعر باللغة الدارجة في مجتمعاتهم، باعتبارها أقرب إلى فهم الجمهور، وأقدر على تحريك عواطفه ومشاعره.

بالطبع يتفاوت مستوى هذا الشعر الولائي بقسميه الفصيح والدارج، من حيث قيمته الأدبية، وورصانه محتواه، فبعضه لا يخلو من الضعف والركاكة في الأسلوب، ومن الغلو والمبالغة في تصوير بعض المواقف والأحداث، انطلاقاً من طبيعة الشعر الخيالية، واستجابة لما يتداول في أوساط الجمهور الشعبي، من حكايات وأحاديث لا يستند بعضها إلى تدقيق وتحقيق.

وهذا الديوان الذي بين يدي القارئ الكريم، (من فيض الولاء)

هو نموذج وعيئة من أدب الولاء لأهل البيت عليهم السلام، حيث ترسم قصائده، وأغلبها باللغة العامية الدارجة، صوراً عميقة التأثير في المشاعر والعواطف، حول مصائب أهل البيت وآلامهم، كما تسجل أروع المشاهد من بطولاتهم ومواقفهم الرسالية الصامدة.

شخصية الناظم:

ناظم قصائد هذا الديوان هو والدي الكريم الحاج موسى بن الشيخ رضي بن علي بن محمد بن حسن بن فردان الصفار الهمداني، انتساباً إلى قبيلة همدان اليمينية المعروفة^(١).

ولادته:

ولد حفظه الله بتاريخ ٢٠ / ٧ / ١٣٤٥ هـ حسب ضبطه شخصياً عن والديه، لكن تاريخ ولادته في الوثائق الرسمية هو سنة ١٣٤١ هـ وهو خطأ بسبب التساهل في التعاطي مع الوثائق الرسمية عند بداية تكوّن أجهزتها في البلاد، وفي بعض الأحيان كان يستفاد من زيادة العمر في الوثائق، لتسهيل إجراءات فرص التوظيف، التي تستلزم سناً معيناً.

وكانت ولادته في موطن عائلته (تاروت) وهو الولد الثالث لأبويه بعد أخيه الشيخ عبد الحميد (١٣٢٥ - ١٤ / ٨ / ١٣٩٨ هـ) وأخته فاطمة توفيت سنة ١٣٩٨ هـ رحمهما الله. وهناك أخ رابع اسمه (عيسى) لم يمهله الأجل، حيث مات بتاريخ ٨ / ١٠ / ١٣٥٤ هـ وله من العمر خمس سنوات.

والدته:

الحاجة زهراء بنت الحاج أحمد بن قاسم الحجاج، توفيت بتاريخ ٤ / ١ / ١٤٠٠ هـ، وكان والدها الحاج أحمد من كبار نواخذة الغوص في

(١) العمران: الشيخ فرج، الأزهار الارجية، ج٦، ص٢٣.

المنطقة، وله مكانة مرموقة في مجتمعه.

والده:

الشيخ رضي بن علي بن محمد بن حسن بن فردان الصفار
(١٢٩٥هـ - ١٣٧٤هـ).

تلقى علومه في النجف الأشرف - العراق، حيث هاجر إليها سنة
١٣١٧هـ وحضر البحث الخارج في الفقه والأصول على كبار الفقهاء
المراجع منهم:

- الإمام الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني (توفي ١٣٢٩هـ).

- الإمام السيد محمد كاظم اليزدي الطباطبائي (توفي ١٣٣٧هـ).

- الإمام الشيخ فتح الله المشتهد بشيخ الشريعة (توفي ١٣٣٩هـ).

- الإمام الشيخ الملا هادي الطهراني.

- الإمام الشيخ أحمد كاشف الغطاء (توفي ١٣٤٤هـ).

وكانت علاقته وثيقة بالإمام السيد محمد كاظم اليزدي (كان من
أخص الناس بهذا الزعيم بل كان له كيد ولسانه) حسب تعبير الشيخ
فرج العمران^(١).

وبعد توثقت علاقته بالإمام الشيخ أحمد كاشف الغطاء فكان
(تلميذه الخاص ووكيله العام)^(٢).

عاد من العراق بعد إنهاء دراسته العلمية سنة ١٣٣٥هـ مزوداً
بشهادات وإجازات من كبار العلماء من أساتذته تشيد بمكانته العلمية

(١) العمران: الشيخ فرج، الازهار الارجية، ج٦، ص٢٤.

(٢) المصدر السابق، ص٢٧.

وتدعو الناس للالتفاف حوله والاستفادة منه، فقد جاء في شهادة الإمام السيد محمد كاظم اليزدي رحمته الله «وهذا عمدة العلماء وزبدة الفضلاء وصفوة الأتقياء البر التقي الشيخ رضي بن الحاج علي آل فردان الصفار رضي الله عنه وأرضاه، وأسعده بتقواه، قد هاجر إلى النجف الأشرف برهة من الزمن ولم يزل طول إقامته في ذلك المكان الشريف مواظباً على تحصيل العلوم الشرعية الشريفة، مع هدى وصلاح، وتقوى ونجاح، حتى بلغ ولله الحمد المراتب العالية، والمنازل السامية، ونال ما فيه بلاغ لطالب، وكفاية لراغب، فعلى إخواننا المؤمنين وفقهم الله تعالى لمرضاته الاقتباس من أنواره، والاقتداء بآثاره، والملازمة له في تعلم الأحكام، ومعرفة الحلال والحرام، وأخذ المسائل الشرعية منه».

وجاء في شهادة الإمام الشيخ أحمد كاشف الغطاء رحمته الله «وقد صرف شطراً وافراً من عمره الشريف في تحصيل العلوم الدينية وتحقيق الأحكام الشرعية، فكرع من نمير حياضها، واقتطف من أزهار رياضها، ما يروي الغلة، ويشفي العلة، وينقع الصدى، ويقمع العدى، ويثلج الصدر، ويحصل به زاد الطالب، ومناخ الراكب، وبغية السائل، وري الناهل، وفيه لمن اختبره شواهد واضحة، وأنوار لائحة، ومخائل صادقة، وأعلام ظاهرة، فعلى إخواننا المؤمنين أيدهم الله تعالى بروح منه الاستضاءة بأنواره والاقتفاء بآثاره».

في وطنه كان يمارس دور الإرشاد الديني متنقلاً بين بلدته تاروت ومدينة القطيف ومدينة صفوى.

«ولم يزل طيلة حياته في أي بلاد سكن، وفي أي محل قطن، يقيم الصلاة جماعة، ويبث المسائل الشرعية الفقهية، والمواعظ الإرشادية، مؤدياً رسالته العملية على أحسن وجه وقلماً حضر مجلساً لم يروج فيه

المسائل الدينية، وكان كثيراً ما يفتح إرشاده ووعظه بقوله: أيها الناس اسمعوا وعوا»^(١).

■ له بعض الحواشي على جملة من الكتب المنطقية والفقهية والأصولية والكلامية والحكمية وبعض الحواشي والشروح والتحقيقات على جملة من الرسائل والتأليفات المدونة في بعض الفنون كعلم الأوفاق والحساب والكيمياء وغير ذلك.

■ توفي صبيحة يوم الأحد ٤ / ٢ / ١٣٧٤ هـ في طريقه من إيران إلى العراق في منطقة كرمانشاه ودفن في الكاظمة ببغداد بجوار الإمامين موسى بن جعفر الكاظم ومحمد بن علي الجواد عليهما السلام.

■ درس على يديه عدد من العلماء الفضلاء منهم:

- ١- الشيخ علي بن يحيى المحسن (١٣٢٦ هـ - ١٤٠١ هـ).
- ٢- الشيخ منصور بن علي آل غنام (١٣١٣ هـ - ١٣٧٢ هـ).
- ٣- الشيخ علي بن إبراهيم الفليتي التاروتي (١٣١٥ هـ - ١٣٧٧ هـ).

تعليمه :

تعلم القرآن الكريم عند المعلمة بنت سلمان بن مفتاح زوجة ابن عمه الحاج عبد الله بن علي الصفار. وتعلم الحساب عند ابن عمه الحاج محمد صالح الصفار. وتعلم القراءة والكتابة ومبادئ العربية والفقه على يد الشيخ علي بن يحيى المحسن. وتعلم الخطابة الحسينية على يد خاله الملا عبد الله بن أحمد الحجاج، والملا علي بن حسن الطويل، والملا مكّي بن قاسم الجارودي، والملا باقر المدن. ومارس الخطابة مساعداً لمعلميه المذكورين، لكن ظروف الحياة صرفته إلى

(١) العمران: الشيخ فرج، الأزهار الأرجية، ج، ٦ ص ٣١.

العمل الوظيفي .

و حينما افتتحت مدرسة للتعليم الابتدائي المسائي في القطيف على يد مدرسين متطوعين، انظم إليها، ولمعرفته الجيدة بالقراءة والكتابة والحساب، ألحق بالصف الثالث، وبعد فترة وجيزة نقل إلى الصف الخامس .

عمله ومهنته :

بسبب الظروف الاقتصادية الصعبة التي كانت تعيشها أسرته، دخل ساحة العمل والكسب في وقت مبكر من حياته، حيث اشتغل بالبيع والشراء وعمره أربعة عشر سنة، في بلدة تاروت، وبينها وبين القطيف، مع صعوبة توفر وسائل المواصلات آنذاك، لعدم وجود طريق بري بين القطيف وجزيرة تاروت المحاطة بالبحر، فكانت الدواب هي وسيلة المواصلات، حينما ينحسر الماء، وهي غير متوفرة دائماً وفي حالات كثيرة كان يضطر للسير على قدميه عبر المقطع الفاصل بين تاروت والقطيف، وهي رحلة شاقة محاطة بالأخطار، وخاصة في فصل الصيف اللاهب .

ثم انتقل إلى القطيف سنة ١٣٦٢ هـ وتوظف كاتباً عند الحاج عبد الجليل الزهيري، وشريكه الحاج حسن الشيخ علي الخيزري، في متجرهما لبيع المواد الغذائية .

واشتغل بعد ذلك كاتباً عند الحاج محمد صالح النهاش، في متجره لبيع الأقمشة، ثم عند الحاج مهدي الأسود وشركاه أبناء الحداد، في تجارتهم بالمواد الغذائية .

وبعد ربح من الزمن استقل بعمله وفتح له متجر لبيع الأقمشة في صفوى، واستمر فيه ثم انتقل بعدها إلى القطيف وأنشأ مؤسسة تجارية

للخدمات العامة، وامتهن تخليص معاملات الجوازات والإقامات، لبعض المؤسسات والشركات. إلى أن تقاعد عن العمل سنة ١٤١٩ هـ لتقدم سنه وإصابته ببعض أمراض القلب.

إلى جانب تلك المهنة كان يقوم بكتابة الوصايا، وإجراء مراسيم عقود الزواج، وتقسيم تركات الإرث، وقراءة سير الأئمة في الحسينيات لمناسبات مولدهم ووفياتهم، وإرشاد الحجيج في بعض السنوات ضمن حملات الحج.

هكذا عمل في مجالات مختلفة، واتخذ مهناً متعددة، لكسب لقمة العيش الشريف، ورعاية أسرته وعائلته، وتحمل في كده وكدحه الأتعاب والمشاق، كما هو شأن الكثيرين من أبناء جيله.

حاليته الاجتماعية :

من حداثة سنه تحمل مسؤولية إعالة والدته، لأن والده الشيخ رضي رحمته الله كان يتنقل للإرشاد الديني في مناطق مختلفة، وكان وضعه المادي ضعيفاً، كما كانت له زوجة أخرى.

وإضافة إلى والدته فقد ترمّلت أخته فاطمة بوفاة زوجها وانضمت إلى رعايته.

ولاستقراره في القطيف من أجل العمل والكسب، فقد تزوج فيها بتاريخ ٢٠ / ١٢ / ١٣٦٥ هـ، واقترب بالوالدة الكريمة (زهراء بنت الملا محمد بن الشيخ عبد الله بن الشيخ عبد العزيز بن الشيخ حسين آل سيف)، والتي رافقته في رحلة كدحه وعناؤه، فاتخذت من بيتها متجراً تبيع فيه للنساء الأقمشة، وبعض المواد الغذائية، والاحتياجات المنزلية إضافة إلى تحملها أعباء المنزل، وتربية الأطفال. واستمرت على ذلك لفترة من الزمن. توفيت رحمها الله في دمشق بتاريخ ١٩ رمضان

١٤١٤هـ ودفنت بمقبرة السيدة زينب عليها السلام بعد صراع مع أمراض القلب لعدة سنوات. تغمدها الله تعالى برحمته وأسكنها فسيح جناته.

وقد رزقهما الله تعالى ثلاثة أولاد ذكور، وابتنتين:

١- عبد الكريم: ولد في ١١ رجب ١٣٦٨هـ.

٢- طيبة: ولدت في ٢ ذو الحجة ١٣٧٠هـ.

٣- حسن (كاتب هذه السطور): ولد ٢٢ ربيع الثاني ١٣٧٧هـ.

٤- ميمونة: ولدت في ١٠ صفر ١٣٧٨هـ.

٥- محمد: ولد في ١٦ ربيع الثاني ١٣٨٥هـ.

وبعد وفاة الوالدة (رحمها الله) تزوج من امرأة مقاربة له في السن هي الحاجة زينب بنت حسن البابا في ٢٩ صفر ١٤٢٠هـ.

شعره وأدبه:

نشأ محباً للعلم والأدب، بتربيته في أحضان والده الشيخ رضي، ثم بتلمذه على بعض العلماء والخطباء الأفاضل.

وكانت صحبتته لأهل العلم والأدب، وعلاقته المستمرة معهم، حافزاً على مواصلة اهتماماته المعرفية والأدبية، ومن طليعة أصدقائه الفضلاء: الشيخ علي الشيخ منصور المرهون، وأخوه الخطيب الملا سعيد المرهون، والشيخ سعيد أبو المكارم، والخطيب السيد هاشم السيد شرف الصفواني، والذي كان يجالسه يومياً -تقريباً- في دكانه بصفوى، فترة تجارته هناك، وبعد وفاته كان لولده الخطيب السيد عبدالله نفس البرنامج في المرور بدكان الوالد وقضاء فترة من الوقت معه لتبادل أطراف الأحاديث الدينية والأدبية، بشكل شبه يومي.

ومن اهتماماته الدائمة مطالعة الكتب، حيث يقتني كتب المعارف

الدينية والأدبية، ويصرف قسطاً من وقته في قراءتها.

وقد بدأ مشواره الأدبي في نظم الشعر من أيام شبابه في تاروت، حيث كان ينشد اللطميات في مواكب العزاء، وحينما انتقل إلى القطيف، مارس نفس الدور مع مواكب العزاء، أيام عاشوراء، وخاصة في منطقة سكنه (الدبائية).

وبعد ذلك صار ينظم القصائد الملحمية ذات النفس الطويل، باللغة الدارجة، كقصيدته في بطولة علي الأكبر عليه السلام وشهادته، و بطولة القاسم بن الحسن عليه السلام وشهادته، و بطولة مسلم بن عقيل عليه السلام وشهادته، حتى توجّها بملحمته الحسينية الشاملة التي بلغت مائتين وتسعة أبيات.

ولازلت أتذكر أيام طفولتي وأنا في حوالي الرابعة والخامسة من عمري، حيث كان يدور بي على سطح منزلنا الذي انتقلنا إليه من (الدبائية) في منطقة (الدوبج)، ليالي الصيف، ليلقني ويحفظني منظوماته في مراثي أهل البيت عليهم السلام.

وقدر سخت تلك القصائد في ذاكرتي من فترة الصغر، وحينما بدأت الخطابة الحسينية، كانت رصيذاً وزاداً لي عند ذكر المصيبة والعزاء، وكانت تلفت نظر المستمعين لطولها واستيعابها لتفاصيل وقائع السيرة، بحيث لا حاجة لسرد الأحداث ثرياً، ولأنها كانت مليئة بالصور الوجدانية والعاطفية المؤثرة، وكانت جديدة على الأسماع، تختلف عما يتداوله الخطباء من الفائزيات والنصاريات والجمرات.

وقد سألني العديد من الخطباء والأدباء، في المناطق المختلفة التي قرأت فيها، كالقطيف، والأحساء، والكويت، وخوزستان إيران، وسوريا، عن ناظم هذه الملاحم، وعن المصادر التي تحتويها، فأخبرهم أنها لوالدي الكريم، فيحثوني على طبعها ونشرها، وبعضهم طلب مني

نسخة من بعض مقطوعاتها.

واقترحت على الوالدح عدة مرات أن يجمعها ويهيئها للطبع، فكان يعتذر عن ذلك، بعدم مناسبة الظروف، وباشتغاله، وعند إلحاحي عليه كان يقول إنها لا تستحق النشر، وذلك لتواضعه.

ولاستمرار مطالبتي له وافق أخيراً على جمع ما لديه من القصائد والمنظومات، لإعدادها للطبع والنشر، مضيفاً إليها ما نظمته بالفصحى في بعض المناسبات الدينية والاجتماعية.

فتألف هذا الديوان (من فيض الولاء) والذي أقدمه بين يدي القراء الكرام، وخاصة إخواني الخطباء المهتمين بهذا اللون من الأدب الولائي، راجياً أن يجدوا فيه ما يفيدهم لإحياء مناسبات ذكريات أهل البيت عليهم السلام.

اسأل الله تعالى لأبي طول العمر، وكمال الصحة والعافية، وأن يتقبل الله منه هذا الجهد الولائي في خدمة العترة الطاهرة، وأن يجعله في ميزان أعماله وحسناته، وأن يحشره في زمرةهم، ويرزقه شفاعتهم.

كما أسأله تعالى أن يوفقني لبره وخدمته أداءً لحق أبوته كما رباني صغيراً، وأن ينفعني ببركة دعواته الصادقة الحانية.

والحمد لله رب العالمين.

حسن بن موسى الصفار

٢٠ رمضان ١٤٢٢هـ

صدر للمؤلف

١. الصوم مدرسة الإيمان

■ الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، دار التراث الإسلامي، بيروت - لبنان.

٢. ولكل أمة رسول

■ الطبعة الأولى، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، منشورات مكتبة الإمام الصادق، الكويت.

■ الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

٣. الرسول طريق إلى القمّة

■ الطبعة الأولى: ١٣٩٦هـ - ١٩٧٥م، منشورات مكتبة الرسول الأعظم العامة، مطرح - سلطنة عمان.

٤. الحسين ومسؤولية الثورة

■ الطبعة الأولى: ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م، مطابع دار السياسة، الكويت.

■ الطبعة الثانية: ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م، مطابع دار السياسة، الكويت.

- الطبعة الثالثة: ١٤٠٠هـ - ١٩٧٩م، أمريكا.
 - الطبعة الرابعة: ١٤٠١هـ - ١٩٨٠م، طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
 - الطبعة الخامسة: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، دار الحوراء، بيروت - لبنان.
 - الطبعة السادسة: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، دار البيان العربي، بيروت - لبنان.
٥. أئمة أهل البيت رسالة وجهاد
- الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.
 - الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
 - الطبعة الثالثة: ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، دار المحجة البيضاء، بيروت - لبنان.
٦. الإمام المهدي أمل الشعوب
- الطبعة الأولى: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، منشورات مكتبة الرسول الأعظم العامة، مطرح - سلطنة عمان.
 - الطبعة الثانية: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.
 - الطبعة الثالثة: ١٤٠١هـ - ١٩٨٢م، طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
 - تمت ترجمته إلى اللغة الفارسية، تحت عنوان (إمام مهدي اميد

ملّتها)، المترجم محمد علي مجيديان، نشر آفاق، طهران، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ.

٧. مسؤولية الشباب

■ الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، مؤسسة الأعلمي لمطبوعات، بيروت - لبنان.

■ الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

■ الطبعة الثالثة: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.

■ الطبعة الرابعة: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار البيان العربي، بيروت - لبنان.

٨. المرأة مسؤولة وموقف

■ الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

■ الطبعة الثانية: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار الزهراء، بيروت - لبنان.

٩. المرأة والثورة

■ الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

■ الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

١٠. مسؤولية المرأة

■ الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.

■ الطبعة الثانية: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار البيان العربي، بيروت - لبنان.

١١. الإمام الحسين رمز التضحية والفداء

■ الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، الكويت.

■ الطبعة الثانية: ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١٢. رؤى الحياة في نهج البلاغة

■ الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

■ الطبعة الثانية: ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان.

■ الطبعة الثالثة: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

■ الطبعة الرابعة: ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، دار الصفوة، بيروت - لبنان.

■ تمت ترجمته إلى اللغة الفارسية، تحت عنوان (تصوير زندكي در نهج البلاغه)، المترجم لطيف رشدي، انتشارات قدس، قم.

١٣. حياة الأئمة والتاريخ المزيّف

■ الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، طهران - الجمهورية الإسلامية

الإيرانية.

■ الطبعة الثانية: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.

١٤. رمضان برنامج رسالي

■ الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.

■ الطبعة الثانية: الكويت.

■ الطبعة الثالثة: طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

■ الطبعة الرابعة: ١٤١١هـ - ١٩٩١م، دار البيان العربي، بيروت - لبنان.

١٥. قراءة في فكر الإمام الخميني

■ الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، باريس - فرنسا.

١٦. أعلننا الولاء بالدم

■ الطبعة الأولى: ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م، طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

١٧. بصائر وهدى

■ الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

١٨. السجن أحب إليّ

■ الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، طهران - الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

١٩. الشعب يتحدّى السجون

■ الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، دار الجزيرة للنشر.

٢٠. الثورة والإرهاب

■ الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، دار الجزيرة للنشر.

٢١. كيف تتحدّى الطغاة

■ الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، دار الجزيرة للنشر.

٢٢. رمضان وقضايا الثورة

■ الطبعة الأولى: ١٤٠١هـ-١٩٨١م، طهران-الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

٢٣. النضال على جبهة الثقافة والفكر

■ الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، دار الجزيرة للنشر.

٢٤. فلنحطم الأغلال

■ الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، دار الجزيرة للنشر.

■ الطبعة الثانية: ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، دار البداية، القاهرة-مصر.

٢٥. الجماهير والثورة

■ الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ-١٩٨١م، دار الجزيرة للنشر.

٢٦. خطر السُّقوط

■ الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ-١٩٨١م، دار الجزيرة للنشر.

٢٧. النفس منطقة الخطر

- الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ - ١٩٨١م، دار الجزيرة للنشر.
- الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.
- الطبعة الثالثة: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، مركز الجواد للطباعة، الأحساء - المملكة العربية السعودية.

٢٨. القلب حرم الله

- الطبعة الأولى: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، دار الجزيرة للنشر.

٢٩. لكي لا نحتقر أنفسنا

- الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، دار الجزيرة للنشر.

٣٠. رمضان دعوة إلى ضيافة الله

- الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، دار الجزيرة للنشر.

٣١. فئات العمل الرسالي

- الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، دار الجزيرة للنشر.

٣٢. رسالة المجالس الحسينية

- الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م، دار الجزيرة للنشر.

٣٣. الأنانية وحب الذات

- الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م، دار الجزيرة للنشر.

٣٤. معرفة النفس

- الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، دار البيان العربي، بيروت - لبنان.

٣٥. التغيير الثقافي أولاً

- الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.

٣٦. كيف نقهر الخوف

- الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، مركز الشباب المسلم، أميركا.
- الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.
- تمت ترجمته إلى اللغة الفارسية، تحت عنوان (غلبه بر خوف).

٣٧. كيف نقاوم الإعلام المضاد

- الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، مؤسسة الشهيد للثقافة والإعلام.
- الطبعة الثانية: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.
- تمت ترجمته إلى اللغة الفارسية، تحت عنوان (روياري ويى تبليغاتي)، المترجم سعيد خاكرند، نشر بقيق، طهران.

٣٨. الثائر والسجن (دراسة في حياة الإمام الكاظم □)

- الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار البصائر.
- الطبعة الثانية: ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.

٣٩. يوم البقيع

- الطبعة الأولى: ١٤١١هـ - ١٩٩١م، مؤسسة البقيع لإحياء التراث، بيروت - لبنان.
- الطبعة الثانية: ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، الجمعية الجعفرية، استراليا.

٤٠. مختصر الطفل بين الوراثة والتربية

- الطبعة الأولى: ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان.
- الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م، مؤسسة البلاغ، بيروت - لبنان.

٤١. الشيخ علي البلادي القديحي

- الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، مؤسسة البقيع لإحياء التراث، بيروت - لبنان.

٤٢. التعددية والحرية في الإسلام: بحث حول حرية المعتقد وتعدد المذاهب

- الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، دار البيان العربي، بيروت - لبنان.
- الطبعة الثانية: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، دار الصفوة، بيروت - لبنان.
- تمت ترجمته إلى اللغة الفارسية، تحت عنوان (جندكونكى وآزادى در إسلام).

٤٣. المرأة العظيمة: قراءة في حياة السيدة زينب

- الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، دار البيان العربي، بيروت -

لبنان .

■ الطبعة الثانية: ٢٠٠٠م، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت - لبنان.

٤٤. الوطن والمواطنة: الحقوق والواجبات

■ الطبعة الأولى: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، دار الصفوة، بيروت - لبنان.

■ الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م، دار الصفوة، بيروت - لبنان.

٤٥. التنوع والتعايش

■ الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار الصفوة، بيروت - لبنان.

■ الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، دار الساقى، لندن - بريطانيا.

٤٦. التطلع للوحدة وواقع التجزئة في العالم الإسلامي

■ الطبعة الأولى: ١٩٩٨م، دار الكنوز الأدبية، بيروت - لبنان.

٤٧. علماء الدين قراءة في الأدوار والمهام

■ الطبعة الأولى: ١٩٩٩م، دار الجديد، بيروت - لبنان.

٤٨. الشيخ محمد أمين زين الدين: تجربة في الإصلاح دون حضور

الذات

■ الطبعة الأولى: ١٩٩٩م، دار الجديد، بيروت - لبنان.

٤٩. الكوارث ومسؤولية المجتمع: حديث في أربعين فاجعة القديح

الأليمة

■ الطبعة الأولى: ١٩٩٩م، مؤسسة البلاغ، بيروت - لبنان.

٥٠. العمل والفاعلية طريق التقدم

■ الطبعة الأولى: ٢٠٠٠م، دار الكنوز الأدبية، بيروت - لبنان.

٥١. شهر رمضان والانفتاح على الذات

■ الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ.

٥٢. أحاديث في الدين والثقافة والاجتماع (المجلد الأول)

■ الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ، مؤسسة البلاغ، بيروت - لبنان.

٥٣. أحاديث في الدين والثقافة والاجتماع (المجلد الثاني)

■ الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ، مؤسسة البلاغ، بيروت - لبنان.

٥٤. السلم الاجتماعي - مقوماته وحمايته

■ الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ، دار الساقى، بيروت - لبنان.

٥٥. التسامح وثقافة الاختلاف - رؤى في بناء المجتمع وتنمية العلاقات

■ الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ، دار المحجة البيضاء، دار الواحة،

بيروت - لبنان.

٥٦. الإمام المهدي وبشائر الأمل

■ الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ، دار المحجة البيضاء، دار الواحة،

بيروت - لبنان.

٥٧. الإمام الحسن ونهج البناء الاجتماعي

■ الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ، دار المحجة البيضاء، دار الواحة،

بيروت - لبنان.

■ الطبعة الثانية: ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، دار المحجة البيضاء، دار الواحة، بيروت - لبنان.

٥٨. كيف نقهر الوسواس

■ الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ، دار المحجة البيضاء، دار الواحة، بيروت - لبنان.

٥٩. شخصية المرأة بين رؤية الإسلام وواقع المسلمين

■ الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب.

٦٠. إحياء المناسبات الدينية بين الواقع والطموح

■ الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ، دار المحجة البيضاء، دار الواحة، بيروت - لبنان.

٦١. الإمام الشيرازي ملامح الشخصية وسمات الفكر

■ الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ، هيئة محمد الأمين ٢، بيروت - لبنان.

٦٢. رؤية حول السجال المذهبي

٦٣. أحاديث في الدين والثقافة والاجتماع (المجلد الثالث)

■ بين يدي القارئ.

المحتويات

٧	تقديم
١٣	أول الحديث
١٧	السلم الاجتماعي ضرورة للاستقرار والتنمية
٢١	الأمن والتقدم:
٢٤	الرؤية الإسلامية:
٢٥	السلم الداخلي:
٢٧	حقيقة السلم الصلح وترك الحرب.
٢٩	مقومات السلم الاجتماعي.
٣١	السلطة والنظام:
٣٥	العدل والمساواة:
٣٧	ضمان الحقوق والمصالح المشروعة لفئات المجتمع:
٤٣	الإمام الرضا واستثمار الانفتاح.
٤٧	الدافع السياسي:
٤٩	اهتزاز حكم المأمون:
٥٠	ولاية العهد لتعزيز الحكم:
٥٣	برنامج الإمام الرضا:
٥٧	الدرس والعبرة:
٥٩	ثقافة السلم الاجتماعي وأخلاقه

٦١..... أنموذجان متقابلان:

٦٢..... سنغافورة:

٦٤..... رواندا:

٦٦..... الحصانة والوقاية.....

٦٦..... نشر ثقافة السلم:

٦٩..... التربية الأخلاقية:

٦٩..... إصلاح ذات البين:

٧٣ المرأة والمعرفة الدينية

٧٦..... إضافة كمية ونوعية:

٧٧..... صراع بين الحضارات:

٧٨..... المرأة والتنافس العلمي:

٨٠..... العلم فريضة على المرأة:

٨١..... المرأة والعلوم الدينية:

٨٣..... مصدر للسنة النبوية:

٨٧ المرأة والدور القيادي

٩٠..... المرأة والمرجعية:

٩٢..... المرأة والاصطفاء الإلهي:

٩٥..... نبوة المرأة:

٩٧..... فاطمة الزهراء ﷺ وأمهاة المؤمنين:

١٠١ معاناة الرسول ﷺ في تبليغ الرسالة

١٠٤..... الراحة والرخاء قبل البعثة:

١٠٥..... معاناة التبليغ:

١٠٦..... صور من المعاناة:

١١١..... الأسوة والقدوة:

١١٥	المرأة حين تفوق الرجال
١١٨	التمايز والتفاضل:
١٢٠	فرص التقدم أمام المرأة:
١٢٢	الأنوثة لا تمنع التفوق:
١٢٤	نماذج رائدة في التفوق:
١٣٠	رقم قياسي في التأليف:
١٣٣	الزواج بين التعاليم والتقاليد
١٣٧	بين مسؤولية الفرد والمجتمع:
١٣٨	الإعفاف:
١٣٩	دور الحقوق الشرعية:
١٤٠	الصندوق الخيري للزواج:
١٤١	أحاديث عن التزويج:
١٤٢	مراسيم الزواج:
١٤٥	المشاكل بين الأهات والمعالجات
١٤٩	المشكلة ليست قدراً:
١٥١	التأوه والتألم:
١٥٢	قصة معبرة:
١٥٤	الفاعلية واجترار الغبن:
١٥٥	المبادرة للعمل:
١٥٦	طريق المعالجة:
١٥٩	كيف تقهر الوسواس
١٦٢	طبيعة الوسواس:
١٦٤	الوسواس في المجال الديني:
١٦٤	الوسواس الفكري:

- ١٦٦..... الوسواس في الطهارة:
- ١٦٩..... الوسوسة في الصلاة:
- ١٧٢..... كثرة الشك والسهو:
- ١٧٣..... برنامج منع الاستجابة:
- ١٧٥..... العلاج المعرفي:
- ١٧٧..... ثقافة الوقاية:
- ١٧٨..... الحلّ بيد المريض:
- ١٨١..... الوقاية من الوسواس**
- ١٨٤..... حكم الاستجابة للوسواس:
- ١٨٧..... الوسواس ومقاصد الشريعة:
- ١٨٩..... لماذا الوسوسة في العبادات فقط؟
- ١٩٠..... التكلّف والتزمت أرضية الوسوسة:
- ١٩٣..... الإرادة تقهر الوسواس:
- ١٩٥..... المجتمع وعلماء الدين**
- ١٩٨..... الدور المتوقع:
- ١٩٩..... واجب المجتمع:
- ٢٠٠..... المبادرة من العالم:
- ٢٠١..... التجاوب من المجتمع:
- ٢٠٣..... تقدير الكفاءة:
- ٢٠٤..... الشيخ الشيب: كفاءة و عطاء:
- ٢٠٧..... مكانة أهل البيت ﷺ**
- ٢٠٩..... البعد الامتدادي:
- ٢١٢..... النصوص الشرعية:
- ٢١٥..... من السنة النبوية:

٢١٦.....	التفوق العلمي:
٢١٨.....	مكارم الاخلاق:
٢١٨.....	المظلومية والمعاناة:
٢٢١.....	التقريب بين أتباع المذاهب
٢٢٤.....	التقريب بين المذاهب أو الإتياع:
٢٢٧.....	مسؤولية الخطاب الديني:
٢٢٨.....	دعوة التقريب وكيف تنجح؟
٢٣١.....	التعليم ومسؤولية العائلة
٢٣٤.....	موقعية التعليم:
٢٣٤.....	بين المدرسة والعائلة:
٢٣٥.....	مسؤولية عائلية أولاً:
٢٣٦.....	التشجيع والمتابعة:
٢٣٨.....	الأجواء المساعدة:
٢٣٨.....	بين العائلة والمدرسة:
٢٤٣.....	المرأة إذ تطالب بحقوقها ١
٢٤٦.....	تربية الإسلام:
٢٤٧.....	استضعاف المرأة:
٢٤٨.....	في ظل الإسلام:
٢٤٩.....	المرأة المعاصرة:
٢٥١.....	في المجتمعات الإسلامية:
٢٥٥.....	المرأة إذ تطالب بحقوقها ٢
٢٥٨.....	تفعيل برامج الإسلام:
٢٦٠.....	المجادلة: مطالبة بتشريع:
٢٦٣.....	يطالبن بحقهن في التعلم:

- ٢٦٤ الحق في اختيار الزوج:
- ٢٦٤ تدافع عن حقوقها الاقتصادية:
- ٢٦٥ حق الانفصال عن الزوج:
- ٢٦٩ علي والتربية النبوية**
- ٢٧٢ النبي موسى يطلب وزيراً:
- ٢٧٣ علي بمنزلة هارون:
- ٢٧٥ حديث المنزلة:
- ٢٧٨ التربية والإعداد:
- ٢٨١ الأمة الإسلامية ومواجهة الإرهاب**
- ٢٨٤ التحشيد والقوة:
- ٢٨٥ المسلمون تحت الضغط:
- ٢٨٦ الموقف من الإرهاب:
- ٢٨٩ التطرف باسم الإسلام:
- ٢٨٩ مواجهة الإرهاب عالمياً:
- ٢٩١ الكاظم خلق ومنهجية**
- ٢٩٤ الكاظم:
- ٢٩٥ كظم الغيظ:
- ٢٩٧ الكاظم في أخلاقه:
- ٢٩٩ الكاظم في منهجيته:
- ٣٠٠ خط أهل البيت: تقدم ونمو:
- ٣٠٢ اشتداد الضغوط على الإمام:
- ٣٠٣ الدرس والعبرة:
- ٣٠٥ الأمومة ووظيفة أرقى**
- ٣٠٨ الإشباع العاطفي:

- ٣١١ البناء الثقافي والمعرفي:
- ٣١٢ التوجيه السلوكي:
- ٣١٣ أمهات العظماء:
- ٣١٤ أين دور الأب؟:
- ٣١٥ الوظيفة الأرقى:
- ٣١٧ التربية الصالحة:
- ٣١٩ عولمة الجور وانتظار العدل**
- ٣٢٢ الجوع والفقر:
- ٣٢٤ مأساة الشعب الأفغاني:
- ٣٢٥ في انتظار العدل:
- ٣٢٦ معطيات الإيمان بالمهدي:
- ٣٣٣ المرأة وقوة الشخصية**
- ٣٣٥ معنى قوة الشخصية:
- ٣٣٨ شخصية المرأة:
- ٣٣٩ مواجهة التحديات:
- ٣٤١ من أجل تربية سليمة:
- ٣٤١ أمام الإغواء والإغراء:
- ٣٤٢ النجاح في العلاقات:
- ٣٤٥ بين الحياء وقوة الشخصية**
- ٣٤٨ معنى الحياء:
- ٣٥١ غلو وتشدّد:
- ٣٥٥ مصادر قوة الشخصية:
- ٣٥٧ احترام المرأة:
- ٣٥٩ الإمام الشيرازي.. الانطلاقة والفكر**

- العائلة: ٣٦١
- هيمنة الاستعمار: ٣٦٢
- واقع الأمة: ٣٦٣
- عقبات العمل: ٣٦٣
- الحالة الدينية: ٣٦٤
- جهاد و عطاء حتى الساعات الأخيرة: ٣٦٥
- مجالات متنوعة للعطاء: ٣٦٦
- مرحلة جديدة: ٣٦٧
- سمات فكره: ٣٦٧
- الإمام الشيرازي.. قراءة في الشخصية** ٣٧٥
- الإمام الشيرازي علمه وجهاده: ٣٧٨
- الشخصية القيادية: ٣٨٠
- الزهد توجه للهدف: ٣٨٠
- الطموح و علو الهمة: ٣٨٣
- شجاعة الرأي والموقف: ٣٨٦
- تقدير الكفاءة والإبداع** ٣٨٩
- احترام الذات: ٣٩٢
- أمراض التخلف: ٣٩٢
- التقدير والتطوير: ٣٩٤
- الطموح للتفوق: ٣٩٥
- احترام الكفاءة لذاتها: ٣٩٦
- الحالة الدينية ومرض الغرور** ٤٠١
- ألوان الغرور: ٤٠٣
- الغرور الديني: ٤٠٤

- الأحقية دون نقاش: ٤٠٦
- التعالى على الآخرين: ٤٠٧
- الانتماء الرسمى: ٤٠٨
- القرآن يفصح الغرور الدينى: ٤٠٩
- الإثمة يحاربون الغرور الدينى: ٤١١
- تحقيق الأفضلية: ٤١٣
- سيرة الأثمة ومناهج العرض ٤١٥**
- مناهج العرض: ٤١٨
- العرض التاريخى: ٤١٩
- المنهج العاطفى: ٤٢٠
- الحذر من الوضع والاختلاق: ٤٢٢
- جانب المأساة والمعاناة: ٤٢٣
- الطرح العلمى الحضارى: ٤٢٣
- أفضل وثيقة سياسية: ٤٢٤
- منهجية العلماء الغربىين: ٤٢٥
- مسؤوليتنا تجاه معارف الأثمة: ٤٢٦
- اختيار المنهج: ٤٢٧
- مقالات ٤٢٩**
- حوار جريدة المدينة ٤٣٣
- احترام الذات: ٤٣٤
- حقوق الإنسان فى العالم الإسلامى: ٤٣٦
- نحاور الغرب أم أنفسنا؟ ٤٣٦
- السعوديون شعب مسلم عربى واحد: ٤٣٧
- لا يمكن تجاهل الاختلاف: ٤٣٩

- ٤٤٠ أمريكا وابن لادن:
 ٤٤٠ حملة مشبوهة:
 ٤٤١ العلم في القطيف:
 ٤٤٢ تطوير المناهج التعليمية:
 ٤٤٧ حوار مجلة المواقف البحرينية
 ٤٤٧ التطورات السياسية في البحرين:
 ٤٤٨ التنوع المذهبي والوحدة الوطنية:
 ٤٥١ قضية التعايش والحوار:
 ٤٥٣ مبادرات لاختراق الحواجز:
 ٤٥٥ العلاقات الداخلية:
 ٤٥٥ كلمة لشعب البحرين:
 ٤٥٩ حوار صحيفة الوطن السعودية
 ٤٥٩ أوضاع العالم الإسلامي:
 ٤٦٠ هذه المحنة ذات بعدين:
 ٤٦١ استثمار الشهر الكريم:
 ٤٦٣ تطورات أفغانستان:
 ٤٦٧ تقرير صحفي عن ندوة السلم الاجتماعي ومقوماته
٤٧٣ كتابات
 ٤٧٥ تقديم كتاب الآجام: بين الأمس واليوم
 ٤٧٨ تقديم كتاب من ألحان الزهور
 ٤٨١ تقديم كتاب من فيض الولاء
 ٤٨٤ شخصية الناظم:
 ٤٨٤ ولادته:
 ٤٨٤ والدته:

٤٨٥	والده:
٤٨٧	تعليمه:
٤٨٨	عمله ومهنته:
٤٨٩	حالته الاجتماعية:
٤٩٠	شعره وأدبه:
٤٩٣	صدر للمؤلف
٥٠٥	المحتويات

